مُنْيَةُ الطَّالبين

في

تفسيرِ القرآنِ المبينِ

تفسير علمي أدبي يحتوي على أبحاث كلامية وعقائدية وتأريخية وروائية

المجلد السابع عشر

الفقيه المحقق

الشيخ جعفر السبحاني

دار جواد الأئمة

الفهرست

١٧منية الطالبين في تفسير القرآن المبين الجزء السابع عشر

الجزء السابع عشر ويشتمل على تفسير السور التالية: الكهف، مريم، طه

تفسير علمي، أدبي، يحتوي على أبحاث كلامية وعقائدية وتاريخية وروائية

تأليف الفقيه المحقّق جعفر السبحاني

نشر مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ قُرْآن مُبِين) الحجر: ١.

١. بدأنا هذا الجزء بسورة الكهف مع أنّ الجزء السادس عشر يبتدأ بالآية الخامسة والسبعين منها، وذلك لأنّا آثرنا أن يكون كلّ جزء من تفسيرنا هذا مبدوءاً بسورة كاملة.

سورة الكهف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ
كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا
عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ
وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا
عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ
فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ
قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ
اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ
إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ
الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ
ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ
لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا
فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا
أَبَدًا (٢٠) وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ
بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ
سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا
وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ

يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا
مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ
عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ
فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ
بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ
الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١) وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا
(٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ
مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي
لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا
هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩)
فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ
تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي
أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤)
وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
مُقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى
الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ
نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا
كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ
مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠) مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ
يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي
هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا
أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ
لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا
عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ
بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ
مَوْعِدًا (٥٩) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ
سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ
فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا

قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا
عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا
وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ
خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ
وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤)
قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦)
فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ
عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي
الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا
وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ
لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ
تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢) وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ
تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ
وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى
قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ
دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى
أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى
إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ
نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ
فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا
يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢) قُلْ هَلْ
نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا
(١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) قُلْ لَوْ كَانَ
الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا
إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت هذه السورة في المصاحف بسورة «الكهف»، وروي أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) سمّاها بهذا الاسم، فعن أبي الدّرداء:

أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «مَن حفظ عشرَ آيات من أوّل سورة الكهف عُصم من فتنة الدجّال». سنن أبي داود: ٨٠٤ ، رقم الرواية٤٣٢٣؛ صحيح مسلم:٣٦٩ رقم الرواية١٧٦٧. ورواها الترمذي بهذه الصيغة: «مَن قرأ ثلاث آيات من أوّل الكهف، عُصم من فتنة الدّجّال»، وقال: هذا حديث حسن صحيح. سنن الترمذي: ٨١٩ ، رقم الرواية٢٨٩٥.

إنّ تسمية السورة باسم «الكهف» يدلّ على أنّ آيات السورة كانت مجموعة في عصر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو على خلاف قولهم من أنّ القرآن جُمعت آياته وكذلك سوره في عهد أبي بكر.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آيات السورة مئة وعشر في عدّ الكوفي، ومئة وإحدى عشرة في عدّ البصري، ومئة وستّ في عدّ الشامي، ومئة وخمس في عدّ الحجازي، بناءً على اختلافهم في تقسيم بعض الآيات إلى آيتين. لاحظ : مجمع البيان: ٦ / ٣٥١، وقد ذكر مواضع الاختلاف.

والسورة مكيّة، تدلّ على ذلك مضامين آياتها. وروي عن ابن عباس أنّه استثنى قوله تعالى: (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، الكهف:٢٨.وسيوافيك أنّها أيضاً مكيّة.

أغراض السورة

الموضوع المهم في هذه السورة ذكر القصص الثلاث:

١. قصة أصحاب الكهف التي روي أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) سُئل عنها.

٢. قصة موسى مع العبد الصالح الذي يُسمّى في الروايات بالخضر.

٣. قصة ذي القرنين، وهي أيضاً ممّا سُئل عنها النبي(صلى الله عليه وآله وسلم).

فإنّ لهذه القصص الثلاث دوراً كبيراً في تقرير أغراض السورة، ومن أهمّها:

١. التركيز على عقيدة التوحيد، والإيمان بطلاقة القدرة الإلهية التي من مظاهرها إمكان المعاد والرجوع إلى الله تعالى، وهذا ما توحي به قصة أصحاب الكهف.

٢. أنّ وراء ما يقع للخلق من تقادير وما يجري من أحداث، قوة غيبية مقتدرة لا تنفكّ عنها الرحمة، وهذا ما تقرّره قصة النبيّ موسى(عليه السلام) مع العبد الصالح.

٣. أنّ مسؤولية الإنسان الصالح الذي ييسّر له سبحانه أسباب القدرة والثروة والمُلك، هي أن يستثمر تلك القوى في مجالات الخير والإحسان والمعونة، ولا يتّخذها أدوات للبطش والظلم والفساد، وأن يقيم ملكه على الحقّ والعدل، وهذا ما يستفاد من قصة ذي القرنين.

ثمّ إنّه سبحانه بدأ هذه السورة بالحمد، كما ختم السورة السابقة (أعني سورة الإسراء) بالحمد، وهذا يدلّ على أنّ بين السورتين صلة خاصّة.

الآيات: الثمان الأُولى(الْحَمْدُ للهِ الذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ... مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا).

(الْحَمْدُ للهِ الذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْم وَلاَ لاِبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا * فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا).

المفردات

عِوَجاً: العوج (بكسر العين وفتحها): الانحراف والميل عن الاستقامة. قيل: وهي بالفتح تستعمل فيما يُرى من الأجسام كالقناة والخشبة، وبالكسر فيما لا يُرى كالدين والكلام. مجمع البيان:٦/٣٥٦، تفسير الكشاف:٢/٢٥٠.

والظاهر أنّه لا فرق بينهما، فالمكسور يستعمل أيضاً فيما يُرى من المحسوسات كقوله سبحانه في أحوال القيامة:(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا). طه: ١٠٥ـ ١٠٧.

قيّماً: قال الراغب: قوله: (دِينًا قِيَّمًا) الأنعام:١٦١.: أي ثابتاً مقوّماً لأُمور معاشهم ومعادهم. وقيل غير ذلك كما سيأتي في التفسير.

بأساً: البأس: العذاب الشديد.

من لَدُنه: من عنده.

كَبُرت: عَظُمت.

باخعٌ: قاتلٌ، مُهلكٌ، يقال: بَخَع نفسَه: يبخَعُها بخْعاً وبُخُوعاً.

آثارهم: آثار: جمع أثر، وهو ما يبقيه الماشي أو الراكب في الرمل أو الأرض، ويطلق على ما يبقيه أهل الدار إذا تركوها. وسيوافيك أنّه كناية عن التولّي والإعراض.

أَسَفاً: الأَسَف: المبالغة في الحزن والغضب، يقال: أسف الرجل فهو آسف.

صعيداً: تراباً.

جُرُزاً: الجُرُز: الذي لا نبات فيه.

التفسير

١. (الْحَمْدُ للهِ الذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا):

بدأ سبحانه هذه السورة بالحمدلة، وقال: (الْحَمْدُ للهِ)وليست هذه السورة وحيدة بالابتداء بها، فقد افتتحت بها سور أربع، قال سبحانه: (الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) الحمد:١.، وقال سبحانه: (الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ) الأنعام:١.، وقال سبحانه: (الْحَمْدُ للهِ الذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ) سبأ:١.، وقال سبحانه: (الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) فاطر:١. .

والحمد هو الثناء على الجميل الاختياري، وأمّا ما هو الجميل في المقام، فالظاهر أنّه عبارة عن الكتاب الذي أنزله على عبده كما قال: (الذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ) عبّر عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بالعبد لأنّ العبودية المطلقة التي لا ينالها إلاّ الأنبياء والأولياء، خيرُ فخر وشرف لهم، يقول الإمام علي(عليه السلام):«إلهي كفى لي عزّاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً، أنت كما أُحبّ، فاجعلني كما تحبّ». الخصال للصدوق:٤٢٠، باب التسعة، برقم ١٤.

ثمّ إنّه سبحانه وصف الكتاب الذي أنزله على عبده محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)بوصفين:

١. (وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا) الضمير في (لَهُ) يرجع إلى الكتاب، والجملة حال منه، والعوج ـ كما مرّ ـ هو الميل والانحراف عن الاستقامة، والقرآن كلّه مبرّأٌ من أيّ عوج يَرِدُ في ذهن المخاطب. يقول السيد الطباطبائي في توضيح ذلك: وقوع (عِوَجاً) وهو نكرة في سياق النفي يفيد العموم، فالقرآن مستقيم في جميع جهاته، فصيح في لفظه، بليغ في معناه، مصيب في هدايته، حيّ في حججه وبراهينه، ناصح في أمره ونهيه، صادق فيما يقصّه من قصصه وأخباره، فاصل فيما يقضي به، محفوظ من مخالطة الشياطين، لا اختلاف فيه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. الميزان في تفسير القرآن: ١٣ / ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

٢. (قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا):

قوله:(قَيِّمًا) حال أُخرى من الضمير في (لَهُ) الذي يرجع إلى الكتاب، وكونه (قَيِّمًا) هو الوصف الثاني للكتاب، وأمّا معناه، فقد فسّر

بوجوه مختلفة:

أ. معتدلاً مستوياً لا تناقض فيه. عن ابن عباس.

ب. أنّه قيّم على سائر الكتب، يحفظها وينفي الباطل عنها، وهو ناسخ لشرائعها. عن الفرّاء.

ج. أنّه دائم يدوم ويثبت إلى يوم القيامة لا يُنسخ. عن الأصمّ.

د.أنّه قيّم لأُمور الدين، يلزم الرجوع إليه فيها، كقيّم الدار يرجع إليه في أمرها. عن أبي مسلم. انظر: مجمع البيان:٦/٣٥٥.

والظاهر هو القول الأخير لكن بأدنى تصرّف، والمراد: القيّم بأُمور الأُمّة، فترجع إليه الأُمّة في العقائد والأحكام، بل هو القيّم على مصالح العالم الإنساني في دنياهم وأُخراهم، نظير ما يقال: قيّم الصغير. وهنا كلمة للراغب تؤيّد ذلك، قال: (دِينًا قِيَمًا): أي ثابتاً مقوّماً لأُمور معاشهم ومعادهم. ويدلّ على ذلك أنّه سبحانه تارة يصف الكتاب بهذا الوصف كما مرّ، وأُخرى يصف الدّين به، وقد جمع سبحانه في سورة البيّنة بين الأمرين، حيث قال: (رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) البيّنة: ٢ و٣.. ثمّ قال: (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلوَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) البيّنة:٥. وبذلك يظهر الفرق بين القيّوم والقيّم، فالله سبحانه هو القيّوم أي القائم بنفسه، وأمّا القيّم فهو القائم بأُمور الغير.

قال الشريف الرضيّ(رحمه الله) حول الآية الأُولى والثانية: وهذه استعارة لأنّ حقيقة العوج أن يكون فيما يصحّ عليه أن ينتصب ويميل ويضطرب ويستقيم، وهذه من صفات الأجسام لا من صفات الكلام، فنقول: إنّما وصف القرآن ـ والله أعلم ـ بأنّه قيّم لا عوج فيه، ذهاباً إلى نفي الاختلاف عن معانيه، والتناقض في أوضاعه ومبانيه، وأنّه غير ناكب عن المنهاج، ولا مستمرّ على الاعوجاج. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٠٤.

ثمّ إنّه سبحانه يعلّل إنزال الكتاب بأُمور ثلاثة، أشار في هذه الآية إلى أمرين منهما، وذكر الثالث في الآية الرابعة. أمّا المقام فأشار إلى الأمر الأوّل بقوله: (لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ): أي لينذر العبدُ الذي أنزل عليه الكتاب (أو الكتاب المجيد نفسه) الكافرين، ينذرهم عذاباً شديداً ونكالاً وسطوة من عند الله إن لم يؤمنوا به، وقوله: (مِنْ لَدُنْهُ): أي من عنده. وهل المراد العذاب الدنيوي أو العذاب الأُخروي؟ فوصف البأس بالشدّة يؤيّد المعنى الثاني خصوصاً بتقييد العذاب بقوله:(مِنْ لَدُنْهُ)، وتفسيره بالقتل والدّمار الذي سيلحق مشركي مكّة، بعيد عن ظاهر الآية.

وأمّا الأمر الثاني، فقوله: (وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ)يبشّرهم بـ(أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا)وهذه الفقرة من الآية تدلّ على أنّ الأجر الأُخرويّ إنّما للإيمان المقترن بالعمل الصالح دون المجرّد عنه، وأُريد من الأجر الجنّة، بشهادة ما في الآية التالية:

٣. (مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا):

أي مقيمين فيه خالدين لا ينتقلون عنه ولا ينقلبون. والضمير في (فِيهِ) يرجع إلى الأجر الذي أُريد به الجنّة ونعيمها.

وقد جرت سنّة الله تعالى على أنّه كلّما ذكرَ الإنذار لطائفة، أتبعه بذكر التبشير لطائفة أُخرى.

والآية تشير إلى خلود المؤمنين في الجنّة.

ثمّ إنّه سبحانه لم يذكر المنذَرين في الآية الثانية فقال: (لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا) لكنّه صرّح به في الآية التالية:

٤. (وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا):

هل المنذَرون في هذه الآية الذين عبّر عنهم بالموصول دون أن يُسمّيهم وقال: (وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا) هم المنذَرون أنفسهم في الآية المتقدّمة أو غيرهم؟ وجهان. وعلى كلّ تقدير فالموصول وصلته يشمل عامّة الوثنيّين واليهود والنصارى. أمّا الوثنيّون، فأخبر عنهم سبحانه بقوله: (وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَات بِغَيْرِ عِلْم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) الأنعام:١٠٠ـ ١٠١، وأمّا اليهود فهم الذين قالوا: (عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ) التوبة:٣٠، وأمّا النصارى، فقالوا بالتثليث، ويراد به الاعتقاد بوجود ثلاثة أقانيم (أي شخوص)، وملخّصه: أنّ الربّ في الجوهر واحد، ولكنّه ذو أقانيم ثلاثة: الأب، الابن، روح القدس، قال سبحانه منددّاً بهم: (وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا) النساء:١٧١، وقال أيضاً: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَة) المائدة:٧٣..

٥. (مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْم وَلاَ لاِبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا):

الآية تتضمّن أُموراً:

أ. أنّ هؤلاء الذين قالوا بأنّ الله اتّخذ ولداً يقولون بذلك والحال أنّه (مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْم) كما (وَلاَ لاِبَائِهِمْ): أي ولا لأسلافهم الذين قلّدوهم في هذه المقولة الشنعاء، فالتابعون والمتبوعون غارقون في الجهل، بعيدون عن العقل والمنطق.

ب. (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ)، لفظة(كَبُرَتْ) تستعمل في الإخبار عن كبر الجسم، وربّما تستعمل في ضخامة الوصف، وأمّا المقام فقد استعملت للتعبير عن كبر شناعة تلك المقولة وفظاعتها، كما قال: (كَبُرَتْ كَلِمَةً) أُريد بها الكلام (تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) ولعلّه إشارة إلى أنّهم يتقوّلون بها في لسانهم من دون تصديق، بل (إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا)وهو تأكيد لقوله: (تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) حيث يقولون ما ليس له تحقّق وواقعيّة في الخارج.

وعن هذه الآية قال الشريف الرضيّ(رحمه الله): ووصف الكلمة هاهنا بالكِبَر استعارة، والمراد: أنّ معناها فظيع وفحواها عظيم، وتقدير الكلام (كبرت الكلمة كلمة)، وللنصب هاهنا وجهان:أحدهما أن يكون على تفسير المضمر مثل قولهم: نعم رجلاً زيدٌ، وبئس صاحباً عمرو، والوجه الآخر أن يكون على التمييز في الفعل المنقول، نحو: ساءت مرتفَقاً، وتصبّب عرَقاً. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٠٤.

٦. (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا):

كان النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) يدأب في إرشاد الناس وهدايتهم ليلاً ونهاراً، ومن دون توان، ويتحمّل في ذلك أشدّ المصاعب. وكان(صلى الله عليه وآله وسلم) لسموّ روحه وسموّ مشاعره ورقّتها يستشعر الحزن والألم المُمِضّ من أجل إعراض من أعرض عن الكتاب المجيد ولم يستجب لدعوته إلى الهدى والإيمان، وذلك لعمق إحساسه بالمسؤولية الملقاة على عاتقه، واجتهاده في تبليغ الرسالة الّتي كُلِّف بأدائها. هذا من جهة، ومن جهة أُخرى لحرصه الشديد على هداية الناس وإشفاقه عليهم من سوء العواقب، فأراد سبحانه أن يسلّي نبيّه الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) ويخفّف عنه ما أصابه من غمّ يكاد أن يأتي عليه، فقال بأُسلوب الترجّي وإن كان المراد النهي (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ): أي مهلكٌ نفسك (عَلَى آثَارِهِمْ)، كناية عن تولّيهم عن قولك(إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ): أي القرآن (أَسَفًا) قوله:(أَسَفًا)مفعول له لقوله:(بَاخِعٌ نَفْسَكَ): أي مهلك نفسك لأجل شدّة الحزن والغمّ.

ثمّ إنّ لصاحب الكشّاف بياناً حول استخدام كلمة آثارهم، قال: شبّهه وإيّاهم حين تولّوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الوَجْد والأسف على تولّيهم برجل فارقه أحبّته وأعزّته فهو يتساقط حسرات على آثارهم، ويبخع نفسه وجداً عليهم وتلهُّفاً على فراقهم. تفسير الكشاف:٢/٢٥٠ـ ٢٥١.

ثمّ إنّ إطلاق (باخِعٌ) على المهلك نوع علاقة يذكرها الزمخشري، قال: البخع أن يبلغ في الذَّبح البخاع وهو عِرق مستبطن الفقار، وذلك أقصى حدّ الذّابح. تفسير الكشاف:٣/١٠٧، تفسير سورة الشعراء.

أقول: ونحو هذا الحرص على هداية الناس والإشفاق عليهم، نجده عند أخيه ووصيّه الإمام علي، قال(عليه السلام) في كتاب له إلى أبي موسى الأشعريّ:

«وَلَيْسَ رَجُلٌ ـ فَاعْلَمْ ـ أَحْرَصَ عَلَى جَمَاعَةِ أُمَّةِ مُحَمَّد (صلى الله عليه وآله وسلم) وَأُلْفَتِهَا مِنِّي، أَبْتَغِي بِذلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ، وَكَرَمَ الْمَآبِ. وَسَأَفِي بِالَّذِي وَأَيْتُ عَلَى نَفْسِي». نهج البلاغة، قسم الرسائل، رقم ٧٨ (وأيتُ على نفسي: وعدتُ وأخذت على نفسي).

ومن كلام له(عليه السلام)، وقد استبطأ أصحابُه إذنَه لهم في القتال بصفّين:

«فَوَ اللهِ مَا دَفَعْتُ الْحَرْبَ يَوْماً إِلاَّ وَأَنَا أَطْمَعُ أَنْ تَلْحَقَ بِي طَائِفَةٌ فَتَهْتَدِيَ بِي، وَتَعْشُوَ إِلَى ضَوْئِي، وَذلِكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَهَا عَلَى ضَلاَلِهَا، وَإِنْ كَانَتْ تَبُوءُ بِآثَامِهَا». نهج البلاغة: الخطبة ٥٥.

٧ و ٨ . (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا):

يقع الكلام تارة في مفاد الآيتين، وأُخرى في صلتهما بما قبلهما.

أمّا الأوّل، فالآية الأُولى ناظرة إلى أنّه سبحانه أنعم على الإنسان بنعم كثيرة عبّر عنها بقوله:(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) آل عمران: ١٤.. وقال سبحانه: (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ).(النحل: ٨).

ثمّ إنّ التعبير عن هذه النّعم الموجودة بالزينة كأنّه كناية عن أنّ واقع الحياة الدنيا هو غير مرغوب فيه، ولكن رغب الناس فيها لوجود هذه الأُمور التي تعتبر زينة لها، ولذلك قال: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا)وسيلة للرغبة والميل إليها، ولكن الغاية ليس الانكباب على الزينة بل الاختبار والامتحان، كما يقول: (لِنَبْلُوَهُمْ): أي الناس (أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)من حيث العقيدة والعمل الصالح، وقال:(أَحْسَنُ عَمَلاً)ولم يقل: أكثر عملاً، وذلك لأنّ الميزان هو الكيفية لا الكمية الفاقدة للروح، فمن استمع إنذار المنذِرين واقتفى آثارهم فهو أحسن عملاً، بخلاف مَن أدبر عنهم.

نعم إنّ هذه النعم التي زَيّنت الحياة الدنيا وأوجدت الرغبة فيها، ليست أمراً باقياً دائماً ؛ بل لها أجل مسمّى، فإذا جاء أجلهم لا تجد أثراً ممّا زُيّنت به الحياة الدنيوية، بل ستجد ما على الأرض كما يقول: (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا): أي ما على الأرض زينة (صَعِيدًا جُرُزًا): أي تراباً أملس لا نبات فيه، فكأنّ ما كان يبهر العقول ويجذب القلوب من الأموال والنّعم يتبدّل إلى أرض جرز، فلا يُرى أثر منها.

إلى هنا تمّ تفسير الآيتين، وأمّا صلتهما بما قبلهما فيمكن أن يقال: إنّ الذين تولّوا عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) هم الذين اغترّوا بالحياة الدنيا وزينتها وتهالكوا عليها بزعم دوامها وبقائها وأنّها الغاية العليا، فجاءت الآية ردّاً على زعمهم بأنّ ما ألهاهم عن ذكر الله زينة مؤقتة اختُبروا بها وأنّها إذا جاء أمر الله تصبح صعيداً جرزاً. وعلى هذا ففي الآية تسلية للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّ الله أمهلهم وأعطاهم للاختبار، لا لكونهم محبوبين عند الله تعالى.

وعن الآية الثانية قال الشريف الرضي(رحمه الله): وهذه استعارة لأنّ المراد بالجرز هاهنا الأرض التي لا نبات فيها، وذلك مأخوذ من قولهم: ناقة جَروز، إذا كانت كثيرة الأكل لا يكاد لَحياها يسكنان من قضم الأعلاف ونشط الأعشاب، ومن ذلك قولهم: سيفٌ جُراز، إذا كان يبري المفاصل أو يقطُّ الضرائب، وقال محمد بن يزيد المبرّد: السيف الجُراز الذي لا يُبقي من الضريبة شيئاً. والأصل في هذه اللفظة أن تكون بمعنى الاستئصال. قال: ومن أمثالهم: لا ترضى شانئة إلاّ بجُرزة، أي لا يُرضي المُبغضة فيمن أبغضته إلاّ بالاستئصال، وإنّما سمّيت تلك الأرض جرزاً إذ كانت كأنّها تأكل نبتها فلا تدع منه نابعة، ولا تترك طالعة، ونظير ذلك قولهم: أرض جدّاء، وهي التي لا ماء فيها تشبيهاً بالناقة الجدّاء التي لا لبن لها. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٠٥.

الآيات: التاسعة إلى السادسة عشرة(أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ... وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا).

(أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا

مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا * وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا).

المفردات

أم: بمعنى بل، يدلّ على الانتقال من كلام إلى كلام آخر.

حسبتَ: زعمتَ. والخطاب للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، والغاية تنبيه الآخرين.

الكهف: النقب المتّسع في الجبل. فإن لم يكن متّسعاً فهو غار.

الرقيم: اللوح المرقوم، حيث كتبت أسماؤهم على الغار كالألواح الحجرية. وسيأتي سائر الأقوال فيه.

أوى: أوى إلى البيت: اتّخذ مأوى ومكاناً له.

الفتية: جمع فتى، وهو الشاب. وسيوافيك حديث في تفسيرها.

يهيئ: ييسّر.

رَشَداً: هداية إلى رضوان الله تعالى.

فضَرَبْنا على آذانهم: سلّطنا عليهم النوم، الذي لا تنبِّههم معه الأصوات. وفي مجمع البيان: وهو من الكلام البالغ في الفصاحة، يقال: ضربه الله بالفالج، إذا ابتلاه به، قال قطرب: وكقول العرب: ضرب الأمير على يد فلان: إذا منعه من التصرّف.

الحزبَين: الحزب: الجماعة.

أمَداً: الأمَد: المدّة التي لها حدٌّ وغاية.

ربَطْنا: الرَّبط على القلب، استعارة لتثبيت الإيمان وعدم التردّد فيه، لأنّ دور الرَّبْط والرِّباط هو تثبيت المربوط ومنعه من التفرّق.

شَطَطاً: الشَّطط: الإفراط في البُعد، يقال: شطّت الدار أي بعُدت، والمراد هنا قولاً بعيداً عن الحقّ.

مرفقاً: الرِّفق هو اللطف، والمعنى يسهُل عليكم ما تخافون من الملك وظلمه.

التفسير

قبل البدء في تفسير الآيات نذكر ما رواه علي بن إبراهيم القمي بإسناده عن الإمام جعفر الصادق(عليه السلام)حول شأن نزول الآيات، قال: كان سبب نزول سورة الكهف أنّ قريشاً بعثوا ثلاثة نفر إلى نجران: النضر بن الحارث بن كلدة، وعقبة بن أبي معيط، والعاص بن وائل السَّهمي، ليتعلّموا من اليهود والنصارى مسائل يسألونها رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)؛ فخرجوا إلى نجران إلى علماء اليهود، فسألوهم فقالوا: سلوه عن ثلاث مسائل، فإن أجابكم فيها على ما عندنا فهو صادق، ثم سلوه عن مسألة واحدة، فإن ادّعى علمها فهو كاذب، قالوا: وما هذه المسائل؟ قالوا: سَلوه عن فتية كانوا في الزمن الأوّل فخرجوا، وغابوا وناموا، وكم بقوا في نومهم حتى انتبهوا؟ وكم كان عددهم؟ وأيّ شيء كان معهم من غيرهم؟ وما كان قصتهم؟ واسألوه عن موسى(عليه السلام)حين أمره الله عزّ وجلّ أن يتّبع العالم ويتعلّم منه من هو؟ وكيف تبعه؟ وما كان قصته معه؟ واسألوه عن طائف طاف مغرب الشمس ومطلعها حتى بلغ سدّ يأجوج ومأجوج من هو؟ وكيف كان قصته؟ ثم أملَوا عليهم أخبار هذه الثلاث المسائل، وقالوا لهم: إن أجابكم بما قد أملَينا عليكم فهو صادق، وإن أخبركم بخلاف ذلك فلا تصدّقوه، قالوا: فما المسألة الرابعة؟ قالوا: سلوه متى تقوم الساعة؟ فإن ادّعى علمها فهو كاذب، فإنّ قيام الساعة لا يعلمها إلاّ الله تبارك وتعالى.

فرجعوا إلى مكّة واجتمعوا إلى أبي طالب(عليه السلام) فقالوا: يا أبا طالب إنّ ابن أخيك يزعم أنّ خبر السماء يأتيه ونحن نسأله عن مسائل فإن أجابنا عنها عَلِمنا أنّه صادق، وإن لم يخبرنا عَلِمنا أنّه كاذب، فقال أبو طالب: سلوه عمّا بدا لكم، فسألوه عن الثلاث المسائل، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): غداً أخبركم ولم يستثنِ، فاحتبس الوحي عليه أربعين يوماً، حتى اغتمّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وشكّ أصحابه الذين كانوا آمنوا به، وفرحت قريش واستهزأوا وآذوا، وحزن أبو طالب، فلمّا كان بعد أربعين يوماً نزل عليه بسورة الكهف، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): يا جبرئيل لقد أبطأت! فقال: إنّا لا نقدر أن ننزل إلاّ بإذن الله تعالى، فأنزل: (أَمْ حَسِبْتَ) يا محمد(أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا) ثمّ قص قصّتهم، فقال: (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا). تفسير القمّي:٢/٦ـ ٧؛ تفسير نور الثقلين:٣/٢٤٦ـ٢٤٧.

هذا، والظاهر ممّا رواه ابن هشام أنّهم سألوا النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) عن الروح مكان السؤال عن موسى ومصاحبه. يقول: فجاءوا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا: يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل قد كانت لهم قصّة عجب، وعن رجل كان طوّافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي؟ قال: فقال لهم رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): أخبركم بما سألتم عنه غداً، ولم يستثنِ، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ـ فيما يذكرون ـ خمس عشرة ليلة لا يُحدث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبرئيل،حتى أرجف أهل مكّة، وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة ليلة، قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء ممّا سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) مُكثُ الوحي عنه، وشقّ عليه ما يتكلّم به أهل مكّة: ثم جاءه جبريل من الله عزّ وجلّ بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حُزْنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الله: الفتية، والرجل الطوّاف، والروح. السيرة النبوية:١/٣٠١ـ٣٠٢.

ثمّ إنّه سبحانه صدّر القصتين منها بالسؤال، فقال في مورد الروح:(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) الإسراء:٨٥، كما صدّر قصة ذي القرنين به أيضاً وقال: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ) بخلاف غيرهما فقد بدأ بذكرها من غير تصدير بالسؤال، مضافاً إلى أنّ السؤال عن الرُّوح ورد في سورة الإسراء، وأمّا الباقي فقد ورد في سورة الكهف، ولعلّ هذا يؤيّد رواية علي بن إبراهيم، حيث لم يذكر فيها السؤال عن الرُّوح، بل جاء مكانه قصة موسى مع مصاحبه على خلاف ما ذكره ابن هشام حيث أدرج السؤال عن الروح في ضمن الأسئلة وأحلّه محلّ قصة موسى(عليه السلام) مع مصاحبه.

وعلى كلّ تقدير، فلنشرع في تفسير الآيات:

٩. (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا):

صلة قصة أصحاب الكهف بما سبق، هي أنّ المشركين كانوا ينكرون البعث أشدّ الإنكار ويصفونه بالاستحالة، فالله سبحانه يذكر ما جرى على أصحاب الكهف من الإنامة سنين ثم إيقاظهم، الذي هو أشبه بإحياء الموتى وبعثهم.

وربّما يشهد لذلك أنّه سبحانه قال في الآية المتقدّمة: (وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا) الكهف:٨، وذلك يتحقّق يوم القيامة الذي هو يوم البعث والنشور، والذي كان يرتاب فيه المشركون بل ينكرونه أشدّ الإنكار، فناسب أن يذكر قصة أصحاب الكهف لتكون دليلاً على إمكانه.

ثمّ إنّه يُستشفّ من الخطاب في قوله: (أَمْ حَسِبْتَ) أنّ المخاطب زعم أنّ قصة أصحاب الكهف كانت آية ذات عجب، مع أنّ بين الآيات الإلهية ما هو أشدّ عجباً، وهو آية إحياء الموتى التي أُشير إليها في الآية المتقدّمة بجعل ما على الأرض صعيداً جرزاً يوم القيامة، فقصّة أصحاب الكهف من الإنامة سنين متمادية، ثمّ إيقاظهم وإن كانت آية ذات عجب غير أنّ إحياء الناس يوم القيامة أعجب من ذلك.

ويمكن أن يقال: إنّ قوله: (مِنْ آيَاتِنَا) يشمل كلّ آية تدلّ على القدرة، من غير اختصاص بإحياء الموتى. وعلى هذا فمعنى الآية: (أَمْ حَسِبْتَ): أي زعمت (أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا)آية ذات عجب، فقصّتهم وإن كانت خارقة للعادة لكنّها ليست بعجيبة بالنسبة إلى سائر الآيات التي يزخر بها الوجود.

ثمّ إنّه سبحانه عطف الرقيم على الكهف، والعطف يدلّ على المغايرة، قال ابن هشام في السيرة:(وَالرَّقِيمِ) الكتاب الذي رُقم فيه بخبرهم، وجمعه: رُقّم، قال العجاج:

.... ومستقر المصحف المرقّم

وقيل: اسم الجبل الذي كان فيه الكهف، أو اسم القرية التي كانوا فيها السيرة النبوية:١/٣٠٣.. وقد مرّ عن الكشاف أنّه قال: إنّه لوح من حجارة كتبوا فيه قصة أصحاب الكهف وأمْرَهم، ثم وضع على باب الكهف. وأغرب الأقوال ما روي عن أنس أنّ الرقيم اسم كلبهم، واستشهد بقول أمية بن أبي الصلت:

وليس بها إلاّ الرقيم مجاوراً *** وصيدهُمُ والقوم في الكهف هُجّعا

وقد زرت في رحلتي إلى الأُردن القرية المنسوبة إلى أصحاب الكهف ورأيت الكهف وفيه قبورهم السبعة، وأنّ ذلك المكان كان يُسمّى على لسان العامّة بالرجيب، ولعلّه كان في الأصل الرقيم فتصحّف إلى الرجيب.

قصّة أصحاب الكهف مجملة

١٠. (إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا):

قوله تعالى:(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ) الظرف متعلّق بمحذوف نظير: اذكر، أي اذكر إذ اتّخذ الفتية الكهف مأوى ومكاناً لهم، والفتية جمع فتى، قال الراغب: الفتى: الطريّ من الشباب، والأُنثى فتاة وجمع الفتى: فِتية وفِتيان، وجمع الفتاة: فتَيات. مفردات الراغب، مادة (فتى). ولعلّ أصله من الفتوّة بمعنى الشجاعة والشهامة والفروسية، وآية فتوّتهم أنّهم حسب ما ورد في التاريخ كانوا من أبناء أشراف الروم وعظمائهم مسوّرين بالذهب ولكنّهم تركوا مناصبهم ومقاماتهم لأجل حفظ دينهم. نعم ظاهر الفتية أنّه كانت فيهم طراوة الشباب ونضارته، ولكن بعض الروايات تفسّره بوجه آخر، فعن سليمان بن جعفر النهدي، قال: قال لي جعفر بن محمد (عليهما السلام): يا سليمان، مَن الفتى؟ قلت له: جُعلت فداك، الفتى عندنا الشابّ، قال لي: «أما علمت أنّ أصحاب الكهف كانوا كلّهم كهولاً، فسمّاهم الله فتية بإيمانهم؟ يا سليمان، من آمن بالله واتّقى فهو الفتى». تفسير العياشي:٣/٨٩ برقم ٢٦٣٥. وروى نحوه الكليني عن علي بن إبراهيم رفعه إلى أبي عبد الله جعفر الصادق(عليه السلام). الكافي:٨/٣٩٥، برقم ٥٩٥.

وروى الكليني أيضاً بسند صحيح، قال: «إنّ مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف أسرّوا الإيمان وأظهروا الشرك فآتاهم الله أجرهم مرّتين». تفسير نور الثقلين:٣/٢٤٣.

ثمّ إنّهم بعدما دخلوا الكهف، أخذوا في الدعاء بوجهين:

الأوّل:(فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ): أي من عندك (رَحْمَةً) ولعلّ تنكير اللفظ لبيان التعظيم، وهي تشمل المغفرة والرزق والأمن.

الثاني: (وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا): أي يسّر لنا من أمرنا رشداً ونحن في طريق الهجرة من الكفّار، وأوصِلنا إلى الطريق الموصل للمطلوب. والفرق بين الرَّشَد والرُّشد أنّ الأوّل يستعمل في ما هو أعمّ، أي في الأُمور الدنيوية والأُخروية، والثاني يختصّ بالأُمور الأُخروية، فهؤلاء الفتية طلبوا من الله سبحانه أن يشملهم بلطفه وعنايته وأن يحفظهم من مكائد الملك وأعوانه الذين كانوا يحمون الوثنية وقيمها وتقاليدها ويُخضعون الناس لها بالقوّة.

ثمّ إنّه سبحانه استجاب دعوتهم حسب ما يقول:

إنامة أصحاب الكهف

١١. (فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا):

فالضرب على الأذان كناية عن النوم، فإنّ النوم لا يتحقّق إلاّ بانقطاع صلة الإنسان بالعالم الخارجي عن طريق السمع، يقول الشريف الرضيّ: هذه استعارة لأنّ المراد بها منع آذانهم من استماع الأصوات وهمس الحركات، ثم يقول: والمراد بقوله تعالى: (فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ): أي أخذنا أسماعهم فبطل استماعهم، ويكون ذلك من قول القائل: قد ضرب فلان على مالي، أي أخذه وحال بيني وبينه. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٠٥.

١٢. (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا):

لا يخفى وجود الإجمال في الآية، ويرتفع بالتدبُّر فيها وفيما قبلها. أمّا الإجمال فمن وجوه:

الأوّل: فالله سبحانه يذكر بعثهم من رقدتهم ويقول: (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ) ومن الواضح أنّه سبحانه عالم بكلّ شيء قبل وقوعه وبعده، فما هو المراد من العلم؟فيقال: المراد من علمه سبحانه هو ظهور الشيء في الخارج وتحقُّقه فيه، وهو نظير قوله سبحانه: (وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ) الحديد:٢٥. وبذلك يرتفع الإجمال.

الثاني: ما هو المراد من قوله: (أَيُّ الْحِزْبَيْنِ)؟ الظاهر أنّ المراد الطائفتان من أصحاب الكهف، حيث بعد أن أيقظهم الله اختلفوا في مقدار مكثهم في الكهف نياماً، فقال بعضهم: (لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)فأحصَوا مدة اللَّبث، وقال الآخرون:(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ) فلم يُحصوا مدّة لبثهم بل أوكلوا علمَها إلى الله سبحانه.

وأمّا الثالث: أعني قوله: (أَيُّهُمْ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا): أي ليتبيّن أي الحزبين عدّ أمداً ووقتاً للبثهم في الكهف. وقد عرفت أنّ المحصي هو الطائفة الأُولى دون الثانية.

هذه الآيات الثلاث ذكرت إجمال قصّتهم، فالآية الأُولى أشارت إلى دخولهم الكهف ومسألتهم النجاة، والثانية أشارت إلى نومهم فيه سنين عدداً، والثالثة إلى يقظتهم وانتباههم واختلافهم في تقدير زمان لبثهم، كما تضمّنت وجه إيقاظهم ليظهر أيّ الفريقين يقدّر للبثهم أمداً. ثم بدأ سبحانه ببيان ما جرى عليهم بالتفصيل وقال:

تفصيل القصّة

١٣. (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى):

يظهر من قوله سبحانه:(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ) أنّ هذه القصّة كانت معروفة بين الناس قبل نزول القرآن المجيد، ولكنّها تعرّضت ـ كأكثر الحوادث التاريخية ـ إلى التحريف والتزوير، وأُلصقت بها الأباطيل والخرافات، والله سبحانه يعرضها كما هي منزَّهة عن التحريف والإضافات، وهي أنّ فتية كانوا يعيشون في مجتمع طغى فيه الشرك والظلم، وهُدرت فيه كرامة الإنسان، ولكنّهم اهتدوا إلى عقيدة التوحيد، كما قال: (إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ) ونبذوا الشرك، وحرّروا أنفسهم من قيوده وأغلاله.

فخرجوا من المدينة هاربين فوصلوا في طريقهم إلى الجبل الذي فيه الكهف فأخذوه مأوى مؤقتاً لأنفسهم، ودعَوا الله سبحانه بما مرّ في الآية العاشرة، واستجاب الله دعاءهم كما يقول: (وَزِدْنَاهُمْ هُدًى).

وهذه الفقرة تدلّ على أنّ لله تعالى هدايتين:

الأُولى: الهداية العامّة التي تتمّ عن طريق الأنبياء والأولياء والكتب السماوية والعلماء المخلصين والفطرة الإنسانية والعقل الحصيف، فالله سبحانه يتمّ الحجّة عن هذا الطريق على كلّ إنسان.

ثمّ إذ ذاك الإنسان بين من يعرض عن الاستضاءة بهداية هؤلاء، فهو يختم على قلبه ويبقى على ضلالته ضلالة اختيارية، لأنّ

إعراضه عن الاهتداء بهذه الأنوار الباهرة، يُفضي إلى حرمانه من الهداية الثانية، وهذا ما يعبّر عنه بالطبع والختم على القلب والعقل.

الثانية: الهداية المفاضة بعد استضاءة العبد بالهداية الأُولى، فيصير مستحقّاً لهذا النوع من هداية الله، فيكون التوفيق رفيقاً له في حياته الدينية، وإلى هذا يشير قوله سبحانه:(وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) لأنّ أصحاب الكهف لمّا استناروا بالعقل الحصيف والفطرة السليمة ورفضوا الوثنية وعبادة الشيطان وابتهلوا إلى الله سبحانه بالدعاء، صاروا مستحقّين لهذه الهداية.

ويدلّ عليه قوله سبحانه: (وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا) مريم:٧٦، وبالتأمّل فيما ذكرنا يظهر ما هو المراد من الختم والطبع على القلوب والعقول الذي ربّما يُستدلّ به على القول بالجبر، مع أنّ هذا الصنف من الآيات يشير إلى ما ذكرنا من الحرمان لأجل التهاون في الاستضاءة بالهداية العامّة.

١٤. (وَ رَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا):

كانت ثمرة تلك الهداية الثانية المفاضة عليهم من الله سبحانه، العزم على مواجهة ضغوط المجتمع بالثبات على عقيدة التوحيد والصلابة في موقفهم برفض مجاراة الواقع المنحرف، ولذلك يقول تعالى: (وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ): أي شددنا عليها بالألطاف حتى وطّنوا أنفسهم على الثبات على الدين، والصبر على المشاقّ ومفارقة الوطن.

قال الشريف الرضيّ(رحمه الله) حول هذه الفقرة: وهذه استعارة لأنّ الربط هو الشدّ، يقال: ربطتُ الأسير إذا شددتَه بالحبل أو القيد، والمراد بذلك شددنا على قلوبهم كما تشدّ الأوعية بالأوكية فتنضمّ على مكنونها ويؤمَن التبدُّد على ما استودع فيها، أي فشددنا على قلوبهم لئلاّ تنحلّ معاقد صبرها وتهفو عزائم جلَدها، ومن ذلك قول القائل لصاحبه: ربط الله على قلبك بالصبر.

تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٠٦.

قوله تعالى: (إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) يكشف عن أنّهم قد أفصحوا عن إيمانهم بالتوحيد في الربوبيّة وأنّ للكون جميعاً ـ من غير فرق بين نوع ونوع ـ ربّاً واحداً على خلاف الوثنية التي تعتقد بأنّ لكلّ نوع ربّاً خاصّاً. وهذا الإفصاح عن ربوبيّة واحدة هو نتيجة ذلك الرّبط. ثم أكّدوا وحدة الربوبيّة بقولهم: (لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا) لأنّ الدعوة إذا كانت بمعنى العبادة فهو المستحقّ لها، وإن كانت من الدعاء لطلب الحاجة فهو المعطي دون غيره (لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا): أي متى نسبنا الأُلوهيّة إلى غيره سبحانه، قلنا كلاماً خارجاً عن الحقّ بعيداً عن الصواب.

نقد عقيدة قومهم

١٥. (هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَان بَيِّن فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا):

لمّا تقدم في الآية السابقة من القول بنسبة الإلوهيّة إلى غيره سبحانه، صار المقام مناسباً لبيان من ينتحل تلك العقيدة الباطلة ولذلك قالوا: (هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا) ولعلّ الجملة للتعجّب (اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ): أي من غيره سبحانه (آلِهَةً) دون أن يكون لهم دليل على ذاك الاتّخاذ بشهادة قوله: (لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَان بَيِّن)فلفظة (لولا) حرف تحضيض، والمراد حثّ المخاطب على مضمون الكلام، ولمّا كان لزوم اقتران العقيدة بالدليل والبرهان أمراً فطرياً وهؤلاء نسوا أو تناسوا حكم الفطرة، جاء كلامهم تحضيضاً لذلك فقالوا: (لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ)على عبادتهم أو عقيدتهم (بِسُلْطَان بَيِّن): أي ببرهان ظاهر، فالتقليد في العقائد أمر مرفوض، وبما أنّ اتخاذ الآلهة المكذوبة بلا سلطان بيّن وبرهان واضح يُعدّ ظلماً على الله سبحانه وافتراءً عليه، ختموا كلامهم بالقول:(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا)بزعمهم أنّ له شريكاً في الربوبيّة؟

وهاتان الآيتان(١٤ و ١٥) دليل على أنّ قلوب هؤلاء قد ملئت إيماناً بالتوحيد وأنّ عقيدتهم كانت مبنيّة على برهان قويم، فجعلوا

المحور (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) وأبطلوا ربوبيّة غيره، قائلين بأنّ الإيمان بعقيدة ما يجب أن يكون مرتكزاً على دليل واضح وبرهان قويم، وهؤلاء القوم أشركوا بالله وعكفوا على عبادة غيره من الذين لا يملكون لأنفسهم شيئاً.

إلى هنا تمّ توضيح الآيتين، إنّما الكلام في بيان الزمان الذي يدلّ عليه: (إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) فربّما يستظهر أنّهم قالوا ذلك في مجلس الملك وأعيانه وملئه وأنّهم قاموا بين يدي الملك المسمّى بـ «دقيانوس» الذي كان يفتن أهل الإيمان عن دينهم فـ(قَامُوا)بين يديه (فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا).

وهذا هو الذي قال به كثير من المفسرين(سنّة وشيعة)، وجنح إليه السيد الطباطبائي، حيث قال: قوله: (إِذْ قَامُوا فَقَالُوا)إلخ، يشير إلى أنّهم في بادئ قولهم كانوا في مجلس يصدر عنه الأمر بعبادة الأوثان والإجبار عليها والنهي عن عبادة الله والسياسة المتحلّية بالقتل والعذاب كمجلس الملك أو ملئه أو ملأ عام كذلك فقاموا وأعلنوا مخالفتهم وخرجوا واعتزلوا القوم. الميزان في تفسير القرآن:١٣/٢٥٢.

وما ذُكر بعيد عن الاعتبار إذ الملك الجبّار لا يمهلهم عند التظاهر بهذا الشعار، خصوصاً إذا كان في مجلس يضمّه وهؤلاء وسائر الأعيان وأركان الدولة.

وربّما يحتمل أنّهم قاموا في مجامع قومهم خطباء معلنين فساد عقيدة الشرك. وهذا الاحتمال أيضاً لا يوافق تعبير الآية، حيث قال: (هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) فلو كان القيام في مجامع قومهم لما عبّروا عنهم بضمير الغائب (هَؤُلاَءِ) بل يخاطبونهم بـ«أنتم» ونظير ذلك، على أنّ الروايات تشهد أنّهم كانوا يعيشون معهم في تقيّة، فقد مرّ ما رواه أبو بصير عن أبي عبد الله[الصادق] (عليه السلام) حيث قال: «انّ أصحاب الكهف أسرّوا الإيمان وأظهروا الكفر فآجرهم الله مرّتين»، إلاّ أن يقال: إنّهم كانوا على خطّ التقيّة إلاّ في الزمان الذي عزموا فيه على قطع علاقتهم بالملك وقومه، وكانوا على خطّ التقية إلاّ في هذه اللحظة.

١٦. (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا):

الظاهر أنّ مضمون الآية كلام بعضهم لبعض، ويحتمل أن يكون كلام كبيرهم وأعقلهم، كما يظهر أنّ هذه الآية من متمّمات الآيتين (١٤ و ١٥)، حيث إنّهم لمّا هجروا قومهم ومعتقداتهم الزائفة، اتّفقوا، بعد التشاور فيما بينهم، على اللجوء إلى الكهف للاختباء فيه، قائلين بعضهم لبعض: (وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ): أي في هذا الزمان الذي فارقتموهم (وَ) فارقتم (مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ): أي سيروا إلى الكهف واجعلوه مأوى لكم. والظاهر أنّ اللام في (الْكَهْفِ) للعهد الحضوري وليس للجنس، فإنّكم إذا سرتم إلى الكهف (يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ): أي يبسط عليكم من نعمته (وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا): أي شيئاً ترتفقون وتنتفعون به. ولعلّ الفقرة الأُولى (يَنْشُرْ...)إشارة إلى نِعَمِه المعنويّة، والفقرة الثانية(وَيُهَيِّئْ...)إشارة إلى نِعَمه الماديّة، فالآية تدلّ على أنّهم دخلوا الكهف راجين رحمة الله سبحانه متطلّعين إليه سبحانه في مستقبل أمرهم.

قال الشريف الرضيّ(رحمه الله):وفي هذه الآية استعارتان: إحداهما: قوله تعالى: (يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ). والرحمة هاهنا بمعنى النعمة، ولم يكن هناك شيء مطويّ فيُنشر، ولا مكنون فيَظهر، وإنّما المراد بذلك يسبغ الله عليكم نعمته على وجه الظهور والشياع دون الإخفاء والإسرار، فيكون ذلك كنشر الثوب المطويّ وإظهار الشيء الخفيّ في شياع الأمر وانتشار الذكر. والاستعارة الأُخرى: قوله تعالى: (وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا)وأصل المرفق ما ارتُفق به، وهو مأخوذ من المِرفَقة وهي التي يُرتَفق عليها، أي يُعتمد عليها بالمِرفق، ويقال مِرفق، ومَرفَقٌ بمعنى واحد، وقد قرئ بهما جميعاً، فكأنّه سبحانه قال: يهيّئ لكم من أمركم ما تعتمدون عليه وتستندون إليه، ويكون لظهوركم عماداً، ولأعضادكم سناداً. تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١٠٦.

ثمّ إنّ قوله: (إِلاَّ اللهَ) استثناء من الموصول في قوله (وَمَا يَعْبُدُونَ)فظاهر الاستثناء كونه متّصلاً، ولعلّ بينهم من كان يعبد الله مع

الأصنام، فلذلك قالوا: اعتزلنا عن كلّ ما يعبدون إلاّ معبوداً واحداً.

ومع ذلك يمكن أن يكون الاستثناء منقطعاً، ومعنى (إِلاَّ اللَّهَ): أي دون الله وغيره.

ثمّ إنّ إجماعهم على دخول الكهف واتّخاذه مأوىً لهم، يدلّ على قوّة إيمانهم، وذلك لأنّ الغار لم يكن آمناً من الحيوانات المفترسة أو المؤذية، فدخولهم فيه بقلوب مطمئنة يشير إلى إيمانهم القويّ بأنّ الله سينشر لهم من رحمته ويهيّئ لهم من أمرهم مرفقاً.

وهكذا حال أولياء الله يختارون المكان المظلم الموحش ويفضّلونه على القصور الزاهرة المؤنسة لحفظ إيمانهم وعقيدتهم، وصيانة نفوسهم من الرذائل والآثام، ولذلك نرى أنّ يوسف(عليه السلام) آثر السّجن على البقاء في القصر بثمن باهض يدفعه من إيمانه واستقامته، وهو الاستجابة للقيام بالعمل المنكر، قال سبحانه حكاية عنه: (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ). يوسف:٣٣.

الآيتان: السابعة عشرة والثامنة عشرة(وَتَرى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ ... وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا).

(وَتَرى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا * وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا).

المفردات

تَزاور: مضارع مشتقّ من الزَّور بمعنى المَيل والانحراف. وتزاور في الأصل تتزاور، فحُذفت إحدى التاءين.

تقرضهم: القرض: القطع، يقال: قرضت الموضع إذا قطعته وجاوزته. وأُريد هنا انصراف الشمس.

الفجوة: المتَّسع من الأرض، وجمعه فجوات.

رُقود: جمع راقد، وهو النائم.

الوصيد: مدخل الكهف، شبّه بالباب الذي هو الوصيد لأنّه يوصَد ويُغلق، يقال: أوصدت الباب إذا أغلقته. وقيل: هو فِناء الكهف.

التفسير

تتحدّث هاتان الآيتان عن أُمور ثلاثة:

١. الوضع الجغرافي للكهف

٢. كيفية لبثهم في الكهف.

٣. حال من يراهم أو يدخل عليهم

الأمر الأوّل: الوضع الجغرافي للكهف

١٧. (وَتَرى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا):

الوضع الجغرافي للكهف

هذه الآية تتضمّن بيان الأمر الأوّل، وإليك توضيحه:

١. إنّه سبحانه عندما يصف الكهف يقول:(ذَاتَ الْيَمِينِ... ذَاتَ الشِّمَالِ) والمراد بهما يمين الكهف وشماله، والذات بمعنى الصاحبة وهي صفة لمحذوف يدلّ عليه الكلام أي الجهة صاحبة اليمين، والجهة صاحبة الشمال.

٢. إنّه سبحانه عندما يذكر طلوع الشمس صباحاً على باب الكهف أو فمه، يستخدم كلمة (تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ) وقد مرّ أنّ التزاور بمعنى التمايل، وعندما يذكر غروب الشمس يستخدم كلمة (تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ) وقد مرّ أنّ القرض بمعنى القطع

وهو كناية عن انصرافها عنهم (وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ): أي وهم في متّسع من الكهف. ومعنى ذلك أنّ نور الشمس كان ينفذ إلى الكهف، ولكنّه لا يقع عليهم فيؤذي أجسامهم، لا عند طلوع الشمس، ولا عند غروبها، لأنّهم كانوا في وسط الكهف، وهو مكان واسع.

وبعبارة أُخرى: إنّ الكهف لم يكن شرقياً ولا غربياً بحيث إنّه لا يقع عليه شعاع الشمس إلاّ في أحد الوقتين، بل كان قطبياً يحاذي بابه القطب، فيقع شعاع الشمس على أحد جانبيه من داخل طلوعاً وغروباً، ولا يقع عليهم لأنّهم كانوا في متّسع منه، فوقاهم الله بذلك من أن يؤذيهم حرّ الشمس أو يغيّر ألوانهم أو يبلي ثيابهم، بل كانوا مرتاحين في نومهم مستفيدين من نسمات الهواء المتحوّل عليهم بالشروق والغروب وهم في فجوة منه، ولعلّ تنكير (فَجْوَة) للدّلالة على وصف محذوف، والتقدير: وهم في فجوة منه لا يصيبهم فيه شعاعها.

وعلى هذا، فالظاهر أنّ باب الكهف كان باتّجاه الشمال، والجبل باتّجاه الجنوب، فإذا طلعت الشمس يدخل شعاعها إلى الكهف من الجهة اليمنى للناظر، وإذا غربت تنصرف عن كهفهم ذات الشمال أي شمال الناظر، وإلاّ فلو كان باب الكهف جنوبياً لدخل شعاع الشمس في وقت الظهيرة، ويكون مؤذياً لهم، اللّهم إلاّ إذا كان مكان نومهم في موضع بعيد عن باب الكهف.

يقول الشريف الرضيّ حول الآية: وفي هذه الآية استعارتان:

أُولاهما: قوله تعالى في ذكر الشمس:(تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ). لأنّ التزاور أصله المَيل، وهو مأخوذ من الزَّور الذي هو الصَّدر، فكأنّه سبحانه قال إنّ الشمس تميل عن هذا الموضع كما يميل المتزاور عن الشيء بصدره ووجهه. وبيّن بذلك موقع الكهف المشار إليه من جهات المشرق والمغرب وأنّ الشمس لا تلحفه ثوبَها عند الشروق، ولا تنفض عليه صبغَها عند الغروب.

والاستعارة الأُخرى: قوله تعالى: (وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ). وفي ذلك قولان: أحدهما: أن يكون المراد أنّها تقرضهم في ذات الشمال، أي أنّها تجوزهم عادلة بمطرح شعاعها عنهم، من قولهم: قرضتُ الشيء بالمقراض إذا قطعتَه به، فالمقراض متجاوز لأجزائه أوّلاً حتّى ينتهي إلى آخره. والقول الثاني أن يكون المراد أنّها تعطيهم القليل من شعاعها عند ممرّها بهم ثم تسترجعه عند انصرافها عنهم، تشبيهاً بقرض المال الذي يعطيه المعطي ليستردّه ويقدّمه ليرتجعه. ومعنى قرض المال أيضاً مأخوذ من القطع، لأنّ المقرض يعطي للمقترض شقّة من ماله، وقطعة من حاله. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٠٦ـ ١٠٧.وعلى كلّ تقدير، فالآية شرحت لنا الوضع الجغرافي للكهف، وهو أنّ الكهف كان يتمتّع بشعاع الشمس شروقاً وغروباً لا شروقاً فقط ولا غروباً فقط، ولكن يدخل ضوء الشمس إلى قسم من الكهف وهؤلاء كانوا نائمين في موضع بعيد عن ضوء الشمس.

ثمّ إنّه سبحانه يعدّ ذلك من آياته، ويقول: (ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ) ولعلّ اسم الإشارة إشارة إلى وجودهم بهذا الوضع في كهف تلك صفته(فالشمس هنا كأنّها جزء من الكهف، قد شُغلت به عن الدنيا كلّها، حتّى كأنّها مسخّرة لمن هم في هذا الكهف دون الكائنات كلّها، وحتّى لكأنّها أُمّ حانية عليهم، ترعاهم بعينها، وتُظلّهم بظلّها). التفسير القرآني للقرآن:٦٠١/٨.، إذا طلعت تميل عن الكهف جهة اليمين، وإذا غربت تجوزهم منحرفة عنهم جهة الشمال.

هذا ما يتعلّق بالأمر الأوّل، وأمّا الثاني والثالث فقد تكفّلت ببيانهما الآية التالية:

١٨. (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا):

الأمر الثاني: لبثهم في الكهف

لقد ظلّ هؤلاء الفتية بقدرة الله تعالى سنين عديدة أحياءً، بَيْد أنّهم كانوا يغطّون في نوم عميق، لا يحسّون معه بشيء، ومن تدبيره

سبحانه أنّه لو نظر إليهم أحد لحسبهم أيقاظاً منتبهين لا نياماً راقدين، ذلك أنّ أعينهم كانت مفتوحة حال نومهم، تماماً كالأيقاظ. ولأجل أن لا تتأثّر أبدانهم بطول المكث على الأرض، ولا تبطل قواهم البدنية بالخمود والركود، كانوا يُقلَّبون من جنب إلى جنب. والظاهر أنّ تقلّبهم من اليمين إلى الشمال وبالعكس كان بأمرمن الله سبحانه لا من عند أنفسهم، لأنّه يسند التقليب إلى نفسه، حيث يقول: (وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ).

ومع ذلك، يمكن أن يقال: إنّ التقليب كان حركة طبيعية لهم كما هو المشاهد في النائمين العاديين حيث يتقلّبون من جهة إلى جهة، ولا مانع من نسبة فعلهم إلى الله سبحانه لأنّ الفعل المباشر للإنسان فعلٌ تسبيبي لله سبحانه، ولذلك يقول: (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) الأنفال:١٧..

وإلى ما ذكرنا يشير قوله سبحانه: (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ).

ثمّ يأتي بعد ذلك ذكر كلبهم، فيقول: (وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ)وقد مّر أنّ الوصيد بمعنى مدخل الكهف، أو فِنائه.

الأمر الثالث: حال من يراهم أو يدخل عليهم

الخطاب في قوله سبحانه: (لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا) لكلّ مَن يُفترض اطّلاعه عليهم. والمعنى: أنّه لو أشرف عليهم إنسان، ورأى وضعهم ومنظرهم، لهرب منهم خوفاً من أن يصله مكروه منهم، ولَمُلئ كلّ كيانه رُعباً وفزعاً.

أمّا الوجه في ترتيب الجملتين: (لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا)، فهو ـ كما يقول السيد الطباطبائي ـ أنّ الفرار ـ وهو التبّعد عن المكروه ـ معلول لتوقّع وصول المكروه تحذّراً منه، وليس بمعلول للرّعب، الّذي هو الخشية وتأثّر القلب، والمكروه المُترقَّب يجب أن يُتحذَّر منه، سواء كان هناك رعب أو لم يكن. فتقديم الفرار على الرُّعب ليس من قبيل تقديم المسبّب على سببه، بل من تقديم حكم الخوف على الرُّعب، وهما حالان متغايران قلبياً، ولو استُبدل الخوف بالرُّعب، لكان من حقّ الكلام تقديم الجملة الثانية على الأُولى. انظر: الميزان في تفسير القرآن:١٣/٢٥٦.

الآيتان: التاسعة عشرة والعشرون(وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ... وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا).

(وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا).

المفردات

بعثناهم: أيقظناهم.

الورق: ـ بكسر الراء ـ الدراهم: وكأنّه كانت معهم دراهم عليها صورة الملك الذي كانوا في زمانه.

لِيتلطّف: التلطُّف: إعمال اللُّطف والرِّفق حتى لا يطلع على أمرهم أحد.

يظهروا عليكم: يطّلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم.

يرجموكم: يقتلوكم بالرَّجم.

التفسير

١٩.(وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا):

بعث أحدهم لتحصيل الرزق بعد اليقظة

يعرض القرآن الكريم في هذه الآية مشهد الفتية وهم قد استيقظوا من رقدتهم الطويلة، ويعبّر عنها بقوله: (وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ): أي كما أنامهم مدّة طويلة بهذه الصورة العجيبة كذلك أيقظناهم. وأمّا ما هي غاية البعث والإيقاظ، فهي ما ذكره سبحانه بقوله: (لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ) عن مدّة نومهم ويتحاوروا في هذا الشأن فتظهر لهم حقيقة الأمر. ويحتمل أن تكون اللام في (لِيَتَسَاءَلُوا) للعاقبة، يعني صارت نتيجة يقظتهم تساؤلهم عن مدّة نومهم، وعند ذلك (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ) كأنّه استشعر طول رقدتهم، فأجاب الآخرون كما قال: (قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ) ولمّا كان الجواب مبنيّاً على ظنّ غير صحيح، عادوا فأوكلوا علم ذلك إلى الله، كما يقول: (قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ) وهذا دليل على كمال معرفتهم وتوحيدهم.

ثمّ إنّهم أحسّوا بالجوع الشديد، فلذلك حاولوا أن يبعثوا أحدهم بالدّراهم التي كانت معهم ليشتري لهم طعاماً زكيّاً أي حلالاً لا حراماً، طيّباً لا خبيثاً، كما قال: (فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ) والرّزق هو القوت، كما قال سبحانه حاكياً عن يوسف:(لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ) يوسف:٣٧. ولمّا اجتمع رأيهم على بعث أحدهم لشراء الطعام وكانت هناك مظنّة التعرّف عليه وعلى مكانهم أوصَوا من بعثوه باليقظة والحذر حتى لا يُعرف، وهذا ما عبّروا عنه بقولهم: (وَلْيَتَلَطَّفْ): أي ليعمل اللُّطف والرِّفق حتى يترتّب عليه قولهم: (وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا): أي لا يخبرنّ بكم ولا بمكانكم أحداً من أهل المدينة، وعامل اللُّطف هو المبعوث لشراء الطعام.

٢٠. (إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا):

الآية تعلّل وجه ما أوصَوا به المبعوث لشراء الطعام من الإصرار على كتمان الأمر وذلك (إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ): أي إنّهم إن يطّلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم أخذوكم فـ (يَرْجُمُوكُمْ) يقتلوكم بالرَّجم إن ثبتّم على دينكم (أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ): أي يردّوكم إلى دينهم إن لم تثبتوا، وكلا الأمرين سيّئ؛ أمّا الأوّل فظاهر، وأمّا الثاني فقد ذكره بقوله: (وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا).

فإن قلت: كيف يقولون إنّ العَود إلى ملّتهم يلازم عدم الفلاح، مع أنّ العَود إذا كان ظاهرياً لا حقيقياً لا يلازم عدم الفلاح؟ وبعبارة أُخرى: إنّهم لو كانوا سالكين مسلك التقية في حياتهم، يظهرون الكفر ويبطنون الإيمان، فعندئذ يفلحون، فكيف قالوا: (وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا)؟

والجواب يعلم من الدقّة في الشِّقَّين في كلامهم حيث قالوا:إنّ في الاطّلاع عليهم أحد أمرين:

١. الرجم بالحجارة (يَرْجُمُوكُمْ).

٢. العودة في ملّتهم (أَوْ يُعِيدُوكُمْ).

والظاهر أنّ الشِّقّ الأوّل ناظر إلى صورة المقاومة ظاهراً وباطناً، والثاني ناظر إلى رفض المقاومة تماماً والالتحاق بملّتهم ظاهراً وباطناً. ومن المعلوم أنّ هذا النوع من الالتحاق يلازم عدم الفلاح والنجاة، وأمّا اختيار الصورة الثالثة وهي التظاهر بالكفر واستبطان الإيمان، فلم يكن يدور في أذهانهم يومذاك.

وللسيد الطباطبائي جواب آخر عن هذا السؤال، قال: فإنّهم لو عرضوا بأنفسهم عليهم أو دلوهم بوجه على مكانهم (أي أن يصدر منهم فعل يؤدّي إلى تعرّف العدوّ على مكانهم) لأعادوهم إلى ملّتهم ـ ولو على كره ـ كان ذلك منهم تسبيباً اختيارياً ولم يُعذروا البتة.

الميزان في تفسير القرآن:١٣/٢٦٢.

الآيات: الحادية والعشرون إلى الرابعة والعشرين(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ... لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا).

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ

أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا * سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ واذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا).

المفردات

أعثرنا عليهم: عثر على الشيء، يعثر، عثراً: إذا اطّلع عليه، والمراد هنا أطْلعنا عليهم.

يتنازعون: التنازع: التخاصم.

بنياناً: جداراً على باب الكهف.

مسجداً: موضعاً للعبادة.

رجماً: الرَّجْم: القول بالظنّ والتخمين. ويقال لكلّ مَن يخرُص في حديثه: رجمَ فيه، والحديث مرجوم ومرجّم، كقول زهير بن أبي سلمى يصف الحرب:

وما الحرب إلاّ ما علمتم وذقتمُ *** وما هو عنها بالحديث المرجَّمِ

بالغيب: الغيب: ما غاب عن الإنسان.

مراء: المراء: الجدل، المحاجّة فيما فيه مِرية وتردّد.

التفسير

إنّ القرآن الكريم قد طوى الكلام عن كيفية انكشاف أمرهم واطّلاع أهل المدينة على حالهم، ولكن يمكن فهم ذلك من خلال السياق. إذ لا شكّ في أنّ ما يثير الناس ويلفت أنظارهم هو وجود شخص في أوساطهم لا يمت إليهم بصلة بل ينتمي إلى عصر غابر في شكله وزيّه وعاداته وطريقة تعامله حتى طريقة كلامه ولهجته.

ومن جانب آخر قد تكون الوَرِق التي دفعها لتسديد ثمن الطعام والتي ترجع إلى عهد بعيد، هي التي كشفت أمره وكشفت أمر أصحابه.

ومهما يكن لقد بان السرّ، وشاع بين أهل المدينة الخبر، فاحتشدوا عند باب الكهف وعرفوا قصة أصحابه الذين ما لبثوا أن قُبضت أرواحهم وصاروا جثثاً هامدة.

وفي تفسير علي بن إبراهيم القمّي ما يرشدنا إلى كيفية انكشاف أمرهم حيث جاء مبعوث القوم إلى المدينة فرآها بخلاف الذي عهدها، ورأى قوماً بخلاف أُولئك لم يعرفهم ولم يعرفوا لغته، ولم يعرف لغتهم، فقالوا له: مَن أنت؟ ومن أين جئت؟ فأخبرهم.

تفسير القمّي: ٢ / ٧.

ولعلّ المبعوث رجع من فوره إلى الكهف فأخبرهم بما شاهد وما وقف عليه، فعند ذلك ـ كما في تفسير القمي ـ بكوا وسألوا الله تعالى أن يعيدهم إلى مضاجعهم.

٢١. (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا):

ثمّ إنّه سبحانه يعلّل إيقاظهم بعد النوم بوجهين:

الأوّل: ما تقدّم في صدر القصّة في قوله: (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا). الكهف:١٢.

الثاني: ما يذكره بقوله في هذه الآية: (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ): أي كما أنمناهم وبعثناهم، أَطْلعنا أهل المدينة عليهم، ليعلموا أنّ وعد

الله بالبعث حقّ، فقد كان هناك مَن يشكّ في قدرة الله على إحياء الموتى ويمتري في إنشاء الأجسام بعد البِلى، فأطلعهم الله عليهم وأراهم هذه الآية (لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا) فإنّ إيقاظهم سالمين بعد بضع مئات من السنين، يُعدّ أفضل دليل على أنّه سبحانه قادر على إحياء الموتى يوم القيامة، وصدق ما وعد به من البعث والنّشور.

وبعد أن وصل الناس إلى باب الكهف وشاهدوا جثثاً هامدة، بدأ التنازع في شأنهم كما يقول: (إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ): أي أمر أصحاب الكهف. والظاهر أنّ متعلّق التنازع هو كيفية التعامل معهم وفيما يصنعون بهم بعد ما ماتوا، فكان هناك فريقان، ولكلٍّ رأيٌّ:

١. فريق أرادوا أن يُخفوا أمرهم (فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ): أي ابنوا جداراً على باب الكهف واستروا أمرهم عن أعين الناس واجعلوهم وراء هذا البنيان. والظاهر أنّ القائلين بذلك هم الوثنيّون، وكأنّهم أرادوا بذلك أن يخفوا أمرهم لكي ينساهم الناس ولا يتحدّثون عنهم باعتبارهم برهاناً ساطعاً لإثبات البعث الذي كانوا ينكرونه، مظهرين ما أخفَوا من عدم الرغبة في بقاء قصّتهم حيّة في النفوس، بقولهم:(رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ) من الصلاح والفلاح، أو من الزيغ والضلال.

ويُشعر بعدم رغبتهم في انكشاف حالهم من الإحياء بعد الإماتة، قولهم: (رَبُّهُمْ) دون أن يقولوا: ربُّنا. وحاصل كلامهم: اتركوهم بحالهم وسدّوا فتحة الكهف وفوّضوا أمرهم إلى الله، فهو أعرف بحالهم.

٢. فريق شاءوا أن ينكشف حالهم ويُستدلّ بهم على إمكان المعاد وسعة قدرة الله سبحانه، ولذلك اقترحوا بناء مسجد على الكهف كما قال: (قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ). وفي مرجع الضمير في قوله:(عَلَى أَمْرِهِمْ)وجهان:

الأوّل: أنّ الضمير يرجع إلى ما عاد عليهم ضمير (فَقَالُوا): أي قال الذين غلبوا على أمر القائلين (ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا)والمراد من الغلبة أحد الأمرين: الغلبة بالحجّة، حيث قامت حجّة على صحّة البعث، أو الغلبة من حيث انحسار الوثنية عن الساحة، واستقرار الديانة التوحيدية.

الثاني: أنّ الضمير يرجع إلى أصحاب الكهف ومعنى (غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ) اطّلعوا على واقع أمرهم وأنّهم كانوا رجالاً مجاهدين في سبيل الله تركوا الأوطان لحفظ الدين، أي عرفوهم حقّ المعرفة.

وعلى كلّ تقدير، تمّ إقرار رأي الفريق الثاني القاضي ببناء مسجد، وموضع للعبادة والسجود لله سبحانه كما قالوا: (لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا)وفي التعبير بالمسجد دون المعبد دلالة على أنّ أصحاب هذا الرأي هم الموحّدون لأنّ المسجد في عرف القرآن هو المكان المخصّص لذكر الله سبحانه، قال تعالى: (وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ) الحج:٤٠.، والآية أفضل دليل على مشروعية بناء المساجد عند قبور الأولياء، بل على قبورهم تبرُّكاً بتربتهم ؛ لأنّ القرآن يذكر ذلك دون ردّ عليه، فلو كان أمراً محرّماً لأشار إليه من دون حاجة إلى استصحاب شريعة من قبلنا، بل أنّ نقل القرآن الكريم أمراً من دون نقد وردّ عليه كاف في حجّيّته.

هذا، ويظهر من كثير من المفسّرين أنّ الاقتراح الثاني كان للمؤمنين بخلاف الاقتراح الأوّل، فإنّه كان للكافرين، وإليك بعض كلماتهم في ذلك:

١. قال الرازي قوله سبحانه: (قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ) قيل: المَلك المسلم وأولياء أصحاب الكهف. تفسير الرازي: ١٠٥/٢١.

٢. قال أبو حيان الأندلسي: وروي أنّ] الطائفة[التي دعت إلى البنيان كانت كافرة، أرادت بناء بيعة أو مصنع لكفرهم فمانعهم المؤمنون وبنوا عليهم مسجداً. البحر المحيط:١١٣/٦.

٣. قال أبو السعود: (قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ) هم المَلك والمسلمون (لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا). تفسير أبي السعود:٢١٥/٥.

٤. قال الزمخشري:(قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ) من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم: ليتّخذ على باب الكهف

مسجداً يصلّي فيه المسلمون ويتبرّكون بمكانهم. تفسير الكشاف:٢/٢٤٥.

إلى غير ذلك من الكلمات الواردة في تفسير الآية، وكأنّ الاتّفاق موجود على أنّ القول بإيجاد البنيان على باب الكهف كان لغير المسلمين، والقول ببناء المسجد على بابه قول المسلمين، والذي يدلّ على ذلك أمران:

حُكم بناء المساجد عند قبور الأولياء

الأوّل: أنّ اتّخاذ المسجد دليل على أنّ القائل كان موحّداً مسلماً غير مشرك، فأيّ صلة للمشرك ببناء مسجد على باب الكهف؟! وإذا كان المشركون يهتمّون بعمارة المسجد الحرام فلأجل أنّه أُنيط بالبيت كيانهم وعظمتهم في الأوساط العربية، بحيث كان التخلّي عنها مساوقاً لسقوطهم من أعين العرب في الجزيرة كتكريمهم البيت الحرام.

أفبعد اتّفاق أكابر المفسّرين، هل يصحّ لباحث أن يشكّ في أنّ القائلين ببناء المسجد على قبورهم كانوا من المسلمين الموحّدين؟

الثاني: ما رواه الطبري في تفسير قوله: (فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ): أنّ المبعوث دخل المدينة فجعل يمشي بين ظهرَي سوقها فيسمع أناساً كثيراً يحلفون باسم عيسى بن مريم(عليهما السلام) فزاده فَرَقاً، فقام مسنداً ظهره إلى جدار من جدر المدينة ويقول في نفسه: أمّا عشيّة أمس فليس على الأرض إنسان يذكر عيسى بن مريم إلاّ قُتل، وأمّا الغداة فأسمعهم وكلّ إنسان يذكر أمر عيسى لا يخاف. انظر: جامع البيان (تفسير الطبري): ١٥ / ٢٦٨ ـ ٢٦٩.

وهذا يُعرب عن أنّ الأكثرية الساحقة كانت موحّدة مؤمنة متديّنة بشريعة المسيح رغم كونهم على ضدّه قبل ثلاثمائة سنة.

هذا، وقد كتبنا رسالة حول مشروعية بناء المساجد على قبور الأنبياء والأولياء، ستوافيك في آخر هذا الجزء إن شاء الله تعالى.

الاختلاف في عددهم

٢٢. (سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا).

كان الاختلاف الأوّل راجعاً إلى أهل المدينة الذين عثروا على الكهف ورأوا بأُمّ أعينهم أجساد اللاجئين إليه، وقد اختلفوا في كيفية التعامل معهم إمّا بإغلاق فتحة الكهف، أو بإقامة مسجد عليهم.

وأمّا هذه الآية فتشير إلى اختلاف ثان يرجع إلى الاختلاف في عددهم، وهذا لا يمتّ إلى أهل المدينة بصلة إذ لا معنى لاختلافهم في عددهم وهم بمرأى من أعينهم، بل يرجع إلى الخائضين في قصّتهم من أهل الكتاب وغيرهم في عهد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أو بعد زمن يسير من وقوع الحادثة. وعلى ذلك يرجع الضمير في قوله: (سَيَقُولُونَ) إلى الناس، حيث كانوا مختلفين في عددهم إلى أقوال:

١. (سَيَقُولُونَ ثَلاَثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ).

٢. (وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ).

ثمّ إنّه سبحانه يصف هذين القولين بقوله:(رَجْمًا بِالْغَيْبِ) وهو تعبير عن القول بغير علم، والرَّجم بالغيب أصله رمي الحجارة إلى مرمىً مجهول لا يعرف الرامي أين تقع.

قال الشريف الرضيّ(رحمه الله): الرَّجم هنا هو القذف بالظنّ والقول بغير علم. ومن عادة العرب أن تسمّي القائل بالظنّ راجماً وقاذفاً، وتسمّي السابّ الشاتم رامياً مراجماً، ويقولون هذا الأمر غيب مُرجّم أي يرميه الناس بظنونهم ويقدرونه بحسبانهم، ومرجّم إنّما جاء لتكثير الفعل كأنّه يُرمى من هاهنا، ومن هاهنا، وإنّما سمّي الظانّ راجماً لأنّه يوجّه الظنّ إلى غير جهة معلومة، بل يظنّ هذا ويظنّ هذا كالراجم الذي لا يعلم مواقع أحجاره إذا رمى بها في الجهات، فتارة تقع يميناً، وتارة تقع شمالاً. تلخيص البيان في

مجازات القرآن: ١٠٧ ـ ١٠٨.

٣. (وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ) وهذا القول لا يردّ عليه القرآن بشيء، بل يقول بعده: (قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ) فهل في هذا الردّ إشعار بتزييف القول الثالث أو لا؟

الظاهر هو الثاني حيث وصف الأوّلَين بالرَّجم بالغيب دون الثالث، ولا ينافيه قوله: (قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ)لماذا؟ لِما تضمّنه من التعقيب بقوله: (إِلاَّ قَلِيلٌ). ولعلّ الطائفة الثالثة هم المعنيّون بقوله: (إِلاَّ قَلِيلٌ)، ويشهد لِما ذكرنا من أنّه ليس إشعاراً بتزييفه، أنّه سبحانه يخبر عن مقدار لبثهم بقوله:

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاَثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا)ثم يقول:(قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا).

ثمّ إنّه سبحانه نهى الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) في هذه الآية عن أمرين، وفي الآية التالية عن أمر ثالث، والأمران هما:

الأوّل: أن يدعَ المِراء والجدل الطويل في أمر أصحاب الكهف (فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ) ويكتفي بإلقاء ما عنده من علم في هذا الصدد في يسر ولين، من غير تجهيل ولا ردّ للخائضين في قصّتهم، وهو ما استثناه تعالى بقوله (إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا) وهو الذي لا سبيل إلى إنكاره ولا يطول الخوض فيه.

قيل: المراد بكون المراء ظاهراً أن لا يتعمّق فيه بالاقتصار على ما قصّه القرآن من غير تجهيل لهم ولا ردّ، لاحظ : الميزان في تفسير القرآن:١٣/٢٦٩. مثل أن يقول: (قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ)، فمسألة عدد هؤلاء الفتية ـ مثلاً ـ من المسائل التي لا سبيل إلى إثباتها إلاّ بطريق الوحي، ومن هنا يصبح الجدل حولها عقيماً، والأخذ والردّ فيها مدعاة للتشويش على الهدف الذي سيقت القصة لأجله.

ولا شكّ في أنّ التمادي في الجدل في القضايا الجزئية وغير المهمّة، هو استنزاف للوقت، وتضييع للجهد، وتأجيج لمشاعر البغض والعداء.

ومن هنا نهى الإسلام عنه، وحذّر من غوائله الخطيرة، ودعا المؤمن إلى ترك المراء ولو كان محقّاً.

الثاني: أن لا يسأل أحداً (ممّن يدّعون العلم في قصة أصحاب الكهف) في شأنهم، وقال: (وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا).

إنّ المسؤول ينبغي أن يكون عالماً بالموضوع الذي يُسأل عنه، معتمداً على الدليل في إثبات أو نفي مسائله، حتى يستهدي به السائل، ويصل إلى الحقّ الذي لا شكّ فيه، وهؤلاء لا حظّ لهم ممّا ذُكر، وإنّما يرجمون بالغيب، ويجازفون في أقوالهم. ولا ريب في أنّ من يَرِد نبع القرآن الفيّاض، وينهل من نميره العذب، لا يبحث عن الأوشال، ولا يسعى نحو السّراب.

٢٣. (وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا):

هذا هو الأمر الثالث الذي نهى سبحانه رسوله(صلى الله عليه وآله وسلم) عنه، وهذا النهي وإنّ كان متوجّهاً إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لكن الظاهر أُريد به عامّة الموحدين حيث إنّه إذا أخبر إنسان عن فعل لنفسه في زمان المستقبل لزم أن يُقرنه بمشيئة الله، بأن يقول: سأفعل ذلك غداً إن شاء الله، كما سيوافيك في الآية التالية، وذلك لأنّ الإنسان وجوده وفعله قائم بالله سبحانه قيام المعنى الحرفيّ بالمعنى الاسميّ، فمثل ذلك لا يصحّ أن يقول سأفعل غداً، لظهوره في استقلاله في مقام الفعل، والمستقلّ في مقام الفعل مستقلّ في مقام الذات. وكأنّ ما في الكون لا يتحقّق إلاّ بإذن وإرادة منه سبحانه. ويشهد لذلك كثير من الآيات التي تقيّد تحقّق الفعل الكوني بإذن الله، حتى الفعل الصادر من الإنسان، قال تعالى:(مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ) الحشر:٥. فلأجل ذلك نهى الله سبحانه النبيّ وعامّة الموحّدين عن نسبة الفعل إلى أنفسهم إلاّ إذا كان مقروناً بالمشيئة، كما قال:

٢٤. (إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا):

قوله تعالى: (إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ) استثناء يحتاج إلى المستثنى منه، والظاهر أنّه محذوف فصار الاستثناء استثناءً مفرغاً، يقول السيد

الطباطبائي في هذا الصدد:(وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ): أي لأجل شيء تعزم عليه (إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا) في حال من الأحوال أو زمان من الأزمنة إلاّ في حال أو في زمان يلابس قولك المشيئة بأن تقول: إنّي فاعل ذلك غداً إن شاء الله أن أفعله أو إلاّ أن يشاء الله أن لا أفعله، والمعنى على أيّ حال: إن أَذِن الله في فعله. الميزان في تفسير القرآن:١٣/٢٧١.

ومع ذلك فهنا احتمال آخر، وهو أنّه مستثنى من كلام النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)المنهيّ عنه، وتقدير الآية: ولا تقولنّ لشيء إنّي فاعل ذلك غداً إلاّ قولاً مقترناً بـ(إن شاء الله).

قوله تعالى: (وَاذْكُرْ) عطف على النهي أعني:(وَلاَ تَقُولَنَّ)، والآية بصدد بيان التدارك، وهو أنّ الإنسان إذا نسب الفعل إلى نفسه في المستقبل ونسي إقرانه بمشيئة الله يتدارك إذا ذكر، كما يقول: (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ). وعلى هذا فالمراد بالربّ حسب الظاهر هو مشيئة الربّ، فهذا تعليم آخر، والتعليم الأوّل تعليم في الابتداء، والثاني تعليم في الأثناء، وبذلك تُعلم صلة الآية بما قبلها.

ثمّ أمره سبحانه، بعد النهي عن الأُمور الثلاثة، بقوله:(وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا): أي ادعُ بهذا الدعاء. فما هو المراد من هذا الدعاء؟

إنّ تبيين المراد يَكْمُن في تعيين المشار إليه في قوله: (مِنْ هَذَا)، والظاهر أنّه يرجع إلى المرجع الأقرب وهو ذكر الربّ إذا نُسي، ويكون المعنى: وأرجُ أن يهديك ربُّك إلى أمر هو أقرب رشداً من النسيان ثم الذّكر، وهو الذّكر الدائم من غير نسيان، فيكون من قبيل الآيات الداعية له(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى دوام الذّكر، كقوله تعالى: (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ) الأعراف:٢٠٥، وذكر الشيء كلّما نُسي ثم ذِكره والتحفّظ عليه كرّة بعد كرّة من أسباب دوام ذكره. الميزان في تفسير القرآن:١٣/٢٧٤.

ولكنّ المفسّرين بين من لم يُعرِ عناية للمشار إليه ولم يبيّن المراد من الفقرة، وبين من جعل المشار إليه قصة أصحاب الكهف، فقال: عسى ربي أن يعطيني من الآيات والدلالات على النبوّة ما يكون أقرب إلى الرّشد وأدلّ من قصة أصحاب الكهف. مجمع البيان:٦/٣٨١. ولاحظ: روح المعاني:١٥/٢٥١، وغيرهما.والوجه الأوّل أفضل وأقرب إلى السياق.

الاختلاف في مدّة المكث

الآيتان: الخامسة والعشرون والسادسة والعشرون(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ... وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا).

(وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاَثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا).

التفسير

بيّن سبحانه الفترة التي قضاها الفتية راقدين في الكهف بقوله:

٢٥. (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاَثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا):

هذا هو الحقّ، فقد مكثوا نائمين (٣٠٩) سنين. وقد روي أنّ يهودياً سأل علي بن أبي طالب(عليه السلام) عن مدّة لبثهم فأخبر بما في القرآن، فقال: إنّا نجد في كتابنا ثلاثمئة، فقال(عليه السلام): «ذاك بِسِنِيّ الشمس وهذا بِسِنِيّ القمر». مجمع البيان:٦/٣٨٤.ولعلّه سبحانه لأجل بيان كلا التاريخين عبّر بقوله: (وَازْدَادُوا تِسْعًا) ولم يقل ثلاثمئة وتسع سنين.

٢٦. (قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا):

ربّما كان بين أحبار اليهود أو غيرهم مَن يقول بغير ذلك، وربّما حاجّوا به النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فأمره سبحانه بقوله: (قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا): أي الذي أنامهم هو أعلم بمقدار مكثهم فلا يصغي إلى قول آخر.

وبما أنّ ما جاء حول أصحاب الكهف من الأخبار الغيبية التي تلقّاها النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) عن طريق الوحي، فقد صار ذلك سبباً لوصفه سبحانه نفسه بقوله: (لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ): أي ما غاب في السماوات والأرض عن إدراك العباد (أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ) وهما صيغتا تعجُّب، أي ما أبصره وما أسمعه، أي ما أبصر الله تعالى بكلّ موجود، وما أسمعه لكلّ مسموع، فلا يخفى عليه شيء (مَا لَهُمْ): أي أهل السماوات والأرض (مِنْ دُونِهِ): أي غيره تعالى (مِنْ وَلِيّ) يتولّى أُمورهم (وَلاَ يُشْرِكُ) اللهُ (فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)لأنّه غنيّ عمّا سواه.

إلى هنا تمّت قصة أصحاب الكهف حسب الآيات القرآنية، بقي هنا كلام حول تعيين مكان الكهف ومحلّ القصة.

الموقع الجغرافي للكهف

ما ذكره القرآن الكريم من هذه القصة هو اللبّ والثمرة، وترك التفاصيل الّتي لا عبرة فيها. وهذه هي سيرة القرآن الكريم حيث يقتصر في سرده للقصص على مختارات من نكاتها المهمّة المؤثّرة في إيفاء الغرض من غير أن يبسط القول فيما يفقد النكتة والعبرة، ومنها التعرّض للأوضاع الجغرافية ومحلّ الكهف. ولذلك اختلفت كلمات المؤرّخين في محلّه، وقد عُثر في مختلف بقاع الأرض على عدّة من الكهوف، وعلى جدرانها تماثيل رجال ثلاثة أو خمسة أو سبعة ومعهم كلب.

وإليك الإشارة إلى تلك المواضع:

١. كهف «إفسوس» قال ابن عاشور: أَبْسُس: كان بلداً من ثغور طَرَسوس بين حلب وبلاد أرمينية وأنطاكية. وليست هي (أفسس) بالفاء، المعروفة في بلاد اليونان بشهرة هيكل المشتري فيها، فإنّها من بلاد اليونان، وقد اشتبه ذلك على بعض المؤرخين والمفسّرين. التحرير والتنوير:٢١/١٥. بكسر الهمزة. وهي مدينة خربة في تركيا على مسافة (٧٣) كيلومتراً من بلدة «إزمير» والكهف على مسافة كيلومتر واحد أو أقل من «إفسوس»، وهذا هو المشهور بين المفسّرين. نعم ليس في فم الكهف مسجد، ولعلّه خرّب عبر السنين.

٢. كهف «رجيب». يقع هذا الكهف ـ الّذي شاهدته عن كثب عندما زرت الأردن لإلقاء محاضرة عام (١٤١٩هـ) ـ على مسافة ثمانية كيلو مترات من مدينة عمّان (عاصمة الأردن) بالقرب من قرية تُسمّى رجيب، والكهف في جبل محفوراً على الصخرة في السفح الجنوبي منه، وأطرافه من الجانبين الشرقي والغربي مفتوحة، وباب الكهف يقابل جهة الجنوب، وفي الغار عدّة قبور على هيئة النواويس البيزنطيّة كأنّها ثمانية أو سبعة.

وفوق الغار آثار صومعة بيزنطية تدلّ النقود والآثار الأُخرى المكتشفة فيها على كونها مبنيّة في زمان الملك جوستينوس الأوّل (٤١٨ـ ٤٢٧م) وآثار أُخرى، بَيْد أنّ الصومعة بدّلت ثانياً ـ بعد استيلاء المسلمين على الأرض ـ مسجداً إسلامياً.

قال السيد الطباطبائي: إنّ مشخّصات هذا الكهف أوضح انطباقاً على ما في القرآن.

٣. كهف جبل قاسيون في الشام بالقرب من الصالحيّة بدمشق الشام يُنسَب إلى أصحاب الكهف.

٤. كهف بالبتراء من بلاد فلسطين ينسبونه إلى أصحاب الكهف.

٥. كهف اكتشف في شبه جزيرة اسكندنافية من أوربا الشمالية، عثروا فيه على سبع جثث غير بالية على هيئة الرومانيين، يُظنّ أنّهم الفتية أصحاب الكهف.

وهناك كهوف أُخرى منسوبة إلى أصحاب الكهف أيضاً، كما يذكر أنّه بالقرب من بلدة نخجوان من بلاد قفقاس يوجد كهف يعتقد أهل تلك النواحي أنّه كهف أصحاب الكهف، ولا يمكن الاعتماد على هذه النقول.

وبما أنّ القصة رومانية وسلطتهم حتّى في أيام مجدهم لم تبلغ نواحي أوربا الشمالية أو القفقاس، فالأَولى تفويض العلم إلى الله سبحانه. انظر: الميزان في تفسير القرآن:١٣/٢٩٥ـ٢٩٩.

الدروس والعبر
إنّ فيما مضى من قصة أصحاب الكهف عبراً وعظات: ١. إذا واجه الموحِّد ما يمنعه من حفظ دينه والعمل بشعائره في وطنه، وجبت عليه الهجرة إلى مكان آخر حتّى يحتفظ بدينه، كما فعل ذلك أصحاب الكهف. ٢. إذا اختار المؤمن الغربةَ وترك الوطن والحياة بين قومه وعشيرته من أجل عقيدته، فسوف تكتنفه الألطاف الإلهية وينشر ربه رحمته عليه، كما كان الحال كذلك في أصحاب الكهف. ٣. إنّ العقيدة أعز الأشياء لدى الموحِّد ولا يعادلها شيء، فإذا كان هناك تصادم بين العقيدة والعيش الرغيد، فالموحِّد يأخذ بالأُولى ويترك الثاني، وقد حكي أنّ أصحاب الكهف كانوا من حاشية الملك ومقرَّبيه ووزرائه، ولكنّهم حين رأوا أنّ بقاءهم في البلاط يصادم عقيدتهم التوحيدية، فإنّهم تركوا البلاط وما فيه من نِعَم، وتمسّكوا بعقيدتهم مهاجرين. ٤. إنّ العيش في الغار مع كونه مظلماً وفاقداً لوسائل الحياة، كان عندهم بسبب ما يعمر قلوبهم من الإيمان، أجملَ من القصور والرياض والنِّعم الّتي كانوا فيها. وهذا هو ديدن الموحِّدين العارفين حيث يرجّحون السجن على عصيان الله تبارك وتعالى، وقد مرّ بنا أنّ النبي يوسف(عليه السلام) عندما خُيّر بين السّجن وارتكاب الحرام، آثر الأوّل وقال:(رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ). يوسف:٣٣.
الآيات: السابعة والعشرون إلى الحادية والثلاثين(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ ... وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا).
(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا * وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءِ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً * أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا).
المفردات
لا مبدِّل: لا مغيّر. لكلماته: لآياته. ملتَحداً: ملجأ، يرجع إليه عند نزول الملمّة. واصبر نفسك: أي ثبِّتها. بالغداة: الغَداة: أوّل النهار. العَشيّ: آخر النهار. يريدون وجهه: يبتغون رضاه وطاعته، فإنّ الإقبال بالوجه آية الرضى. ولا تعدُ عيناك: ولا تصرف عيناك (نظرك) عنهم إلى غيرهم. فُرُطاً: مجاوزاً الحدَّ خارجاً عنه، من قولهم: أفرط إفراطاً إذا أسرف. سُرادقها: السُّرادق: الفُسطاط المحيط بما فيه.

كالمُهل: المُهل: خثارة الزيت ودُرديُّه. وقيل هو النحاس الذائب.

مُرتفقاً: المُرتفق: المتّكأ، يقال بات فلان مرتفقاً أي متّكئاً على مِرفَقه(وهو مابين السّاعد والعَضُد)، قال أبو ذؤيب الهُذَليّ:

نام الخليّ وبتُّ الليل مرتفقاً *** كأنّ عينيَ فيها الصّاب مذبوحُ

أساور: جمع سِوار.

سُندس: السُّندس :الديباج الرقيق.

إستبرق: الإستبرق: ما غَلُظ من الديباج.

الأرائك: جمع أريكة، السرير في الحَجَلة، والحَجَلة كالقبّة على الأسرّة.

التفسير

هذه المجموعة التي تتشكّل من خمس آيات تتحدّث عن أُمور أربعة:

١. أن يتلو النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ما أُوحيَ إليه ولا يعتدّ بمن يقول له بدّله بقرآن آخر.

٢. حبس النفس مع المؤمنين الفقراء، وعدم العدول عنهم إلى غيرهم من المترفين.

٣. مصير الكافرين يوم القيامة وما لهم من أنواع العذاب.

٤. مصير المؤمنين وما لهم من النعم الدائمة.

أمّا الأمر الأوّل فيقول عنه:

٢٧. (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا):

اقتراح المشركين تبديل القرآن بغيره

كان هناك من المشركين مَن يقترح على النبيّ أو يصرّ عليه أن يأتي بقرآن غير هذا أو يبدّله، كما حكى عنهم سبحانه ذلك بقوله: (قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآن غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ) يونس:١٥، ولذلك يأمره سبحانه بقوله: (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ): أي لا يقدر أحد على تبديلها.

والظاهر أنّ المراد من الكلمات هو آيات القرآن الكريم الذي اقتُرح على النبي تبديلُه، وأمّا ما قاله الطبرسي من أنّ المراد لا مغيّر لما أخبر الله به فيه وما أمر به، مجمع البيان:٦/٣٨٥. فهو بعيد لأنّ الخبر لا يقبل التغيير، اللّهمّ إلاّ أن يراد: أي لا مكذّب لما أخبر.

قوله: (وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا): أي إن لم تتبّع القرآن فلن تجد من دون الله ملجأً تذهب إليه إذا نزلت بك مُلمّة. والكلام مبنيّ على الفرض والتقدير وإلاّ فالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أطوع الناس لربّ العالمين، لا تحدّثه نفسه بذلك، وإن شئت قلت: الكلام من قبيل: إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة.

٢٨. (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا):

النهي عن طرد المعدمين من حوله

روى الواحدي عن سلمان، قال: جاءت المؤلَّفة القلوب إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): عُيينة بن حصن والأقرع بن حابس وذووهم، فقالوا: يا رسول الله، إنّك لو جلست في صدر المجلس ونحّيت عنّا هؤلاء وأرواح جبابهم ـ يعنون سلمان وأباذرّ وفقراء المسلمين وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها ـ جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله تعالى: (وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ...) حتى بلغ (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا...)يتهدّدهم بالنار، فقام النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)يلتمسهم حتى إذا أصابهم في

مؤخَّر المسجد يذكرون الله عزّ وجلّ، قال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أُمّتي، معكم المحيا، ومعكم الممات. أسباب النزول:١٧١.

يلاحظ عليها: أنّ الآية تدلّ على أنّ هناك طائفة من المشركين عابوا على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) التفاف الفقراء حوله، وأنّها جاءت تنكر عليهم تلك النظرة المستعلية لفقراء المؤمنين، معلنةً أنّ الامتياز بالإيمان والتقوى.

وأمّا كون المقترحين من المؤلّفة قلوبهم فهذا لا ينجسم مع لحن الآية، وذلك لأنّه سبحانه وصف المقترحين بأوصاف ثلاثة:

١. (أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا).

٢. (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ).

٣. (وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا).

وهذه الصفات تنطبق على المشركين، ولازم ذلك كون الآخرين موصوفين بخلافها، مع أنّ كون الآية مدنية يلازم كون المقترحين مسلمين.

وعلى كلّ تقدير فالله سبحانه خصّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، لتحبيب قلوب المستضعفين، بأُمور:

١. (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ): أي ثبّت نفسك واحبسها (مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ)وهي أوّل النهار (وَالْعَشِيِّ) وهو آخر النهار، والمراد هنا أنّهم يدعون ربّهم دائماً، يقال: أنا ضربت هذا الأمر ظهره وبطنه، أي لاحظت جوانب الأمر كلّها، وهكذا ذكر الغداة والعشيّ، فهو كناية عن عامّة الأوقات.

ثمّ إنّه سبحانه يصف الذين أمر النبيّ بملازمتهم بقوله: (يُرِيدُونَ وَجْهَهُ): أي يطلبون رضاء الله سبحانه، بعيداً عن الرِّياء والسمعة.

٢. (وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ): أي لا تتجاوز عيناك عنهم بالنظر إلى غيرهم من أبناء الدنيا، وكأنّه كناية عن عدم تحقيرهم وتركهم ومصاحبة غيرهم، فإنّ الإنسان إذا صرف نظره عن شخص إلى شخص آخر فقد حقّره إذا استمرت الحال. فقوله: (وَلاَ تَعْدُ) من عدا يعدو وتعدو، فإذا دخلت عليه لام النهي يجزم آخره بحذف الواو، وحاصل الكلام: لا تُعرض عنهم (تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) الجملة حالية من الضمير في قوله: (عَيْنَاكَ)وبيان لغاية صرف النظر عن الفقراء وإعماله في حقّ الأغنياء، فإنّ الداعي لهذا هو ابتغاء زينة الحياة الدنيا، التي كان يستمتع بها المترفون، ولكن زينة الحياة الدنيا فانية زائلة، وأمّا ما عند هؤلاء من الإيمان والإخلاص والمكارم النفسانية، فهو الباقي الذي لا يزول.

إنّ هؤلاء المترفين إنّما يريدون بتكبّرهم على الآخرين أن يستروا نقائصهم، كما قال الكاتب المعاصر: «أعلمُ الناس بنواقصهم المتكبّرون، لأنّهم يسترون ما يعلمون منها بالغطرسة والاستعلاء» القيم الإنسانية للسيد محمود الموسوي:٤٨/١.، وما درَوا:

الناس من جهة التصوير أكفاءُ *** أبوهمُ آدم والأُمّ حوّاءُ

فإن يكن لهمُ في أصلهم شرفٌ *** يُفاخرون به، فالطينُ والماءُ

٣. (وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا) هذا هو الأمر الثالث الذي خصّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وحاصله الإعراض عن اقتراح المشركين، الذين جعلنا قلوبهم غافلة عن ذكرنا بتعريضها للغفلة. وبما أنّ الجملة ربّما توهم الجبر وأنّه سبحانه هو القائم بجعل قلبه غافلاً عن ذكر الله، جاء قوله: (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)دليلاً على أنّ السبب لذلك هو اتّباعه للهوى، نظير قوله سبحانه:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ) الصف: ٥. حيث صارت إزاغة الله نتيجةً لزيغ الكافر نفسه، ويؤكّد ذلك بقوله: (وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا): أي وكان أمره في اتّباع الهوى وترك الإيمان فرطاً أي متجاوزاً لحدود الحقّ.

إلى هنا تمّت الأُمور الثلاثة التي خصّ بها النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، في مقابل المشركين. ثمّ أمره برابع الأُمور:

٢٩.(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا):

الإنسان مخيّر بين الإيمان والكفر

قوله:(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ) عطف على قوله: (وَاصْبِرِ)، ولعلّ المراد أن يقول النبيّ:(الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ) ولا يزيد على ذلك ولا ينقص، فإنّ الجدال مع القوم غير نافع، وعلى هذا فالحقّ مبتدأ، وقوله: (مِنْ رَبِّكُمْ)خبره، على خلاف ما عليه صاحب الكشّاف حيث قال: الحق خبر مبتدأ محذوف.(تفسير الكشاف: ٢/ ٢٥٨.) ولعلّ المبتدأ عنده كلمة هذا.

قوله: (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)الظاهر أنّ هذا من كلامه تعالى يخاطب به نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم) وليس داخلاً في مقول القول. الميزان في تفسير القرآن: ٣٠٤/١٣. وهو أفضل دليل على أنّ الإنسان مخيّر لا مسيّر. وقد نظم الفقيه الكبير زين الدين العاملي المعروف بالشهيد الثاني مضمون الآية في بيتين، فقال:

لقد جاء في القرآن آية حكمة *** تدمّر آيات الضلال ومن يجبّر

وتخبر أنّ الاختيار بأيدينا *** «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفرْ»[١]

[١] مقدمة الروضة البهية:١٨٨.

أقول: إنّ هذه الآية من الآيات الدالّة بوضوح على أنّ الإنسان مخيّر في إيمانه وكفره، وقد استدلّ بها القائلون بالاختيار على مختارهم، ولمّا كان الرازي من المجبّرة قال:

لقد سألني بعضهم عن هذه الآية فقلت: هذه الآية من أقوى الدلائل على صحّة قولنا، وذلك لأنّ الآية صريحة في أنّ حصول الإيمان وحصول الكفر موقوف على حصول مشيئة الإيمان وحصول مشيئة الكفر، ثم حصول ذلك القصد والاختيار إن كان بقصد آخر يتقدّمه، واختيار آخر يتقدّمه لزم أن يكون كلّ قصد واختيار مسبوقاً بقصد آخر إلى غير النهاية، وهو محال، فوجب انتهاء تلك القصود وتلك الاختيارات إلى قصد واختيار يخلقه الله تعالى في العبد على سبيل الضرورة عند حصول ذلك القصد الضروري، والاختيار الضروري يوجب الفعل، فالإنسان شاء أو لم يشأ إن لم تحصل في قلبه تلك المشيئة الجازمة الخالية عن المعارض لم يترتّب الفعل، وإذا حصلت تلك المشيئة الجازمة شاء أو لم يشأ يجب ترتُّب الفعل عليه، فلا حصول المشيئة مترتِّب على حصول الفعل، ولا حصول الفعل مترتِّب على المشيئة، فالإنسان مضطرّ في صورة مختار. تفسير الرازي:١١٩/٢١.

أقول: ما ذكره ليس شيئاً جديداً بل هو من أدلّة المجبّرة، حيث قالوا: إنّ كلّ فعل اختياريّ بالإرادة، ولكنّها ليست أمراً اختيارياً وإلاّ لزم أن تكون مسبوقة بإرادة أُخرى، وينتقل الكلام إليها فإمّا أن تقف السلسلة فيلزم الجبر في الإرادة نهاية، وإمّا أن لا تقف فيلزم التسلسل، فبما أنّ الثاني باطل ثبت الأوّل.

الإجابة عن شبهة الرازي المجبّر

ثمّ إنّ الرازي خلط بين الشبهتين، فجمع بينهما:

إحداهما: أنّ ما في الكون ينتهي إلى إرادة الله سبحانه، فإذا تعلّقت إرادته بشيء ومنه أفعال العباد فيكون العبد في فعله مسيّراً لا مخيّراً.

ثانيتهما: أنّ الميزان في كون الشيء اختيارياً كونه صادراً عن إرادة، فلو كانت الإرادة اختيارية فيلزم أن تكون مسبوقة بإرادة أُخرى، فلو كانت الثانية اختيارية يجب أن تكون مسبوقة بإرادة ثالثة، وهكذا فيتسلسل، فلا محيص من القول بأنّ الإرادة ليست إرادية بل فعلاً صادراً عن النفس عن جبر.

وهذا هو الإشكال في المقام، ولكنّ الرازي لم يفصّل بينهما بشهادة أنّه ـ دفعاً للتسلسل ـ جعل إرادة العبد مسبوقة بإرادة الله سبحانه وقال: إنّ إرادة العبد مسبوقة بإرادة الله سبحانه وهو إن أراد شاء العبد، وإلاّ فلا. مع أنّ الشبهة الثانية لا تحتاج إلى إسناد إرادته بإرادة الله، بل تكفي كونها صادرة عن النفس بلا اختيار، وها نحن نجيب عن الشبهة بالتقرير التالي فنقول: إنّ الإرادة بما هي فعل النفس يصدر عنها بلا سبق إرادة فيسقط قول المستدلّ: «بأنّها إمّا مسبوقة بإرادة أُخرى، فإمّا أن تقف أو تتسلسل»، بل نقول إنّها تصدر عن النفس بلا سبق إرادة، ومع ذلك فالإرادة فعل اختياري للنفس، وما اشتهر من أنّ كلّ فعل اختياريّ ما يكون مسبوقاً بالإرادة فهو صحيح في الأفعال الخارجية للنفس، وأمّا الأفعال الصادرة عنها بلا توسيط شيء فهي اختيارية وإن كانت غير مسبوقة بالإرادة، وذلك لأنّ الله سبحانه خلق النفس الإنسانية مختارة بالذات، فما يصدر عنها من الإرادة فإنّما يصدر باختيارها.

وإن شئت التفصيل فنقول: إن جعل ملاك الفعل الاختياريّ كونه مسبوقاً بالإرادة حتى تخرج الإرادة عن إطار الفعل الاختياريّ، أمر ممنوع، بل المناط في اختياريّة الفعل سواء أكان فعلاً جوارحيّاً أو جوانحياً، كونه صادراً عن فاعل مختار بالذات غير مجبور في صميم ذاته ولا مضطرّ في حاقّ وجوده، بل الاختيار مخمور في ذاته وواقع حقيقته.

وإن شئت فاستوضح الحال بأفعاله سبحانه، فإنّها كلّها اختيارية لكن لا بمعنى كونها مسبوقة بالإرادة التفصيلية الجزئية الحادثة لكونه سبحانه منزّهاً عن مثل هذه الإرادة، بل بما أنّه فاعل مختار بالذات، فلأجل ذلك تصبح أفعاله سبحانه في ظلّ هذا الاختيار الذاتيّ، أفعالاً اختيارية، والنفس الإنسانية في خلاّقيتها بالنسبة إلى الصور العلمية والإرادة التفصيلية مثال للواجب سبحانه: (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). النحل: ٦.

ثمّ إنّ لأعلام الإمامية أجوبة أُخرى عن هذا الإشكال ذكرناها على وجه التفصيل في محاضراتنا في الإلهيات.(لاحظ : الإلهيات: ٢ / ٣٠٥ ـ ٣١٢).

وبعد ذلك فلنعد إلى تفسير ما بقي من الآية:

قوله تعالى: (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا).

لمّا أوكل سبحانه أمر الإيمان والكفر إلى الإنسان نفسه، بدأ ببيان نتيجة مَن يختار الكفر، وبما أنّ المراد من الكفر هنا هو الشرك، والشرك ظلم عظيم عند الله وتعدٍّ لحقوقه، قال سبحانه: (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ): أي المشركين، الأمرين التاليين:

١. بما أنّ هؤلاء المترفين كانوا يعيشون في الدنيا في ظل سرادقات عالية وقد هُيّئت لهم أسباب الترف من الأكل والشرب بأحسن الوجوه وأفضلها، صار ذلك سبباً لتجسّد كلّ ذلك في الحياة الأُخروية بشكل آخر، أمّا العيش في السرادقات العالية المزينة بألوان من الأقمشة فيتجسّد في الآخرة كما يقول: (نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا) فالسُّرادق في الحياة الدنيا من الأقمشة الفاخرة، وأمّا في الآخرة فهو من النار.

قال الشريف الرضيّ: السُّرادق هو الفسطاط المحيط بما فيه، فقوله: (أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا) كناية عن إحاطة النار، فلا ينجو منها ناج. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١١٠.

٢. أنّ هؤلاء كانوا يعيشون في هذه الخيام وحولهم جوار وغلمان يخدمونهم بأنواع الأشربة والطعام، وهذا يتجسّد في الآخرة بشكل آخر فيقول: (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا): أي وإن طلبوا الغَوث من حرّ النار، وطلبوا ماءً لشدّة ماهم فيه من العذاب(يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ).

وقد فسّر «المهل» بوجهين:

أ. درديّ الزيت الذي له ريح نتنة.

ب. النحاس المذاب.

وعلى كلّ تقدير، فهذا الشراب إذا قدّم لهم، فقبل أن يشربوا منه شيئاً، تحترق به وجوههم كما يقول: (يَشْوِي الْوُجُوهَ) إذا أرادوا أن يشربوه وقرّبوه من أفواههم، فلو كانوا في الحياة الدنيا يُسقَون أشربة باردة لذيذة، فذلك سيتجسّد في الآخرة بالمهل الذي يشوي الوجوه.

ثمّ إنّه سبحانه يصف ذلك المهل الذي يُجازى به هؤلاء بقوله:(بِئْسَ الشَّرَابُ): أي ما أقبح هذا الشراب الذي لا يطفئ غُلّة الإنسان، بل (يَشْوِي الْوُجُوهَ) ويحرقها قبل أن يصل إلى أفواه الظّماء!!

قوله: (وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) في معنى الفقرة وجهان:

الأوّل: أنّ المرتفق بمعنى المتّكأ وهو ما يُعتمد عليه بالمِرفَق، أعني المِخدَّة، نظير قوله سبحانه: (مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) آل عمران:١٩٧، والمعنى: ساءت النار متّكأً لمن يطلب فيها الاستراحة.

الثاني: أنّها بمعنى مجتمعاً أي ساءت مرافقة، والمرافقة لا تكون إلاّ باجتماع جماعة. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١١٠.

إلى هنا تمّ وصف مصير الظالمين المشركين، ثم ينتقل البيان القرآني لوصف مصير المؤمنين الموحّدين، فصارت أوصافهم على طرف النقيض من أوصاف المجرمين.

٣٠. (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً):

مصير المؤمنين في الآخرة

أخبر سبحانه في هذه الآية عن مآل المؤمنين على وجه الإجمال وقال: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) فالله سبحانه لا يضيع أعمالهم كما يقول: (إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً) وقد تكرّر إخباره سبحانه عن شأنه في حقّ أعمال المؤمنين، قال سبحانه: (وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) البقرة:١٤٣، والمراد من الإيمان هو الصلوات التي صلاّها المؤمنون نحو القبلة الأُولى (بيت المقدس)، وقال: (لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ) آل عمران:١٩٥..

٣١. (أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا):

وقد وصف سبحانه جزاء المؤمنين والعاملين الصالحات الذين كانوا أشواكاً في أعين المشركين، حتى اقترحوا على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يردّهم عن ساحته ومجالسته بأُمور:

١. (أُولَئِكَ): أي المؤمنون العاملون للصالحات (لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ): أي لهم إقامة دائمة في جنات تجري من تحت قصورهم أنهار. فقوله: (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ) بمعنى أنّها تجري من تحت قصورهم وأماكنهم، بشهادة قوله سبحانه: (لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ) الزمر:٢٠..

٢. (يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ) جمع سوار (مِنْ ذَهَبٍ): أي يلبسون فيها أساور من ذهب تكون حلية لهم، فلو حرم الله سبحانه عليهم التحلّي بالذهب في الحياة الدنيا فقد أباحه لهم في الآخرة ؛ وذلك لأنّ التحلّي بالأساور الذهبية في الحياة الدنيا يورث الغفلة عن الله سبحانه، وهذا بخلاف الآخرة حيث تنكشف فيها الحقائق ويتجلّى سبحانه على عباده بأفضل تجلّياته.

٣. (وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ): أي يلبسون رقيق الحرير وغليظه. واختير من الألوان، اللون الأخضر لأنّه أرفق بالأبصار. قال المُرقّش(من شعراء الجاهلية):

تراهنّ يلبسنَ المشاعرَ مرّةً *** وإستبرق الدّيباج طَوراً لباسُها

٤. (مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ): أي يتّكئون فيها على سرر مُزدانة بالستور. وقد ذكرنا في المفردات بأنّ الأريكة هي السَّرير في الحَجَلة، والحَجَلة كالقُبّة على الأسرّة.

ثمّ إنّه سبحانه يثني على ذلك الجزاء بقوله: (نِعْمَ الثَّوَابُ): أي نِعمتِ الجنة جزاء لهم (وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا): أي حسنت منزلاً ومقيلاً. ونظير المقام في الثناء على جزاء المؤمنين قوله: (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا). الفرقان: ٧٥ ـ ٧٦.

الآيات: الثانية والثلاثون إلى السادسة والثلاثين(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ ... لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا).

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَاب وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْل وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا).

المفردات

جنَّتين: الجنّة: البستان، وهي من الاجتنان والاستتار، لاستتار أرض الجنة بالأشجار.

أعناب: كُروم منوّعة.

حففناهما بنخل: من حَفّ القوم بالشيء إذا أطافوا به، وحِفاف الشيء: جانباه، فقوله: (وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْل): أي جعلنا النخل محيطاً بهما.

أُكُلها: ثمرها.

لم تظلِم: لم تنقص، يقول الشريف الرضيّ: بمعنى لم تمنع منه شيئاً، وذلك لأنّ الجنة إذا أخرجت الثمر على تمامه وكماله، حسن أن يقال: إنّها لم تظلم منه شيئاً. انظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١٤٧ .

صاحبه: الصاحب: المصاحب. ولعلّه كانت بينهما صلة وخلطة.

يحاوره: يجادله ويخاطبه.

أعزُّ نَفراً: أعزُّ عشيرة وأكثر أنصاراً وخدماً. ويحتمل أن يراد به الولد بقرينة قول مصاحبه كما سيأتي.

تَبيد: تَفنىَ وتهلك.

قائمة: ثابتة غير فانية، أو متحقّقة.

منقلَباً: مرجعاً وعاقبة.

التفسير

يمثّل الله سبحانه في هذه المجموعة والمجموعة اللاحقة، حال الكافر بالله والمنكر للحياة الأُخروية والمؤمن بهما، فالأوّل يركن إلى الدنيا ويطمئنّ بها، وهذا هو المذكور في هذه المجموعة، وأمّا حال المؤمن فسيأتي في المجموعة التالية.

وبما أنّ الزعماء المترفين من المشركين طلبوا من النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) طرد المؤمنين الفقراء حتى يجتمعوا معه في مجلس واحد، وأنّهم لم يطلبوا ذلك إلاّ بدافع الاغترار بأموالهم وثرواتهم، جاء التمثيل مبيّناً بأنّ المال ظلٌّ زائل، وربّما ينقلب الغني فقيراً، وأنّ أساس الكرامة عند الله هو التقوى.

وحقيقة ذلك التمثيل أنّ رجلين كان أحدهما مؤمناً قانعاً راضياً بما قُسم له، وكان الآخر مشركاً غنيّاً متبجّحاً بغناه، فقال لصاحبه المؤمن مباهياً مفتخراً: (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا) وما هذا إلاّ لأنّه كان يملك جنتين من أعناب ونخل مطيفاً بهما، يتوسّطهما

زرع وافر، وقد اقتضت مشيئته سبحانه بأن تأتي الجنتان أُكلها ولم تنقص منه شيئاً، وراح صاحب الجنتين المثمرتين يتيه على صاحبه بكثرة ماله وأتباعه.

وفي ظلّ هذا الشعور بالزهو والغرور، قال ـ وقد دخل جنّته ورأى ما تزخر به من خير وجمالَ ـ : ما أظنّ أن تفنى هذه الجنة وهذه الثمار ـ أي أنّها تبقى أبداً ـ وأخذ، تحت وقع ذلك الشعور الطاغي بالغرور، يكذّب بالساعة، ويقول: ما أحسب القيامة آتية!! وإن صحّ ما يقوله الموحّدون من أنّ هناك نشأة أُخرى، فإنّ ربّي سيعطيني خيراً من هذه الجنة، بشهادة إعطائي الجنة في هذه الدنيا دونهم، وهذا دليل على كرامتي عليه.

هذا ما كان يتفوّه به وهو يمشي في جنته مختالاً، وأمّا الكلام الذي واجهه به صاحبه وانطوى على الحكمة والموعظة الحسنة، فسيأتي في المجموعة الثانية. وإليك تفسير الآيات:

٣٢. (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَاب وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْل وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا):

منطق الكافر الثريّ

قوله تعالى: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً) قوله:(لَهُمْ) يمكن أن يكون متعلّقاً بالفعل المتقدّم(وَاضْرِبْ) أو متعلّقاً بلفظة(مَثَلاً)، قوله: (رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا) أُريد به الرجل الكافر (جَنَّتَيْنِ) بستانين (مِنْ أَعْنَاب وَحَفَفْنَاهُمَا): أي أحْدَقناهما (بِنَخْل) وأحطناهما به (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا): أي جعلنا الزرع فاصلاً بين الجنتين، فالجنتان تكتنفان بالنخل، ويتوسّطهما الزرع من حبٍّ وغيره.

٣٣. (كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَرًا):

قوله :(كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا): أي أثمرتا إثماراً كثيراً معجباً (وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا): أي لم تنقص من أُكلها شيئاً، بل أثمرتا ثمراً كثيراً مستوفياً كما تثمر الأشجار في التربة الخصبة (وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَرًا)بتحريك الهاء لغة في النَّهْر، نظير قوله سبحانه: (إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَر) البقرة:٢٤٩. وتفجير النَّهر في البساتين من أغلى أُمنيّات أهل مكّة وما والاها، ولذلك كان من ضمن اقتراحاتهم (من باب الإعجاز) هو قولهم: (حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا). الإسراء:٩٠.

قال الطبرسي في توضيح معنى الفقرة المتقدّمة: شققنا وسط الجنتين نهراً يسقيهما حتى يكون الماء قريباً منهما، يصل إليهما من غير كدّ وتعب. مجمع البيان:٦/٣٩٤.

٣٤. (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا):

الضمير في (لَهُ) يرجع إلى الرجل، والمراد من (ثَمَرٌ) أنواع المال كما في صحاح الجوهري، وقال الراغب: ويكنّى به عن المال المستفاد، وعلى ذلك حمل ابن عباس (وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ) المفردات للراغب: ٨١ ، مادة «ثمر».: أي كان للرجل أموال أُخرى من ذهب وفضة ادّخرها من أموال الجنتين ومن تجارات أُخرى. وعلى هذا فقد أظلّته خيرات الدنيا بأنواعها، فمكان أن يشكر الله سبحانه على هذه النعم الوافرة، قعد على سنام العزّة والكبرياء، وداخله الزهو والخيلاء (فَقَالَ) معرباً عن كفره (لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ) ويراجعه الكلام:(أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا) فأخذ يفتخر بوفرة ماله، وعزّة عشيرته أو خدمه أو ولده.

٣٥. (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا):

قوله تعالى: (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ): أي دخل الكافر بستانه وهو ظالم لنفسه، حيث عرّضها للعقاب وحرمها من الثواب، عندما هامَ بحبّ الدنيا وأَسَرته مباهجها(قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا): أي لا أعتقد أنّها تنقص وتفنى فهي باقية عبر الزمان!!

وهكذا ألقى الغرور بالنعمة حجاباً بين عقله وبين الواقع المحسوس، فتناسى زواله المحتوم!!

٣٦. (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا):

وهنا استبدّ به الغرور أكثر، وطغت عليه النظرة الماديّة إلى الحياة، فقال: (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً)وهذا التعبير حاك عن كونه منكراً للمعاد، ومن ثمّ منكراً للرسالات السماوية، ومع ذلك لمّا احتمل قيام الساعة تمنّى أُمنيّة باطلة مثل عقيدته وقال: (وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا): أي من هذه الجنة (مُنْقَلَبًا): أي إن كان يوم القيامة حقّاً ـ كما يقول الموحّدون ـ فلي فيه خير من هذه الجنة، عاقبة.

وقد تفوّه بهذه الفقرة إمّا تهكّماً بصاحبه وأنّ مصيره يوم القيامة أفضل من مصيره كما في هذه الدنيا، أو أنّه لمّا كان معجَباً بنفسه تمنّى هذه.

هذا هو منطق ذلك الثريّ الكافر، وأمّا الرجل المؤمن الذي كان أقلّ منه مالاً ونفراً فله منطق آخر يتّسم بالحكمة والموعظة الحسنة، حيث فنّد فيه أوّلاً مقالة صاحبه، ثم أرشده إلى سبيل الهداية، وطريق الخير، ولو كان للرجل أدنى عقل ووعي لنزل عن صهوة زهوه وخيلائه كما قال:

الآيات: السابعة والثلاثون إلى السادسة والأربعين(قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ... ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً).

(قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَاب ثُمَّ مِنْ نُطْفَة ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ للهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا * وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْء مُقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً).

المفردات

يحاوره: يجادله، ويعظه، ويردّ على منطقه.

سوّاك: خلقك سويّاً من غير عيب ونقص.

لكنّا: أصله «لكن أنا» حذفت الهمزة تخفيفاً ونقلت حركة الهمزة إلى نون «لكن» ليكون دليلاً على المحذوف، فأُدغمت النونان فصارت لكنّا، فيقرأ على إثبات الألف وقفاً ووصلاً. وعن بعض القرّاء حذف الألف في حال الوقف.

حُسباناً: اختلف المفسّرون في تفسير هذه اللفظة، فقال الطبرسي: أصل الحسبان السهام التي تُرمى لتجري في طَلَق واحد، وإنّما يقال لما يُرمى به حُسبان، لأنّه يكثر كثرة الحساب. مجمع البيان:٦/٣٩٨.(والطَّلَق: الشوط الواحد في جري الخيل).

ولو أُريد هذا فيكون مناسباً للمطر المُهلك أو الصاعقة.

وقال الزمخشري: هو مصدر كالبطلان والفقدان، بمعنى الحساب والمراد المحسوب والمقدَّر أي مقدَّراً قدَّره الله تعالى وحسِبه، وهو الحكم بتخريبها. وقال الزّجّاج: عذاب حسبان، وذلك الحسبان حساب ما كسبت يداك. تفسير الكشاف:٢/٢٦٠. وعلى كلّ تقدير المراد هو العذاب.

صعيداً: الصعيد: وجه الأرض.

زلَقاً: تصير بحيث تزلق عليه الرِّجل. وكأنّه كناية عن صيرورة الأرض تراباً أملس لا تثبت فيه قدَم.

غوراً: الغائر في الأرض: الغائص فيها.

أُحيط بثمره: أُهلك وأحاط العذاب به، يقال: أُحيط ببني فلان إذا هلكوا عن آخرهم.

يقلّب كفّيه: نوع تحريك لليدين للمتحسّر.

خاوية: ساقطة.

عروشها: جمع عرش، وهي الأعمدة التي تعتمد عليها الكروم.

منتصراً: ممتنعاً بقوّته.

الوَلاية: ولاية النصرة والإعزاز. وسيوافيك ما هو الفرق بين الوَلاية (بالفتح)، والوِلاية (بالكسر).

عُقْباً: عاقبة.

هشيماً: الهشيم: ما يُكسر ويحطّم من يبَس النبات.

تذروه: الذرّ، والتذرية: تطيير الريح الأشياء الخفيفة في كلّ اتّجاه.

التفسير

منطق المؤمن بالآخرة

قبل الدخول في تفسير الآيات نشرح ما قدّمه مصاحبه له من الموعظة والنصيحة. وبما أنّه لم يتأثّر من كلامه ولم يرتدع عمّا هو فيه من بَطَر وغرور بالنعمة، جاءه العذاب فأَهلك ما كان يملك. وإليك خلاصة نصحه قبل تفسير الآيات.

قال له: كيف كفرت بالله سبحانه مع أنّك كنت تراباً فصرت نطفة، ثمّ رجلاً سويّاً، فمن نقلك من حال إلى حال وجعلك سويّاً معتدل الخلقة؟

وبما أنّه ليس في كلامه شيء يدلّ على إنكاره الصانع، فلابد أن يقال إنّ إنكاره للمعاد ـ كما هو صريح كلامه ـ إنكار لقدرته على المعاد.

فإن افتخرت أنت بالمال، فأنا أفتخر بأنّي عبد من عباد الله لا أُشرك به أحداً.

ثمّ ذكّره بسوء العاقبة، قائلاً له: لماذا لم تقل حين دخولك البستان ما شاء الله، فإنّ الجنّتين نعمة من نِعَم الله سبحانه، فلو بذلت جهداً في عمارتها فإنّما هو بقدرة الله تبارك وتعالى.

ثمّ أشار إلى نفسه، وقال: أنا وإن كنت أقلّ منك مالاً وولداً، ولكن أرجو أن يجزيني ربّي في الآخرة خيراً من جنّتك، كما أترقّب أن يرسل عذاباً من السماء على جنّتك فتصبح أرضاً صلبة لا ينبت فيها شيء، أو يجعل ماءها غائراً ذاهباً في باطن الأرض على وجه لا تستطيع أن تستحصله.

قال ذلك صاحبه وهو يندّد به ويحذّره من مغبّة تماديه في كفره وغيّه، ويتكهّن له بمستقبل مظلم.

وعندما جاء العذاب وأحاط بثمره، ففي ذلك الوقت استيقظ الكافر من رقدته فأخذ يقلّب كفّيه تأسُّفاً وتحسّراً على ما أنفق من الأموال في عمارة جنّته، وأخذ يندم على شِركه، ويقول: يا ليتني لم أكن مشركاً بربّي، ولكن لم ينفعه ندمه، ولم يكن هناك من يدفع عنه عذاب الله، ولم يكن منتصراً من جانب ناصر.

إذا وقفت على حاصل الحوار، فلنرجع إلى تفسير الآيات:

٣٧. (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَاب ثُمَّ مِنْ نُطْفَة ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً):

بدأ صاحبه المؤمن حواره بإنكار مقالته كما يقول: (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ) ويجيب عن كلامه: (أَكَفَرْتَ بِالذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَاب ثُمَّ مِنْ نُطْفَة ثُمَّ سَوَّاكَ) عدلك وصيّرك (رَجُلاً).

خاطبه بقوله: (أَكَفَرْتَ) وأراد به الشّرك الذي يلازم إنكار الساعة، لا الكفر بمعنى نفي الصانع والخالق، والدليل على ذلك أنّ المحاور يستدلّ على إمكان المعاد بالخلق الأوّل، فإنّ القادر على الخلق الأوّل قادر على الخلق الثاني، والدليل على أنّه يستدلّ بالخلق الأوّل قوله: (بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ)إشارة إلى الأجزاء التي تتكوّن منها النطفة، فإنّ الجميع متّخذ من تراب الأرض(ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً)سويّاً. فهذا الكلام يدلّ على أنّ محور الحوار إنكار البعث من جانب المشرك والاستدلال عليه من جانب الموحّد.

ولعلّ الله سبحانه ألهمه هذا الدليل الذي أُشير إليه في القرآن الكريم أكثر من مرّة، منها قوله سبحانه: (وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ) الإسراء:٤٩ـ ٥١، وقوله سبحانه: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ). يس:٧٨ و ٧٩.

٣٨. (لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا):

لمّا ردّ على صاحبه مقالته التي أظهر فيها الشرك أبان عن عقيدته فقال: (لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي): أي لكن أنا أقول: هو الله ربّي، وأنّ مصيري في الدنيا والآخرة بيده (وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا): أي لا أُشرك في القول بربوبيّة غيره. والظاهر أنّ الآية ناظرة إلى التوحيد في الربوبيّة لا العبادة، كما في بعض التفاسير، فمّن يعتقد بربوبيّته يلزمه أن يعتقد بمعاده.

٣٩.(وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا):

لمّا كان شعار المشرك قوله: (مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا) المشعر باستغنائه عن الله سبحانه في بقاء البستان، ردّ عليه مصاحبه بقوله: (وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ) وتقدير الآية: وإذ دخلت جنّتك لولا قلت، أي لماذا لم تقل: ما شاء الله لا قوة إلاّ بالله؟ ولفظة (لَوْلاَ)تحضيضيّة نظير الحثّ والتحضيض في قول الوالد لولده: لولا قرأت القرآن، وبذلك نبّه المؤمن صاحبه بأنّ الشعار الصحيح هو قوله: ما شاء الله لا قوة إلاّ بالله، أي هذه الجنة هي التي شاء الله أعطاءها له، ولا قوة إلاّ بالله، فالجميع من مظاهر قدرته.

قال الشيخ محمد متولّي الشعراوي: وذكرنا في مدخل تفسيره:٣٨/١. أنّ سيدنا جعفر الصادق(رضي الله عنه) كان عالماً بكنوز القرآن، ورأى النفس البشرية، وما يعتريها من تقلّبات تعكّر عليها صَفْو الحياة من خوف أو قلق أو همّ أو حزن أو مكر، أو زهرة الدنيا وطموحات الإنسان فيها. فكان (رضي الله عنه) يُخرج لهذه الداءات ما يناسبها من علاجات القرآن. ثمّ نقل الرواية عنه(عليه السلام) وضمّنها شيئاً من تعليقاته. تفسير الشعراوي:١٤/٨٩١٥ـ ٨٩١٦.

وها نحن نورد منها ما يخصّ المقام.

روى الشيخ الصّدوق بإسناده عن أبان بن عثمان وغيره، عن الصادق جعفر بن محمد(عليه السلام)، قال:

«عجبتُ لمن فَزِع من أربع كيف لا يَفْزَع إلى أربع:... وعجبتُ لمن أراد الدنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قوله تبارك وتعالى:(مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ) فإنّي سمعت الله عزّ وجلّ يقول بعقبها: (إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ)». الخصال: ٢١٨، باب الأربعة، برقم ٤٣.

قوله تعالى: (إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا) جاء في مقابل قول المشرك: (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا). ولعلّ التعبير هنا بالولد قرينة على أنّ المراد من (نَفَرًا) في كلام المشرك هو الولد. فقوله: (إِنْ تَرَنِ)جملة شرطية، وجواب الشرط يأتي في الآية التالية.

٤٠. (فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا):

هذه الآية تجسّد قوله سبحانه: (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) إبراهيم:٧..

فالفقرة الأُولى: (فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ) نوع شكر من المصاحب وفي الوقت نفسه يرجو الله سبحانه أن يعطيه خيراً من جنّة ذلك المشرك.

والفقرة الثانية، أعني: (وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا) تحذير للمشرك بأنّك لأجل كفرك بالنعمة سوف يسلّط الله عذاباً(مِنَ السَّمَاءِ) على جنّتيك، وعند ذاك(فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا): أي تراباً أملس تنزلق عليه الأقدام، فلا يصلح لشيء.

٤١. (أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا):

تقدّم أنّه سبحانه جعل للجنتين ماءً يتفجّر من خلالهما لاحظ : الكهف: ٣٣، فهذا الموحّد يهدّد الكافر بأنّك لأجل كفرانك ستُبتلى بغور الماء كما يقول: (أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا): أي ماء الجنّة (غَوْرًا)غائراً ذاهباً في باطن الأرض، فتكون قد أُعدمت الماء كما أُعدمت الأرض (فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا): أي لم تقدر على طلب الماء والاستفادة منه إذا غار.

إلى هنا تمّ الحوار بين الكافر والمؤمن الذي أنذره بأمرين:

١. نزول العذاب من السماء على الجنّتين.

٢. غور ماء النهر.

٤٢. (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا):

لمّا أنذر المؤمن صاحبه الكافر المغترّ بالنعمة، بأنّه يمكن أن يعاقبه الله بأن يسلّط على جنّته عذاباً فيدمّرها ويذهب بمائها، فالله سبحانه يخبر في هذه الآية عن تحقّق ما أنذره به المصاحب وقال: (وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ) وقد مرّ أنّ هذه الإحاطة في أمثال هذا المقام بمعنى الهلاك عن الآخر، فعندئذ صحا الكافر من غفلته فرأى ما حلّ بجنّته التي أصبحت صحراء جرداء، وبمياه نهره التي غارت في الأرض (فَأَصْبَحَ): أي أخذ (يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ): أي يقلّب كفّيه تأثّراً وتحسّراً (عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا)من جهد و تعب بذله في عمارتها (وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) لأنّ كرومها المعرّشة سقطت عروشها على الأرض وسقطت فوقها الكروم.

ثم أظهر الندم وراح يتمنّى: (وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا) و كأنّه تذكّر موعظة صاحبه من قبل، فندم ولكن ولاتَ حين مَندم.

٤٣. (وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا):

بما أنّ المشرك اعتمد على كثرة رهطه أو ولده واستعزّ بهم، قال تعالى حين سلّط عليه البلاء: (وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ): أي جماعة يدفعون عنه ما حلّ به، لأنّه سبحانه إذا أراد أحداً بسوء فلا رادّ له (مِنْ دُونِ اللهِ) إذ هو القادر على نصرته ولا يقدر أحد على نصرته (وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا): أي ممتنعاً بقوّته عن انتقام الله تعالى.

وبما أنّ الآية تمثيل وبيان حال مطلق الكافر والمؤمن، فلا يهمّنا تعيين مَن هما الرّجلان (صاحب الجنّتين ومصاحبه) ولا تعيين مكانهما، وقد اختلفت كلمات المفسّرين في ذلك، وقد نقلها الآلوسي في تفسيره. لاحظ: روح المعاني:١٥/٢٧٣.

٤٤. (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا):

قوله:(هُنَالِكَ) قيل إنّه إشارة إلى ذلك المقام الذي وقع فيه الإهلاك (الْوَلَايَةُ): أي النُّصرة (لِلهِ الْحَقِّ)فلو كان هناك ناصر فهو الله سبحانه (هُوَ): أي طاعته أو اتّخاذه وليّاً(خَيْرٌ ثَوَابًا)جزاء لأوليائه (وَخَيْرٌ عُقْبًا)عاقبة لهم.

فمعنى الآية: إنّ في موضع الإهلاك والدّمار النُّصرة لله سبحانه لا لغيره، ففي ما تخذل فيه الأسباب لا ناصر إلاّ هو، فاتّخاذه وليّاً أو طاعته خير جزاء وخير عاقبة.

هذا ما ذهب إليه المفسّرون وهو في حدّ نفسه صحيح، ولكن هل المراد من الولاية ولاية النصرة أو ولاية التدبير؟ وهو أنّ تدبير

العالم وتدبير عامّة الأُمور بيد الله سبحانه، فله ولاية التدبير لا لغيره، فتكون الآية ردّاً لزعم المشركين الذين ظنّوا أنّ الأصنام والأوثان مدبّرات للعالم أو لمصير الإنسان، فجاءت الآية ردّاً على هذا الزعم أنّ ولاية التدبير هي لله سبحانه وحده، وأنه المدبّر لا غيره وأنّه الربّ دون غيره، فعدم انتفاع المشرك بأمواله الطائلة نابع عن كون الولاية والتدبير لله سبحانه، فبما أنّه كفر بنعمة ربه، فقد خذله الله بالإهلاك والدّمار. لاحظ: الميزان في تفسير القرآن:١٣/٣١٧.

ثمّ إنّ الفرق بين الوَلاية ـ بالفتح ـ والوِلاية ـ بالكسر ـ هو أنّ الأُولى بمعنى مالكية التدبير في جميع الأحوال بخلاف الثانية، وهي بمعنى السلطة والملك، فللأب والجد وَلاية ـ بالفتح ـ على مال القصّر من الأيتام وغيرهم بمعنى تدبير مالهم، وولايتهم جعليّة بخلاف ولاية الله فإنّها ذاتيّة له.

ثمّ إنّ (الحَقّ) في القراءة المعروفة وصف لله سبحانه، وكونه حقاً لأنّه الواجب بذاته، موجود بنفسه من دون حاجة إلى غيره، بخلاف الممكنات فإنّها حسب الذات باطلات، وإنّما يُضفى عليها وصف الحقّ بسبب، وهو الله سبحانه عزّ اسمه. وقد وُصف به سبحانه في قوله تعالى: (ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) الأنعام:٦٢، وقوله تعالى: (هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْس مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ) يونس:٣٠..

وأمّا كون ولايته بالحقّ فهو باعتبار أنّ ولايته حقّ ثابت صادق في مقابل ولاية الآلهة المكذوبة، فإنّها فارغة منه.

٤٥. (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْء مُقْتَدِرًا):

صلة الآية بما قبلها واضحة فإنّ الذي صدّ المشركين عن الإيمان بما دعا إليه النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) هو اغترارهم بالحياة الدنيا وزينتها ونعيمها، فصار ذلك الاغترار سبباً لإعراضهم عن الاستجابة للدعوة الإلهية، كما يقول سبحانه: (أَنْ كَانَ ذَا مَال وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) القلم: ١٤ـ ١٥. فجاءت الآية تبيّن حال الحياة الدنيا وتصفها، فنقول: تحدّث التمثيل السابق عن عدم دوام نِعَم الدنيا التي قد تسترقّ الكافر فيتوهّم أنّها باقية لا تزول، كما قال صاحب الجنّة: (مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا) الكهف:٣٥، ولأجل التأكيد على عدم بقاء الحياة الدنيا جاءت الآية بتمثيل آخر تصوّر فيه الحياة الدنيا وعدم ثباتها تصويراً رائعاً يتضمّن نزول قطرات من السماء على الأرض الخصبة المستعدّة لإنبات البذور الكامنة فيها، فعندئذ تبدأ الحركة فيها بشَقِّها التُّربة وانتفاعها بضوء الشمس إلى أن تصير البذور نباتاً مخضرّاً زاهياً مثمراً، فربّما يُخيَّل للإنسان بقاؤه ودوامه، ولكنّه سرعان ما يذبل ويجفّ ويتفتّت، ثمّ تطير به الرياح إلى شتّى الجهات، وكأنّه لم يك موجوداً قطّ. فهذا النوع من الحياة والموت يتكرّر على طول السنة ويشاهده الإنسان بأُمّ عينيه، دون أن يعتبر به!! وهذا ما صيغ لأجله التمثيل.

إنّ الاغترار أو الاغتباط بالمال والبنين من شيم المنحرفين عن الله المنكبّين على زينة الحياة الدنيا على نحو يصبح المال والبنون كعبة آمالهم، وحلماً في اليقظة والنوم، وهذا هو طرفة بن العبد البكري يقول في معلّقته:

فلو شاء ربّي كنت قيس بن خالد *** ولو شاء ربّي كنت عمرو بن مرثدِ

فأصبحت ذا مال كثير وزارني *** بنون كرام سادة لمسوّدِ[1]

[1] شرح المعلقات للزوزني:٦٥، طبعة بيروت.

إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى تفسير الآية، يقول سبحانه: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا): أي بيِّن لهؤلاء المترفين الهائمين بحبّها حال الحياة الدنيا، فحالها (كَمَاء أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ)الضمير يرجع إلى الماء، أي اختلط نبات الأرض بعضه ببعض بسبب الماء على وجه يلتفّ بعضه ببعض، يروق الإنسان منظرُه، لازدهاره ونضارته، فلم يزل على تلك الحال إلى أن ينتقل إلى

حالة يذوي فيها ويذهب ما فيه من غضاضة وطراوة، وهذا ما يعبّر عنه القرآن بقوله: (فَأَصْبَحَ هَشِيمًا): أي مكسَّراً مفتّتاً(تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ)فتنقله من موضعه إلى موضع آخر، كأن لم يكن شيئاً مذكوراً (وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا) الفقرة تذكر قدرة الله سبحانه على خلق كلّ شيء، خلق أشياء فانية كالحياة الدنيا، وخلق أشياء باقية كالدّار الآخرة.

٤٦. (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً):

جاءت هذه الآية تعقيباً على المثل المضروب في الآية السابقة للحياة الدنيا، وكنتيجة له، حيث تقرّر أنّ نعمة المال والبنين، التي يهيم بحبّها المغرورون ويفخرون بها، ماهي إلاّ زينة الحياة الدنيا، كما يقول: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) فإذا كان الأصل مؤقتاً زائلاً فما ظنّك بزينته؟ فلم يكتب الخلود لشيء ممّا يرجع إلى الدنيا، فالاعتماد على الأمر الزائل اعتماد على شفير هار، بل اللازم أن يُعتمد على الأمر الباقي وهو كما يقول: (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ): أي الأعمال الصالحة فإنّها محفوظة عند الله، فهي في الدنيا أعمال صالحة، وفي الآخرة باقيات صالحات، وهي (خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا) لأنّ الله يجازي خير الجزاء (وَخَيْرٌ أَمَلاً): أي خير ما يأمله الإنسان، إذ ينال بها صاحبها في الآخرة ما كان يؤمّله في الدنيا. وقد جاء هذا التمثيل في الذكر الحكيم في موارد أُخرى، منها قوله سبحانه: (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الأيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ). يونس:٢٤.

وفي آية أُخرى يقول سبحانه: (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا) مريم:٧٦، فقوله: (وَخَيْرٌ مَرَدًّا)بمعنى قوله: (وَخَيْرٌ أَمَلاً).

قال الإمام علي (عليه السلام):«وَإِنَّ الْمَالَ وَالْبَنِينَ حَرْثُ الدُّنْيَا، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ حَرْثُ الأخِرَةِ، وَقَدْ يَجْمَعُهُمَا اللهُ تَعَالَى لاِقْوَام». نهج البلاغة: الخطبة ٢٣.

وعن محمد بن إسماعيل بن عبد الرحمان الجعفي، قال: دخلت أنا وعمّي الحصين بن عبد الرحمان على أبي عبد الله]الصادق[(عليه السلام)، فأدناه وقال: «مَن هذا معك؟» قال ابن أخي إسماعيل. فقال: «رحم الله إسماعيل وتجاوز عنه سيّئ عمله. كيف خلفتموه؟» قال: بخير ما أبقى الله لنا مودّتكم. فقال: «يا حصين لا تستصغرنّ مودّتنا، فإنّها من الباقيات الصالحات». فقال: يابن رسول الله ما استصغرها، ولكن أحمد الله عليها. الإختصاص: ٨٥ ؛ بحار الأنوار: ٢٣ /٢٥٠ و ٢٤/٣٠٤ .

الآيات: السابعة والأربعون إلى التاسعة والأربعين(وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرى الأَرْضَ ... وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا).

(وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَ يَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا).

المفردات

نسيّر: تسيير الجبال: قلعها من أماكنها وجعلها هباء منثوراً.

بارزة: ظاهرة لم يبق على وجهها جبل ولا غيره.

حشرناهم: بعثناهم من قبورهم وجمعناهم في الموقف.

لم نغادر: لم نترك منهم أحداً إلاّ حشرناه.

عُرِضوا: أُحضروا للحساب.

صفّاً: مصطفّين من دون تمييز بينهم.

موعداً: وقتاً للبعث.

وُضع الكتاب: نصبه ليحكم على صاحبه، ويحتمل: وضع كتاب كلّ شخص بيده.

مشفقين: خائفين.

يا ويلتنا: الويل: الهلاك.

التفسير

٤٧. (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا):

لمّا تقدّم في قوله سبحانه:(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أنّ حياتها ظلٌّ زائل، وما فيها ليس إلاّ زينة فانية، فصار ذلك سبباً لبيان الحياة الأُخروية التي هي حياة دائمة باقية، فذكر ما يُعدّ من أشراط الساعة وقال: (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ): أي اذكر يوم نقلع الجبال من أُصولها، حتى تصبح الأرض ملساءَ مستويةً لا عوج فيها ولا واد ولا جبل، لحشر الناس من قبورهم. وقد عبّر سبحانه عن هذه الحادثة في مواضع أُخرى، قال تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لاَ تَرى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا) طه: ١٠٥ ـ ١٠٧، وفي آية أُخرى: (وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً) النبأ:٢٠، وثالثة: (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ) القارعة:٥. ويترتب على تسيير الجبال قوله: (وَتَرى الأَرْضَ بَارِزَةً): أي ظاهرة لا تغيب ناحية منها عن أُخرى بوهد ولا جبل. ثم يترتّب على ذلك قوله: (وَحَشَرْنَاهُمْ) أخرجنا الناس من قبورهم (فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا): أي لم نترك منهم أحداً، لأنّ الحشر عام للجميع، وفي آية أُخرى يقول: (قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْم مَعْلُوم) الواقعة: ٤٩ ـ ٥٠، وفي آية ثالثة: (ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ) هود:١٠٣..

٤٨. (وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّة بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا):

لمّا أخبر سبحانه عن تسيير الجبال وجعل الأرض مستوية وحشر الناس جميعاً، ذكر أنّ الناس سيعرضون على الله سبحانه مصفوفين، قال الطبرسي: أي مصفوفين كلّ زمرة وأُمّة صفّاً. وقيل: يعرضون صفّاً بعد صفّ كالصفوف في الصلاة، وقيل: يعرضون صفّاً واحداً لا يحجب بعضهم بعضاً. ولعلّ الغاية من بيان عرضهم مصفوفين هو أنّ ما كانوا يعتمدون عليه في الدنيا من مظاهر الزينة والتفاخر أوجد بينهم طبقات تفتخر الطبقة العليا منهم على الطبقة الدنيا، وأمّا يوم الحشر فالجميع يحشرون إلى ربّهم مصطفّين للقضاء عليهم بما عملوا من الصالحات أو الطالحات، من دون تمايز طبقيّ بينهم. ثم يخاطب المحشورين بقوله: (لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّة)، يُحتمل أن يراد به: لقد جئتمونا لا تملكون شيئاً من زينة الحياة الدنيا كما كنتم في بدء الخلق لا تملكون شيئاً. مجمع البيان:٦/٤٠٥.

ويحتمل أن يراد «لقد بعثناكم كما أنشأناكم أوّل مرّة». تفسير الكشّاف: ٢/٢٦٢.

وهذا هو أيضاً خيرة ابن عاشور، يقول: أي جئتمونا مجيئاً كخلقكم أوّل مرّة، فالخلق الثاني أشبه بالخلق الأوّل، قال تعالى: (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْس مِنْ خَلْق جَدِيد) ق:١٥ التحرير والتنوير:١٥/٨٠..

وتكون الآية ردّاً عليهم في إنكار البعث.

وقد روى مسلم(واللّفظ له) والبخاري وغيرهما عن عائشة قالت: سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: يُحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرلاً الغرل: جمع الأغرل: الذي لم يختن.، قلت: يا رسول الله النساء والرجال ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: يا عائشة! الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض. صحيح مسلم:١٤٠١، كتاب الجنّة وصفة نعيمها، برقم ٧٠٩٢؛ صحيح البخاري:٤/٢١٥، كتاب الرقاق، برقم

٦٥٢٧.

وفي الرواية مواضع تأمُّل، وهي:

١. إنّ الإنسان إذ أدرك أنّه عار عن الساتر وهو بين المحشورين سيتألم من هذا الوضع المخجل، فما هو المبرّر لهذا النوع من التعذيب الروحي قبل نصب الميزان والحساب.

٢. إنّ ظاهر الرواية أنّ الحكم عام يشمل الأنبياء والأولياء والمقرّبين، فكيف اقتضت الحكمة الإلهية حشر هؤلاء كذلك.

٣. نفترض أنّ الحكمة الإلهية اقتضت حشرهم عراة، فما هو الوجه في حشرهم غير مختونين، وهم قد عملوا بسنّة إبراهيم(عليه السلام) فكانوا مختونين.

ولذلك نرى أنّ الإمام الصادق(عليه السلام) يجيب مَن سأله عن ذلك بشكل آخر، قال السائل أخبرني عن الناس يحشرون يوم القيامة عراة؟ قال: «بل يحشرون في أكفانهم»، قال: أنّى لهم بالأكفان وقد بليت؟ قال: «إنّ الله الذي أحيا أبدانهم جدّد أكفانهم، فمن مات بلا كفن يستر الله عورته بما يشاء من عنده». الاحتجاج: ٢ / ٩٨ ؛ تفسير نور الثقلين: ٣/٢٦٦.

ثم يقال لهم: (بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا): أي زعمتم في دار الدنيا أنّ الله لم يجعل لكم موعداً للبعث والجزاء، وهذا هو يوم البعث والجزاء.

٤٩. (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا):

دلّت الآية السابقة على صيرورة الأرض مستوية وأنّ الناس يخرجون من الأجداث ويقفون بين يدي الرَّبّ تعالى مصطفّين للحساب وفصل القضاء، مجرّدين عن كلّ ما كانوا يملكونه في الدنيا ويتفاخرون به، وأمّا هذه فتشير إلى وضع كتب الأعمال، ليحاسب كلٌّ وفق ما دُوّن في كتابه، قال: (وَوُضِعَ الْكِتَابُ) لغاية إبراز أعمالهم.

وطبع الحال يقتضي إشفاق المجرمين منه، لعلمهم بما عملوا من الجرائم ولذلك يقول: (فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ) خائفين (مِمَّا فِيهِ)في هذا الكتاب (وَيَقُولُونَ) متعجّبين (يَا وَيْلَتَنَا): أي يا هلاكنا (مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا): أي لم يترك شيئاً ممّا عملناه صغيراً كان أو كبيراً إلاّ كُتب فيه وضُبط. ونحو الآية قوله تعالى:(وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ). الانفطار:١٠ـ ١٢.

روى خالد بن نجيح عن الإمام الصادق(عليه السلام)، قال: «إذا كان يوم القيامة دُفع إلى الإنسان كتابه ثم قيل له: اقرأه». قلت: فيعرف ما فيه؟ فقال: «إنّه يذكره، فما من لحظة ولا كلمة ولا نقل قدم ولا شيء فعله إلاّ ذَكَرَه كأنّه فعله تلك الساعة، فلذلك قالوا (يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا)». تفسير العيّاشي:٣/٩٥، برقم ٢٦٥٨؛ تفسير نور الثقلين:٣/٢٦٧.

ولا يقتصر الأمر على الاحتجاج عليهم بالكتاب، بل يتجسّد في ذلك اليوم عملهم الذي عملوه، ويتمثّل بوجود أُخروي كما يقول: (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا) وبذلك يُعلم أنّ الفقرة ليست تأكيداً لما سبق، بل تتضمّن أمراً تأسيسيّاً، وبذلك يتجلّى عدله سبحانه بأسمى مظاهره كما يقول: (وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا).

وربّما يظهر من بعض الآيات أنّ ما يُجزَون به هو نفس عملهم لكن بوجود أُخروي، ويكون انتساب العذاب إليهم أوضح من نسبته إلى الله سبحانه، ولذلك يقول حول من اكتنز الذهب والفضة: (يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لاِنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) التوبة:٣٥..

الآيات: الخمسون إلى الثالثة والخمسين(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ... وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا).

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً * مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا * وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا * وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا).

المفردات

ففسق: يقال: فسق الرطب: إذا خرج عن قشره، وهو أعمّ من الكفر، المفردات للراغب: ٣٨٠، مادة «فسق». وهنا: كناية عن الخروج عن طاعة الله، فهو يعمّ الكافر والمؤمن إذا أذنب.

ذُرِّيته: الذُّريّة: الأولاد.

عدوّ: العدوّ يطلق على الواحد والكثير، ولذلك يقول:(فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ) الشعراء:٧٧..

عَضُداً: العَضُد ما بين المرفق إلى الكتف، وأُريد به هنا المُعين.

فدَعَوهم: أي استغاثوا بهم.

مَوبقاً: كلّ شيء حالَ بين شيئين فهو موبق.

مواقعوها: داخلوها.

مَصرِفاً: مَعدِلاً.

التفسير

٥٠. (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً):

تكرّرت قصة إبليس في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، إمّا لأنّها تشتمل في كلّ موضع على نكتة لم تشتمل عليها في الموضع الآخر، أو أنّ العبرة بها في كلّ مورد تختلف عن العبرة بها في موضع آخر، فذكر سبحانه أنّه أمر الملائكة بالسجود لآدم فامتثل الكلّ إلاّ إبليس.

ولمّا تحدّثت الآيات السابقة عن غرور عدّة من المستكبرين الذين دفع بهم التكبّر والاستعلاء إلى أن يطلبوا من النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أن ينحّي الفقراء والمستضعفين عن مجلسه، كما بلغ غرور صاحب البستانين إلى درجة أنّه قال: (مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً) صار التحدّث عنهم سبباً لبيان حال زعيم المستكبرين إبليس وذريته، فلقد استكبر عدوّ الله حتى خوطب بقوله تعالى: (فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ) الحجر:٣٤، قال الإمام علي(عليه السلام)في ذمّ إبليس: «اعْتَرَضَتْهُ الْحَمِيَّةُ فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ. وَتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِاَصْلِهِ. فَعَدُوُّ اللهِ إِمَامُ الْمُتَعَصِّبِينَ، وَسَلَفُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ الْعَصَبِيَّةِ، وَنَازَعَ اللهَ رِدَاءَ الْجَبْرِيَّةِ، وَادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ، وَخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ. أَلاَ تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللهُ بِتَكَبُّرِهِ، وَوَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ، فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَدْحُوراً، وَ أَعَدَّ لَهُ فِي الاْخِرَةِ سَعِيراً؟!». نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢، (القاصعة).

ثمّ إنّ إبليس عدوّ الله قطع على نفسه عهداً بإضلال بني آدم بكلّ وسيلة ممكنة، قال مخاطباً الله تعالى: (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ). الأعراف:١٦ـ١٧.

فإذا كان هذا موقفه من بني آدم، فمن أعجب الأُمور أن يتّخذ طوائف منهم إبليس وذرِّيّته أولياء من دون الله، ويسلّمون له يد الطاعة «حَتَّى أَعْنَقُوا فِي حَنَادِسِ جَهَالَتِهِ، وَمَهَاوِي ضَلاَلَتِهِ» نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.(أعنق: أسرع، والعَنَق: ضرب من السير فسيح سريع. الحنادس: جمع حِندِس: الليل الشديد الظُّلمة).، ولهذا الأمر العجيب يقول سبحانه: (وَ)اذكر يا محمد (إِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ) استكباراً في الظاهر على آدم وفي الحقيقة على الله تبارك وتعالى (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ)ومن يكن له أدنى عقل ووعي لا يستبدل ولاية الشيطان بولاية الله سبحانه الخالق المنعم الرحمن الرحيم، فمن قَبِل هذا الاستبدال فبئس حاله وعمله، كما يقول: (بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً)والفقرة بصدد تقبيح أخذه وليّاً للطاعة. وتقدير الفقرة: بئس البدل من الله تعالى للظالمين إبليس وذرّيته. وقد عدل سبحانه في هذه الفقرة عن الخطاب إلى الغَيبة إشعاراً بكمال سَخَطه لهذا الاستبدال.

بقي في الآية أمران:

١. الآية ظاهرة في أنّ الاستثناء منقطع لظهور قوله: (كَانَ مِنَ الْجِنِّ)في أنّه لم يكن ملَكاً، وعندئذ يطرح هنا سؤال: كيف شمله خطاب الله للملائكة: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ)؟

والجواب: أنّه قد كانت في موضع الخطاب قرينة حالية على شمول الخطاب لإبليس أيضاً، ولذلك شمله الخطاب وإن لم يكن داخلاً في الموضوع (الملائكة)، وعندئذ صحّ الاستثناء مع كونه من الجنّ.

٢. أنّ ظاهر قوله سبحانه:(اسْجُدُوا) مقروناً باللام في (لِآدَمَ) أنّ أبا البشر كان هو المسجود له، بأمر من الله سبحانه، لا المسجود عليه، كالأرض بالنسبة للساجد عليها، ولا كونه قِبْلة للملائكة والسجود لله، إذ كلّ من هذين الوجهين على خلاف ظاهر الآية، حتى أنّ النبيّ يعقوب وأولاده سجدوا ليوسف كما يقول سبحانه: (وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) يوسف:١٠٠، فلو كان مطلق السجود لغيره سبحانه مظهراً للشرك لَمَا أمر الله الملائكة به، ولَمَا سجد النبيّ يعقوب(عليه السلام) وأولاده ليوسف(عليه السلام)، وهذا يدفعنا إلى التحقيق في واقع السجود وأقسامه.

حقيقة السُّجود

إنّ السجود عبارة عن وضع الجبهة على الأرض فإن اندفع الساجد إلى هذا العمل عن الاعتقاد بأنّ المسجود له هو الخالق أو الربّ الذي مصيره في الحياة بيده وأنّ العزّة والذلّ أو النصر والهزيمة بيده، إلى غير ذلك ممّا يرجع إلى الربوبية، فهذا النوع من السجود شرك لا يأمر به سبحانه ولا يصدر من نبيّه المعصوم.

وأمّا لو وضع جبهته على الأرض بنيّة التعظيم والتكريم كالولد بالنسبة إلى الوالد والمتعلّم بالنسبة إلى المعلّم أو الزوجة الصالحة أمام الزوج، بما أنّ لهم مقاماً كريماً أو أنّ لهم أياديَ عليهم من دون أن يكون مصيره بأيديهم، فهذا النوع من السجود، جائز بالذات، وكان سجود الملائكة أو النبيّ يعقوب(عليه السلام)من هذا القسم، لأنّ النبيّ آدم(عليه السلام) بلغ من الكمال أنّه صار معلّماً للملائكة، فصارت له تلك الفضيلة العظيمة، فحقّ عليهم أن يسجدوا له ويعظّموه؛ وهكذا يوسف(عليه السلام) فإنّه جاهد نفسه الأمّارة وصبر عن المعصية، وآثر السجن على العيش في القصور الفاخرة، فصار ذلك سبباً لكرامته، فحُقّ أن يسجد له أبوه وإخوته.

وهذه الآيات أفضل دليل على جواز هذا القسم في الشرائع السابقة، نعم ورد النهي عنه في الشريعة الإسلامية لمصلحة، الله ورسوله أعرف بها.

روي عن الإمام الصادق(عليه السلام) أنّ قوماً أتوا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا: يا رسول الله إنّا رأينا أناساً يسجد بعضهم لبعض، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها». الكافي:٥/٥٠٨، كتاب النكاح.

فالسجود لغيره سبحانه بالنحو الثاني حرام ولكنّه ليس بشرك، ولو تجرّدنا عن الرأي المسبّق لقلنا: إنّ الآيات تدلّ على جواز تكريم الأولياء وتعظيمهم بأي صورة كانت مثل تقبيل أيديهم، غير أنّ الشريعة الإسلامية نهت عن صورة معيّنة وهو التعظيم على نحو السجود على الأرض.

هذا هو قضاء القرآن الكريم في جواز تكريم الأولياء والأنبياء وأصحاب الفضل حتى أنّه يعبّر عن حدّ التعظيم للوالدين بقوله:(وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحُ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا) الإسراء:٢٤..

قال القرطبي: هذه استعارة في الشَّفَقة والرحمة بهما والتذلُّل لهما، تذلُّل الرعيّة للأمير والعبيد للسادة، كما أشار إليه سعيد بن المسيّب، وضَرَبَ خَفض الجناح ونصبه، مثلاً لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده، والذلّ هو اللّين. إلى أن قال: فينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في خير ذلّة في أقواله وسكناته ونظره. تفسير القرطبي:١٠/٢٤٤، سورة الإسراء.

فإذا كان هذا قضاء القرآن في تعظيم هؤلاء، فأين الوهابية من هذه الآيات الناصعة، حتى أنّهم اختلفوا في جواز تقبيل يد العالم. وليعلم هؤلاء أنّ كلّ ما يصدر عن المؤمنين الزائرين للعتبة النبوية إنّما هو لغاية التعظيم والتكريم بما أنّه نبيّ الإسلام ورائد التوحيد الذي له شرف فوق الشرف وكرامة فوق الكرامة، فهو الذي أنقذ الأُمّة وهدى الناس إلى التوحيد القويم، فالتعظيم الصادر عن هذه العقيدة ليس إلاّ لبّ التوحيد.

٥١. (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا):

لمّا ذمّ سبحانه في الآية السابقة اتّخاذ إبليس وذرّيته أولياء، علّل ذمّه بما في هذه الآية، وعلى هذا فالضمير في (أَشْهَدْتُهُمْ)أو في (خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ) يرجع إلى إبليس وذرّيته.

وأمّا أنّه كيف يكون تعليلاً للذمّ السابق؟ فهذا ما حقّقه السيد الطباطبائي، ونحن نأتي بخلاصة ما ذكره، قال: اشتملت الآية في نفي ولاية التدبير عن إبليس وذرّيته على حجّتين:

إحداهما: أنّ ولاية تدبير أُمور شيء من الأشياء تتوقّف على الإحاطة العلميّة ـ بتمام معنى الكلمة ـ بتلك الأُمور من الجهة التي تدبَّر فيها، وهؤلاء ـ أي إبليس وذرّيته ـ لم يُشهدهم الله سبحانه خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، فلم يكونوا شاهدين، إذ قال للسماوات والأرض: كنّ فكانت، ولا إذ قال لهم: كونوا فكانوا، فهم جاهلون بحقيقة السماوات والأرض، فكيف يسعهم أن يتولّوا تدبير أمرها، أو تدبير أمر شطر منها وهم جاهلون بحقيقة خلقتها وخلقة أنفسهم؟!!

ثانيهما: أنّ كلّ نوع من أنواع المخلوقات متوجّه بفطرته نحو كماله المختصّ بنوعه، وهذا ضروري عند مَن تتبّعها وأمعن النظر في حالها، فالهداية الإلهية عامّة للجميع كما قال: (الذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) طه:٥٠.، والشياطين أشرار مفسدون مضلّون، فتصدِّيهم لتدبير شيء من السماوات والأرض أو الإنسان ـ ولن يكون إلاّ بإذن من الله سبحانه ـ مؤدٍّ إلى نقض السنّة الإلهية من الهداية العامّة، أي توسّله تعالى إلى الإصلاح بما ليس شأنه إلاّ الإفساد، وإلى الهداية بما خاصّته الإضلال، وهو محال. الميزان في تفسير القرآن:١٣/٣٢٦ـ٣٢٧.

وإلى الحجة الأُولى أشار بقوله: (مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ) وعدم شهودهم لكلتا الخلقتين كناية عن جهلهم بأسرار السماوات والأرض، وإلى الحجة الثانية أشار بقوله: (وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا)فقد جرت سنّته تبارك وتعالى ألاّ يتّخذ من المضلّين وليّاً، لأنّ اتّخاذهم أولياء على طرف النقيض من غرض الخلقة الذي هو إيصال كلّ مخلوق إلى كماله.

وبذلك يظهر الضعف في كلمات غير واحد من المفسّرين، نشير إلى بعضها:

١. فسّروا نفي إشهادهم خلق السماوات والأرض بنفي مشاركتهم في الخلق، فإنّ خلق السماوات والأرض كان قبل وجود إبليس

وذرّيته.

يلاحظ عليه: أنّه وإن كان صحيحاً لكنّه على خلاف ظاهر الآية، فالآية تؤكّد على عدم حضورهم وشهودهم خلق السماوات والأرض، لا على تأخّر وجودهم عن خلق السماوات والأرض، فالأَولى هو تفسير الإشهاد بمعنى جهلهم بأسرار السماوات والأرض، ومعه كيف يصحّ لهم تدبيرهما؟

٢. فسّروا قوله: (وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ) بقولهم: لا أشهدت بعضهم خلق بعض، كقوله: (وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ). تفسير الكشّاف: ٢/٢٦٢؛ التحرير والتنوير:١٥/٨٥.

والظاهر أيضاً أنّ المراد هو ما تقدّم، أي ما شهد كلٌّ خلق أنفسهم وما حضروا وجهلوا أسرار وجودهم، فمن لا يعرف كلّ ما في خلقته من الرموز والأسرار، كيف يكون وليّاً مدبِّراً؟!

٣. أنّهم فسّروا قوله سبحانه:(وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا)بقولهم: فإذا لم يكونوا عضداً لي في الخلق، فما لكم تتّخذونهم شركاء لي في العبادة. لاحظ : تفسير الكشّاف: ٢/٢٦٢.

يلاحظ عليه: أنّه لا ملازمة بين عدم كونهم أعواناً في الخلقة وبين عدم كونهم أرباباً، لأنّ اختصاص الخلقة بالله سبحانه لا يلازم اختصاص الربوبية إذا كان في الأرباب استعداد للتدبير. والحقّ ما قدّمناه، وقد أشار إليه صاحب التحرير والتنوير، فلاحظ. لاحظ : التحرير والتنوير: ١٥/٨٦.

بقي هنا شيء: قال الآلوسي: وقد حكى الشيعة أنّ علياً (كرم الله وجهه) قال ـ حين صمّم على عزل معاوية وأشار عليه ابن عباس(رض) بإبقائه على عمله إلى أن يستفحل أمر الخلافة ـ : «يمنعني من ذلك قوله تعالى: (وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا) فلا أتّخذ معاوية عضداً أبداً.ـ قال الآلوسي ـ : وهو كذب لا يعتقده إلاّ ضال مضلّ. روح المعاني:١٥/٢٩٨.

ولعلّ القارئ يحسبه صادقاً في قضائه، ولكنّه باطل صغرى وكبرى.

أمّا الأُولى: فإنّ النقل لا يختصّ بالشيعة، بل نقله غير واحد ممّن دوّن الأخبار، منهم: أحمد بن أعثم الكوفي في كتابه «الفتوح»، وذلك حينما نصحه المغيرة بن شعبة بإبقاء معاوية، كما قال: لأنّه ابن عمّ عثمان والشام في يده، فابعث إليه بعهده والزمه طاعتك... فأجابه الإمام علي(عليه السلام) بقوله: ويحك يا مغيرة! والله ما منعني من ذلك إلاّ قول الله تعالى لنبيّه محمد(صلى الله عليه وآله وسلم): (وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا). الفتوح:٢/٤٤٦.

ورواه أيضاً المؤرّخ المعروف أبو الحسن المدائني(المتوفّى ٢٢٤هأو ٢٢٥هـ)، ونقله عنه ابن أبي الحديد في شرحه، قال: قال المغيرة بن شعبة: أما والله لقد أشرت على عليّ بالنصيحة فآثر رأيه، ومضى على غُلَوائه، فكانت العاقبة عليه لا له، فقال ابن عباس: كان والله أمير المؤمنين (عليه السلام) أعلم بوجوه الرأي، ومعاقد الحزم، وتصريف الأُمور، من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه، وعنّف عليه، قال سبحانه: (لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ) المجادلة:٢٢. ولقد وقَفَك على ذكر مبين، وآية متلوّة قوله تعالى: (وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا). شرح نهج البلاغة:٦/٣٠١ـ ٣٠٢.

ورواها أيضاً ابن الصبّاغ المالكي في «الفصول المهمة في معرفة الأئمّة». الفصول المهمة:١/٣٥٦.

وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ نقل هذه القضية لا يختصّ بالشيعة، ولو بذل أحد الجهد لربّما يقف على مصادر أُخرى.

وأمّا الكبرى، أعني: قول السيد الآلوسي ـ عفا الله عنّا وعنه ـ : إنّه لا يعتقد بذلك إلاّ ضال مضلّ، فلا نعرف له سبباً مقبولاً، فإن كان يريد به الدفاع عن معاوية وأنّه لم يكن من المضلّين، فالآلوسي نفسه يعتقد بأنّ معاوية ومَن معه كانوا من الباغين على الإمام علي(عليه السلام) روح المعاني:٢٦/١٥١(تفسير الآية ٩ من سورة الحجرات).، ولست أدري كيف لا يكون من المضلّين مَن عناه الرسول هو

ومَن معه بقوله(صلى الله عليه وآله وسلم):«تقتل عمّاراً الفئة الباغية» قال ابن عبد البرّ: تواترت الآثار عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال:«تقتل عماراً الفئة الباغية»... وهو من أصحّ الأحاديث. الاستيعاب:١١٤٠/٣.؟ وكيف لا يعدّ من المضلّين مَن سعى إلى توريط الناس بمحاربة الإمام العادل وسفك دماء الصحابة الأبرار والتابعين لهم بإحسان، مثل عمّار، وخزيمة ذي الشهادتين، وابن التيّهان، وأبي عمرة الأنصاري، وهاشم (المرقال) بن عتبة بن أبي وقّاص، ومحمد بن أبي بكر وغيرهم كثير؟ دعْ عنك مَن قتلهم صبراً كعمرو بن الحَمِق الخزاعي، وحُجر بن عديّ الكندي وأصحابه، وآخرين؟!

وكيف لا يعدّ من المضلّين من سنّ سبّ أخي الرسول ومَن هو منه بمنزلة هارون من موسى، وجعلها سنّة تذاع من على المنابر ستين عامّاً!! وإن شككت في ذلك فأقرأ ما أخرجه مسلم في صحيحه عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً، فقال: ما منعك أن تسبّ أبا التراب؟ فقال: أمّا ما ذكرتُ ثلاثاً قالهنّ له رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فلن أسبّه، لأن تكون لي واحدة منهن أحبُّ إلي من حُمر النِعم. سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول له، وقد خلّفه في بعض مغازيه، فقال له علي: يا رسول الله، خلّفتني مع النساء والصبيان؟ فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنّه لا نبوّة بعدي».

وسمعته يقول يوم خيبر: «لأعطينّ الراية رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَه، ويحبُّه اللهُ ورسولُه»، قال: فتطاولنا لها فقال: «ادعوا لي عليّاً»، فأُتي به أرمد، فبصق في عينه ودفع الراية إليه، ففتح الله عليه.

ولمّا نزلت هذه الآية:(فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ) آل عمران:٦١. دعا رسول الله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً(عليهم السلام) فقال:«اللّهُمَّ هؤلاء أهلي». صحيح مسلم:١١٩٨، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب، الحديث ٦١١٤، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٤ هـ ، ولاحظ: مروج الذهب:٢٤/٣، البداية والنهاية:٨٣/٨.

قال الحموي: لُعِنَ علي بن أبي طالب(رضي الله عنه) على منابر الشرق والغرب، ولم يُلعن على منبر سجستان إلاّ مرّة واحدة، وامتنعوا على بني أُميّة حتى زادوا في عهدهم: وأن لا يلعن على منبرهم أحد ـ ثم يقول الحموي: ـ أيّ شرف أفضل من امتناعهم عن لعن أخي رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)على منبرهم وهو يلعن على منابر الحرمين: مكّة والمدينة. معجم البلدان:١٩١/٣.

وأمّا إن كان الآلوسي يريد أنّه لا يصحّ الاستشهاد بقوله سبحانه في أمر معاوية، وتطبيقه عليه، وأنّ هذا القول ممّا يختصّ به سبحانه ولا يليق إلاّ بالكمال الإلهي، فهو غفلة منه، لأنّ عليّاً(عليه السلام) في صدد بيان قاعدة عامّة، وهي عدم جواز استعانة الإمام العادل بالمضلّين في إدارة شؤون الأُمّة، لأنّهم سوف يشيعون الفساد والضلال فيها، وأمير المؤمنين على يقين من ضلال معاوية، وإضلاله، وبذلك أبى أن يبقيه في منصبه إلى وقت معلوم، مستلهماًموقفه هذا من قوله تعالى:(وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا).

٥٢. (وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا):

لمّا أبطل سبحانه ولاية مَن لم يُشهدهم خلْقَ السماوات والأرض ولا خلقَ أنفسهم، سلك مسلكاً آخر في إبطال ولايتهم، وهو أنّه يأمر المشركين يوم القيامة بأن يستغيثوا بآلهتهم المكذوبة وأربابهم المفتراة لينصروهم، وعند ذلك لا يجدون هنالك أي جواب، فيرجعون خائبين. وهذا أوضح دليل على بطلان ولايتهم، كما يقول سبحانه: (وَ) اذكر يا محمد (يَوْمَ يَقُولُ) الظاهر أنّ القائل هو الله عزّ وجلّ مخاطِباً المشركين بقوله: (نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ) أنّهم شركاء، ولكن كلّما دعوا هؤلاء (فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ) ذلك أنّنا (جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ): أي بين الداعين والمدعوّين (مَوْبِقًا) أي حائلاً. قال ابن فارس: وبق: كلمتان يقال لكلّ شيء حال بين شيئين موبق، والكلمة الأُخرى وبق: هلك وأوبقه الله. مقاييس اللغة:٨٢/٦.. وعلى هذا فالآية تدلّ على وجود الحيلولة بين الداعين والمدعوّين. ويشهد لهذا المعنى قوله سبحانه: (وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا

كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) الأنعام:٩٤. فقوله: (لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ)بمعنى انقطاع الرابطة بينهما، وأمّا ما ذكره أكثر المفسّرين من أنّ المراد من «الموبق» المهلك، فلا يساعده السياق، لأنّ المهلك إنّما أُشير إليه في الآية التالية، وتصوُّر أنّ الموبق واد في جهنم يجري بدم وصديد، لا يناسب السياق، لما عرفت من أنّ ظاهره أنّهم لم يدخلوها بعدُ، بل على أعتاب الدخول كما يقول:

٥٣. (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا):

لمّا تحدّثت الآية السابقة عن انقطاع الصلة بين الداعين والمدعوّين، تحدّثت هذه الآية عن مصير المشركين بعد انقطاع الأسباب، كما يقول: (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ): أي نار جهنّم (فَظَنُّوا): أي أيقنوا (أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا): أي داخلوها لخيبتهم وحرمانهم من نصرة الشركاء (وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا) النار (مَصْرِفًا)مخلَصاً. وعلموا أنّ دخولهم النّار حُكم باتّ قاطع لا يبدَّل.

قلنا: إنّ الظن في قوله:(فَظَنُّوا) بمعنى اليقين، بشهادة قوله تعالى:(قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا اللهِ كَمْ مِنْ فِئَة قَلِيلَة غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ). البقرة:٢٤٩.

الآيات: الرابعة والخمسون إلى التاسعة والخمسين(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ... وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا).

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَل وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْء جَدَلاً * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً * وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا * وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً * وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا).

المفردات

مثَل: المَثَل: الوصف وتبيين الحال.

جدلاً: الجدل: المنازعة بالقول.

سنّة الأوّلين: أي ما جرى على الأوّلين من عذاب الاستئصال، أو العناد واللَّجاج، كما سيأتي.

قُبُلاً: مقابلة وعِياناً.

ليُدحضوا: ليبطلوا به الحقّ.

وما أُنذِروا: وما خوّفوا من أنواع العقاب.

ما قدّمت يداه: ما فعله من المعاصي التي يستحقّ بها العقاب.

أكنّة: الكِنّ: ما يُحفَظ فيه الشيء. والكِنان: الغطاء الذي يُكَنّ فيه الشيء، والجمع أكنّة، نحو غطاء وأغطية. انظر: المفردات للراغب: ٧٢٧، مادة «كن».

وقراً: ثقلاً في السمع.

موئلاً: ملجأً.

التفسير

٥٤. (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَل وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْء جَدَلاً):

لعلّ الآية إشارة إلى ما مرّ في هذه السورة من قوله: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ) الكهف:٣٢، وقوله: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) الكهف:٤٥، وقوله في سورة أُخرى: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَل فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا) الإسراء:٨٩، إلى غير

ذلك من الأمثال التي تتضمّن الحوادث المرّة واللحظات الحلوة في التاريخ، كما يقول في المقام: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا) ردّدْنا وكرّرْنا (فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَل) وجئنا بأمثلة كثيرة مقنعة لمن تدبّر وتذكر، لولا أنّ القلوب قد تحجّرت والأفئدة قد قست (وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْء جَدَلاً): أي أكثر شيء مِراءً وخصومة، فهو مكان أن ينتفع بهذه الأمثلة أخذ يجادل ويماري ويعتذر عن قبول الرسالة بوجوه واهية، نظير قولهم الذي حكاه عنهم سبحانه: (مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ) المؤمنون:٣٣.إلى غير ذلك من الأعذار التي اتّخذوها ذريعة للإنكار.

شنشنة أعرفها من أخزم

نرى أنّ غير واحد من مفسّري السنّة من قدمائهم(كالقرطبي) أو متأخّريهم(كالمراغي وابن عاشور) ذيّلوا هذه الآية برواية رواها الشيخان وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عليّ (كرّم الله وجهه) أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)طرقه وفاطمة]ليلاً[فقال: «ألا تصلّون» فقلت: يا رسول الله إنّما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) حين قلت له ذلك، ثم سمعته وهو مدبر يضرب فخذه ويقول: (وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْء جَدَلاً). صحيح مسلم:٣٥٧، كتاب صلاة المسلمين وقصرها، برقم ١٧٠٢؛ صحيح البخاري:١/٢٧٣، كتاب التهجّد، برقم ١١٢٧.

أقول: الظاهر أنّ هذه الرواية وضعت في مقابل ما رواه البخاري في غير مورد من صحيحه، عن ابن عباس قال: لمّا اشتدّ بالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وجعه قال: ائتوني بكتاب اكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده، قال عُمر: إنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله حَسبُنا، فاختلفوا وكثر اللَّغط، قال: قوموا عنّي، ولا ينبغي عندي التنازع» فخرج ابن عباس يقول: إنّ الرَّزيّة كلّ الرَّزيّة ما حال بين رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وبين كتابه. صحيح البخاري:١/٣٨، كتاب العلم، باب كتابة العلم، برقم ١١٤.

ثمّ إنّ البخاري يتلاعب في نقل الحديث، فإنّ المعترض كان رجلاً واحداً، فتارة يصرِّح باسمه وذلك فيما إذا جُعلت شدّة الوجع ذريعة لرفض أمر النبيّ فيقول: قال عمر: إنّ النبيّ غلبه الوجع. وعندما يتّهم النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بالهَجْر وهو اتّهام شنيع، يترك ذكر اسم المعترض وينسبه إلى الجمع ويقول: اشتدّ برسول الله وجعه يوم الخميس فقال: ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبداً، فتنازعوا ولا ينبغي عند نبيّ تنازع، فقالوا: هجر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال: دعوني، فالذي أنا فيه خير ممّا تدعونني إليه. صحيح البخاري: ٢ / ٢٨٧، كتاب الجهاد، باب هل يستشفع إلى أهل الذمة، برقم ٣٠٥٣.

وعلى كلّ تقدير، فرواية جدال عليٍّ مع النبيّ من موضوعات العهد الأموي والغاية هي المساواة بين الرجلين، وشتّان الفرق بين مَن أسلم لله وكرّم الله وجهه من أن يسجد لصنم وكان أوّل من أسلم، وشهد المغازي كلّها إلاّ تبوك ، واتّخذه رسول الله أخاً لنفسه وقال فيما قال فيه: «عليٌّ منّي وأنا منه». خصائص أمير المؤمنين للنّسائي:٨٢، برقم ٧١؛ وسنن الترمذي:٢/١٠٦، كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب، برقم ٣٧٣٦(وقال: هذا حديث حسن صحيح). شتّان الفرق بينه وبين من ليس كذلك.

إنّ عليّاً هو البكّاء في الظلمات والمتهجّد في الليالي، حتى قال ابن أبي الحديد: إنّ الناس تعلّموا منه المواظبة على صلاة الليل والعبادات، فهل يمكن أن ينام عن الصلاة المفروضة، وأن يواجه النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بما ذُكر؟!

على أنّ ظاهر الرواية المفتراة أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) مرّ بباب عليّ مرّة واحدة وقال ما قال وسمع ما سمع، ولكن المتضافر حسب ما أخرجه الطبري عن أنس أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يمرّ ببيت فاطمة ستة أشهر كلّما خرج إلى الصلاة، فيقول: الصلاة أهل البيت(إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً). تفسير الطبري:٢٢/٥ـ٧.

وروى السيوطي: أخرج ابن جرير وابن مردويه، عن أبي الحمراء قال: حفظت من رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرّة يخرج إلى صلاة الغداة إلاّ أتى إلى باب علي(رض) فوضع يده على جنبتَي الباب ثم قال: «الصلاة الصلاة(إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ

لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً)». تفسير الدر المنثور: ٥ / ١٩٨ ـ ١٩٩.وطبع الحال أنّ الإمام وزوجه يسمعان كلام النبيّ وهو في طريقه إلى الصلاة.

٥٥. (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً):

لمّا تحدّثت الآية السابقة عن كون الإنسان أكثر شيء جدلاً، أشار سبحانه هنا إلى نوع جدل عمليّ من الناس، وهو أنّ المترقَّب ممّن أُوتي فهماً وعقلاً إذا جاءه الهدى من ربّه أن يستضيء بهداه ولكن مع الأسف، أنّهم حرَموا أنفسهم من الاستضاءة، كما يقول: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا)برسالة النبيّ (إِذْ جَاءَهُمْ) أن (يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ) عمّا ارتكبوا من المعاصي والجرائم أو ما أشركوا، فلم يؤمنوا إلاّ لغايتين:

١. (أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ): أي كفروا ولم يؤمنوا وانتظروا عذاب الاستئصال على سنّة الأوّلين.

٢. (أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً) فيؤمنوا عندئذ اضطراراً. وعلى كلّ تقدير، فالمشركون معرضون عن الهداية، فهم بين أن يأخذهم عذاب الاستئصال من غير وعي، أو أن يواجهوا العذاب فيؤمنوا خوفاً ووجلاً منه. ومن المعلوم أنّ الإيمان النابع من العذاب المقبل غير نافع، قال سبحانه: (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ التي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ). غافر:٨٤ـ ٨٥.

وهنا احتمال آخر في تفسير الآية، وهو أنّه سبحانه ذكر المانع عن إيمان الناس برسالة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)هو الأمران الآتيان:

١. (إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ) وأُريد به سيرة العناد واللَّجاج.

٢. (أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً): أي إنّهم يستمرّون في عنادهم ولَجاجهم إلى أن يأخذهم العذاب معاينة، فلفظة «أو» بمعنى «إلى». وعلى هذا فليس هنا إلاّ مانع واحد وهو العناد واللَّجاج وهو مغيّى بنزول العذاب. انظر: التحرير والتنوير:٩١/١٥.

٥٦. (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا):

تسلية النبيّ وتطييب نفسه

الآية تطييب لنفس النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) حيث ذكّره تعالى بأنّ مسؤولية الرسل والأنبياء هي التبشير والإنذار، فليس عليهم شيء من إعراض الناس. وقد مرّ هذا النوع من التسلية أيضاً في صدر السورة، قال: (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا). الكهف:٦.

وأمّا موقف المعاندين، فهو الاستكبار عن قبول الحقّ الذي يجيء به الرُّسل، ومحاولة إبطاله بالجدال العقيم كما يقول: (وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ) فهم يواجهون الحقّ بالأساليب الملتوية القائمة على الكذب والتمويه والخداع، كزعمهم أنّ القرآن سحر، أو زعمهم أنّه ينبغي أن يُنزّل على رجل ذي جاه ومال، فهم يجادلون بالباطل (لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ): أي ليمحقوا بالباطل الحقَّ ويُبطلوه (وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا): أي ما خوّفوا به من عذاب يوم القيامة جزاءً لكفرهم وعتوّهم (هُزُوًا): أي سخرية واستهزاءً. والظاهر أنّ قوله: (وَمَا أُنْذِرُوا)من قبيل عطف الخاص على العام.

وهذه هي سيرة الجاهلين الذين يواجهون منطق المصلحين بالهراء والاستهزاء، فكلّما خوطبوا بالدليل والبرهان اشتدّت لجاجتهم وخصومتهم للعناد المكنون في بواطنهم، «وكلّ إناء بما فيه ينضح».

٥٧. (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا):

تتحدّث الآية عن أمرين:

الأوّل: يصف سبحانه من ذُكّر بآيات ربّه وأعرض عنها بأنّه أظلم الناس، حيث إنّه بِنأيه عن تلك البيّنات يُلقي بنفسه في حمأة الضّلال، ومن ثمّ يعرّضها للعذاب والشقاء في الآخرة. وهذا المُعرِض لم يكترث لمصيره القاتم، إلى حدّ تغاضى عن سالف أعماله (وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ): أي ما اقترف من المعاصي التي استحقّ بها العقاب، واشتغل بالدنيا ونسي الآخرة، فهذا في منطق القرآن أظلم الناس.

وفي نسبة كلّ المعاصي إلى اليدين نوع تجوّز، قال الشريف الرضي: المراد بذكر اليد هاهنا ما كسبه الإنسان من العمل الذي يجرّ العقاب ويوجب النّكال، كقوله تعالى: (ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ) آل عمران:١٨٢، وقوله تعالى:(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ). الشورى:٣٠. وذلك على طريقة العرب معروفة، وهي أن يقولوا للجاني المعاقب: هذا ما جَنَت يداك وإن لم تكن جنايته عملاً بيده. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١١١.

الثاني: أنّه سبحانه يصفهم بقوله: (إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً) مانعة من (أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ) جعلنا (فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا): أي ثقلاً، (وإن لم يكونوا صمّاً) لا ينتفعون بما يسمعون من الآيات، وبذلك صاروا غير منتفعين بدعوة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كما يقول: (وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا) فيموتون على كفرهم.

الآيات تشير إلى الأمر بين الأمرين فقط

قال الآلوسي: واستدلّت الجبرية بهذه الآية على مذهبهم، والقدَرية بالآية التي قبلها، قال الإمام: وقلَّ ما تجد في القرآن آية لأحد هذين الفريقين إلاّ ومعها آية للفريق الآخر، وما ذاك إلاّ امتحان شديد من الله تعالى ألقاه على عباده ليتميّز العلماء الراسخون من المقلّدين. روح المعاني:١٥/٣٠٤.

وكلّ مَن تدبَّر كلتا الطائفتين من الآيات، يقف على أنّ الجميع يستهدف أمراً واحداً، وهو الأمر بين الأمرين، فلا الإنسان مسيّر بحيث لا دور له في مصيره وما يختار من الأفعال، ولا هو مخيّر بمعنى المفوّض إليه فعلُه حتّى لا يكون لله سبحانه أي دور في فعله، فإنّ كلا الأمرين باطلان، والطريق الصحيح هو الأمر بين الأمرين كما هو المعهود من أئمّة أهل البيت(عليهم السلام). هذا هو الجواب الكلّي عن كلتا الطائفتين من الآيات، فكلٌّ منهما إمّا ناظر لنفي الجبر، أو التفويض.

وأمّا ما يتعلّق بتفسير آيتنا هذه، فنقول: إنّ لله سبحانه هدايتين؛ هداية عامّة تشمل كلّ الناس بل عامّة الموجودات، فهداية العقل والفطرة والأنبياء والأولياء تشمل كلّ الأناسي حتى فرعون وهامان وقارون.

ثمّ إنّ من استنار بالهداية الأولى تغمره هداية ثانية وتشدّ عضده وتوصله إلى الكمال المطلوب، وأمّا مَن أعرض عن الاهتداء بالهداية الأُولى فينقطع عنه فيضه تعالى ولطفه وهدايته، ومن ثمّ يكون ممّن لهم قلوب لا يفقهون بها وآذان لا يسمعون بها، فعَمى القلوب وصمم الآذان من نتائج إعراضهم عن الهداية الأُولى، فصحّت نسبتها إلى الله سبحانه وإليهم أيضاً، والتفصيل في محلّه.

٥٨. (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً):

تحدّثت الآية السابقة عن جماعة لا يُرجى منهم الصلاح أبداً وهذا يُسبّب نزول العذاب معجّلاً، إذ لا أثر لبقائهم إلاّ الفساد، فجاءت الآية كالإجابة عن هذا السؤال (وَ) هو أنّ (رَبُّكَ الْغَفُورُ) تعريض بالترغيب للاستغفار (ذُو الرَّحْمَةِ) تمهيد لقوله: (لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ) فلأجل كونه غفوراً ورحيماً أمهلهم، ولكنّه لا يهملهم (بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ) للعذاب، إمّا في الدنيا كما حصل لهم يوم بدر، أو في الآخرة أي بعد الموت (لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً): أي لهم موعد ليس لهم منه محيص ولا ملجأ يلجأون إليه من عذابه. والضمير في قوله: (دُونِهِ) يرجع إلى الموعد، أي لن يجدوا من دون هذا الموعد مخلَصاً.

٥٩.(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا):

تقدّم منّا أنّ موعدهم الذي لا مخلص منه، إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة، فهذه الآية تشير إلى القسم الأوّل، فالذين لاقوا موعدهم في الدنيا مثل عاد وثمود وأصحاب الأيكة، يقول:(وَتِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْنَاهُمْ)الفقرة مبتدأ وخبر، أي عمّهم الهلاك، لماذا؟ (لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا): أي ميقاتاً وأجلاً، فلمّا بلغوه شملهم العذاب، فنتيجة الآيتين أنّه سبحانه يذكر للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّ لهؤلا المشركين من قومك الذين لا يُرجى منهم الإيمان موعد يلاقونه، إمّا في الدنيا كعاد وثمود وأصحاب الأيكة، أو في الآخرة للذين ماتوا كافرين، والله سبحانه مع كونه غفوراً رحيماً لكنّه لا يترك هؤلاء المفسدين بحالهم، بل يعذّبهم عذاباً نكراً.

الآيات: الستون إلى الرابعة والستين(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ... فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا).

المفردات

لا أبرح: لا أزال سائراً.

مجمع البحرين: المكان الذي يلتقي فيه البحران ويصيران بحراً واحداً.

حُقُباً: الحُقُب: الدهر. قيل ثمانون، وقيل سبعون. والظاهر الأوّل.

سَرَباً: السَّرَب: المكان المنحدر.

غداءنا: الغَداء: ما يؤكل أوّل النهار، وهو مشتقّ من الغُدوة، والمولّدون يستعملونه لطعام الظهر.

نَصَباً: تَعَباً وإعياءً.

أوينا: التجأنا.

نبغ: نطلب.

فارتدّا: رجعا إلى الطريق الذي جاءا منه.

قَصصاً: القصّ: تتبُّع الأثر.

التفسير

هذه المجموعة وما يأتي بعدها من الآيات حلقة منقطعة النظير في القرآن الكريم عن سيرة موسى(عليه السلام)، فلم تُذكر إلاّ مرّة واحدة وهي في هذا المقام، وفيها نكات ومعارف لمَن تدبّر فيها، غير أنّ تفسير الآيات رهن تقديم أُمور تلقي الضوء على القصة بتمامها:

إيضاح قصة موسى بأمور

الأمر الأوّل: قصة لقاء موسى(عليه السلام) بالعبد الصالح لم ترد في القرآن الكريم إلاّ في سورة الكهف، وهي غير مذكورة في التوراة، والمراد بموسى فيها هو ابن عمران، نبيّ بني إسرائيل المعروف، الذي ذُكر اسمه في القرآن أزيد من (١٣٠) مرّة، ولو أُريد به غيره لضُمّت إليه قرينة صارفة، وكون القصة غير مسطورة في التوراة لا يعتبر دليلاً على أنّ المقصود به غير ابن عمران. ويحكى عن أهل الكتاب أنّ موسى هنا هو موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب، وكان نبياً قبل موسى بن عمران واستدلّوا على ذلك بالوجوه التالية:

١. إنّ موسى بعد ما أنزلت عليه التوراة وحجّ خصمه بالمعجزات العظيمة، يبعد أن يبعثه الله بعد ذلك ليستفيد علماً من غيره.

يلاحظ عليه: أنّ النبيّ موسى(عليه السلام) قد أُوتيَ علم الشريعة الظاهرة ولم يؤتَ العلم الباطني، وأمّا مصاحبه الذي سمّي في الروايات بالخضر فآتاه الله العلم الباطني، لأنّ الغاية من بعث موسى(عليه السلام) هو هداية الناس إلى التوحيد وإرشادهم إلى أحكام الله، ويكفي في ذلك علمه بالشريعة، وأمّا العلم بالباطن وتأويل الأُمور ومآلها فلم يكن بحاجة إليه في تبليغ الرسالة.

وعلى هذا فالرجلان كاملان، غير أنّ ملاكَي الفضيلة لديهما متغايران.

٢. إنّ موسى(عليه السلام) بعد خروجه بقومه من مصر ابتُلي بعصيانهم، فعوقبوا بالتّيه في الصحراء، وقد توفّي(عليه السلام) في أثناء فترة التّيه، فلو كانت هذه القصة منه لاقتضت خروجه من التّيه.

يلاحظ عليه: أنّه لا مانع من أن يغيب عن قومه أياماً معدودة، ولعلّهم زعموا أنّه ذهب يناجي ربّه ولم يطلعهم على حقيقة غيبته بعد أن رجع، حتى أوصى بذلك فتاه الذي كان معه.

الأمر الثاني: إنّ موسى(عليه السلام) ـ كما تذكر الآيات ـ اصطحب معه فتاه، والفتى هو الطريّ من الشباب ويُكنى به عن العبد، والأَولى أن يقال: يكنى به عن الخادم، وهذا من محاسن الآداب الشرعية(العربية) حيث يخاطبون خدمهم بلفظ يضفي عليهم شخصية محترمة. واتّفق المفسرون على أنّ المراد به يوشع بن نون، وكان يخدمه.

الأمر الثالث: يأتي في المجموعة التالية قوله سبحانه:(فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً) ولم يسمِّه القرآن الكريم.

غير أنّ الروايات تسمِّيه بالخضر، وهل كان نبياً؟ ليس لدينا دليل على ذلك، وتعلُّم موسى(عليه السلام) منه لا يدلّ على نبوّته لِما مرّ من أنّه سبحانه خصّ كلاًّ بفضيلة: العلم بالظاهر، والعلم بالباطن.

نعم، لم يكن نبيّاً ومع ذلك كان يتلقّى الوحيَ، بشهادة قوله:(وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي): أي فعلته بوحي من الله لكن ليس كلّ مَن يوحى إليه نبيّاً، بشهادة أنّه سبحانه أوحى إلى أُمّ موسى وقال: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ) القصص:٧..

الأمر الرابع: تتحدّث القصة عن رحلة مدرسية تعليمية قام بها موسى(عليه السلام) بأمر الله تعالى، للقاء عبد من عباده الصالحين المجهولين، الذين اختصّهم سبحانه بعنايته ووهبهم من لدنه علماً بالغيب، للوقوف على ما يختفي وراء ظواهر الأحداث من حِكَم إلهية خفيّة، الأمر الذي يعمّق من تجربة أصحاب الرسالات والرساليين، ويجعلهم أكثر أناة ودقّة في الحكم على الأشياء. والقصة حافلة بالغرائب والأسرار.

الأمر الخامس: انطلق موسى(عليه السلام) مع فتاه وكان يحمل معه حوتاً وسارا نحو مجمع البحرين ليلتقي هناك مع العبد الصالح، وذلك في موضع منه حدّده له تعالى بعلامة، وهي فقدان الحوت فيه، فحيث يفتقد الحوت فالرجل الصالح هناك، فأخذ موسى وفتاه بالسَّير ثم أحسّا بالتعب، وكانت هناك صخرة على شاطئ البحر فأويا إليها ليستريحا هنيئة، ويبدو أن موسى نام وبقي فتاه يقظاً، فإذا بالحوت يضطرب ويأخذ طريقه في البحر ويغور فيه، والفتى يشاهده ويتعجّب من أمره، وقد نسي أن يخبر موسى(عليه السلام) بفقدان الحوت حتى تركا ذلك الموضع الذي أقاما فيه للاستراحة، فأخذ موسى وفتاه بالسَّير حتى جاوزا مجمع البحرين، ولما شعرا بالتعب والجوع أمر موسى فتاه بالإتيان بالطعام، وعندئذ تذكَّر فتاه ما شاهده من أمر الحوت وأنّه افتقده عند الصخرة التي أويا إليها، فلمّا سمع موسى ذلك قال:

ذلك ما كنّا نطلب، فلنرجع إلى ذلك المكان الذي افتقدنا فيه الحوت، فإنّا سنجد العبد الصالح هناك. وقد اضطربت الروايات في نقل القصة، وأفضل ما ورد هو ما ذكره القمّي في تفسيره وهو يشرح ما لخّصناه.

قال علي بن إبراهيم: لمّا أخبر رسول الله قريشاً بخبر أصحاب الكهف، قالوا: أخبِرْنا عن العالم الذي أمر الله عزّ وجلّ موسى(عليه السلام) أن يتبعه وما قصته؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) قال: وكان سبب ذلك أنّه لمّا كلّم الله موسى تكليماً، وأنزل عليه الألواح، وفيها كما قال الله عزّ وجلّ: (وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْء مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْء) الأعراف:١٤٥.رجع موسى إلى بني إسرائيل فصعد المنبر، فأخبرهم أنّ الله عزّ وجلّ قد أنزل عليه التوراة وكلّمه، قال في نفسه: ما خلق الله تعالى خلقاً أعلم منّي، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى جبرئيل(عليه السلام) أن أدركْ موسى فقد هلك،

وأعلمه أنّ عند ملتقى البحرين عند الصخرة رجلاً أعلم منك، فصرْ إليه وتعلّمْ من علمه، فنزل جبرئيل(عليه السلام) على موسى (عليه السلام)وأخبره، فذلّ موسى في نفسه وعلم أنّه أخطأ ودخله الرُّعب، وقال لوصيه يوشع بن نون: إنّ الله عزّ وجلّ قد أمرني أن أتبع رجلاً عند ملتقى البحرين وأتعلّم منه، فتزوّد يوشع حوتاً مملوحاً وخرجا، فلمّا خرجا وبلغا ذلك المكان وجدا رجلاً مستلقياً على قفاه، فلم يعرفاه، فأخرج وصيّ موسى الحوت وغسله بالماء ووضعه على الصخرة، ومضيا ونسيا الحوت، إلى آخر القصة. تفسير القمّي:٢/١١ـ ١٢؛ تفسير نور الثقلين:٣/٢٧٠.

وإليك تفسير الآيات في حلقات أربع:

الحلقة الأُولى

٦٠. (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا):

قوله تعالى:(وَ) اذكر يا محمد (إِذْ قَالَ مُوسَى) جملة معطوفة على قوله:(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ) الكهف:٥٠، (لِفَتَاهُ) هو يوشع بن نون كما جاء في الروايات، وهو ابن أُخت موسى وتلميذه المختصّ به ووصيّه على بني إسرائيل ـ ماذا قال؟ ـ قال: (لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ): أي لا أزال أسير حتى أبلغ مجمع البحرين سريعاً (أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) أو أصل إليه بعد مضيّ زمن طويل. وهذا القول من موسى(عليه السلام)يعبّر عن التصميم الأكيد له لبلوغ غايته، وفيه أيضاً شحذ لعزيمة فتاه لتحمُّل مشقّة المسير الذي قد يستدعي زمناً طويلاً فليستعدّ له، كما فيه أيضاً إشارة إلى الأدب في السفر وهو أنّ المُرافق يجب أن يعيّن لمرافقه حدّ السفر الذي قصده ليكون هو على بصيرة من سفره هذا. فقوله: (حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ) لأجل أنّه سيجد الرجل الأعلم منه عند ملتقى البحرين كما في الرواية. وعندئذ يقع الكلام: ما هو معنى قوله: (أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا) فإذا كانت ضالّته عند مجمع البحرين، فيكون عطف الجملة الثانية يستدعي سبباً. ويمكن أن يقال: إنّ المقصود بالعطف تأكيد مضيّه زمناً يتحقّق فيه الوصول إلى مجمع البحرين. فالمعنى لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين بسَير قريب، أو أسير أزماناً طويلة حتى أبلغه، فتكون الجملة كناية عن عزمه على العثور على ضالّته وإن استلزم السير الطويل.

ما هو المراد من مجمع البحرين؟

٦١. (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا):

الفاء في قوله:(فَلَمَّا) فاء التفريع وهو يدلّ على أُمور موجودة في القصة طوي الكلام عن ذكرها، وهي أنّ موسى وفتاه أخذا بالسّير بعد الإخبار حتى صارا عند مجمع البحرين، كما قال:(فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا): أي البحرين. وقد اختلفت كلمات المفسّرين في هذا المجمع بين البحرين على وجوه يمكن القطع ببطلان بعضها بالنسبة إلى الظروف التي عاشها موسى(عليه السلام)، والوسائل المتاحة له في السَّير.

ومن الوجوه المذكورة ما يلي:

١. أنّه مجمع خليجَي العقبة والسويس في البحر الأحمر. وكان بنو إسرائيل يقيمون في هذه المنطقة بعد خروجهم من مصر.

٢. ملتقى البحر المتوسط (وكان يسمى بحر الرُّوم) مع البحر الأحمر. وهو ما يسمّى الآن بقناة السويس.

وأمّا ما يقال من أنّه ملتقى البحر المتوسط والمحيط الأطلسي عند مضيق جبل طارق في المغرب، فهو بعيد جدّاً، لأنّ موسى(عليه السلام) كان مع بني إسرائيل في التّيه بعد خروجهم من مصر، فلو خرج منهم فإنّما يخرج إلى مكان قريب، حتى يرجع إليهم دون أن يشعروا بغيابه، وأمّا لو قصد ذلك المكان البعيد فهو رهن الغيبة عن قومه شهوراً ذهاباً وإياباً، ولو تحقّق ذلك لذُكر في سيرة حياة موسى(عليه السلام) ولذكره المؤرِّخون.

وعلى كلّ تقدير (فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا) وهي السمكة التي أمر موسى(عليه السلام)باستصحابها ليكون مكان افتقادها دليلاً على وجود العبد الصالح هناك كما ورد في الروايات، ونُسب النسيان إلى موسى وفتاه مع أنّ الثاني هو الناسي، لأنّ موسى(عليه السلام)هو القاصد وكان عليه أن يتعاهده ويسأل عنه، وأمّا كيفية النسيان فكأنّ موسى(عليه السلام) نام وبقي فتاه يقظان وعندها حدث ما يلي: (فَاتَّخَذَ) الحوت (سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا): أي فإذا بالحوت يضطرب ويأخذ طريقه في البحر ويغور فيه.

وأمّا أنّه كيف اضطرب بعد ما كان ميتاً أو مملوحاً فقد سكت عنه القرآن الكريم، والروايات تذكر له سبباً وهو أنّ وصيّ موسى (عليه السلام) أخرجه وغسله بماء الحيوان كما ذكر علي بن إبراهيم في القصّة، المتقدمة. والله العالم.

٦٢. (فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا):

استيقظ موسى(عليه السلام) كما يبدو من نومه ونسي الفتى أن يخبره بأمر الحوت واستأنفا المسير (فَلَمَّا جَاوَزَا) مجمع البحرين تعبا وجاعا وعندئذ (قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا): أي تعباً. وعندها تذكّر الفتى قضية الحوت، فقصّ على موسى(عليه السلام) ما رآه بعينه.

٦٣. (قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا):

قوله تعالى: (قَالَ) فتى موسى (أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ) ونزلنا هناك (فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ): أي فقدت الحوت وكان عليّ أن أذكر لك قصّته(وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ): أي هو الذي أنساني أن أذكره لك، ولو ذكره لما جاوز موسى(عليه السلام) ذلك المكان الذي فقد فيه الحوت ولَمّا ناله النَّصب، فلذلك ذكر إجمال القصة التي نساها وهو أنّ الحوت (اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا): أي غار في الماء بصورة عجيبة. وعند سماع موسى هذا الخبر، خاطبه بقوله:

٦٤. (قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا):

قوله: (قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ): أي ذلك ما كنّا نطلب من العلامة (فَارْتَدَّا) من الارتداد بمعنى العَود، أي فعادا(عَلَى آثَارِهِمَا): أي آثار أقدامهما(قَصَصًا): أي اتّباعاً، فصارا يقصّانها قصصاً ويتّبعانها اتّباعاً حتى انتهيا إلى المكان الذي دخل الحوت فيه إلى البحر. وقوله:(نَبْغِ) أصله نبغي، حُذِفت الياء في الكتابة رعاية لحالة الوقف. كذا قيل، والحق أنّ كُتّاب الوحي ـ يوم ذاك ـ لم يكونوا متقنين رسم الخط العربي على الوجه الدقيق أو كان رسم الخط العربي في بدايات أمره، وإنّما تطوّر وتكامل عبر عصور، وكم لهذا اللفظ من نظائر في المصحف الشريف لم تمسّها يد التغيير حفظاً للأصالة.

بقي هنا أمران:

١. إنّ فتى موسى ينسب النسيان إلى الشيطان وقال: (وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ)، فهل للشيطان سبيل على الأوصياء؟ الجواب: لا، ولعلّ يوشع لم يكن يومذاك وصيّاً، وإن كان ذا مقام سام.

٢. ورد في صحيح البخاري أنّ موسى(عليه السلام) قال: يا رب اجعل لي علَماً أعلم ذلك به. قال: تأخذ معك حوتاً في مكتل فحيث ما فقدت الحوت فهو ثمّ. التحرير والتنوير:١٥/١٠٠.إذا كان الأمر كذلك، فكيف يطلب من فتاه أن يحضر الحوت للغداء؟ إذ عندئذ تبطل علامته، وهو(عليه السلام)لم يكن عالماً بأنّه اضطرب ودخل البحر.

أقول: لو صحّت الرواية يجب أن يقال: إنّ الغداء المطلوب كان غير الحوت، أو يقال: إنّ العلامة كانت وجودَ الرجل عند مجمع البحرين لا شيء آخر. ولعلّ الوجه الأوّل هو الأفضل.

الآيات: الخامسة والستون إلى السبعين(فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً ...حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا).

(فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا *

(قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا).

المفردات

رحمة: مفعول به ثان، وفسّر بالوحي والنبوّة، وهو بعيد لاشتراك موسى معه في ذلك. ولعلّ المراد: جعلناه سبباً للرحمة حيث يتصرّف لمصلحة الأُمّة.

من عندنا: عند اسم مكان قريب، ويستعمل مجازاً لبيان الاختصاص، ونظيره قوله: (لَدُنَّا).

رُشداً: مفعول له، أي أتّبعك لطلب الرُّشد. ويحتمل أن يكون مفعولاً به أي: أن تعلّمني رشداً ممّا عُلّمته. والرُّشْد: إصابة الخير.

لم تُحِط: أُريد معرفة الشيء بغاياته معرفة تامّة.

خُبْراً: معرفة.

ذِكراً: بياناً.

التفسير

الحلقة الثانية

٦٥.(فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا):

لمّا وصل موسى(عليه السلام) وفتاه إلى الموضع الذي كانا يتوخّيانه (فَوَجَدَا): أي أدركا (عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا)، والله سبحانه يصف ما أدركاه بصفات:

١. (عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا). والعبوديّة التامّة هي مفخرة للإنسان، قال الإمام علي(عليه السلام): «كفى بي فخراً أن أكون لك عبداً، وكفى بي عزّاً أن تكون لي ربّاً». الخصال: ٤٢٠؛ روضة الواعظين: ١٠٩.

٢. (آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا) قد مرّ أنّ في الرحمة وجهين، واخترنا الوجه الثاني، أعني: أنّه صار سبب الرحمة للناس في تصرّفاته، كما ستأتي نظائره.

قوله: (مِنْ عِنْدِنَا) إضافة «عند» لضمير المتكلّم مع الغير لبيان شرف الانتساب إلى الله تعالى.

٣. (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) والإضافة في قوله: (مِنْ لَدُنَّا) هي نفس الإضافة في قوله:(مِنْ عِنْدِنَا)وأُريد بهذا العلم، العلم بباطن الأفعال وغاياتها، إذ ربّما يكون فعلٌ ما منكراً بحسب الظاهر، ولكنّه ليس كذلك في واقع الأمر، بل فيه مصلحة تامّة أو دفع مفسدة مهمّة، وبهذا امتاز على موسى(عليه السلام)، فهو لا ينظر إلى ظاهر الأفعال وما يترتّب عليها من الآثار حسبها، ولكنّه ينظر إلى معاني الأفعال وتأثيرها في المستقبل.

٦٦. (قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا):

ابتدأ موسى كلامه بالأدب البارع الحريّ بالمتعلّم المستفيد و (قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ): أي هل تجيز لي أن أتّبعك؟ فجعل من نفسه تابعاً يقفو أثر متبوعه، وهو المصاحب، ثم عظّم قدْر علم المعلّم وقال: (عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا) حيث لم يقل: «ما عُلِّمت» بمعنى كلّ ما عُلّمت، بل قال: (مِمَّا عُلِّمْتَ): أي بعض ما عُلِّمت، ثم مدحه وقال: (رُشْدًا): أي إصابة الخير والمصلحة، مشعراً بأنّ العلم النافع هو ما فيه الرُّشد.

٦٧. (قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا):

وقد تعامل مصاحب موسى مع متعلّمه بأدب أيضاً، حيث لم يرفض استئذانه باتّباعه، بل أشار بلطف إلى عدم صبره على ما يفعله

و(قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا).

٦٨. (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا):

ثم علّل عدم صبره بقوله:(وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى)ما سأقوم به من الأعمال وهو في ظاهره منكر عندك، كما يقول: (مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا): أي لم تعرف باطنه وتأويله وما يترتّب عليه من المصالح؟

٦٩. (قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا):

لقد أظهر المتعلِّم أدبه البارع مرّة أُخرى و(قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا) على ما تقوم به من الأعمال، وقد قيّد الفعل (سَتَجِدُنِي) بمشيئة الله سبحانه عملاً بالسنّة الرائجة في الشرائع (وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا) تأمرني به. وبهذا جعله آمراً وجعل نفسه مأمورة.

٧٠. (قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا):

أذن له المصاحب باتّباعه، ولكن شرط عليه أن لا يسأله عن علل الأفعال ووجوهها كما قال: (فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي) ووقّت عدم السؤال بقوله: (حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا): أي أكون أنا مفسّراً ومبيِّناً.

فالمصاحب بهذا التعبير يذكِّر المتعلِّم بأنّ ما يقوم به من الأفعال والتصرّفات له مصالح واقعية، فعلى المتعلِّم (موسى) أن يدع السؤال ويصبر إلى أن يبتدئ هو بالكلام، ويكشف له عن علل وأسرار تصرّفاته وأعماله.

الآيات: الحادية والسبعون إلى الثامنة والسبعين(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا ... مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا).

(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاَمًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا).

المفردات

خَرَقها: شقّها.

إمراً: الإمر: المنكر. وقال أبو عبيدة: الداهية العظيمة. التبيان في تفسير القرآن:٧/٧٣.

ولا ترهقني: ولاتكلّفني. وأصل الرَّهَق الغِشيان، يقال: رَهِقَ الفارس فلاناً إذا غَشِيَه فأدركه.

زكيّة: طاهرة، والمراد طهارتها من سبب القتل حسب الظاهر، ولذا قيّده بقوله: (بِغَير نَفس): أي بغير قتل شخص.

نُكراً: منكراً. ولعلّه يرادف (إمراً).

فلا تصاحبني: أي فلا تقاربني، أي إن سألتك بعد هذه المرّة عن شيء فحقّ لك أن لا تصاحبني.

ينقضّ: يسقط بسرعة.

التفسير

الحلقة الثالثة:

١. خرق السفينة

٧١.(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا):

بدأ موسى(عليه السلام) رحلته التعليمية بركوبه هو وصاحبه في السفينة كما قال: (فَانْطَلَقَا) يمشيان على شاطئ البحر (حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ)وجرت السفينة بركّابها (خَرَقَهَا) الرجل الصالح بشكل يعرّض السفينة ومَن فيها لخطر الغرق، فاستغرب موسى(عليه السلام) من هذا التصرّف و(قَالَ) مستنكراً (أَخَرَقْتَهَا): أي شققتها (لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا) ولم يقل: «لنغرق» إشفاقاً منه على القوم أكثر من إشفاقه على نفسه جرياً على عادة الأنبياء، مضافاً إلى أنّ في غرق أهل السفينة غرق موسى وصاحبه. ثم قال بعد إنكاره ذلك (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا): أي شيئاً منكراً فظيعاً.

ثمّ إنّ اللام في قوله: (لِتُغْرِقَ) لام العاقبة، لا لام الغاية بمعنى أنّه يترتّب على فعله غرق أهل السفينة شاء أم لم يشأ، مثل قوله: (رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ) يونس:٨٨.

بمعنى أنّه قد ترتّب على تموّلهم وتمتّعهم بالزينة، إضلالُ الناس.

٧٢. (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا):

(قَالَ) الرجل الصالح: (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) وذكّرتك حين رغبتَ في اتّباعي أنّك لا تطيق ما أقوم به من الأعمال؟ فاعتذر موسى(عليه السلام) وقال:

٧٣. (قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا):

(قَالَ) موسى معتذراً مستقيلاً (لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ): أي لا تلُمْني وتعاتبْني بترك الوعد، فليس النسيان هنا بالمعنى المعروف بل المراد تركه، لأجل أنّه استشعر بأنّ تذكير مخاطرة هذا الأمر أَولى من حفظ العهد (وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا): أي لا تكلّفني مشقة، ولا تعاملني بالعسر، ولا تضيّق عليّ الأمر في صحبتك.

قتل غلام زكيّ

٧٤.(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاَمًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْس لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا):

يظهر من الآية أنّهما هبطا من السفينة في مكان ما، ثمّ سارا فلقيا غلاماً، كما قال: (فَانْطَلَقَا) وتابعا مسيرهما(حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاَمًا) فبادر الرجل الصالح إلى قتله(فَقَتَلَهُ) فانتفض موسى مستنكراً، و(قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً)طاهرة من الذنوب المستوجبة للقتل؟ (بِغَيْرِ نَفْس) ولم تقتل نفساً فيُقتصّ منها (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا): أي أمراً منكراً في الشرع والعقل.

ولا دليل على أنّ المقتول كان غير بالغ، إذ يستعمل الغلام في الشاب الطريّ وهو يشمل البالغ وغيره بشهادة أنّه سبحانه يصف إسماعيل بقوله: (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَم حَلِيم * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ) الصافات:١٠١ و ١٠٢، فهو في ظرف الحلم كان غلاماً، ومن المعلوم أنّه كان في ذلك الظرف شاباً لا صبيّاً غير بالغ.

٧٥. (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا):

لم يجد الرجل الصالح أمام هذا الاعتراض،إلاّ تذكير موسى بالشرط الذي كان قد اشترطه عليه حين الالتقاء، ولذلك (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)؟ قيل: إنّ الأُستاذ هنا قد أخذ تلميذه بشيء من الشدّة، ففي كلمة (لَكَ) نخسة قويّة.

٧٦. (قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْء بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا):

هنا أبدى موسى ندمه على ما صدر عنه و (قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْء بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي): أي اتركني واحرمني من مصاحبتك (قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي): أي من قِبَلي(عُذْرًا): أي لك العذر في تركي.

٣. بناء جدار

٧٧. (فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَة اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ

لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا):

الظاهر أنّهما استمرا في السَّير وتركا الأرض التي قُتل فيها الغلام فساروا إلى أرض أُخرى كما يقول: (فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا): أي طلبا منهم الطعام ضيافة (فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا)!! ما أشدّ بخل هؤلاء إذ يغلقون أبوابهم في وجه الضيف الجائع الغريب، ومع ذلك واصلا مسيرهما في نفس هذه القرية (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ):

أي يُشرف على الانهدام (فَأَقَامَهُ): أي أثبته العبد الصالح بإصلاح شأنه، فتعجَّب موسى من قيامه بهذا العمل الذي يرجع نفعه إلى أناس قد رفضوا قبل قليل ضيافتهما وهما جائعان، ولذلك لم يعترض على عمله بخلاف العملين السابقين لأنّه كان عملاً صالحاً، وإنّما (قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) لكي نشتري به طعاماً نسدّ به جوعنا.

قال الشريف الرضي في قوله سبحانه:(يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ) استعارة لأنّ الإرادة على حقيقتها لا تصحّ على الجماد، والمعنى يكاد أن ينقضّ أي يقارب أن ينقضّ على التشبيه بحال من يريد أن يفعل في المباني ؛ لأنّه لمّا ظهرت فيه أمارات الانقضاض من مَيل بعد انتصاب واضطراب بعد ثبات، حَسُنَ أن يطلق عليه إرادة الوقوع على طريق الاتِّساع، ويردُ في كلامهم كاد بمعنى أراد، وأراد بمعنى كاد، وجاء في القرآن قوله سبحانه: (كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ) يوسف:٧٦.: أي أردنا ليوسف. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١١١.

٧٨. (قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا):

فعند ذلك (قَالَ) الرجل الصالح (هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ) لا أُصاحبك من بعد أخذاً بقولك: (إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي) ومع ذلك (سَأُنَبِّئُكَ): أي أُخبرك (بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا).

الآيات: التاسعة والسبعون إلى الثانية والثمانين(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ... مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا).

(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا* وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا).

المفردات

لِمساكين: المساكين: جمع مسكين وهو الفقير أو أبلغ منه.

يعملون في البحر: أي يؤاجرون بحمل المسافر أو المتاع.

أعيبها: أجعلها ذات عيب.

خَشينا: خِفنا. وتستعمل الخشية في التحذّر عن رأفة ورحمة.

يُرهقهما: رَهِقَه الأمر: غَشِيه بقهر.

طغياناً: مجاوزة للحدود الإلهية.

زكاة: طهارة من الذنوب.

رُحماً: رحمة، نظير الكُثر والكُثرة.

لم تسطع: لم تستطع، ماضيه اسطاع الذي أصله استطاع.

التفسير

الحلقة الرابعة:

٧٩.(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا):

ذكر المصالح الواقعية لأعماله الثلاثة

كان ظاهر الأعمال الثلاثة التي قام بها صاحب موسى(عليه السلام) تثير العجب والاستنكار، لذا راح يفسّرها ويكشف له عن أسرارها، ويبيّن أنّها كانت على مُرّ الحق، وأنّه لا يعرف ما وراءها إلاّ المطّلع على حقائق الأشياء العارف بالمصالح الواقعية.

ولذلك بدأ ببيان المصالح المكنونة في أفعاله، فذكر أمر السفينة أوّلاً، ثمّ قتل الغلام، ثمّ بناء الجدار، وقال: (أَمَّا السَّفِينَةُ) التي خرقتها (فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ): أي لفقراء (يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ) في المؤاجرة ويتعيّشون بها (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا): أي أُحدث فيها عيباً (وَكَانَ وَرَاءَهُمْ) أُريد به ـ كما يقول المفسّرون ـ أمامهم (مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ)صحيحة غير معيبة (غَصْبًا): أي اغتصاباً من أصحابها.

لقد أوقع العبد الصالح بهؤلاء المساكين ضرراً خفيفاً بإحداث عيب في سفينتهم من أجل أن يدفع عنهم ضرراً شديداً، وهو غصب سفينتهم من قبل ملك ظالم كان يأمر بغصب كلّ سفينة صالحة للاستعمال.

وعلى هذا الأساس كان الإمام الصادق(عليه السلام) يعيب على زرارة في بعض مجالسه للحفاظ على الأصلح، حيث إنّه كان لزرارة مقاماً شامخاً في المجتمع يوم ذاك، فلو وقفت جلاوزة النظام على صلته الوثيقة بالإمام الصادق(عليه السلام) لأقدموا على تصفيته، فلذلك يتظاهر الإمام(عليه السلام)، في بعض الأوقات، بذمّه. وقد روي في الصحيح أنّ أبا عبد الله(عليه السلام) قال لولده عبدالله بن زُرارة: اقرأ منّي على والدك السلام وقل له : «إنّي إنّما أعيبك دفاعاً منّي عنك، فإنّ الناس والعدوّ يسارعون إلى كلّ مَن قرّبناه وحمدنا مكانه، لإدخال الأذى فيمن نحبّه ونقرّبه، ويرمونه لمحبّتنا له وقربه ودنوّه منا، ويرون إدخال الأذى عليه وقتله ويحمدون كلّ من عِبناه نحن، فإنّما أعيبك لأنّك رجل اشتهرت بنا وبميلك إلينا، وأنت في ذلك مذموم عند الناس غير محمود الأثر بمودّتك لنا ولميلك إلينا، فأحببت أن أعيبك ليحمدوا أمرك في الدين بعيبك ونقصك، ويكون بذلك منّا دافع شرّهم عنك، يقول الله عزّ وجلّ:(أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)هذا التنزيل من عند الله (صالحة)، لا والله ما عابها إلاّ لكي تسلم من الملك ولا تعطب على يديه، ولقد كانت صالحة ليس للعيب فيها مسانح، والحمد لله. فافهم المثل يرحمك الله فإنّك والله أحبّ النّاس إليّ، وأحبّ أصحاب أبي إليّ حيّاً وميّتاً، فإنّك أفضل سفن ذلك البحر القمقام الزاخر، وإنّ من ورائك ملكاً ظلوماً غصوباً يرقب عبور كلّ سفينة صالحة ترد من بحر الهدى ليأخذها غصباً، ثمّ يغصبها وأهلها، فرحمة الله عليك حيّاً، ورحمته ورضوانه عليك ميّتاً». رجال الكشّي: ١٢٦، برقم ٦٢ ؛ تفسير نور الثقلين:٣/٢٨٥.

بقيت هنا نكتة وهي أنّه ينسب إرادة عيب السفينة إلى نفسه وقال: (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا)، وفي الوقت نفسه ينسب أمر بناء الجدار إلى الله تعالى، ويقول: (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا) الكهف:٨٢، وما هذا إلاّ لرعاية الأدب في الكلام، حيث إنّ خرق السفينة بظاهره عمل مذموم، بخلاف بناء الجدار فإنّه عمارة، فيعدّ عملاً محموداً.

تقدّم أنّ المفسّرين ذهبوا في قوله: (وَرَاءَهُمْ) أنّه بمعنى أمامهم، حيث إنّ السفينة حين تجري بعد هبوط العبد الصالح وموسى منها ستواجه ملكاً ظالماً، فالوراء بمعنى أمام، ويشهد لذلك قوله تعالى: (وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) المؤمنون:١٠٠.

ولكنّ الظاهر أنّ الوراء بمعناه الواقعي لأحد وجهين:

١. يُحتمل أنّ من ينفذّ إرادة الملك كان خلفهم، فربّما كان يلاحقهم ويسير على أثرهم ليدركهم ويستولي على سفينتهم خصوصاً إذا كان في سفينة تجري بسرعة أكبر.

٢. ما ذكره السيد الطباطبائي بقوله: ربّما يطلق (الوراء) على الطرف الذي يغفل عنه الإنسان وفيه من يريده بسوء أو مكروه وإن كان قدّامه، أو فيه ما يعرض عنه الإنسان، أو فيه ما يشغل الإنسان بنفسه عن غيره، كأنّ الإنسان ولّى وجهه إلى جهة تخالف جهته، قال تعالى: (فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) المؤمنون:٧.، وقال: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَاب) الشورى:٥١.، وقال: (وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ) البروج:٢٠.. الميزان في تفسير القرآن:١٣/٣٤٧.

٨٠ و ٨١ . (وَأَمَّا الْغُلاَمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا):

وهنا يميط العبد الصالح اللثام عن الوجه الخفيّ لقتله هذا الغلام من غير ذنب ظاهر صادر عنه، وهو أنّ أَبَوا هذا الغلام كانا مؤمنين، وأمّا هو فلديه قابلية للانحراف واستعداد لأن يصبح في مستقبل أيامه شرّيراً طاغياً، وخشية من أن يرهق، أي يغشى والديه ويسيطر عليهما ـ بعد أن يكبر ـ بطغيانه وفساده وكفره، قتله العبد الصالح كما قال: (وَأَمَّا الْغُلاَمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ) صالحين (فَخَشِينَا)، ولمّا كانت نسبة الخشية إلى الله سبحانه أمراً غير صحيح، فأُريد به التحذّر عن رأفة ورحمة مجازاً، وإلاّ فمعناه الحقيقي الذي هو التأثّر القلبيّ الخاصّ، منفيٌّ عنه تعالى، (أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا)الظاهر أنّ الوصفين(طُغْيَانًا وَكُفْرًا) حالان من الغلام بقرينة ما يأتي في الآية التالية حيث يصف سبحانه الولد الذي يرزق به الوالدان فيما بعد بقوله:

(خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا) ويكون معنى الفقرة: (أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا): أي يُغشيهما في حال كونه طاغياً وكافراً شرّاً وبلاءً.

ويقال: إنّ طغياناً وكفراً مفعولان لـ (يُرْهِقَهُمَا): أي يُغشيهما بقهر طغياناً وكفراً. والمعنى أنّه يحمل والديه على الطغيان والكفر بالإغواء والتأثير الروحي لمكان حبّهما الشديد له (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا): أي أن يرزقهما بدل ابنهما القتيل ولداً (خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً): أي خيراً منه صلاحاً وإيماناً (وَأَقْرَبَ رُحْمًا): أي أوصل للرحم والقرابة.

٨٢ . (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا):

هذا هو الأمر الثالث الذي أشكل على موسى(عليه السلام) وقد فسّره العبد الصالح بقوله: (وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ)متعلّقاً (لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا): أي مال مدفون تحت هذا الجدار المشرف على الانقضاض، فلو تُرك وهذا حاله، لانهار وسقط وظهر الكنز وضاع (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا) يبلغا الوقت الذي يَقدِران فيه على حفظ مالهما (وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا) بأنفسهما (رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) يصيب بها مَن يشاء حسب ما تقضي به حكمته.

ثم إنّ العبد الصالح ذكر أنّه إنّما قام بهذه الأُمور بأمر من ربّه، قال: (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي) فالأَولى أن يرجع الضمير إلى الأُمور الثلاثة لا إلى الأمر الأخير فقط (ذَلِكَ): أي ما شرحتُ لك (تَأْوِيلُ) مآل (مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا): أي المصالح التي سبّبت قيامي بهذه الأعمال.

وهكذا امتد الأثر الطيّب لصلاح الأب حتى شمل ولديه، فنفعهما وحفظ لهما كنزهما من الضياع، وقد روي في هذا الصدد عن الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) أنّه قال: «إنّ الله ليُصلح لصلاح الرجل المؤمن ولده وولد ولده، ويحفظه في دويرته ودويرات حوله، فلا يزالون في حفظ الله لكرامته على الله. ثم ذكر الغلامين، فقال: (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا) ألم تر أنّ الله شكر صلاح أبويهما لهما». تفسير العيّاشي: ٣ / ١٠٦، الحديث ٦٣.

وعن الإمام الحسين(عليه السلام) أنّه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما: بِم حفظ الله الغلامين؟ قال: بصلاح أبيهما، قال: فأبي وجدّي خير منه، فقال: قد أنبأنا الله أنّكم قوم خصمون. تفسير الكشّاف: ٢/٤٠٠.

أقول: بل هم ـ أعني: أهل البيت(عليهم السلام) ـ : «أَزِمَّةُ الْحَقِّ، وَأَعْلاَمُ الدِّينِ، وَأَلْسِنَةُ الصِّدْقِ!». نهج البلاغة: الخطبة ٨٧ .وقد شهد لهم

الجميع ـ حتى معاوية ـ بقوّة الحجّة وفصاحة اللسان، وكان يقول (أي معاوية) لمن يريد أن يخاصم الإمام الحسن(عليه السلام): لا تفعل فإنّهم قوم أُلهموا الكلام. وفيات الأعيان:٢/٦٨.

ويستفاد من مجموع هذه الآيات الأُمور التالية:

الأوّل: التأويل في القرآن الكريم

قد اشتهر بين المتأخّرين أنّ المراد من التأويل هو صرف الآية عن ظاهرها، وبهذا يفسّر قوله سبحانه:(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ). آل عمران:٧.

أقول: إنّ هذا مصطلح جديد بين العلماء حيث يطلقون التأويل على صرف الظاهر عن ظاهره، ولا صلة لهذا بالتأويل في القرآن الكريم.

والذي يمكن أن يقال هنا على وجه الإجمال: إنّ التأويل مأخوذ من آل، يؤول إذا رجع، فإذا كان التأويل بمعنى إرجاع الشيء إلى مآله وحقيقته، فهو يختلف مصداقاً حسب موضعه.

فإذا كان المبهم فعلاً من الأفعال، وكان يغمره الإبهام والسؤال فيراد من التأويل إرجاع الفعل إلى واقعه بمعنى رفع الستر عن مصالحه. وهذا هو المراد من التأويل في هذه الآيات، حيث قال: (ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) الكهف:٨٢، فالتأويل في الآية رفع الإبهام عن وجه الفعل، وإبراز صورته الحقيقية.

وأمّا إذا كان المورد هو الرؤيا التي يكتنفها الإبهام، فالتأويل عبارة عن إرجاع ما يراه النائم إلى الأصل الذي انشقّت منه الرؤيا الفعلية. وهذا هو المراد من التأويل في موارد أربعة وردت في سورة يوسف(عليه السلام)وهي:

١. رؤية يوسف سجود أحد عشر كوكباً مع الشمس والقمر له.

٢. رؤية أحد صاحبَيه في السجن أنّه يعصر خمراً.

٣. رؤية صاحبه الآخر أنّه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل منه الطير.

٤. رؤية الملك سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف... إلخ.

فالتأويل في هذه الموارد، هو تأويل عمل تكويني وإرجاع له إلى واقعه.

وأمّا إذا كان مورد التأويل الكلام المبهم بحيث يسوده الإجمال، فالتأويل عبارة عن رفع الإبهام من خلال القرائن الحافّة به، مثلاً في قوله سبحانه:(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْد وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) الذاريات:٤٧، فإنّ ظاهر الآية أنّ لله سبحانه أيدياً، بنى بها السماء، ومن المعلوم أنّه سبحانه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)فعلى المفسّر رفع إبهام الآية بالإمعان في القرائن الحافّة بها، وهذا النوع من العمل ـ أي إرجاع الآية المبهمة إلى ما قُصد منها حقيقة ـ يُسمّى تأويلاً.

والقرينة الموجودة في الآية أنّه سبحانه باستخدام كلمة اليد بصدد بيان دفع ما يُتوهّم أنّه شارك الله تعالى في بناء السماوات، غيره، فالتأكيد على أنّه بناها (بِأَيْد) كناية عن عدم المشاركة. والتعبير عن الاختصاص بهذا اللفظ أمر رائج.

فإن قلت: قد تقدّم منك أنّ إطلاق التأويل على صرف الظاهر عن ظاهره مصطلح جديد لا صلة له بالتأويل في القرآن الكريم، مع أنّ ما ذكرت من القسم الثالث هو من هذا القبيل.

قلت: شتّان بين الأمرين، فدور التأويل في قوله سبحانه: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْد)عبارة عن رفع الإبهام وإثبات الظهور للآية، وفي الثاني رفض ظاهر الآية والأخذ بغيره، فكيف يمكن أن يكونا من مقولة واحدة؟

وإن شئت قلت: المقصود الأسنى في الأوّل هو التعرّف على ظهور الآية عن طريق الإمعان في القرائن، وفي الثاني صرف الظاهر

المستقر للآية إلى خلافه.

الثاني: تقسيم الحجّة إلى ظاهرة وغير ظاهرة

الإمعان في الآيات المتقدّمة يثبت أنّ لله سبحانه بين عباده حججاً ظاهرة يبلّغون رسالات الله إلى الناس، وحججاً غير ظاهرة لا يعرفهم الناس، ومع ذلك فهم يقومون بتنفيذ أوامره سبحانه بينهم حسب المصالح.

وقد التقى النوعان من الأولياء في مكان واحد: أحدهما موسى بن عمران، والآخر صاحبه المؤقّت، العبد الصالح العالم، الّذي صحبه في سفره برّاً وبحراً.

إنّ هذا الوليّ الإلهيّ كان مغموراً خفيّاً على نحو لم يكن يعرفه نبيٌّ عظيم كموسى بن عمران ـ فضلاً عن غيره ـ وإنّما تعرّف عليه بإرشاد من الله سبحانه، واستفاد من علمه خلال مرافقته إيّاه.

وعلى ضوء ذلك لا إشكال في أن يكون بين أئمّة أهل البيت(عليهم السلام)(وهم حجج ظاهرة يعرفهم الناس)، حجّة غائبة لا يعرفه الناس وهو يعرفهم، كإمامنا المهدي المنتظر(عجل الله تعالى فرجه الشريف).

وفي ذلك يقول الإمام علي(عليه السلام):«لا تَخْلو الأرضُ من قائم للّهِ بحُجّة، إمّا ظاهراً مَشْهُوراً أو خائِفاً مَغْموراً، لئلاّ تَبْطُلَ حُجَجُ اللّهِ وَبَيِّناتُهُ». نهج البلاغة: باب الحكم، الرقم ١٤٧.

وحريٌّ بنا ـ ونحن نتحدّث عن الأولياء المغمورين ـ أن نذكر هنا كلمة ذهبية للإمام محمد الباقر(عليه السلام)، تضيء لنا معالم الطريق في كيفية السلوك مع الله تعالى ومع الناس، قال(عليه السلام) لابنه جعفر الصادق(عليه السلام): «إنّ الله خَبَأَ ثلاثة في ثلاثة أشياء: خَبَأَ رضاه في طاعته، فلا تحقرنّ من الطاعة شيئاً، فلعلّ رضاه فيه؛ وخبأ سخطه في معصيته، فلا تحقرنّ من المعصية شيئاً، فلعلّ سخطه فيه؛ وخبأ أولياءه في خلقه، فلا تحقرنّ أحداً، فلعلّه ذلك الوليّ». مجمع الأمثال للميداني:٤٥٨/٢(من حِكَم السَّلف)؛ الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: ٨٩٥ ؛ كشف الغمة:ر٣٦١/٢.

إنّ غيبة الوليّ ليس بمعنى الانفصال عن المجتمع والعيش فيما وراء هذا العالَم، بل هي بمعنى أنّه يعرف الناس ويعيش بينهم، ولكنّهم لا يعرفونه، وهو في هذا كصاحب موسى، فقد كان مرّةً في مجمع البحرين، وأُخرى في السفينة، وثالثة في القرية.

كلّ ذلك شاهد على أنّ حياته بين الناس كحياتنا بينهم، والحجاب الحائل بينه وبين الناس هو حجاب عدم التعرُّف عليه، ولكن ذلك لا يمنع من تشرُّف فريق من الأبرار والأتقياء الذين يتمتّعون باللياقة والأهليّة بلقاء هذا الوليّ ورؤيته والاستفادة من إرشاداته وعلومه، كما استفاد موسى(عليه السلام)من إرشادات العبد الصالح.

الثالث: التصرّف حسب المصالح

ثمّ إنّ للوليّ الغائب تصرّفات في أموال الناس ونفوسهم حسب مصالحهم، وأنّ غَيبة الإمام لا تعني أنّه الإمام ليس له شأن سوى انتظار أمر الله بالظهور، بل هو في أصل الغيبة مصدر التصرّفات التي تصبّ في مصلحة المجتمع البشري، وإن كان الناس لا يرونها، شأنه في هذا شأن صاحب موسى فإنّه خرق السفينة دون أن يراه صاحبها أو ركّابها، وتصرّفه هذا كان نافعاً، إذ بدون ذلك الخرق سيقوم الملك الجبّار بمصادرتها.

الرابع: الولاية التكوينية لأولياء الله تعالى

إنّ الآيات تدلّ على أنّ العبد الصالح خرق السفينة، ولم يلتفت إليه لاربّان السفينة ولا أحد من ركّابها، كما أنّه قتل غلاماً وسط المدينة وخرج عنها دون أن يلاحقه أحد من أوليائه أو أقاربه، مع أنّ قتل الولد لم يكن في الليل أو في مكان خال من البشر، فكيف قام بذلك من دون ملاحقة؟! وهكذا عمله الثالث فهو قد بنى جداراً وهو بمرأى ومسمع من الناس وما سألوه عن علاقته

بهذا الجدار، مع أنّ بناء الجدار يحتاج إلى وقت، كما أنّه بحاجة إلى موادّ البناء، فكيف قام بذلك ولم يلتفت إليه إنسان؟

والجواب: إنّ لأولياء الله تعالى ولاية تكوينية يتصرّفون بها في العيون والأسماع ويقومون بأعمال مفيدة ذات مصلحة للأُمّة دون أن يلتفت إليهم أحد.

ومن هنا يُعلم أنّ المهدي المنتظر(عج) له ذلك المقام الشامخ، وهو أنّه لم يزل يقوم بأُمور مهمة ترجع مصالحها إلى الأُمّة الإسلامية دون أن يشعر به الناس، وربّما يشير إلى ذلك ما ورد في الروايات من أنّ مثله كمثل الشمس وراء السحاب لاترى عينها وإنّما تبعث ضوءها ودفئها إلى الأرض. انظر: كمال الدين للصدوق: ٤٨٥، الباب ٤٥، الحديث٤.

الخامس: خرق السفينة ومقولة ميكافيلّي

ربّما يُتوهَّم أنّ عمل العبد الصالح يؤيّد الضابطة المعروفة هذه الأيام «الغاية تبرّر الوسيلة»، وأين عمل العبد الصالح من هذه القاعدة الخاطئة التي وقعت ذريعة لقتل النفوس وتخريب العمران من أجل القضاء على النظام الفاسد حسب عقيدتهم؟ وإنّما كرّس العبد الصالح عمله لمورد خاص وهو رفع الظلم عن مظلوم واقعي بإيقاع ضرر بسيط على ماله، كما في حديث خرق السفينة، أو صيانة دم مسلم بالتظاهر بذمّه كما ورد ذلك عن الإمام الصادق(عليه السلام) في بعض أصحابه، وأمّا هؤلاء الميكافيلّيون فقد اتّخذوها ضابطة تبرّر كلّ عمل إجرامي يقومون به لأجل غاية يبغونها؛ فربّما يمارسون قتل الأبرياء، أو اغتيال بعض رجال المعارضة، بهدف تحريض الجماهير ضد الحكومة بحجّة أنّ هذا من عمل الحكومة، ولو كان لهذه القاعدة مجال ما، لأقام الإمام علي(عليه السلام) معاوية في ولايته إلى أن يتمكّن(عليه السلام) من البلاد كلّها ثم يعزله.

نعم الإمام(عليه السلام) أبى أن يفعل ذلك، لأنّ إبقاء الظالم على كرسيّه يُلحق ضرراً كبيراً بالمسلمين وبأحكام الإسلام.

السادس: هل يصحّ العقاب قبل المعصية؟

قد شغل بال المفسّرين بأنّ قتل الغلام كان عقاباً قبل المعصية، فكيف قام به العبد الصالح بأمر من ربّ العالمين؟ فالله سبحانه وإن كان مالكاً للملك والملكوت، والمالك له أن يتصرّف في ملكه كيف يشاء، لكنّه سبحانه بما أنّه عادل حكيم لا يقوم بفعل ولا يأمر به إذا كان على خلاف العدل والحكمة.

والذي يمكن أن يقال ـ مضافاً إلى ما ذكره المفسّرون ـ : أنّ الغلام كان يومذاك بالغاً له عشرين سنة. تفسير الدر المنثور: ٣/٢٣٦.

وقد ذكر الشيخ محمد جواد مغنية(رحمه الله) أنّه قد روي عن الإمام الصادق(عليه السلام) أنّ الغلام كان في سنّ البلوغ وكان كافراً وأنّه كان يعمل جاهداً لحمل والديه على الكفر تماماً. تفسير الكاشف:٥/١٥٠. وعلى ذلك فلا مانع من جواز قتله لوجهين:

الأوّل: أنّه مرتدّ فطريّ، ولعلّ الحكم الشرعي آنذاك هو قتل المرتدّ الفطري.

الثاني: أنّه كان مفسداً في الأرض، وأيّ فساد أعظم من نشر الكفر بين المؤمنين، قال سبحانه: (كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا) المائدة:٣٢..

فإن قلت: ظاهر قوله سبحانه: (فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا) أنّه سيقوم بذلك في مستقبل حياته.

قلت: لا منافاة في ذلك، فيمكن أن يحدث شيئاً فشيئاً إلى أن يسيطر على والديه بطغيانه وكفره، فالتأثير القطعيّ كان رهن مضيّ زمان حتى يؤثر كلامه في روحية والديه ويصيّرهما كافرين بعد أن كانا مؤمنين.

السابع: الكنز الدفين وصلاح الأب

جمع سبحانه في قوله: (وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا)بين كنز الذهب والفضة مع كون الوالد صالحاً، والله سبحانه يذمّ الكنز ويقول: (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَاب أَلِيم)، فكيف صحّ هذا الجمع؟ التوبة:٣٤.

وقد أُجيب عن هذا السؤال بوجوه، منها جواب السيد الطباطبائي قال: الآية لا تتعرّض لأكثر من أنّه كان تحته كنز لهما، من غير دلالة على أنّ أباهما هو الذي دفنه وكَنَزَه، وعلى تقدير كون الكانز هو الأب لا مانع من أن يكون كنزُهُ لهما لأمر يسوّغه وليس هو بأعظم من خرق السفينة وقتل النفس المحترمة. انظر: الميزان في تفسير القرآن: ٣٤٩/١٣.

وفي بعض الروايات جواب آخر، فعن أبي جعفر[الباقر](عليه السلام) قال: «أما إنّه لم يكن بذهب ولا فضّة»، قلت: فما كان؟ قال: «كان علماً». تهذيب الأحكام:٢٧٦/٩، برقم ١٠٠٠(باب ميراث الأولاد).

ورويت أُمورٌ أُخرى أيضاً، لكن يمكن أن يقال: إنّ الكنز المحرّم هو عبارة عن دفن الذهب والفضّة قبل إخراج فريضتهما، فإذا أدّى زكاة ماله ونزل عن حدّ النّصاب فلا مانع من دفنه لكي يصل إلى ورثته الأعزاء، كلّ ذلك احتمالات يمكن أن يُدفع بها الإشكال .

الثامن: مَن هو العبد الصالح؟

ورد في الروايات أنّ هذا العبد الصالح الذي صاحبه موسى(عليه السلام) هو المسمّى بالخضر، ولم يرد ذكره في القرآن الكريم إلاّ في تلك الرحلة التعليمية، ولم يذكر القرآن من جوامع أوصافه إلاّ قوله تعالى:(فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا). الكهف:٦٥.

وقد شرحنا مفاد هذه الأوصاف عند تفسير الآية، وهل كان نبياً أو لا؟ اضطربت الروايات في ذلك، وقد مرّ أنّه ليس في هذه الآية ما يدلّ على أنّه من الأنبياء. ومهما يكن، فلقد كان من العلماء الذين يعرفون بواطن الأُمور وحقائق الأشياء والحوادث والوقائع التي يُبتلى بها الناس، وليس هذا من مختصّات الأنبياء، فإنّ للعرفاء الشامخين المخلصين من عباد الله المطهّرين من اللوث والدَّنس المتحرّرين من قيود الطبيعة الحابسين أنفسهم في ذات الله الحاكمين بالكتاب والعاملين بسننه وسنن نبيّه، ربّما يحصل لهم شيء من تلك المقامات التي كانت للخضر، كلٌّ حسب إخلاصه وعرفانه، وحسب استعداده وقابليته، وحسب ما له من المقدرة والطاقة لتحمّل عجائب الحقائق الغيبية.

إنّ الناظر في «نهج البلاغة» يجد في كلام الإمام علي(عليه السلام) تصريحات وإشارات على فتح هذا الباب في وجه الأُمّة وعدم سدّه، فالإمام(عليه السلام) يقول: «قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وَأَمَاتَ نَفْسَهُ، حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ، وَلَطُفَ غَلِيظُهُ، وَبَرَقَ لَهُ لاَمِعٌ كَثِيرُ الْبَرْقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وَسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ، وَتَدَافَعَتْهُ الاَْبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلاَمَةِ، وَدَارِ الاِْقَامَةِ، وَثَبَتَتْ رِجْلاَهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الاَْمْنِ وَالرَّاحَةِ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ، وَأَرْضَى رَبَّهُ». نهج البلاغة: الخطبة ٢١٥.

ويقول(عليه السلام): «هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ، وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ». نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ١٤٧.

فهذه الكلمات العلوية تبيّن جليّاً أنّ القلب يمكن أن يصبح محلاًّ للإشعاع الإلهي على مدار الزمان في عامّة الأعصار.

وقد روى الفريقان عن الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «مَن أخلص لله أربعين صباحاً، فجّر الله ينابيع الحكمة من قلبه، على لسانه». سفينة البحار: مادة «خلص»، نقله عن «عدّة الداعي» لابن فهد الحلّي.

وقال الإمام الصادق(عليه السلام): «ما أخلص عبدٌ الإيمان بالله أربعين يوماً، إلاّ زهّده الله في الدنيا، وبعّده داءها ودواءها،وأثبت الحكمة في قلبه، وأنطق بها لسانه». حديث مشهور.

وهناك كلمة طيبة وردت عن الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام) تعرب عن رأي الإسلام في المقام، قال(عليه السلام):«إِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وَتَعَالى جَعَلَ الذِّكْرَ جِلاَءً لِلْقُلُوبِ، تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ، وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ، وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ، وَمَا بَرِحَ لِلّهِ ـ عَزَّتْ آلاَؤُهُ ـ فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ، وَفِي أَزْمَانِ الْفَتَرَاتِ التخصيص بعد التعميم لا يضر بالمطلوب، لو كان المراد منه الفترة بين المسيح(عليه

السلام) وبعثة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)،، عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ». نهج البلاغة: الخطبة ٢١٧.فهو(عليه السلام) يصرّح بأنّ الذاكرين من عباده قد بلغ بهم المقام إلى درجة يناجيهم الله في سرائر ضمائرهم، ويكلّمهم من طريق عقولهم، فهل يوجد مقام أرفع من هذا، أو درجة أشرف من تلك؟

التاسع: مثل الفضل والفضيلة

قد كان لأمير المؤمنين(عليه السلام) صفوة من الأصحاب يُستدرّ بهم الغمام ويندر وجود أمثالهم في الدهر، كزيد وصعصعة ابني صوحان، وأُويس القرني، والأصبغ بن نباتة، ورُشيد الهُجْري، وميثم التمّار، وكُميل بن زياد، وأشباههم. وكان هؤلاء مثالاً للفضيلة وكرم الأخلاق، وخزنة للعلم والأسرار، منحهم أمير المؤمنين (عليه السلام)من سابغ علمه واستأمنهم على غامض أسراره ممّا لا يقوى على احتماله غير أمثالهم فجمعوا العلم، سرّه وجهره، والفضائل، نفسية وخلقية، ذاتية وكسبية، والعبادة قولاً وعملاً وجارحة وجانحة، فاكتسبوا من أمير المؤمنين كثيراً من الفعال والخصال، وأخذوا عنه أسرار العلم وعلم الأسرار، حتى زكت بهم النفوس وكادوا أن يزاحموا الملائكة المقرّبين في صفوفهم، وغبطهم الملأ الأعلى على ما اتّصفوا به من كمال الذات والصفات، فصاروا أهلاً لأن يأتمنهم الإمام على نفائس الأسرار وأسرار النفائس، فكادوا أن يكونوا بعد التصفية ملائكة مجرّدين عن النقائص، لا يعرفون الرذيلة ولا تعرفهم.

فهذا ميثم، عظيم من حواريّ عليّ، ووليّ من أوليائه، وأحد خرّيجي مدرسته العالية، الذين نهجوا في السير على هداه واتّبعوه قائداً وقدوة في أمره ونهيه، فصار مستودع أسراره وحقل علومه وخاصّة حواريّيه.

كان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يخلو بعليّ(عليه السلام) يناجيه، وكانت أُم سلمة زوج النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) تلك البَرّة الطاهرة، تلتقط من المناجاة درراً ثمينة، فممّا التقطته منها، وصاياه لأبي الحسن (عليه السلام) في ميثم، فدخل ميثم على أُمّ سلمة وهو يريد الحجّ، فقالت له: طالما سمعت رسول الله يذكرك في جوف الليل، ويوصي بك عليّاً.

وكان ميثم يصحب الإمام أحياناً إلى الأماكن الخالية وعند خروجه في الليل إلى الصحراء، فيستمع منه الأدعية والمناجاة، وكثيراً ما يجلس إليه الإمام في السُّوق وأفواج الناس ذاهبة وآيبة، ينظرون الإمام وهو في دكان «ميثم» يسامره ويحادثه ويلقي إليه دروسه ويميره من العرفان الإلهي، فعلّمه علم المنايا والبلايا، أي علم الآجال وعلم الحوادث والوقائع الّتي يُبتلى بها الناس، حتى أخبره أنّه سيُصلَب على باب عمرو بن حريث.

لم يكن ميثم فريداً من بين أصحاب الإمام وحواريّيه، وإن كان أحد عظمائهم إذ أنّه قد أودع هذا العلم عند من كان يأتمنه عليه من أفذاذ أصحابه الآخرين، نظراء رُشَيد الهَجَري، وأُويس القَرَني، وعمّار بن ياسر، وعمرو بن الحَمِق الخزاعي، وكُمَيل بن زياد النخعيّ، ومن يشابههم في الإيمان الشامخ.

ولولا خوف الإطالة والخروج عن الغاية، لنقلنا كثيراً ممّا دار بينهم من المحادثات حول البلايا والمنايا.

فهذا ميثم نفسه، وقد قُيّد على خشبة الصّلب يقول للناس رافعاً صوته: أيّها الناس من أراد أن يسمع الحديث المكنون عن علي بن أبي طالب(عليه السلام) قبل أن أُقتل فوالله لأخبرنّكم بعلم ما يكون إلى أن تقوم الساعة، وما يكون من الفتن. راجع في ترجمة ميثم، كتب الرجال، ولا سيّما: «قاموس الرجال»: ٩ / ١٦٤ـ ١٧١، وما دبّجته يراعة الأُستاذ المغفور له الشيخ محمد حسين المظفر حول حياة ميثم.

لم يكن علي(عليه السلام) نسيج وحده في تربية هؤلاء العظماء الذين صُقلت نفوسُهم، وتجلّت لهم صور ما في الكون من الحقائق والموجودات، بل سبقه سيّد الرُّسل(صلى الله عليه وآله وسلم) فأدّب أناساً، نهجوا في السير على هداه، واتّبعوه في أمره ونهيه، وساروا في الطريق الذي رسمه لهم، فكانوا مثلاً أعلى للفضيلة وكرم الأخلاق، وخزنة للعلم والأسرار، فشاهدوا الخليقة وما فيها من حقائق

غامضة، ورأوا ملكوت السماوات والأرض، وعاينوا الحقائق العُلوية والعوالم الروحية، من قبل أن يخرجوا من الدنيا.

روى الكليني بإسناده عن أبي عبد الله[(عليه السلام)]الصادق أنّه قال: «استقبل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) حارثة بن مالك بن النعمان الأنصاري، فقال له: كيف أنت يا حارثة بن مالك؟ فقال: يا رسول الله مؤمن حقّاً، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): لكلّ شيء حقيقة، فما حقيقة قولك؟ فقال: يا رسول الله! عَزَفَتْ نفسي عن الدنيا، فأسهرَتْ ليلي وأظمأتْ هواجري. كأنّي أنظر إلى عرش ربّي وقد وضع للحساب، وكأنّي أنظر إلى أهل الجنّة يتزاورون في الجنّة، وكأنّي أسمع عواء أهل النار في النار، فقال له رسول الله: عبد نوّر الله قلبه، أبصرتَ فاثبتْ، فقال: يا رسول الله أُدع الله لي أن يرزقني الشهادة معك، فقال: اللّهمّ ارزق حارثة الشهادة، فلم يلبث إلاّ أياماً حتى بعث رسول الله سريّة، فبعثه فيها فقاتل، فقتل تسعة أو ثمانية ثم قُتل». الكافي:٢/٥٤، برقم٣.

وروى نحوها عن إسحاق بن عمّار، عن أبي عبد الله(عليه السلام). الكافي: ٢/٥٣، برقم٢.

هذا هو الإيمان المحض والعبودية الخالصة، بل إنّه لشأن لا يُتوصَّل إليه بالحسّ والعلم.

فكم في الأُمّة الإسلامية من ذوي الرُّتب العُلوية، رجال وأبدال شملتهم العناية الإلهية، فجرّدوا أنفسهم عن أبدانهم، حينما أرادوا، فعاينوا الحقائق واطّلعوا على الأسرار.

هذه بعض الدروس والعبر التي يمكن أن تستفاد من هذه المجموعة من الآيات الكريمة.

الآيات: الثالثة والثمانون إلى الثامنة والثمانين(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ... وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا).

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا).

المفردات

ذِكراً: الذِّكر: مصدر لا يخلو إمّا أن يكون بمعنى المفعول والمعنى (سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ) (أي من ذي القرنين) شيئاً مذكوراً. ويحتمل أن يراد بالذكر القرآن، بقرينة قوله: (سَأَتْلُوا): أي(سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ)قرآناً، وهو ما يتلو هذه الآية. الميزان في تفسير القرآن:١٣/٣٦٠.

سبباً: جاء هذا اللفظ في موضعين:

١. في قوله: (وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) والسَّبب هو الحبل الذي يُصعَد به النّخل، وسمّي كلُّ ما يُتوصّل به إلى شيء سبباً، وأريد به هنا الأسباب التي توصله إلى المقصود، كالعقل، والعلم، والدين، وقوّة الجسم، وكثرة المال، والجند، وحسن التدبير، إلى غير ذلك.

٢. في قوله: (فَأَتْبَعَ سَبَبًا)، وفيه وجهان:

أ. كونه بمعنى الطريق.

ب. الوسائل التي استخدمها للوصول إلى جهتَي الغرب والشرق.

عين: العين: عباب الماء ولُجّته.

حَمِئة: أي ذات حَمْأة، وهي الطين الأسود.

نُكراً: منكراً فظيعاً.

يُسراً: سهلاً ميسّراً غير شاقّ.

التفسير

يذكر القرآن الكريم لذي القرنين رحلات ثلاث:

الأُولى: رحلة إلى المغرب، قال تعالى:(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا)إلخ.

الثانية: رحلة إلى المشرق، قال تعالى: (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا).

الثالثة: الرحلة التي بلغ فيها ما بين السدّين (أو الجبلين)، و (وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً)فشكوا إليه إفساد يأجوج ومأجوج وطلبوا منه أن يجعل بينهم سدّاً فأجابهم إلى ذلك.

ونحن أيضاً نأخذ في تفسير آيات كلّ رحلة، فإذا فرغنا من تفسير الآيات نذكر ما يرجع إلى قصة ذي القرنين حسب مقتضى الحال.

الرحلة الأُولى: إلى المغرب

قد تقدّم أنّ قريشاً سألوا أحبار اليهود عن صحّة الرسالة المحمّدية، فقال لهم أحبار اليهود: اسألوه عن ثلاث، منها: اسألوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبأه؟ مجمع البيان:٦/٣٦٠.

وهذا هو الأمر الثاني الذي سألوا النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) عنه، وأمّا الأمر الثالث، فهو السؤال عن الروح وقد تقدّم ذكره في سورة الإسراء.

فبدأ سبحانه بذكر هذا الرجل الطوّاف بقوله:

٨٣ . (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا):

أي تسألك قريش سؤال اختبار وامتحان عن ذي القرنين، وأمّا وجه تسميته بهذا اللقب فسنذكره بعد الفراغ من تفسير جميع الآيات الواردة في الرحلات الثلاث.

(قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا): أي سأقصّ عليكم شيئاً من قصصه، ويشهد لهذا المعنى قوله: (مِنْهُ). وهذا يدلّ على أنّ لذي القرنين قصصاً كثيرة، والقرآن اقتصر على ما فيه الاعتبار، وهذا بخلاف قصة أصحاب الكهف فقد ذكرها بتمامها.

٨٤ . (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا):

قوله تعالى: (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ): أي أعطينا له القدرة من التصرّف في الأرض كيف يشاء، حيث يرحل تارة إلى المغرب وأُخرى إلى المشرق ويحكم فيهما، إلى غير ذلك من مظاهر التمكّن (وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا): أي آتيناه من كلّ ما يتوسّل به الإنسان إلى ما يطلبه ويبتغيه، سبباً ووسيلة. وقد مرّ في المفردات أنّ المراد من السبب هنا هو ما يوصله إلى مقصوده مثل العلم والقدرة والصحّة والمال والجيش وآلات الحرب، وقد توفّرت هذه القوى بكاملها لذي القرنين. وبهذا تجسّد معنى قوله سبحانه: (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ).

٨٥ . (فَأَتْبَعَ سَبَبًا): أي مضى في طريق ما هو ميسّر له.

٨٦ ـ ٨٨ . (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا):

أي أخذ في السَّير غرباً حتى بلغ مكاناً وجد فيه الشمس تغرب في عين حمئة، أي انتهى إلى مكان مغمور بالمياه المحمّلة بالطين الأسود، ورأى الشمس تغرب هناك. وهذا يدلّ على أنّه وصل إلى شاطئ مياه تغمر مساحة واسعة جدّاً من الأرض، ولذلك رأى الشمس كأنّها تغرب فيها، ولم يقل حتى إذا بلغ مغرب الشمس تغرب في عين حمئة، بل قال: (وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ): أي تراءى له أنّ الشمس تغرب في عين حمئة، فإنّ راكب البحر يراها كأنّها تطلع من البحر وتغيب فيه، كما أنّ الذي يعيش في أرض

مسطّحة ملساء يراها كأنّها تطلع من الأرض وتغيب فيها.

ثمّ إنّ المراد من العين ليس العين الجارية، إذ من الواضح أنّ الشمس لا تدخل فيها، ولذلك فالمراد منه عباب الماء ولُجّته، أو أن تسمية البحر بالعين كأنّه قطرة بالنسبة إلى عظمة الخالق أو وجود عين في نهاية البحر المرئيّ. وعلى كلّ تقدير فقد وصفها سبحانه بقوله:(حَمِئَة): أي محمّلة بالطين الأسود.

ثمّ إنّ القرآن الكريم لم يحدّد هذا المكان، وهناك احتمالان:

١. إنّه المحيط الأطلسي. تفسير المراغي:١٦/١٦.قيل: وتنطبق هذه العين الحمئة على المحيط الغربي وفيه الجزائر الخالدات التي كانت مبدأ الطول سابقاً ثم غرقت. انظر: الميزان في تفسير القرآن:١٣/٣٦٠ـ٣٦١.

٢. إنّه بحر إيجة وبحر مرمرة، وعلى امتدادهما البحر الأسود، حيث كانت الشمس (كما تراءت لذي القرنين) تغرب على آفاق تتاخم تلك البحار الضارب لونها إلى السواد. شبهات وردود حول القرآن الكريم لمحمد هادي معرفة:٤٧٤.

أقول: وهذا التحديد الأخير يرجع إلى الأخذ بالرأي الذي يذهب إلى أنّ ذي القرنين هو الملك الفارسي (قورش الكبير) الذي قاد حملة صوب الغرب لإخضاع بلاد ليديا (تركيا حاليّاً).

وعلى كلّ حال، فالآية تدلّ على أنّ لذي القرنين جيشاً جرّاراً وقدرة مالية ووسائل نقل وأرزاقاً متوفّرة إلى غير ذلك ممّا تتوقّف عليه تلك الرحلة العسكرية بواسطة المواصلات الرائجة في ذلك العصر.

فلمّا وصل إلى البلاد التي يقع عندها غروب الشمس في عين حمئة، ترك له سبحانه ـ كما هو ظاهر الآية ـ حرية التعامل مع أهلها كما قال: (قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا) وظاهر قوله: (قُلْنَا) أنّه كان من طرف الوحي، ولا يلازم أن يكون نبيّاً، بل يمكن أن يكون محدَّثاً أو من قبيل الإلهام القلبي، الذي يمنحه سبحانه لغير الأنبياء.

وهناك احتمال آخر لاحظ : الميزان في تفسير القرآن: ٣٦١/١٣. وهو أنّ الوحي إليه كان بواسطة نبيّ كان معه، فمُلكه نظير ملك طالوت في بني إسرائيل حيث كان عمله بإشارة من نبيّهم وهدايته، يقول سبحانه: (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا). البقرة:٢٤٧.

وظاهر الآية البدائي أنّه سبحانه خيّره بين تعذيبهم وبين الإحسان إليهم، ولكن ذيل الآية يشهد بأنّه خوطب بكلا السلوكين، كلٌّ بملاك خاص وهو أنّهم كانوا بين مشرك وموحّد، والموحّد بين مفسد وصالح، فالمشرك والمفسد كانا محكومين بالتعذيب، والموحّد الصالح كان محكوماً بحسن الجزاء، ولذلك أعلن ذو القرنين عن موقفه منهم، وقال: (أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا): أي يعذّب في الدنيا بعذاب دنيوي كما أنّه سيُعذَّب في الآخرة بعذاب مجهول كنهه. والظاهر أنّ المراد من الظلم هو الشِّرك، لأنّه المنصرَف إليه في الذكر الحكيم، قال تعالى حكاية عن لقمان:(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ). لقمان:١١.

ولم يكن التعذيب مختصّاً بالمشركين بل يعمّ الموحِّد المفسد، ولذلك أضاف إلى الإيمان العمل الصالح، وقال: (وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى) فَشَرَطَ العمل الصالح وراء الإيمان.

قوله: (فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى): أي له الحسنى جزاء، فقوله: (جَزَاءً)تمييز أو حال، وتأنيث (الْحُسْنَى)لكونها صفة لموصوف مؤنّث، أي المثوبة الحسنى، أو الخصلة الحسنى (وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا): أي نتعامل معه بالحسن قولاً وعملاً.

إلى هنا انتهت الرحلة الأُولى لذي القرنين. والعمل الّذي قام به في نهاية الرحلة دليل على أنّ رحلته كانت رحلة دينية لنشر التوحيد ومناهضة الشرك وقطع الفساد في الأرض، ولم تكن لغاية البَطَر أو فتح الأقاليم وبسط الشوكة والسلطة. هكذا هو الرجل الإلهي.

وهنا كلمة قيّمة للأُستاذ الشيخ محمد جواد مغنية(رحمه الله) يقول فيها ـ بعد قوله سبحانه: (أَمَّا مَنْ ظَلَمَ...) ـ : هذا هو الدستور

لحكم ذي القرنين وسلطانه، ويتلخّص بهذه الكلمة: السيف لمن عصى الله، والحسنى لمن أطاعه.. إنّ المال والعلم والسلطان نعمة عظمى يمتحن الله بها عباده، فأمّا الأشرار فتزيدهم كفراً وطغياناً، وأمّا الأخيار فيتّخذونها وسيلة إلى طاعة الله ومرضاته، كما فعل ذو القرنين. التفسير الكاشف: ٥ / ١٥٧ ـ ١٥٨.

الآيات: التاسعة والثمانون إلى الحادية والتسعين(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ ... وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا).

(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا * كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا).

المفردات

مطلِع: (بكسر اللاّم): اسم مكان، كالمغرب، بخلاف المطلَع ـ بالفتح ـ في قوله: (حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ) القدر: ٥. فهو مصدر بمعنى حتى طلوع الفجر.

سِتراً: ما يستر الجسد أو شيء يظلّلهم.

خُبراً: الخُبْر: العلم والإحاطة بالخَبَر، كناية عن كون المعلوم عظيماً بحيث لا يحيط به علماً إلاّ علاّم الغيوب.

التفسير

الرحلة الثانية: إلى المشرق

٨٩ و ٩٠.(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا):

لمّا أتمّ ذو القرنين رحلته الأُولى وبلغ مقصوده وغايته، بدأ برحلة تقابل الأُولى كما يقول: (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا): أي أخذ في السير طريقاً أو أخذ بالتمسّك بما أُوتي من الأسباب، فرحل: (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ): أي إلى جهة طلوع الشمس، أي المشرق (وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ): أي وجد هناك أُناساً وصف تعالى حالهم بقوله:(لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا): أي من دون الشمس (سِتْرًا) ساتراً.

فيظهر أنّ أرض هؤلاء كانت صحراوية قاحلة، وكان أهلها يعيشون فيها حياة بدائية، فلم يعرفوا بناء البيوت الّتي تؤويهم وتحجبهم عن الشمس. وعلى ذلك فالمراد بالستر: البناء أو الخيام أو الأشجار ذات الظلّ الكثيف.

ويُحتمل أن يكون المراد به ما يستر الجسم، أي أنّهم كانوا عراة لا لباس عليهم، يقيهم حرّ الشمس. والظاهر هو الأوّل.

وأمّا ماذا فعل ذو القرنين في تلك الرحلة، فإنّ الوحي الإلهي لم يذكر شيئاً عن ذلك.

ويمكن أن يقال: إنّه انتهج نفس الأُسلوب الّذي انتهجه في رحلته الأُولى، فعذّب من أصرّ على الكفر والفساد، وجازى بالإحسان من آمن. ويحتمل أنّه تركهم بحالهم إذ كان شأنهم كالوحوش والحيوانات، فلم يكونوا ناضجين من ناحية الفكر والعقل.

٩١. (كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا):

وفي نهاية المطاف يقول سبحانه: (كَذَٰلِكَ): أي هكذا كان شأن ذي القرنين(وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا) ولم يكن عمله خافياً علينا، حيث إنّه سبحانه علاّم الغيوب لا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، فكان ذو القرنين يعمل تحت رعاية الله وعلمه.

وقد رجّح بعض المفسرين أنّ هذه الأرض تقع على شاطئ إفريقية الشرقي انظر: في ظلال القرآن: ١٦/١٢.، في حين قال غيره (استناداً إلى أنّ ذا القرنين هو قورش الكبير): إنّها المنطقة الصحراوية الممتدّة من شمالي بحر قزوين حتّى شواطئ المحيط الهندي، وتشمل بلاد مكران وسيستان وبلوجستان. شبهات وردود حول القرآن الكريم:٤٨١.

وقال ابن عاشور: الظاهر أنّه بلغ ساحل بحر اليابان في حدود منشوريا أو كوريا شرقاً، فوجد قوماً تطلع عليهم الشمس لا يسترهم من حرّها، أي لا جبل فيها يستظلّون بظلّه ولا شجر فيها، فهي أرض مكشوفة للشمس، ويجوز أن يكون المعنى أنّهم كانوا قوماً

عراة فكانوا يتّقون شعاع الشمس في الكهوف، أو في أسراب يتّخذونها في التراب. التحرير والتنوير:١٥/١٢٩.

الآيات: الثانية والتسعون إلى الثامنة والتسعين(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ ... وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا).

(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا* قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا).

المفردات

السَّدّ: الجبل، وكلّ حاجز يسدّ طريق العبور، وكأنّ المراد بالسَّدّين: الجَبَلان.

خَرْجاً: الخَرْج:الجُعل والعطية.

الرَّدْم: الحاجز. وسدّ الثلمة بالحجر، كما في المفردات. المفردات للراغب: ١٩٣، مادة «ردم».

الزُّبَر: جمع زُبْرة، وهي القطعة الضخمة.

الصَّدَفين: الصَّدَف: جانب الجبل.

قِطْراً: القِطْر: النحاس أو الرصاص المذاب.

أن يظهروه: أن يعلوه.

التفسير

الرحلة الثالثة: إلى ما بين السدّين (أو الجبلين)

لمّا أتمّ ذو القرنين مهمّته في رحلتَيه إلى الشرق والغرب، ذكر له القرآن الكريم رحلة ثالثة، وقد بدأ بها سالكاً طريقاً لم يحدّد القرآن الكريم اتّجاهه، ولم يسمِّ ـ كما في الرّحلتين الأُولَيين ـ الموضع الذي بلغه، لأنّ هدف القرآن يتعلّق بنفس القصّة لا بخصوصيّاتها.

٩٢ و ٩٣.(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً):

بدأ ذو القرنين بالسير في الطريق أو بالتمسّك بالأسباب التي توصله إلى غايته وهدفه كما يقول: (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ): أي وصل إلى مكان يقع بين جبلين مُنيفَين (وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا): أي وجد قريباً منهما (قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً): أي أُمّة من الناس يصعب التفاهم معهم إمّا لبساطتهم وسذاجة فهمهم، أو لغرابة لغتهم. ولعلّ الثاني هو القول الأفضل، واحتمال سذاجة فهمهم بعيد من وجهين:

١. أنّهم شاركوا بكلّ ما لهم من فعل وقوّة في بناء السدّ، وتدلّ الآيات التالية على أنّهم كانوا يملكون زبر الحديد، كما يملكون النُّحاس وذَوبه، كلّ ذلك يدلّ على وجود مدنية عندهم.

٢. أُولئك الذين وصفهم الله سبحانه سابقاً بقوله: (لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا) أَولى بأن يكونوا بهذا الوصف، أعني: (لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً) بمعنى بساطتهم وسذاجة فهمهم.

وعلى ما ذكرنا فغرابة لغتهم لم تمنع من التفاهم معهم، ولعلّه لأجل وجود مترجمين في رَكب الملوك كما هو المعمول في أصحاب السلطة إذا ارتحلوا إلى مكان بعيد.

٩٤. (قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا):

طلب هؤلاء القوم من ذي القرنين ـ لمّا رأوا ما معه من القدرة والعدد والقوّة والعظمة ـ (قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ

مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) كلامهم هذا يدلّ على أنّ بين هؤلاء القوم وبين الطائفتين سلسلة جبال شاهقة لا يمكن تسلّقها خصوصاً بدوابّهم ومراكبهم للإغارة، ولكن كان هناك مضيق بين الجبلين يسهّل لهم العبور إلى أراضي الآخرين والإغارة عليها من خلاله، ومن هنا اقترحوا على ذي القرنين هذا الاقتراح: (فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا) يسدّ هذا المضيق في مقابل مبلغ من المال ندفعه إليك، ويكون هذا السدّ حائلاً بين هؤلاء وبين الطائفتين؟ وهذا التفاهم يدلّ على أنّهم عرفوا أنّ ذا القرنين سلطان مصلح يسعى لإغاثة المستغيثين. ولمّا كان اقتراحهم ذاك مقروناً بدفع المال إليه، استجاب ذو القرنين لاقتراحهم، لكنّه أعرب عن استغنائه عن المال الذي عرضوه عليه، كما حكى عنه سبحانه ذلك:

٩٥. (قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا):

استجاب ذو القرنين لاقتراحهم و (قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ): أي ما أعطاني الله من السلطان والمال خير من المال الذي تريدون بذله، ولكن يجب عليكم المشاركة بشكل آخر وهو (فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ)أُريد بها العمّال وأدوات البناء (أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا) حاجزاً مانعاً حصيناً.

٩٦. (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا):

قام ذو القرنين ببناء السدّ وَفق مراحل ثلاث:

المرحلة الأُولى: أمرهم بتهيئة قطع الحديد، فلمّا جيء بها، وضع بعضها فوق بعض حتّى غطّى بها ما بين الجبلين إلى قِمّتيهما، وإليه يشير بقوله: (آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ).

المرحلة الثانية: أمرهم أن يجلبوا له الوقود، فلمّا أتوه به، أشعل النار فيه، ثم أمر بالنفخ بالمنافخ لتسخين زبر الحديد، فلمّا نفخوا فيها، صار الحديد كالنار توهّجاً، وهذا ما أشار إليه بقوله: (قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا) حتى تصير القطعات المتفرّقة ملتحمة متّصلة ككتلة واحدة.

المرحلة الثالثة: أمر بجلب النحاس المذاب، فأتوه به، فصبّه على الحديد المسخَّن لكي يتماسك ويزيد صلابة، فصار سدّاً حصيناً، وإليه يشير بقوله: (قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا).

وبهذه المراحل الثلاث تمّ عمل السدّ. وهذا يدلّ على تقدّم الحضارة آنذاك.

٩٧. (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا):

بعد بناء هذا السدّ، عجز المفسدون عن تسوّره والصعود عليه، كما يقول: (فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ)كما عجزوا عن خرقه والنفوذ منه كما يقول: (وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا).

والجمع بين (اسْطَاعُوا) بالتخفيف و(اسْتَطَاعُوا)، تفنّن في فصاحة الكلام، فإنّ تكرار الكلمة يحطّ من فصاحة الكلام، وقد جاء اللفظان أيضاً في قصة موسى مع العبد الصالح الذي قال له: (سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا) ثم قال له: (ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا). لاحظ: الكهف:٧٨ و ٨٢.

٩٨.(قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا):

إنّ ذا القرنين أشار بعد إنجاز السدّ إلى أمرين:

١. وجّه أفكارهم إلى أنّ هذا العمل رحمة من الله سبحانه، ونعمة منه أجراها على يده. وهذا يدلّ على كونه مؤمناً متواضعاً شاكراً لله تعالى، فلم يغترّ بإنجازه لهذا العمل، بل نسبه إلى الله تعالى، كما جاء في صدر الآية: (قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي).

٢. إنّ لكلّ شيء أجلاً حتّى الأبنية الشاهقة والسدود المحكمة، فلها عمر محدود تنتهي بعده وتزول من الوجود، كما قال: (فَإِذَا جَاءَ

وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا).

وأمّا ما هو الوعد الّذي جاء في هذه الآية، هل هو يوم القيامة؟ أو اليوم الّذي يخرج فيه يأجوج ومأجوج كما تشير إليه الآية الكريمة: (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ)؟ الأنبياء:٩٦.

يميل المفسّرون الجُدد إلى الرأي الثاني، ويروق لهم حمل الآية على خروج التتر والمغول من بلادهما متوجّهين إلى الشرق الإسلامي في أوائل القرن السابع، وقد سفكوا الدماء وخرّبوا البلاد وعاثوا في الأرض فساداً، وقضوا على الدولة العباسيّة. والله العالم.

بقي هنا كلام، وهو أنّنا أشرنا عَرَضاً إلى الرأي القائل إنّ ذا القرنين هو نفسه قورش الكبير(؟ـ ٥٢٨ق.م). ذكر هذا الرأي أحمد خان الهندي، وبذل الجهد في إيضاحه الباحث الهندي مولانا أبو الكلام آزاد، وأيّده فيه بقوة بعض العلماء، وأجاب عن الشكوك المثارة حوله. شبهات وردود حول القرآن الكريم:٤٦٨ـ٥٥١.

وهذه الإشارة تقتضي سرد بقية الآراء الّتي ذُكرت في هذا المجال، وأشهرها رأيان:

١. إن ذا القرنين كان عربياً يمنيّاً، من ملوك حِمير القبيلة الشهيرة، وقد اختلفوا في اسمه، فقيل: الصَّعب بن ذي مراثد، وقيل: أبو بكر بن أفريقش، وقيل غير ذلك.

٢. إنّه ليس سوى الإسكندر المقدوني، تلميذ أرسطو.

وقد رُدّ هذا الرأي، ووُصف بأنّه أغرب الآراء، باعتبار أنّ الإسكندر كان وثنيّاً يعبد الأصنام، بينما كان ذو القرنين مؤمناً موحّداً، وعبداً صالحاً، معتقداً باليوم الآخر.

لقد أكثر المفسّرون والباحثون الكلام في تحديد شخصيته، وفي وجه تسميته بذي القرنين، وفي تحديد موقع السدّ، ونحن نترك الخوض في هذه المواضيع ، اقتداءً بالكتاب المجيد، ولأنّ أكثر ما قالوه يستند إلى أخبار متعارضة متهافتة، أو إلى أدلّة ظنّية، لا تفيد يقيناً.

الدروس والعبر في هذه القصّة

اشتملت قصة ذي القرنين على عبر كثيرة وعظات مهمّة على الرغم من وجود جوانب مبهمة في بعض تفاصيلها، ونحن نشير إلى ما يستفاد من الآيات المذكورة من المواعظ والعبر، ومنها:

١. إنّه سبحانه خلق العالم على نظام الأسباب والمسبّبات، وجعل لكلّ ظاهرة سبباً وعلّة، فمَن أراد تحقيق غاية ما، فعليه أن يدخل من الباب، وهو تهيئة أسبابها ووسائلها بأفضل ما يمكن. ولا يبلغ الإنسان الهدف المنشود إلاّ باتّباع السبب الّذي جعله الله سبحانه طريقاً لتحصيله.

قال الإمام الصادق (عليه السلام): «أبى الله أن يجري الأشياء إلاّ بأسباب، فجعل لكلّ شيء سبباً وجعل لكلّ سبب شرطاً». الكافي: ١ / ١٨٣، باب معرفة الأنام، الحديث ٧.

٢. إنّ الحواسّ الخمس هي أدوات المعرفة للنفس، بها ندرك ما في الخارج من الحقائق، والله سبحانه تبارك وتعالى يمنّ علينا بهذه النّعم ويقول: (وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) النحل: ٧٨ .ومع أنّها من أفضل الأدوات إلاّ أنّها قد تخطئ في درك الواقع، كما هو الحال في رؤية غروب الشمس في مكان معيَّن، يختلف باختلاف الموضع الّذي يقف فيه الرائي، فالرؤية هنا ظاهرية لا واقعية، صادرة عن خطأ الباصرة، وهكذا تراءت الشمس لذي القرنين، حيث وجدها تغرب في عين حمئة، مع أنّ الشمس لا تغرب في مكان محدَّد، بل أنّ دوران الأرض حول محورها مرّة واحدة في اليوم، يجعل الجانب غير المواجه للشمس ليلاً، ولذا يرى الناس الذين يعيشون في هذا الجانب، يرَون الشمس تغيب في المغرب، وفي مكان معين، كلٌّ بحسب موقعه.

٣. إنّ على الحاكم الصالح أن يتّبع نظاماً عادلاً، يحظى فيه المواطنون الصالحون العاملون خيراً بالتكريم والتقدير والإحسان والإعانة، ويلقى فيه الشرّيرون المسيئون الإهانة والإذلال والعقاب.

وقد أخذ ذو القرنين بهذا المنهج الّذي يساهم في تشجيع ذوي القلوب السليمة على التزام الصلاح، والتشمير عن ساعد الجدّ في ساحة العمل المثمر، وفي ردع أصحاب القلوب السقيمة عن الإقدام على الأعمال السيئة، والاعتداء على حقوق الآخرين (قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا).

وللإمام علي (عليه السلام)كلمة في هذا المجال أوصى بها صاحبَه المُنتجب مالك بن الحارث الأشتر (رحمه الله)، في عهده الخالد إليه بولاية مصر وأعمالها:

وَلاَ يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَة سَوَاء، فَإِنَّ فِي ذلِكَ تَزْهِيداً لاِهْلِ الْاْحْسَانِ فِي الْاْحْسَانِ، وَتَدْرِيباً لاِهْلِ الْاْسَاءَةِ عَلَى الْاْسَاءَةِ! وَأَلْزِمْ كُلاًّ مِنْهُمْ مَا أَلْزَمَ نَفْسَهُ. نهج البلاغة: الرسالة رقم ٥٣ .

٤. إنّ الحاكم الصالح يجب أن يسخّر نفسه لخدمة الرعيّة، ولا يمنعه تخلّفهم وقلّة فطنتهم عن توفير مصالحهم وتحقيق منافعهم، فالقائد الإلهي ذو القرنين سارع إلى تلبية مطالب القوم بإقامة سدٍّ لهم، رغم بساطتهم وصعوبة التفاهم معهم، إذ كانوا (لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً) .

٥. إنّ الأمن والأمان من نعم الله الكبرى، ومن شروط الحياة الاجتماعية السالمة، ففي الحديث الشريف: «نعمتان مكفورتان: الأمن والعافية» الخصال للصّدوق:٣٤، الحديث٥؛ بحار الأنوار: ٧٨ / ١٧٠. ومعنى «مكفورتان»: مستورتان عن الناس لا يعرفون قَدْرهما، أو لا يشكرهما الناس لغفلتهم عن عظم شأنهما.. وفي هذه القصة نجد مسارعة ذي القرنين إلى تلبية طلب القوم (الذين لقيهم في رحلته الثالثة) بإحداث سدٍّ لهم، يمنع عنهم هجمات المفسدين، وقد بذل في سبيل إقامته جهوداً جبّارة، تكشف عن إدراكه لأهمية سيادة الأمن في البلاد الّتي تخضع لسيطرته، وتمتّع أهلها بظلال هذه النعمة.

٦. إنّ القيادة الرشيدة ذات الفكر الناضج والعقل المبدع، تستفيد من كافّة القوى والقدرات المتاحة، وتحرّك كلّ الهمم للتعاون والبذل والعطاء للنهوض بالأعمال الكبيرة والمشاريع الضخمة الّتي تعود بالنفع والفائدة على الأُمّة، وتعزّز كيانها، وتحفظ مصالحها. وهذا ما تجلّى بوضوح في عمل ذي القرنين الّذي استنفر طاقات القوم، فكانت النتيجة بناء سدٍّ حصين منيع، أتاح لهم العيش في أمن من غارات المعتدين.

٧. يرشدنا عمل ذي القرنين إلى أنّ الإتقان في العمل وإحكامه هو المطلوب في مدرسة الأنبياء والمصلحين الإلهيّين، وقد روي عن النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)أنّه جلس حول قبر سعد بن معاذ ورتّب التراب فوق قبره وقال: «إنّي لأعلم أنّه سيَبلى ويصل البِلى إليه، ولكنّ الله يحبّ عبداً إذا عمل عملاً أحكمه». أمالي الصدوق: ٤٦٨، المجلس ٦١، الحديث ٢.

٨. إنّ الإنسان المؤمن يحسّ بفقره إلى الله تعالى مهما بلغ من القدرة والعظمة، ويشعر بأنّ ما ينجزه من أعمال كبيرة، لايستند إلى قدرته المحدودة (وإن بدت عظيمة في مقياس البشر)، بل إلى قدرة الله المطلقة، الّتي أفاضت عليه النِّعم، وشملته بالألطاف. وهذا الإحساس بالفقر والضعف، والشعور الغامر بالرحمة الإلهية، أبان عنهما ذو القرنين بقوله، بعد أن ألقى بنظره إلى السدّ العجيب، وقد اكتمل بناؤه: (هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي).

الآيات: التاسعة والتسعون إلى الثانية بعد المئة(وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذ ...إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً).
(وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذ يَمُوجُ فِي بَعْض وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا * وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا * الَّذِينَ كَانَتْ

(الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا * أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً).

المفردات

تركنا: إمّا بمعنى ضدّ الأخذ، أو بمعنى جعلنا، على اختلاف بين المفسِّرين.

يموج: يضطرب اضطراب البحر.

الصُّور: قَرن يُنفَخ فيه.

نُزُلاً: النُّزُل: ما يُعَدُّ لإكرام الضيف.

التفسير

٩٩. (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذ يَمُوجُ فِي بَعْض وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا):

الظاهر أنّ الآية من كلامه سبحانه وليست من كلام ذي القرنين، بشهادة تغيير السياق من الغَيبة ـ أعني: (وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا) ـ إلى المتكلِّم مع الغير، أعني: (تَرَكْنا). والآية تتركّب من فقرتين:

١. (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذ يَمُوجُ فِي بَعْض).

٢. (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا).

أمّا الفقرة الثانية فالمراد من النفخ هي النفخة الثانية التي بها يحي الناس كلُّهم بشهادة الآية التالية كما سيوافيك.

إنّما الكلام في الفقرة الأُولى، فما هو المراد من أنّه سبحانه ترك بعضهم يموج في بعض؟

والإبهام في موردين:

أ. في مرجع الضمير في قوله: (بَعْضَهُمْ) هل يرجع إلى المفسدين، أو يرجع إلى الناس كلّهم؟

ب. قوله: (يَومَئِذ) فهل أُشير به إلى يوم بناء السدّ، أو إلى يوم هدمه قبل القيامة، أو عندها، وإليك الاحتمالات:

١. يوم إتمام بناء السدّ، أي جعلنا يأجوج ومأجوج يومئذ مضطربين بينهم، فصار فسادهم قاصراً عليهم، لأنّهم إذا لم يجدوا ما اعتادوه من غزو الأُمم المجاورة لهم رجع قويُّهم على ضعيفهم بالاعتداء. انظر: التحرير والتنوير:١٥/١٦٨.

وعلى هذا فالضمير في قوله: (بَعضَهُمْ) يرجع إلى المفسدين.

يلاحظ عليه: أنّه يلزم فقدان الصلة بين فقرتي هذه الآية، إذ أيّ صلة بين كون المفسدين مضطربين بينهم، وبين النفخ في الصور وجمع الناس فيه؟ اللّهمّ إلاّ أن يقال: الصلة هي تشبيه حال تموجّهم وراء السدّ بحال تموّج الناس في المحشر، تذكيراً للسامعين بأمر الحشر، وتقريباً لحصوله في خيال المشركين، وأنّ القادر على جمع أُمّة وراء السدّ، قادر على جمع الأُمم يوم الحشر.(انظر: التحرير والتنوير:١٥/١٦٨.)

٢. يوم خراب السدّ واندكاكه بعد مدّة مديدة، ويُراد: يوم يُدكّ السدّ يخرج هؤلاء من ورائه يموجون في الناس ويفسدون عليهم زروعهم ويتلفون أموالهم، وهذا بمعنى قوله في سورة الأنبياء:(حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَب يَنْسِلُونَ) الأنبياء:٩٦.: أي وهم من كلّ مرتفع من الأرض يُسرعون في النزول من الآكام والمرتفعات، وتلك حال تنطبق على قوم جنكيزخان جنكيزخان(١١٦٢ـ ١٢٢٧م): فاتح مغوليّ، كوّن أكبر أمبراطورية في التاريخ. حكم مساحة تمتد عبر أواسط آسيا إلى بحر اليابان. اسمه الأصلي تيموجين. أصبح حاكماً للمغول عام (١٢٠٧م)، غزا شمال شرقي الصين، واستولى على بكّين عام (١٢١٥م)، واكتسح أواسط آسيا عام (١٢١٨م). الموسوعة العربية العالمية:٨/٥٠٣.، فقد كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى، كما ذكر مؤرّخو العرب والإفرنج. تفسير المراغي:١٥/٢٠. وعلى هذا يرجع الضمير إلى المفسدين أيضاً.

يلاحظ عليه: بأنّه يلزم فقدان الصلة بين الفقرتين، إذ لا صلة بين خروج المفسدين من وراء السدّ في أوائل القرن السابع الهجري، وبين نفخ الصور وجمع الناس جمعاً.

٣. ما عليه أكثر المفسّرين من أنّ الآية بمنزلة التفصيل للإجمال الذي في قول ذي القرنين: (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ)، وعلى هذا فالمراد من الظرف هو يوم القيامة، والضمير في قوله: (فَجَمَعْنَاهُمْ)يرجع إلى الناس كلّهم، وقد تقدّم أنّ من أهمّ أغراض هذه السورة هو إثبات البعث يوم القيامة.

وحاصل الآية: إنّ الناس يضطربون يومئذ من شدّة الهول اضطراب البحر باندفاع بعضه على بعض فيرتفع من بينهم النظم ويحكم فيهم الهَرْج والمَرْج. الميزان في تفسير القرآن:١٣/٣٦٦.

وأمّا صلة الفقرتين، فإنّ اضطرابهم يقع قبل النفخة الأُولى، ثم إنّهم يموتون بعدها ثم يحيون بالنفخة الثانية.

ولعلّ الوجه الثالث أقرب الوجوه.

قال الشريف الرضيّ حول قوله تعالى: (وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذ يَمُوجُ فِي بَعْض): وهذه استعارة لأنّ أصل المَوَجان من صفات الماء الكثير، وإنّما عبّر سبحانه بذلك عن شدّة اختلاطهم ودخول بعضهم في بعض لكثرة أعدادهم تشبيهاً بموج البحر المتلاطم، والتفاف الدَّبا المتعاظل الدَّبا: جمع دَباة، وهي أصغر الجراد. والمتعاظل: الذي يركب بعضه بعضاً.. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١١٢.

١٠٠. (وَ عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا):

تحدّثت الآية السابقة عن إحياء الناس بعد النفخ الثاني واجتماعهم في المحشر، وعندئذ تذكر هذه الآية أنّ المجرمين يشاهدون منازلهم في جهنم قبل أن يُساقوا إليها، كما يقول: (وَ عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذ): أي يوم القيامة (لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا) وهذا تعذيب بالرُّعب، وبعده يأتي تعذيب آخر بالنار.

والمؤمنون يروَن النّار أيضاً لقوله تعالى:(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا)(مريم:٧١.)، والمراد بورودهم إشرافهم عليها، ووصولهم إليها، ولكنّهم لا يدخلونها، فتكون رؤيتهم لها رؤيةً تبعث فيهم الشعور بنعمة الله وفضله عليهم إذ كُتبت لهم النجاة من مقاساة عذابها.

وأمّا الكفّار فتبعث فيهم الإحساس بالرُّعب والفزع، لعلمهم بأنّهم سيُلقَون فيها ويَصلَون سعيرَها، كما قال سبحانه:(وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا) الكهف:٥٣..

١٠١. (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا):

لمّا تقدّم أنّ الكافرين يشاهدون منازلهم في جهنّم بعرضها لهم وإظهارها واضحة أمامهم، جاءت هذه الآية تصف هؤلاء الكافرين بأمرين:

١. (الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَنْ ذِكْرِي) والإنسان ينال الحقّ عن طريق البصر، وذلك بالنظر إلى آيات الله تعالى والاهتداء بها إلى الله، ولكنّ هؤلاء (كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَنْ ذِكْرِي): أي عن النظر فيما يحصل به ذكره سبحانه، والغطاء استعارة لعدم الانتفاع بالبصر، فمن كان له بصر ولم ينتفع به، يكون نظير من كان على بصره غطاء يمنعه من الرؤية.

قال الشريف الرضيّ حول هذه الفقرة: وهذه استعارة، وليس المراد أنّ عيونهم على الحقيقة كانت في غطاء يسترها وحجاز يحجزها، وإنّما المعنى أنّهم كانوا ينظرون فلا يعتبرون أو تعرض لهم العبر فلا ينظرون، ومن الدليل على ذلك قوله: (عَنْ ذِكْرِي). تلخيص البيان في مجازات القرآن:١١٢.

٢. (وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا) والإنسان يهتدي بالسمع حيث يستمع الآيات الإلهية والمواعظ والقصص، وهم قد بلغوا من الكبْر والعناد حدّاً بحيث يثقل عليهم سماعها، ولا تطاوعهم نفوسهم للاستماع ويتأذّون من سماع الآيات ويتلقّونها كالضربات على

الرؤوس.

ونظير الآية قوله سبحانه: (لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ). الأعراف:١٧٩.

١٠٢. (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً):

إنّ هؤلاء الطاغين لمّا حرموا أنفسهم من الانتفاع بأعينهم وآذانهم للاهتداء إلى الحقّ، أفضى ذلك إلى حرمانهم ممّا تدلّ عليه الآيات من أنّه ليس له شريك في الإبداع والتدبير، ولأجل هذا الحرمان كانوا يحسبون أنّ عباد الله الذين اتّخذوهم آلهة، وجعلوا ولاءهم لهم، سينتفعون بهم عند الله، وهذا حُسبان باطل، ولهذا جاءت الآية تذمّ هذا الحسبان، وتقول: (أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ) لا شكّ أنّ «حسب» يتعدّى إلى مفعولين، يقول ابن مالك:

اِنْصِبْ بفعلِ الْقَلْبِ جُزْأَيِ ابْتِدا *** أعْني رَأى خال عَلِمْتُ وَجَدا

ظَنَّ حَسِبْتُ و زَعَمْتُ مع عَدّ *** حَجى دَرى و جَعَلَ اللَّذْ كَاعْتَقَدْ

شرح ابن عقيل:١/٣٥٣ـ٣٥٤.

فعلى هذا يقع الكلام في تعيين المفعول الثاني لفعل (أَفَحَسِبَ). أمّا المفعول الأوّل فهو عبارة عن قوله: (أَنْ يَتَّخِذُوا) مع متعلّقاته، فيكون المقدَّر: أفحسب الذين كفروا اتّخاذ عبادي أولياء من دوني.

وأمّا المفعول الثاني فيجب أن يكون مقدّراً مستفاداً من القرآن، قال في «مجمع البيان»: المفعول الثاني قوله: ينصرونهم ويدفعون عقابي عنهم. مجمع البيان:٦/٤٤٩.

وهذا أفضل ممّا نُقل عن ابن عباس من أنّه قال: أفحسب الذين كفروا أن يتّخذوا من دوني آلهة وأنا لا أغضب لنفسي عليهم ولا أُعاقبهم؟ نفس المصدر. وذكر صاحب الميزان وجهين آخرين فراجعهما إنْ أحببت. لاحظ : الميزان في تفسير القرآن:٣/٣٦٧.

ولمّا أبطل سبحانه انتفاع الكافرين بأوليائهم ذكر النتيجة، وهي كونهم محكومين بنار جهنم كما يقول:(إِنَّا أَعْتَدْنَا) أصله أعددنا، قلبت الدال تاء لقرب مخرجيهما، أي هيّأنا (جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً)والتعبير بالنُّزل نوع تهكُّم، فإنّه يُطلق على ما يقدَّم للضيف.

ونظير الآية ما مرّ في هذه السورة:(إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا) الكهف:٢٩..

الآيات: الثالثة بعد المئة إلى الثامنة بعد المئة(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ... لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً).

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * اَلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً).

المفردات

لقائه: لقاء الله، كناية عن الحشر يوم القيامة.

هُزُواً: سخرية واحتقاراً.

الفِردَوس: البستان الذي توجد فيه كلّ الفواكه، ويجتمع فيه كلّ ما يمتع ويلذّ، أو تجتمع فيه محاسن كلّ بستان.

حِوَلاً: تحوُّلاً وتبديلاً إلى شيء آخر.

التفسير

١٠٣ و ١٠٤.(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * اَلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا):

مَن هم الأخسرون أعمالاً؟

لمّا تحدّث سبحانه عن كون الكافرين غير منتفعين بأعينهم ولا بأسماعهم وكأنّ على أعينهم غطاء وفي أسماعهم وقراً، ذكر سبحانه في هذه الآيات نتيجة هذا النوع من العمى والصَّمَم وقال: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً) ومقتضى السياق أن يقول: هل ننبّئكم ـ أيّها الكافرون ـ أنّكم الأخسرون أعمالاً؟ ولكن عَدِل إلى الغَيبة حتى يتفكّروا بأنّ المراد بهم هم أنفسهم، فصارت الآية توبيخاً منه لهم لحرمانهم أنفسهم من النظر إلى آيات الله وسماعها.

ثمّ إنّه سبحانه عرّف هؤلاء الأخسرين بقوله: (اَلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا): أي بطل عملهم واجتهادهم في الحياة الدنيا، فقد عبدوا آلهتهم المكذوبة ولم ينتفعوا بعبادتها شيئاً (وَهُمْ)مع ذلك (يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا): أي يظنّون أنّهم يفعلون الأفعال الجميلة.

وبين (يَحْسَبُونَ)و (يُحْسِنُونَ) جناس مصحَّف، وهو أن يكون النقط فيه فارقاً بين الكلمتين.

قال الشريف الرضيّ حول قوله تعالى:(اَلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ...)إلخ: وهذه استعارة، وأصل الضلال ذهاب القاصد عن سَنن الطريق، فكأنّ سعيهم لمّا كان في غير الطريق المؤدّية إلى رضا الله تعالى، حسن أن يوصف بالضلال، والعدول عن سَنن الرَّشاد. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٣٢.

روى الطبري عن أبي الطُّفيل أنّ عليّاً(عليه السلام) قال لابن الكوّاء (من رؤساء الخوارج) وقد سأله عن الأخسرين أعمالاً: ويلك، أهل حروراء منهم. انظر: جامع البيان(تفسير الطبري):٩/٥٠، برقم ٢٣٣٩٨.

وروى العيّاشي بإسناده قال: قام ابن الكوّاء إلى أمير المؤمنين(عليه السلام)فسأله عن أهل هذه الآية. فقال: «أُولئك أهل الكتاب كفروا بربهم، وابتدعوا دينهم، فحبطت أعمالهم، وما أهل النَّهر منهم ببعيد» يعني الخوارج. تفسير العياشي: ٣/١٢٤، برقم ٢٧١٣.

والرواية بصدد التطبيق، والمشركون هم المعنيّون بالآية.

١٠٥. (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا):

لمّا تقدّم وصفهم بقوله: (اَلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) جاء البيان القرآني ليكشف عن وجه خطأ سبيلهم وضلالهم، قائلاً: (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ) فقد خسروا لوجهين:

١.(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ): أي جحدوا أدلّة ربّهم، سواء أكانت كونية أم تنزيلية، الأمر الذي يؤول إلى إنكار التوحيد وإنكار النبوّة التي نزلت بها آيات الله.

٢. (وَلِقَائِهِ): أي أنكروا البعث.

فصار هذان الأمران سبباً لحبط أعمالهم، وذلك لأنّهم لم يعملوا لوجه الله سبحانه ولم يطلبوا ثواب الدار الآخرة، فصارت أعمالهم هباء منثوراً. ولمّا كان قوله: (فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ) بياناً موجزاً، بيّنه بقوله: (فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ): أي لأُولئك الموصوفين بحبوط الأعمال(يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) لأنّ مناط التكريم والاعتبار هو الأعمال الصالحة، وهؤلاء قد حبطت أعمالهم، فهم مُزدَرون مُهانون، لا قيمة لهم ولا اعتبار.

قال الشريف الرضيّ: وفي هذه الآية استعارتان:

إحداهما: قوله سبحانه: (بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ) وتأويل (لِقَائِهِ) هاهنا على وجهين: أحدهما أن يكون فيه مضاف محذوف، فكأنّه تعالى قال: ولقاء ثوابه وعقابه أو جنّته وناره. والوجه الآخر أن يكون معنى ذلك رجوعهم إلى دار لا أمر فيها لغير الله تعالى فيصيرون إليها من غير أن يكون لهم عنها محيص أو دونها محيد، وذلك مأخوذ من مقابلتك الشيء من غير أن تصرف عنه

وجهك يميناً ولا شمالاً، يقول القائل: لقيت فلاناً، أي قابلته بجملتي، وتقول: داري تلقاء دار فلان، أي مقابلتها، فكانت كلّ واحدة منهما كالمقبلة على الأُخرى، فلمّا كان لا أحد يوم القيامة يستطيع انصرافاً عن الوجهة التي أمر الله سبحانه بجمع الناس إليها، وحشرهم نحوها، سمّى ذلك لقاء الله على السعة والمجاز.

والاستعارة الأُخرى: قوله تعالى:(فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)والمراد بذلك ـ والله أعلم ـ أنّا لم نجد أعمالاً صالحة تَثْقُل بها موازينهم يوم القيامة، والميزان إذا كان ثقيلاً سمّي مستقيماً وقائماً، وإذا كان خفيفاً سمّي عائلاً وشائلاً.

وقد يجوز أن يكون معنى ذلك أنّهم لا اعتداد بهم ولا نباهة لذكرهم يوم القيامة، كما يقال في التحقير للشيء: هذا لا وزن له ولا قيمة له، وكما تقول: فلان عندي بالميزان الراجح، إذا كان كريماً عليك وحبيباً إليك. تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١٣٢ـ ١٣٣.

حديث غريب عن أبي هريرة في تفسير الآية

لم يَدَعْ أبو هريرة هذه الفقرة من الآية دون أن يستخرج لها مصداقاً من كيسه روى أبو هريرة حديثاً عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، فقالوا له: يا أبا هريرة، سمعت هذا من رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال: لا، هذا من كيس أبي هريرة. انظر: صحيح البخاري:٣/٤٣٩، كتاب النفقات، رقم الرواية ٥٣٥٥. فقد روى البخاري ومسلم بإسنادهما عنه، عن رسول الله، قال: إنّه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة. وقال: اقرأوا:(فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) صحيح البخاري:٣/٢٣٢ـ ٢٣٣، كتاب التفسير، رقم الرواية ٤٧٢٩؛ صحيح مسلم:١٣٧٢، كتاب صفة القيامة، رقم الرواية ٦٩٣٩..

والغريب أنّ العديد من مفسّري السنّة، ينقل عنهما ـ عند تفسير الآية ـ هذه الرواية، وكأنّهم يريدون بذلك تقريب معناها للأذهان، دون أن يقفوا عندها، أو يثيروا تساؤلاً حول صلة سِمْن الرجل وكثرة لحمه وشحمه بذلك، مع أنّ عدم إقامة الوزن لهم متفرّع عن حبط أعمالهم.

ولا شكّ في أنّ القول بعدالة الصحابة، هو الذي حال بينهم وبين التحقيق في الرواية ودراسة مضمونها.

يُذكر أنّ عدداً من الصحابة كانوا يتّهمون أبا هريرة في روايته عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وينكرون عليه كثرة رواياته، منهم: ابن مسعود، وعائشة، وابن عباس، وسعد بن أبي وقّاص، وعمر بن الخطاب، الذي قال له: لتتركنّ الحديث عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، أو لألحقنّك بأرض دَوْس سير أعلام النبلاء:٢/٦٠٠ـ ٦٠١.. راجع كتابنا: الحديث النبويّ بين الرواية والدراية:٣٢٣ـ ٤٢٠، للاطّلاع على حال أبي هريرة وما قيل فيه.

١٠٦. (ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا):

تقدّم في قوله: (إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً): أنّ اسم الإشارة أعني: (ذَلِكَ) إشارة إلى ما مرّ في تلك الآية، أي ماهيّأنا وأعتدنا ليس شيئاً إلاّ أنّه (جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ) فقوله: (جَهَنَّمُ) عطف بيان لقوله:(جَزَاؤُهُمْ بِمَا): أي بسبب ما (كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا)فالكفر بالله تعالى والاستخفاف بآياته وبرسله الذين ظهرت على أيديهم تلك الآيات والمعجزات، هما السببان الموجبان لجزائهم جهنّم. ومن المعلوم أنّ مشركي عصر الرسالة كذّبوا الرسل عامّة ورسالة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) خاصّة، محتجّين بأنّ الإنسان لا يصلح للرسالة لأنّه مثلنا، بل يجب أن يكون موجوداً عُلوياً.

١٠٧ و ١٠٨ .(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً):

مكانة المؤمنين يوم القيامة

جرت سيرة الذكر الحكيم على عملية التقابل وهو أنّه كلّما يذكر شيئاً عن مصير الكافرين وعقابهم، يذكر مصير الموحّدين وجزاءهم، وأُخرى بالعكس. وهذا هو التقابل الذي يُعدّ من المحسِّنات البديعية. ولمّا تقدّم وصف مصير الكافرين بقوله تعالى: (إِنَّا أَعْتَدْنَا

جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً) جاء في الآية التالية ببيان مصير المؤمنين مصيراً متضادّاً مع مصير الكافرين وقال: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)ولم يقتصروا على الإيمان المجرّد عن العمل الصالح بل ضمُّوا إليه العمل الصالح، إذ كثير من أهل الكتاب وفَسَقة المسلمين يؤمنون بالله ولكنّه إيمان مجرّد عن العمل الصالح، والذين يستحقّون الجنّة هم أُولئك الذين قرَنوا الإيمان بالعمل الصالح كما يقول: (كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً) وهذا النُّزل في مقابل

نُزل الكافرين الذي وصفه سبحانه بقوله:(إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً).

ثمّ إنّه سبحانه يصف جنّات الفردوس بوجهين:

الأوّل: (خَالِدِينَ فِيهَا).

الثاني:(لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً): أي لا يطلبون عن تلك الجنّات تحوُّلاً إلى موضع آخر، لاشتمالها على كلّ ما تشتهيه الأنفس.

ثمّ إنّ إضافة الجنات إلى الفردوس في قوله: (جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ)، بيانية، أي جنات هي من صنف الفردوس، وقد مرّ أنّ الفردوس فُسّر بما يجتمع فيه ما يمتع ويلذّ، ويجمع محاسن كلّ بستان. ومن المعلوم أنّ الإنسان العاقل لا يبدله بشيء آخر.

الآيتان الأخيرتان من السورة (١٠٩ و ١١٠) (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ... وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا).

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا).

المفردات

مِداداً: المِداد: الحِبْر.

لكلمات ربّي: كلمات الربّ: كلّ وجود مفاض منه سبحانه، أو هي كلمات علمه وحكمته.

لَنَفد: النَّفاد: الفَناء والاضمحلال.

مدداً: إمداداً وعَوناً.

التفسير

١٠٩. (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا):

سعة علمه سبحانه

تدلّ الآية على أنّه سبحانه قد أمر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بأن يقول: لو كان ماء البحر حِبْراً للقلم الذي تُكتب به كلمات ربّي لفَني هذا البحر من الحبر قبل أن تفنى هذه الكلمات ولفَنيَ واضمحلّ بحر من الحبر مثله أيضاً قبل أن تفنى.

وفي موضع آخر قال تعالى:(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ). لقمان:٢٧.ومن المعلوم أنّ كلمة (سَبْعَةٌ) كناية عن الكثرة، وليس لها أية خصوصية.

هذا هو مفهوم الآية، بقي في الآية أمران:

١. وجه صلة الآية بما قبلها.

٢. ما هو المراد من كلمات الله؟

وجه صلة الآية بما قبلها

أمّا الأوّل فيمكن أن يقال: بما أنّ السورة اشتملت على ذكر ثلاث قصص، امتحن أحبارُ اليهود بها صدق النبوّة، وكان العلم بها على وجه دقيق أمراً مغموراً مُشكلاً، جاء البيان القرآني يذكر هذه القصص بالتفصيل بعيداً عن أي خرافة يلحقها القصّاصون وأهل

السَّمر، وعندئذ جاءت هذه الآية لتؤكد أنّ هذه الأسئلة بالنسبة إلى ما يعلمه الله سبحانه ليست إلاّ كذرّة في عالم غير متناه.

ويؤيّد ذلك ما روي في تفسير علي بن إبراهيم، قال: وقوله: (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) وذلك أنّ اليهود سألوا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)عن الرُّوح، فقال: (الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) قالوا: نحن خاصّة؟ قال(صلى الله عليه وآله وسلم): «بل الناس عامّة»، قالوا: فكيف يجتمع هذان يا محمّد، تزعم أنّك لم تؤت من العلم إلاّ قليلاً ولقد أوتيت القرآن وأوتينا التوراة، وقد قرأت: (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ) وهي التوراة (فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)فأنزل الله تبارك وتعالى:(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ) يقول: علم الله أكثر من ذلك، وما أوتيتم كثير فيكم، قليل عند الله. تفسير القمّي: ١٤٣/٢؛ تفسير نور الثقلين:٢١٩/٣، ولاحظ: ج ٤ / ٢١٥.

وليست الرواية دليلاً على كون الآية مدنيّة، لاحتمال نزول الآية في مكة، والجدال من اليهود في المدينة بعد الوقوف على الآية.

ما هو المراد من كلمات الله؟

وأمّا الأمر الثاني، فهل المراد من كلمات الله هو علمه غير المتناهي تبعاً لوجوده كذلك؟ أو أنّ المراد أفعاله أو ما صدر منه؟

يدلّ على الثاني أنّه سبحانه كثيراً ما يستعمل الكلمة في القرآن الكريم فيما قاله وحكم به، نظير: (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا) الأعراف:١٣٧، وقوله: (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ) يونس:٣٣..

حتى أنّه سبحانه يصف المسيح(عليه السلام) بأنّه كلمة الله، يقول: (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا) النساء:١٧١، وعلى هذا يمكن أن يقال: المراد هو أفعاله التشريعية والتكوينية التي لا يحصيها إلاّ الله سبحانه.

قال أمير المؤمنين(عليه السلام): «يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ: (كُنْ فَيَكُونُ)، لاَ بِصَوْت يَقْرَعُ، وَلاَ بِنِدَاء يُسْمَعُ؛ وإِنَّمَا كَلاَمُهُ سُبْحَانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ.لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذلِكَ كَائِناً، وَلَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلهاً ثَانِياً». نهج البلاغة: الخطبة١٨٦.

ويكفي في ذلك النظر إلى عالم السماوات الذي كشف الإنسان شيئاً من سعته ولم يبلغ كنهه.

اعتراف العلماء بضآلة العلم البشري

ذكرت إحدى الصحف أنّ العالم المشهور (آينشتاين) صاحب النظرية النسبية كان واقفاً عند دُرج صغير في أسفل مكتبته، فسئل عن نسبة ما يعلم إلى ما لا يعلم، فقال: إنّ نسبة ما أعلم إلى ما لا أعلم كنسبة هذا الدُّرج إلى مكتبتي.

قال الدكتور أحمد أمين المصري معلّقاً على هذه العبارة: ولو أنصف لقال: إنّه أقلّ من هذه النسبة. إنّا نعيش في عالم مملوء بالحقائق والقوى، ولا نعلم أي شيء هي، وهذا في الدنيا التي نعيش فيها ونلمسها ونزاول شؤوننا فيها، فكيف بالعوالم الأُخرى البعيدة عنّا؟ مجلة رسالة الإسلام المصريّة، العدد الأوّل من السنة الرابعة:٢٤.

بل كان الحق أن يقول: إنّ نسبة ما أعلم بالنسبة إلى ما لا أعلم كنسبة هذا الدُّرج إلى عنان السماوات.

أجل إنّ الكون ـ كما يقول العلماء ـ أشبه بمحيط عريض وعميق وكبير غارق في الظلمات، ولم يستطع البشر سوى كشف كيلومترين منه بمصباح العلم والمعرفة فيما لا تزال البقية العظمى تختفي خلف تلك الظلمات الشاملة الهائلة.

إنّ البشر لم يستطع أن يقف ـ بصورة نهائية ـ على أقرب الأشياء إليه وهو نفسه، فلا تزال كلمات بل أسطر بل صفحات كثيرة من هذا الكتاب العجيب غير معلومة ولا معروفة للإنسان.

لنستمع إلى ما يكتبه الدكتور «الكسيس كاريل» الحائز على جائزة نوبل في الطب والجراحة في كتابه المعروف «الإنسان ذلك المجهول» تحت عنوان: «جهلنا بأنفسنا»:

إنّ الإنسانية قد بذلت جهوداً جبّارة لكي تعرف نفسها، ومع أنّنا نملك كنوز الملاحظة التي جمعها العلماء والفلاسفة والشعراء والمتصوّفة فنحن لا ندرك غير جوانب من الإنسان وأجزاء منه.. الواقع أنّ جهلنا مطبق! فأكثر الأسئلة الّتي يطرحها من يدرس أفراد الإنسان بقيت دون جواب ولا تزال مناطق شاسعة من عالمنا الداخلي غير معلومة» ثم أشار إلى نماذج من هذه المناطق المجهولة. الإنسان ذلك المجهول:١٧.

ولقد نبّه القرآن الكريم إلى هذا القصور والضآلة في العلم البشري وعجز الإنسان عن الإحاطة بحقائق الحياة وبواطن الأُمور، إذ يقول: (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ). الروم:٧.

إنّه يصرّح بأنّ معلومات الإنسان عن الكون والحياة لم تتجاوز إطار هذه الحياة، بل لم يقف إلاّ على ظاهرها، دون حقيقتها وباطنها.

قال الإمام علي(عليه السلام): «الدنيا كلّها جهل إلاّ مواضع العلم». توحيد الصدوق: ٣٧١، الحديث ١٠، بيانه في معنى مشيئته تعالى.

إنّ قافلة العلم لا تزال تسير ـ منذ أن بدأت ـ دون أن تتوقّف وسوف يكتشف البشر ـ في المستقبل ـ أضعاف أضعاف ما اكتشفه حتّى الآن.

وقد تحقّق ما شكّك فيه الإنسان في الماضي، أليست المعلومات الّتي توصّل إليها الإنسان اليوم كانت ممّا ينكرها بالأمس ويرفض صحّتها، فلم يصدّق ـ مثلاً ـ بأنّ الإنسان سيتمكّن من الهبوط على القمر، وارتياد الفضاء الخارجي، ثم يعود من رحلته سالماً، حاملاً إلى الأرض عيّنات من صخور القمر، وشيئاً كبيراً من حقائق السماء وأسرار الفضاء؟

وكلّ ذلك دليل قاطع وبرهان ساطع على أنّ ما يجهله البشر أكثر بكثير ممّا يعلمه، وأنّ ما لم يحصل عليه من الحقائق أكثر بكثير ممّا حصل عليه.

١١٠. (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا):

الظاهر أنّ الآية تلخيص لغرض السورة، وقد تضمّنت بيان الأُصول الثلاثة، ويبدو أنّ المشركين كانوا يطلبون من النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) تنبّؤات وأخباراً غيبيّة، أو يطلبون معاجز وكرامات ربّما كانت غير مؤثّرة، فجاء الوحي الإلهي يحصر وظيفة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في إبلاغ الرسالة، وقال: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)فقوله:(إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) قصر الموصوف على الصفة، والقصر إضافي أي لست أنا إلاّ بشر كسائر الناس، والإخبار عن المغيّبات والإتيان بالمعاجز ليسا من شأني وإنّما هي بيد الله، فلو أقدرني على ذينك الأمرين فأُخبركم والاّ فلا. ثم ذكر أنّ مهمّته تتلخّص في أُمور ثلاثة:

١. التوحيد، (أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) فليست الوحدة عددية بل الوحدة الحقّة، أي ليس له نظير، ردّاً على المشركين والنصارى.

٢. النبوّة، (يُوحَى إِلَيَّ) وقوام النبوّة بالوحي.

٣. المعاد، (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ) فليستعدّ لذلك اليوم، وهو يتحقّق بأمرين:

أ. (فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا) وإلاّ فالإيمان المجرّد لا ينفع.

ب. (وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا): أي يتجنّب الرياء والسمعة، وكلّ مَن عمل لغير الله فقد أشرك بعبادته ولو لم يقل بتعدّد الآلهة. والفرق أنّ شرك المشركين شرك علني، وشرك هؤلاء شرك خفيّ، فمن صلّى أو صام رياء، فقد أشرك بعبادة الله.

والظاهر أنّ الآية نزلت كضابطة كليّة. نعم، روي عن ابن عباس أنّه قال: كان جندب بن زهير إذا صلّى أو صام أو تصدّق، فذُكر بخير ارتاح له، فزاد في ذلك لمقالة الناس، فلامه الله فنزل في ذلك: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا). الدر المنثور:٥/٤٦٩.

وقلنا: إنّ نزولها في هذا المورد بعيد. مع كون السورة مكّية، وأكثر ما يقال إنّه من مصاديق التطبيق.

روى الكليني بإسناده عن أبي عبد الله]الصادق[(عليه السلام) في قول الله عزّ وجلّ:(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) قال: «الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله إنّما يطلب تزكية الناس، يشتهي أن يسمع به الناس، فهذا الذي أشرك بعبادة ربّه. ثمّ قال: ما من عبد أسرّ خيراً فذهبت الأيام أبداً حتى يُظهر الله له خيراً، وما من عبد يُسرّ شرّاً فذهبت الأيام أبداً حتى يُظهر الله له شرّاً». الكافي:٢/٢٩٣ـ ٢٩٤، باب الرياء، برقم ٤؛ تفسير نور الثقلين:٣/٣١٥.

وروي عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «قال الله عزّ وجلّ: أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء، فهو للذي أشرك». مجمع البيان: ٦ / ٣٩٦ ؛ تفسير نور الثقلين: ٣/٣١٦.

***

تمّ تفسير سورة الكهف

بناء المساجد عند مراقد الأنبياء والأولياء

[١] قد تقدّم منا في تفسير الآية (٢١) من سورة الكهف أنّها تدلّ على جواز بناء المساجد عند مراقد الأنبياء والأولياء، وقد ذكرنا أنّ لنا رسالة في هذا الموضوع تأتي بعد الانتهاء من تفسير سورة الكهف، وإليك هذه الرسالة.

كان بناء المساجد إلى جوار مراقد الأنبياء والأولياء والصالحين بعد عصر الرسالة إلى القرن الحادي عشر، سنّة رائجة لم يختلف فيها اثنان، ويدلّ عليه بناء المساجد إلى جوار قبور الأنبياء في بلاد الرافدين والشام والأُردن، وقد رأيت ذلك في سفري إلى هذه البلاد، وكان الأمر كذلك إلى أن أظهر الخلاف محمد بن عبد الوهاب، ومَن قلّده، فهدموا المساجد في جوار مراقد الأولياء.

ولمّا كان الكتاب العزيز دليلاً قاطعاً وبرهاناً صارماً في المسألة، آثرنا أن ندرس الموضوع من هذا المنظار، فنقول:

يذكر سبحانه قصة أصحاب الكهف ، وأنّهم اعتزلوا قومَهم للحفاظ على عقيدتهم ودينهم ، حتّى وافاهم الأجل وهم في الكهف ، وقد أعثر الله عليهم قوماً بعد ثلاثة قرون وأطلعهم عليهم ، يقول سبحانه : (وَكَذلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً) الكهف : ٢١ . .

ومعنى الآية أنّا أعثرنا على أصحاب الكهف أهلَ تلك المدينة ليعلموا أنّ وعد الله بالبعث حقّ ، فإنّ بَعْثَ هؤلاء بعد لَبْثهم في كهفهم نائمين ثلاثمائة سنة وتسع سنوات دليل على إمكان الحياة الثانية ، وليعلموا أنّ الساعة لا ريب فيها .

ثمّ إنّ القوم الذين أعثرهم الله على أجسادهم اتّفقوا على تكريمهم ، ولكن اختلفوا في طريقة التكريم ، كما يقول سبحانه : (إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ) ، فظاهرُ المنازعة هو ما جاء بعد هذه الجملة بضميمة حرف الفاء ، فقال جماعة : (ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً) ، أي اجعلوا عليهم بنياناً كبيراً ، ويدلّ على الوصف تنكير (بُنْيَاناً) ، وقد صرّح الجوهري وابن منظور بأنّ البنيان بمعنى الحائط الصحاح : ٦ / ٢٢٨ مادة «بناء»؛ لسان العرب: ١ / ٥١٠، مادة «بناء». ، ولذلك فسّره القاسمي بقوله : أي على باب كهفهم بنياناً عظيماً كالخانقاهات الخانقهات كلمة فارسية مفردها : خانقاه وتعني محلّ اجتماع الصوفيّين والدراويش . (لغت نامه: ٢٠ / ١٦٩ بالفارسية) .والمشاهد والمزارات المبنيّة على الأنبياء وأتباعهم محاسن التأويل: ١١ / ٢٠ . ، تستر أجسادهم، وتعظّم أبدانهم . ولكن قال آخرون وهم الذين غلبوا على أمر القائلين بالقول الأوّل وصار البلد تحت سلطتهم (لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً): أي معبداً وموضعاً للعبادة والسجود يتعبّد الناس فيه ببركاتهم . هذا هو الظاهر المستفاد من الآية .

قال الرازي : (قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِم) قيل : المراد به الملك المسلم وأولياء أصحاب الكهف ، وقيل : رؤساء البلد ، (لَنَتَّخِذَنَّ

عَلَيْهِمْ مَسْجِداً)نعبد الله فيه ، ونستبقي آثار أصحاب الكهف بسبب ذلك المسجد. تفسير الرازي: ٢١ / ١٠٥.

وقال أبوحيان الأندلسي (٦٥٤ ـ ٧٥٤هـ): روي أنّ الّتي دَعت إلى البنيان كانت كافرة؛ أرادت بناء بَيعة أو مصنع لكفرهم ، فمانعهم المؤمنون وبنوا عليهم مسجداً. البحر المحيط: ٦ / ١٠٩ ط . دار الكتب العلمية .

وقال أبو السعود (المتوفّى ٩٥١ هـ) : (وَقَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِم)وهم المَلك والمسلمون (لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً). تفسير أبي السعود: ٥/٢١٥ .

وقال الزمخشري : (وَقَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِم) من المسلمين ومَلكهم، وكانوا أَولى بهم وبالبناء عليهم : ليتّخذ على باب الكهف مسجداً يصلّي فيه المسلمون ويتبرّكون بمكانهم. تفسير الكشّاف: ٢ / ٢٤٥ .

إلى غير ذلك من الكلمات الواردة في تفسير الآية . وكأنَّ الاتّفاق موجود على أنّ القول بإيجاد البنيان على باب الكهف كان لغير المسلمين ، والقول ببناء المسجد على بابه قول المسلمين ، والّذي يدلّ على ذلك أمران :

الأوّل : أنّ اتّخاذ المسجد دليل على أنّ القائل كان موحّداً مسلماً غير مشرك؛ فأيّ صلة للمشرك ببناء مسجد على باب الكهف؟ وإذا كان المشركون يهتمّون بعمارة المسجد الحرام فلأجل أنّه أُنيطَ بالبيت كيانهم وعظمتهم في الأوساط العربيّة ، بحيث كان التخلّي عنها مساوقاً لسقوطهم من أعين العرب في الجزيرة.

أفبعدَ اتّفاق أكابر المفسّرين، هل يصحّ لباحث أن يشكّ في أنّ القائلين ببناء المسجد على قبورهم كانوا من المسلمين الموحّدين؟!

الثاني : ما رواه الطبري في تفسير قوله : (فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ) الكهف : ١٩.قال : إنّ المبعوث دخل المدينة فجعل يمشي بين سوقها فيسمع أُناساً كثيراً يحلفون باسم عيسى بن مريم ، فزاده فرَقاً ورأى أنّه حيران ، فقام مسنِداً ظهرَه إلى جدار من جُدر المدينة ويقول في نفسه : أمّا عشيّة أمس فليس على الأرض إنسان يذكر عيسى بن مريم إلاّ قُتل ، أمّا الغداة فأسمعهم وكلّ إنسان يذكر أمر عيسى لا يخاف!! ثمّ قال في نفسه : لعلّ هذه ليست بالمدينة الّتي أعرف جامع البيان(تفسير الطبري):٩/٢٦٨ـ٢٦٩. .

وهذا يعرب عن أنّ الأكثرية الساحقة كانت موحّدة مؤمنة متديّنة بشريعة المسيح ، رغم كونهم على ضدّه قبل ثلاثمائة سنة .

وقال في تفسير قوله تعالى : (فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً) الكهف : ٢١ . فقال الّذين أعثرناهم على أصحاب الكهف : (ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ) يقول : ربّ الفتية أعلم بالفتية وشأنهم ، وقوله : (قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ) يقول جلّ ثناؤه : قال القوم الّذين غلبوا على أمر أصحاب الكهف : (لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً) .

ثم روى عن عبد الله بن عبيد بن عمير، قال : فقال المشركون : نبني عليهم بنياناً؛ فإنّهم أبناءُ آبائنا، ونعبد الله فيها ، وقال المسلمون : بل نحن أحقّ بهم ، هم منّا ، نبني عليهم مسجداً نصلّي، ونعبد الله فيه. جامع البيان:٩/٢٧٦ـ٢٧٧. ولاحظ تفسير القرطبي والكشاف للزمخشري وغرائب القرآن للنيسابوري في ذيل هذه الآية .

الرأي المسبق يضرب عرض الجدار

إنّ الشيخ الألباني ربيب الوهابيّة ومروّجها ، لمّا رأى دلالة الآية على أنّ المسلمين حاولوا أنْ يبنوا مسجداً على قبورهم ، وكان ذلك على طرف الخلاف من عقيدته ، حاول تحريف الكلم وقال : إنّ المراد من الغالبين هم أهل السلطة ، ولا دليل على حجيّة فعلهم! ولكنّه عزب عن رأيه أنّ البيئة قد انقلبت من الشرك إلى التوحيد ومن الكفر إلى الإسلام حسبما نقله الطبري ، وليس القائل ببناء المسجد على بابهم هو الملك ، وإنّما القائل هم الّذين توافدوا على باب الكهف عندما أعثرهم سبحانه على أحوالهم ، وطبع الحال يقتضي توافد الأكثرية الساحقة القاطنين في المدينة على باب الكهف لا خصوص الملك ، ولا وزراؤه ، بل الموحّدون بأجمعهم ، وهوفي هذه النسبة عيال على ابن كثير حيث قال : والظاهر أنّهم أصحاب النفوذ تفسير ابن كثير :٥/ ٣٧٥ ..

نحن نفترض أنّهم أصحاب النفوذ ، إلاّ أنّهم نظروا إلى الموضوع من خلال منظار دينهم ومقتضى مذهبهم لا مقتضى سلطتهم .

تقرير القرآن على صحّة كلا الاقتراحين

إنّ الذكر الحكيم يعرض كلا الاقتراحين من دون أيّ نقد وردّ ، وليس صحيحاً قطعاً أن يذكر الله سبحانه عن هؤلاء المحتشدين على باب الكهف أمراً باطلا من دون أيّة إشارة إلى بطلانه؛ إذ لو كان كذلك كأن يكون أمراً محرّماً أو مقدّمة للشرك والانحراف عن التوحيد ، لنَبّه عليه ولا يمرّ عليه بلا إشارة إلى ضلالهم وانحرافهم ، خصوصاً أنّ سياق الآية بصدد المدح ، وأنّ أهل البلد اتّفقوا على تكريم هؤلاء الّذين هجروا أوطانهم لأجل صيانة عقيدتهم ، غاية الأمر اختلفوا في كيفيّته ، فمن قائل ببناء بنيان عليهم إلى آخر قائل ببناء مسجد .

إنّ القرآن كتاب نزل لهداية الإنسان وتربية الأجيال ، والهدف من عرض حياة الأُمم ووقائعهم هو الاعتبار ، فلا ينقل شيئاً إلاّ فيه عبرة ، فلو كان الاقتراحان يمسّان كرامة التوحيد ، لِمَ سكت عنهما؟!

وهذا ظاهر في مَن تدبّر القرآن الكريم ، وستوافيك بقيّة الكلام عند بيان النتيجة .

ولكن هلمّ معي لنقف على بعض ما قاله محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي (١٢٨٣-١٣٣٢ هـ) الذي كان يصوّر نفسه مصلحاً إسلاميّاً يسعى إلى توحيد كلمة المسلمين ولَمِّ شَعْثِهم ، ومن شروط من يتبنّى لنفسه ذلك المقام الرفيع أن ينظر إلى المسائل من منظار وسيع ، ويستقبل الخلاف بين المسلمين بسعة صدر ، ولكنّه ـ عفا الله عنه ـ يريد توحيد الكلمة في ظلّ الأُصول الّتي ورثها عن ابن تيمية ، فزاد في الطين بلّة ، ويشهد لذلك ما علّقه على عبارة ابن كثير الآتية:

قال ابن كثير بعد تفسير الآية : هل هم كانوا محمودين أم لا؟ فيه نظر؛ لأنّ النبيّ قال : «لعن الله اليهود والنصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد» يحذّر ما فعلوا .

وعلّق عليه القاسمي بالقول : وعجيب من تردّده في كونهم غير محمودين ، مع إيراده الحديث الصحيح بعده المسجّل بلعن فاعل ذلك... والسبب في ذلك أنّ البناء على قبر النبيّ والوليّ مَدعاة للإقبال عليه والتضرّع إليه ، ففيه فتح لباب الشرك ، وتوسّل إليه بأقرب وسيلة . . . محاسن التأويل:١١/٢١. .

أقول: إنّ القرآن هو الحجّة الكبرى للمسلمين ، وفيه تبيان لكلّ شيء ، وهو المهيمن على الكتب ، فإذا دلّ القرآن على جوازه فما قيمة الخبر الواحد الّذي روي في هذا المجال إذا كان مضادّاً للوحي ، ومخالفاً لصريح الكتاب؟ وإن كانت السنّة المحمديّة الواقعيّة لا تختلف عنه قيد شعرة ، إنّما الكلام في ما يرويه زيد عن عمرو عن بكر حتّى ينتهي إلى النبيّ ، فإنّ مثله خاضع للنقاش ، ومرفوض إذا خالف الكتاب ، لكن ما ذكره يعرب عن أنّ الأساس عنده هو الحديث لا الذكر الحكيم .

وكان عليه بعد تسليم دلالة القرآن أن يبحث في سند الحديث ودلالته ، وأنّ الحديث على فرض الصحّة ناظر إلى ما كان القبر مسجوداً له ، أو مسجوداً عليه، أو كان قِبلة ، ومن المعلوم أنّ المسلمين لا يسجدون إلاّ لله ، ولا يسجدون إلاّ على ما صحّ السجود عليه ، ولا يستقبلون إلاّ القِبلة .

وأعجب منه ما في ذيل كلامه : من أنّه رأى التوسّل بالنبيّ شركاً ، مع أنّ النصوص الصحيحة في الصحاح تدلّ على جوازه ، فقد توسّل الصحابي الضرير بالنبيّ الأكرم حسب تعليمه وقال : اللّهمّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك نبيّ الرحمة ، يا محمد إنّي أتوجّه بك إلى ربّي في حاجتي لتُقضى. سنن الترمذي: ج ٥، كتاب الدعوات ، الباب ١١٩، برقم ٢٥٧٨؛ سنن ابن ماجة :٤٤١/١، برقم ١٣٨٥؛ مسند الإمام أحمد : ١٣٨/٤ ، إلى غير ذلك من المصادر .

وقد اتّفقوا على صحّة الحديث ، حتّى أنّ ابن تيمية ـ مُثيرَ هذه الشكوك ـ اعترف بصحّته وقال : وقد روى الترمذي حديثاً صحيحاً

عن النبيّ أنّه علّم رجلا يدعو فيقول : . . . ، وقد أوردنا نصوص القوم في كتابنا «في ظلال التوحيد». راجع بحث التوسّل في ص ٦١١ من هذا الكتاب .

ومَن زعم أنّ هذه التوسّلات أساس الشرك ، فلينظر إلى المسلمين طوال أربعة عشر قرناً؛ فإنّهم ما برحوا يتوسّلون بالنبيّ(صلى الله عليه وآله) ، وما عدلوا عن سبيل التوحيد قيد شعرة .

إنّ إنشاء البناء على قبر نبيّ التوحيد تأكيدٌ لمبدأ التوحيد ورسالته العالمية الّتي يشكّل أصلها الأوّل قوله سبحانه : (أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) النحل : ٣٦ . .

وممّا تقدّم تظهر لنا النتيجتان التاليتان:

١ . جواز البناء على قبور الأولياء والصالحين ودعاة التوحيد فضلا عن النبيّ ، وما ذلك إلاّ لأنّ القرآن ذكر ذلك من دون أن يَغمِص عليه ، وليس القرآن كتاباً قصصيّاً ولا مسرحيّاً للتمثيل ، بل هو كتاب هداية ونور ، فإن نقل شيئاً ولم يغمص عليه فهو دليل على أنّه محمود عنده .

نرى أنّه سبحانه يحكي كيفيّة غرق فرعون ويقول : (حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ) يونس : ٩٠ . .

ولمّا كانت تلك الفكرة باطلة عنده سبحانه ، أراد إيقاف المؤمنين على أنّ الإيمان في هذا الظرف غير مفيد ، فلأجل ذلك عقّب عليه بقوله : (ءالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) يونس : ٩١ . .

فالإنسان العارف بالكتاب يقف على أنّه لم يترك على صعيد العقائد أُموراً إلاّ وذكر أوضحها وبيّنها بطرق مختلفة ، ومن تلك الطرق القصص الواردة في الكتاب العزيز؛ فكلّ ما وقع في الأُمم السالفة وعرض له القرآن، فهو على أقسام ثلاثة : إمّا بيّن الصحة ، أو بيّن البطلان ، أو مردّد بين الأمرين .

وقد يترك البيان في الأوّلين لعدم الحاجة إليه، وأمّا الثالث فلا يتركه إلاّ إذا كان مقبولا لديه .

٢ . جواز بناء المساجد على قبور الصالحين فضلا عن الأنبياء وجواز الصلاة فيها والتبرّك بتربتها ، فلو كانت الصلاة في المقابر مكروهة، فالأدلّة المرغّبة في الصلاة إلى جِوار قبور الأنبياء والصالحين تُخصّص تلك العمومات؛ وذلك لأنّ للصلاة في مشاهدهم مصلحة تغلب على المضاضة الموجودة في الصلاة في المقابر المطلقة .

أدلّة الوهابيّين على التحريم

استدلّ الوهابيون على حرمة بناء المساجد إلى جوار قبور الصالحين بالروايات التالية:

١. حكى البخاري في صحيحه: لمّا مات الحسن المعروف بالحسن المثنّى. توفّي نحو سنة (٩٠هـ). الأعلام:١٨٧/٢.بن الحسن بن علي رضي الله عنهم، ضربت امرأته امرأته، هي ابنة عمّه: فاطمة بنت الحسين(عليه السلام). القُبّة على قبره سنة، ثم رُفعتْ، فسمِعُوا صائحاً يقول:«ألا هل وَجَدوا ما فَقَدوا؟ فأجابه الآخر: بل يئسوا فانقلبوا». صحيح البخاري:٣٢٣/١، كتاب الجنائز، باب (٦١)، قبل الرقم١٣٣٠، وذكرها الشيخ المفيد في الإرشاد:١٩٧.

يلاحظ عليه: أنّ هذه الحكاية تدلّ على خلاف ما يرومه الوهابيّون، فإنّها تدلّ على جواز نصب المظلّة وإقامة القبَّة على القبر، ولو كان ذلك حراماً لما صدر من امرأة الحسن بن الحسن(عليه السلام) ؛ لأنّ عملها كان بمرأى ومسمع من التابعين وفقهاء المدينة، وقد نصبتها لزيارة القبر وتلاوة القرآن عنده، وقاية من الحرّ والبرد وغيرهما.

وأمّا ما جاء في الحكاية: «فسمعوا صائحاً يقول...» فهو أشبه بقول إنسان غير صالح ؛ لأنّه نوع من الشماتة، وهي ليست من أخلاق

الصالحين.

ومثله في ذلك ما أجابه الصائح المزعوم الآخر، لأنّ إقامة تلك المرأة على قبر زوجها الفقيد لم يكن على أمل عودته إلى الحياة حتى يقال إنّها يئست، بل كان لتلاوة القرآن وغيره.

ثمّ إنّ قول ذلك الصائح المزعوم وجواب الآخر ليس حجّة شرعية، إذ ليس هو من كتاب الله ولا من السنّة الشريفة ولا هو كلام معصوم.

٢. روى البخاري بإسناده عن عروة عن عائشة أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قال في مرضه الذي مات فيه: «لعن الله اليهود والنصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مسجداً» قالت: ولولا ذلك لآبرزوا قبره، غير أنّي أخشى أن يُتّخذ مسجداً. صحيح البخاري:١/٣٢٣، برقم ١٣٣٠.

يلاحظ عليه أوّلاً: أنّ تاريخ اليهود لا ينسجم مع مضمون الرواية أساساً ؛ لأنّ سيرتهم قد قامت على قتل الأنبياء وتشريدهم وإيذائهم إلى غير ذلك من أنواع البلايا التي كانوا يصبّونها على أنبيائهم، كما ذكر ذلك الذكر الحكيم:(لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ). آل عمران: ١٨١. ولاحظ : آل عمران: ١٨٣، والنساء:١٥٥.

فهل من المعقول أنّ أُمّة قتلت أنبياءها في مواطن مختلفة تتحوّل إلى أُمّة تشيّد المساجد على قبورهم تكريماً وتبجيلاً لهم؟!

وثانياً: أنّ الحديث ـ مع افتراض صحّته ـ له معنى آخر، يفسّره ما رواه البخاري عن عائشة، قال: لما اشتكى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)ذكرت بعض نسائه كنيسة رأينها بأرض الحبشة يقال لها مارية، وكانت أُمّ سلمة وأُمّ حبيبة، أتتا أرض الحبشة فذكرتا من حُسنها وتصاوير فيها، فرفع(صلى الله عليه وآله وسلم) رأسه فقال:«أُولئك إذا مات منهم الرجل الصالح بنَوا على قبره مسجداً، ثم صوّروا فيه تلك الصورة، أُولئك شرار الخلق عند الله». صحيح البخاري:١/٣٢٦، برقم ١٣٤١.

أقول: إنّ هذا الحديث يدل على أنّ نهي النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يتعلّق ببناء المساجد على القبور، وإنّما تعلّق بعبادة القبور، وهذا هو الذي فهمه شُرّاح الحديث.

يقول القسطلاني في كتاب «إرشاد الساري»قال القرطبي:وإنّما صوّر أوائلهم الصورَ ليستأنسوا بها ويتذكّروا أفعالهم الصالحة، فيجتهدون كاجتهادهم ويعبدون الله عند قبورهم، ثمّ خَلَفهم قوم جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أنّ أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظّمونها، فحذّر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) عن مثل ذلك سدّاً للذريعة المؤدية إلى ذلك. ثم قال: قال البيضاوي: لمّا كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم ويجعلونها قبلة يتوجّهون في الصلاة نحوها واتّخذوها أوثاناً، لعنهم النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ومنع المسلمين عن مثل ذلك، فأمّا مَن اتّخذ مسجداً في جوار صالح وقصد التبرّك بالقرب منه، لا للتعظيم ولا للتوجّه إليه، فلايدخل في الوعيد المذكور. إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري: ٢ / ٤٣٧ ـ ٤٣٨، دار إحياء التراث العربي.

وقد مال إلى هذا المعنى ابن حجر حيث قال: إنّ النهي إنّما هو عمّا يؤدّي بالقبر إلى ما عليه أهل الكتاب، أمّا غير ذلك فلا إشكال فيه. لاحظ: فتح الباري:٣/٢٠٨.

وليس القرطبي والبيضاوي منفردين في هذا الشرح، بل يقول به السندي ـ شارح السُّنن للنسائي ـ حيث يقول:

«اتّخذوا قبور أنبيائهم مسجداً» أي: قبلة للصلاة ويُصلّون إليها، أو بنوا مساجد عليها يُصلّون فيها. ولعلّ وجه الكراهة أنّه قد يُفضي إلى عبادة نفس القبر. السنن للنسائي:٢/٤١، مطبعة الأزهر.

ويقول أيضاً:

يُحذّر (النبي) أُمّته أن يصنعوا بقبره ما صنع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم من اتّخاذهم تلك القبور مساجد، إمّا بالسجود إليها

تعظيماً لها، أو بجعلها قبلة يتوجّهون في الصلاة إليها. نفس المصدر السابق.

ويقول النووي في شرح صحيح مسلم ـ :

قال العلماء: إنّما نهى النبيّ عن اتّخاذ قبره وقبر غيره مسجداً، خوفاً من المبالغة في تعظيمه والافتتان به، فربّما أدّى ذلك إلى الكفر، كما جرى لكثير من الأُمم الخالية، ولمّا احتاجت الصحابة والتابعون إلى الزيادة في مسجد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) حين كثر المسلمون وامتدّت الزيادة إلى أن دخلت بيوت أُمّهات المؤمنين فيه، ومنها حجرة عائشة، مدفن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)وصاحبيه، بَنوا على القبر حيطاناً مرتفعة مستديرة حوله، لئلاّ يظهر في المسجد فيصلّي إليه العوام...

ولهذا قالت «عائشة» في الحديث:ولولا ذلك لأبرزوا قبره، غير أنّي أخشى أن يُتَّخذ مسجداً. شرح صحيح مسلم للنووي:٥/١٣ـ ١٤.

٢. إنّ مضمون هذا الحديث قد روي بصيغة أُخرى، فروى أحمد بن حنبل عن أبي هريرة، ومالك بن أنس عن عطاء بن يسار أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قال :«اللّهمَّ لا تَجْعَلْ قَبْري وَثَناً يُعْبَد، اشتدّ غضب الله على قوم اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد». مسند أحمد: ٢ / ٢٤٦ ؛ الموطّأ: ١١٨، باب جامع الصلاة، برقم ٤١٤.

وهذا النهي يدلّ على أنّ أُولئك كانوا يتّخذون القبر قبلة يتوجّهون إليها، أو يتّخذونه صنماً يعبدونه من دون الله سبحانه.

٣. إنّ التأمّل في حديث عائشة ـ الحديث الثاني ـ يزيد في توضيح هذه الحقيقة، حيث إنّها بعد الرواية عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) تقول: «لولا ذلك لأبرزوا قبره، غير أنّي أخشى أن يُتَّخذ مسجداً».

ونتساءل: إقامة الجدار حول القبر يمنع عن أيّ شيء؟!

من الثابت أنّ الجدار يمنع من الصلاة على القبر نفسه وأن يتّخذ وثناً يُعبد، وعلى الأقل لا يكون قبلة يُتوجّه إليها.

أمّا الصلاة إلى جوار القبر ـ من دون عبادة القبر أو جعله قبلة للعبادة ـ فلا يمنع منها، سواء أكان هناك حاجز يحجز القبر عن الرؤية أم لا، وسواء أكان القبر بارزاً أم لا، وذلك لأنّ المسلمين ـ منذ أربعة عشر قرناً ـ يُصلّون إلى جوار قبر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في حين أنّهم يتوجّهون إلى الكعبة ويعبدون الله تعالى، فوجود الحاجز لم يمنع من هذا كلّه.

وثالثاً: إنّ مورد الحديث هو ما إذا كان المسجد مبنيّاً فوق القبر، فلا علاقة له بالمشاهد المشرَّفة، لأنّ المساجد في كلّ المشاهد ـ ماعدا مسجد النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ـ مبنيّة إلى جوارها لا عليها، وبشكل ينفصل أحدهما عن الآخر.

وبعبارة أُخرى: هناك حرم وهناك مسجد، فالحرم خاصٌّ للزيارة والتوسّل إلى الله تعالى بذلك الوليّ الصالح، والمسجد ـ إلى جواره ـ للصلاة والعبادة، فالمشاهد المشرَّفة ـ في هذه الحالة ـ خارجة عن مفاد الحديث ومعناه ـ على فرض أن يكون مفاده ما يدّعيه الوهابيّون ـ.

ورابعاً: كيف يمكن القول بحرمة بناء المسجد إلى جوار القبر أو كراهتها، في حين أنّنا نرى بأعيننا أنّ مسجد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يقع إلى جوار قبره الشريف... فإذا كانت الصحابة كالنجوم ويجب الاقتداء بهم، فلماذا لا يُقتدى بهم في هذا المجال؟ إنّ أُولئك زادوا في المسجد زيادات كثيرة بحيث استقرّ قبر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)في وسط المسجد، بعد أن كان المسجد في الجانب الشرقي من القبر الشريف، وبسبب الزيادات الكثيرة دخل الجانب الغربي من القبر أيضاً في المسجد. فإذا كان بناء المسجد إلى جوار قبور الصالحين حراماً، فلماذا أحدث المسلمون هذه الزيادات فيه من جميع أطرافه؟

وخامساً: إنّ بناء المساجد على قبور الصالحين كان سنّة مشهورة في عصور الإسلام المتقدّمة، يقول نور الدين السّمهودي(المتوفّى ٩١١هـ) في حديث ذكر فيه وفاة السيّدة فاطمة بنت أسد أُمّ الإمام أمير المؤمنين علي(عليه السلام)، قال: فلمّا توفيّت خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأمر بقبرها فحفر في موضع المسجد الذي يُقال له اليوم: قبر فاطمة. وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى:٣/٨٩٧. تحقيق

محمد محيّي الدين.

ويقول السَّمهودي إنّ موضع قبر فاطمة بنت أسد تحوّل بعد ذلك إلى مسجد، ويقول أيضاً: إنّ مصعب بن عمير وعبد الله بن جحش دُفنا تحت المسجد الذي بُني على قبر حمزة. وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى:٩٢٣/٣ و ٩٣٦.

وقد كان ذلك المسجد موجوداً حتّى احتلال الوهابيّين لهذه البقاع المقدّسة، حيث عمدوا إلى هذا المسجد وغيره من المساجد والآثار، فهدّموها بمعاول الحقد والجهل بالمبادئ.

تمّت الرسالة بحمد الله سبحانه

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين سورة مريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كهيعص (١) ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ
بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ
وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي
عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً
قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) يَا يَحْيَى
خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ
عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ
حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ
لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ
وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (٢١) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ
قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ
النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ
الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (٢٦) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ
بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي
مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ
وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا
قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ
فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَأَنْذِرْهُمْ
يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) وَاذْكُرْ فِي
الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي
قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا

أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ
وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي
عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩)
وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ
جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ
وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا
(٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ
وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) جَنَّاتِ
عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢)
تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ
أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ
جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِنْ
مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا
بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا
(٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا
وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ
بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا
(٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ
ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى
الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧) وَقَالُوا اتَّخَذَ
الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ
وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ
عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ
لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت السورة في المصاحف بسورة «مريم»؛ وذلك لأنّ قصّة مريم ذكرت فيها على وجه التفصيل.

وروي عن ابن عباس أنّه سمّاها سورة (كهيعص)، وهكذا جاءت التسمية في أكثر النُّسخ من «صحيح البخاري». صحيح

البخاري:٢٥٨/٣، كتاب التفسير، الباب١٩، دار إحياء التراث العربي. وانظر: عمدة القاري للعيني:٥٠/١٩.

وأمّا في روايات أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) فقد سمّيت بسورة «مريم». روى الصدوق بإسناده عن أبي عبد الله[الصادق](عليه السلام)، قال: «مَن أدمن قراءة سورة مريم لم يمت حتى يصيبه ما يغنيه في نفسه وماله وولده». تفسير نور الثقلين:٣١٩/٣.

عدد آياتها ومحلّ نزولها
آياتها تسع وتسعون في عدّ المدني، وثمان وتسعون آية في عدّ الكوفي. والسورة مكّيّة بشهادة مضامين آياتها، ولم يختلف في ذلك اثنان.

أغراض السورة
استظهر السيد الطباطبائي ممّا جاء في آخر هذه السورة ـ أعني قوله: (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا) مريم:٩٧ ـ أنّ غرض السورة هو التبشير والإنذار. لاحظ: الميزان في تفسير القرآن:٦/١٤. ويمكن أن يقال: إنّ هذه السورة أشبه بسورة الأنبياء فقد جاءت فيها قصص كلّ من: زكريا، ويحيى، وعيسى، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وموسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس. والغرض أنّه سبحانه اختارهم للنبوّة وخصّهم بنعمة الولاية للتبشير والإنذار، غير أنّ أخلافهم كانوا بين صالح وطالح، والله سبحانه يجزي كلاًّ حسب عمله .

الآيات: الست الأُولى(كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا.... وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا).
(كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا).

المفردات
زكريا: من ولد النبيّ سليمان بن داود(عليهما السلام). نادى ربّه: دعاه. خَفيّاً: لم يسمعه أحد، أو لم يُسمع به أحد. وَهَن العظم: ضعف ورقّ من كِبَر السنّ. اشتعل: الاشتعال: انتشار شعاع النار. وقوله: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا)من أحسن الاستعارات والمعنى: انتشر الشيب في الرأس، كما ينتشر شعاع النار. التبيان في تفسير القرآن:١٠٤/٧. شقيّاً: محروماً. الموالي: المولى (في الأصل): مَن ولِيَ الشيء يليه ولاية، وهو الاتّصال للشيء بالشيء من غير فاصل، وهو على وجوه، منها: الأَولى (وهو الأصل والعماد، الذي ترجع إليه المعاني في باقي الوجوه)، والناصر، وابن العمّ، والمتولّي. انظر: أقسام المولى في اللّسان للشيخ المفيد:٢٧، منشورات المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، المجلد الثامن.

التفسير
وأمّا كيفية النطق بهذه الحروف فإنّما ينطق بها موقوفاً عليها، لأنّ كلّ واحد حرف مستقلّ.

وأمّا ما هو المراد من هذه الحروف المقطّعة؟ فهنا أمران:

١. تارة يتعلّق البحث في نفس الحروف المقطّعة في كلّ القرآن، وأنّه سبحانه ماذا أراد بوضع هذه الحروف في أوائل السور؟ وهذا ما درسناه في سورة البقرة وغيرها، وسندرسه بالتفصيل في تفسيرنا لسورة الأحقاف.

٢. وأُخرى يقع البحث في ما هي الصلة بين ما صدّرت به كلّ سورة ببعض الحروف وبين بقية آياتها؟

وهذا هو الأمر المهمّ الذي يجب على المفسّرين الاهتمام به وخاصّة بعد أن تيسّر ذلك بواسطة الحاسوب. ولعلّ المستقبل الكشّاف يفصح عن وجه الصلة بين الحروف المقطّعة وبين بقية آيات السورة ومضامينها. ومع ذلك فقد ورد في بعض الروايات بأنّ ما ورد في صدر سورتنا هذه إشارة إلى أسماء الله سبحانه، فعن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام)، قال: «هذه أسماء الله مقطّعة، وأمّا قوله: كهيعص، قال: الله هو الكافي، الهادي، العالم، الصادق، ذو الأيادي العظام». تفسير القمي:٢/٢٢؛ تفسير نور الثقلين:٣/٣٢٠.

وعن سفيان الثوري، عن الصادق(عليه السلام)، في رواية طويلة، قال: و(كهيعص) معناه: «أنا الكافي الهادي الوليّ العالم الصادق الوعد». معاني الأخبار للصَّدوق:٢٢، برقم ١، باب معنى الحروف المقطّعة.

٢. (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا):

الظاهر أنّ قوله:(ذِكْرُ) خبر مبتدأ محذوف، والمصدر بمعنى المفعول، وتقدير الكلام: هذا خبر (رَحْمَةِ رَبِّكَ)، والمراد من رحمة الربّ (عَبْدَهُ)، استجابة دعائه، كما سيأتي. والمراد بعبده ما جاء بعده من قوله: (زَكَرِيَّا).

٣. (إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا):

لمّا تقدّم في الآية السابقة خبر رحمة الربّ تعالى، جاءت هذه الآية لتذكر ظرف نزولها وقال: (إِذْ نَادَى رَبَّهُ) بمعنى أنّ رحمة الله كانت عندما نادى ربّه، والنداء: الجهر بالدعوة، خلاف المناجاة، ولكنّه وصفه بقوله: (نِدَاءً خَفِيًّا)، وخفاء النداء يحتمل وجهين:

١. الجهر بالنداء لكن في مكان لا يسمعه أحد، وعندئذ فالنداء بمعناه اللغوي ضد المناجاة، ووصفه بالخفاء لأجل أنّ أحداً من الناس لم يسمعه.

٢. أنّه خفّض صوته حتى لا يسمعه أحد، لأنّه رأى أنّه أدخل في الإخلاص.

من هو زكريا (عليه السلام)؟

لنذكر شيئاً من حياة زكريا، فإنّ ذلك يلقي مزيداً من الضوء على تفسير الآيات.

كان(عليه السلام) من أنبياء بني إسرائيل، ذُكر اسمه في القرآن الكريم سبع مرّات. لاحظ: آل عمران:١٣٧ مرّتان، و ٣٨، الأنعام:٨٥، مريم:٢ و ٧، والأنبياء:٨٩. ووردت قصة حياته بشيء من التفصيل في هذه السورة وفي سورة آل عمران. وفيهما مشهدان:

الأوّل: حضانته لمريم(عليها السلام)، ومشاهدة ما يحيطها من كرامات.

الثاني: دعاؤه ـ بعد أن طعن في السنّ ـ أن يرزقه الله سبحانه ولداً، وكانت امرأته عاقراً.

يقول المؤرّخون: إنّه كان لقوفاذ الإسرائيلي بنتان: الأُولى حنّة، كانت عند عمران (وهو من ذرية النبي سليمان(عليه السلام)) فولدت له مريم، والثانية: إيشاع، كانت عند زكريا(عليه السلام)، فولدت له يحيى. وعلى هذا فيحيى بن زكريا ومريم بنت عمران، ابنا خالة.

لماذا طلب زكريا الولد؟

يظهر أنّ هناك باعثين لهذا الطلب:

الباعث الأوّل: يذكر سبحانه حضانة زكريا لمريم(عليها السلام) في سورة آل عمران، حيث قال:(وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا) آل عمران:٣٧، وأنّه رأى ـ حينما كان يُعنى بتربيتها والقيام بأمرها ـ ، كرامة لها، يحكيها سبحانه بقوله: (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَاب) آل عمران:٣٧. فهو يجد عندها طعاماً ويعلم أنّه لم يحمله إليها أحد، فعلم أنّه من الله سبحانه، فصار ذلك سبباً لأن يطلب من الله سبحانه أن يرزقه ولداً مثل مريم، كما يدلّ عليه قوله: (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ). آل عمران:٣٨.

إنّ مشاهدة فضائل مريم السامية وشأنها الرفيع عند الله تعالى، قد ألهبت الشوق في قلب هذا الشيخ الكبير إلى أن يَنعَم بولد مثل مريم في الكرامة عند الله وسمو الشخصية، كما يحكي عنه قوله:(رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ). آل عمران:٣٨.

الباعث الثاني: وهو ما يظهر من الآيات التالية:

٤. (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا):

وصف زكريا حاله بقوله: (إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي) أي ضَعُف، مع أنّ خصوصية العظم هو الصلابة ووهنه حاك عن هَرَمه وضعف قواه، وإنّما خصّ العظم بالذكر لأنّ ضعفه يلازم ضعف سائر الأعضاء، واستشهد على ذلك بقوله: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا) وأُريد من الرأس شعره، واشتعال الشعر كناية عن انتشار الشيب في شعره، كانتشار لهب النار في الحطب.

ثمّ إنّه ـ بعدما أظهر عجزه وضعفه ـ توسّل برحمة ربه وقال: (وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا): أي لم أكن بدعائي إيّاك فيما مضى خائباً محروماً، وقد عوّدتني حسن الإجابة فلا تخيّبني فيما أسألك، ولا تحرمني إجابتك فيما أدعوك. وأمّا ما هو المدعوّ فتذكره الآية التالية:

٥. (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا):

بعدما وصف طَوْل إحسانه تعالى إليه واستجابة دعوته، ذكر الباعث الثاني لطلبه الولد، وأشار إليه بقوله: (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي)والموالي: جمع المولى وأُريد هنا أقارب الرجل من جهة الأب، وإنّما خاف من أن يرثه بنو عمومته. وخوفه منهم دليل على عدم كونهم صالحين. هذا من جانب، ومن جانب آخر ذكر عقم زوجته وقال: (وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا) فصار ذانك الأمران سبباً لأن يطلب من الله أن يهب له سبحانه ولداً خارجاً عن الأسباب الطبيعية، خصوصاً مع كون زوجته عاقراً، فانحصر الطريق بالكرامة، ولذلك قال: (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ). وأمّا الغاية من وجود وليّ له، فهي ما تذكره الآية التالية:

٦. (يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا):

الآية تتضمّن أمرين:

الأوّل: أن يرزقه الله سبحانه وليّاً يرثه، ويرث مَن هو من آل يعقوب من الأقارب، ويكون حاجباً لأبناء العمّ عن الميراث.

الثاني: أن يجعله سبحانه ولداً رضيّاً كما قال: (وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)، وأمّا ما هو المراد من كونه رضيّاً، فهذا ما تفسّره آية أُخرى في موضع آخر، قال: (رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً) آل عمران:٣٨.: أي نظير مريم في الطهارة والتقوى.

وبما أنّ قصة زكريا جاءت في سورتين، فإنّه بمقارنة آياتهما يظهر أنّ الداعي لطلب الولد ـ كما ذكرنا ـ أمران:

١. مشاهدة كرامات مريم، كما يدلّ عليه قوله: (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيّا) آل عمران:٣٨.

٢. خوفه من الموالي من بعده، فقوله:(مِنْ وَرَائِي): أي من بعدي.

وبما أنّ امرأته كانت عاقراً طلب من الله أن يرزقه من لدنه، لأنّ إجابة مثل هذا الطلب تخرج عن دائرة الأسباب الطبيعية.

هذا ما يرجع إلى توضيح الآيات.

ما هو المراد من الوراثة؟

ثمّ إنّ المفسّرين اختلفوا فيما هو المراد من الوراثة في قوله: (يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ).

أقول: لو لم يكن للمفسّر رأيٌّ مُسبَق إلهاماً واستلهاماً ممّا رواه أبو بكر عنه(صلى الله عليه وآله وسلم): «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث» ـ لو لم يكن هذا الرأي المسبق ـ لحكم على أنّ الداعي لطلب الولد أمران:

الأوّل: أنّ ذلك ممّا فطر الله عليه النوع الإنساني، سواء في ذلك الصالح والطالح، والنبيّ وغيره. وكلّ إنسان لولم ينحرف طبعه، ينساق إلى طلب الولد ويرى وجود الولد بعده بقاء لنفسه، والشرائع الإلهية لم تبطل هذا الحكم الفطري، ولا ذمّت هذا الدافع الغريزيّ بل مدحته، وكفى في ذلك قول إبراهيم(عليه السلام): (رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ) الصافات:١٠٠، وقوله تعالى حكاية عن المؤمنين: (رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ). الفرقان:٧٤. ولاحظ: الميزان في تفسير القرآن : ١١/١٤.

الثاني: الرغبة القويّة لدى عامّة الناس في أن تنتقل ممتلكاتهم بعد موتهم إلى أولادهم. وفي قصة زكريا(عليه السلام)ربّما كانت تجلب إليه أموال من بني إسرائيل، أو تجلب إلى الأحبار، وكان زكريا رئيسهم، فلذلك خاف أن يموت بلا عقب وتقع تلك الأموال بيد الموالي الذين لم يكونوا أُناساً صالحين، فطلب منه سبحانه ولداً يقوم مقامه ويتصرّف في الأموال حسب الموازين الإلهية، ففي تفسير علي بن إبراهيم: لم يكن يومئذ لزكريا ولد يقوم مقامه ويرثه وكانت هدايا بني إسرائيل ونذورهم للأحبار وكان زكريا رئيس الأحبار. الخ. تفسير القمّي:٢/٢٢.

وبعبارة واضحة: إنّ قوله: (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ) ظاهر في أنّه كان هناك أمر يخاف منه، فلو رُزق الولد لارتفع خوف زكريا، ولو مات بلا عقب لحدث. وعلى ضوء هذا نقول: لو أُريد من الخوف خوف الوراثة، فهذا هو الذي يرتفع مع وجود الولد، إذ أنّ الموالي حينئذ لا يرثونه مع وجود الولد. وهذا بخلاف ما لو أُريد من الوراثة وراثة النبوّة أو العلم أو ما يشبهه، فإنّه ممّا لا يترتّب عليه لو مات بلا عقب، لأنّ النبوّة والعلم ليسا من الأُمور الوراثية، فسواء أكان له ولد أم لا، أوصار ذا ولد أم لا، فهذا ليس ممّا يخاف منه، لأنّ الله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته.

إنّ كثيراً من المفسّرين المتأثّرين بالخبر الواحد الذي رواه أبو بكر يستميتون في إثبات أنّ المراد من الوراثة هي الوراثة في النبوّة والعلم.

والعجب هو غفلتهم عن خوف زكريا الذي يتحقّق مع عدم وجود الولد، ويرتفع مع وجوده، فما هو هذا الخوف؟ ليس هو إلاّ وراثة المال، وأمّا غيرها فلا يخاف منه سواء أنجب أم لا، لأنّ الله يضع رسالته فيمن له أهليّة.

ثمّ إنّ في كلتا السورتين (آل عمران ومريم) اللتين تحدّثتا عن الموضوع جاء وصف الولد الموهوب بكونه (رَضِيّاً) كما في المقام أو (ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً) كما في سورة آل عمران، فلو كان طلب الولد لوراثة النبوّة والقيادة الدينية لَكان هذا القيد في الطلب أمراً لغواً، لأنّ الأنبياء كلّهم راضون مرضيّون طاهرون مطهَّرون. وتوهُّم كون التقييد لأجل التأكيد، في غير مورده، إذ لا شكّ في النبيّ أنّه يكون مرضيّاً قطعاً.

كلام للسيد الآلوسي

إنّ السيد الآلوسي من المصرّين على أنّ الوراثة ليست وراثة ماليّة، وذكر لتأييد رأيه ثلاثة وجوه:

الأوّل: يقول: ممّا يؤيّد حمل الوراثة هنا على وراثة العلم ونحوه دون المال، أنّه ليس في الأنظار العالية والهمم العلياء للنفوس القدسية التي انقطعت من تعلّقات هذا العالم المتغيّر الفاني واتّصلت بالعالم الباقي ميل للمتاع الدنيوي قدر جناح بعوضة لا سيما جناب زكريا(عليه السلام) فإنّه كان مشهوراً بكمال الانقطاع والتجرّد، فيستحيل عادة أن يخاف من وراثة المال والمتاع الذي ليس

له في نظره العالي أدنى قدر أو يظهر من أجله الكَلَف والحزن والخوف، ويستدعي من حضرة الحق سبحانه وتعالى ذلك النحو من الاستدعاء، وهو يدلّ على كمال المحبّة وتعلّق القلب بالدنيا. روح المعاني:١٦/٦٤.

يلاحظ عليه: بأنّ خوف زكريا من وراثة الأغيار لم يكن لأجل تعلّق نفسه بالمال حتى يقال إنّ الهمم العليا للنفوس القدسية انقطعت من تعلّقات هذا العالم، وإنّما خوفه أن تقع هذه الأموال التي تأتي يوماً بعد يوم بيد أشرار الناس فتُصرف في غير محلّها، ولذلك ورد في سيرة النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه كان يصرف ما يقع تحت يده من الغنائم بأسرع وقت. وليس هذا النوع من الخوف دليلاً على التعلّق بالدنيا ومتاعها، بل دليلاً على ورعه وتقواه، وخشيته من أن تُصرف الأموال في غير جهتها الشرعية.

الثاني: أنّ ذلك لا يُخاف منه، إذ الرجل إذا مات وانتقل ماله بالوراثة إلى آخر صار المال مال ذلك الآخر فصرفه على ذمّته صواباً أو خطأ ولا مؤاخذة على الميّت من ذلك الصرف بل لا عتاب أيضاً. روح المعاني:١٦/٦٥.

يلاحظ عليه: بأنّ الإنسان المؤمن شديد الحسّاسيّة من أي شرّ أو ظلم أو فساد يظهر في الناس، ويستشعر المسؤولية بتطهير جوّ الحياة منه، فيعمل على استئصاله من جذوره، أو على تجفيف المنابع التي تمدّه بأسباب القوّة والبقاء والانتشار.

وزكريا(عليه السلام) إذ خاف من وقوع الأموال، بعد رحيله عن الدنيا، بأيدي الأشرار، فرضَ عليه إيمانه وتقواه واشمئزازه من المنكر وأصحابه، أن يفكّر في أمر المستقبل، وأن يدبّر له بما يحول بين هؤلاء وبين الأموال التي سوف ينفقونها في السُّبُل البعيدة عن مرضاة الله تعالى. وعلى هذا فالقول بأنّ المال مالهم والوزر عليهم، قول من لم يقف على خصائص النبيّ وعلى ما يحسّه من مسؤولية تجاه ما سوف يملكه الأشرار من الأموال التي بيده.

الثالث: بأنّه كان في إمكان زكريا أن يصرف ما يملك قبل موته ويتصدّق به كلّه في سبيل الله، ويترك بني عمّه الأشرار خائبين. روح المعاني:١٦/٦٥.

أقول: هذا الكلام أغرب من سابقَيه، وهو بمعنى أنّ زكريا كان يعلم بأجله متى يموت، فيتصدّق بماله قبل ذلك بسنة، مثلاً، وقد مرّ أنّ الأموال كانت تجبى إليه وقتاً بعد وقت.

ولعمري إنّ الداعي لنسج هذه الوجوه وصرف الآية عن ظاهرها هو تصحيح ما رواه أبو بكر في هذا المقام، ولولا هذا لما خطر في بال أحد واحدٌ من هذه الوجوه.

وبما أنّ ابن عاشور وقف على الحقّ وقوفاً نسبياً، فقد أنصف في المقام وقال: فقوله: (يَرِثُنِي) يعني به وراثة ماله. ويؤيّده ما أخرجه عبد الرزاق عن قتادة عن الحسن[البصريّ] أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «يرحم الله زكرياء ما كان عليه من وراثة ماله».

والظواهر تؤذن بأنّ الأنبياء كانوا يورّثون، قال تعالى: (وَوَرِثَ سُلَيْمانُ دَاوُدَ) النمل:١٦، وأمّا قول النبي(صلى الله عليه وآله وسلم):«نحن معشر الأنبياء لا نوّرث ما تركنا صدقة» فإنّما يريد به رسول الله نفسه، كما حمله عمر في حديثه مع العباس وعلي في «صحيح البخاري» إذ قال عمر: «يريد رسول الله بذلك نفسه» فيكون ذلك من خصوصيات محمد(صلى الله عليه وآله وسلم). التحرير والتنوير:١٦/١١ـ ١٢.

أقول: إنّ ابن عاشور وإن اعترف بظهور الآية في الوراثة المالية، لكنّه احتمل أن يكون ما في الرواية من خصائص النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) ولكن غفل عن أنّ الرواية ـ على فرض صحّتها ـ تعدّ وراثة المال من خصائص الأنبياء، لقوله فيها: «نحن معشر الأنبياء».

ثمّ إنّ السيد الآلوسي استدلّ على ما تبنّاه برواية الشيخ الكليني، قال: روى الكليني في «الكافي» عن أبي البختري، عن أبي عبد الله

جعفر الصادق رضي الله عنه أنّه قال: «إنّ العلماء ورثة الأنبياء»، وذلك أنّ الأنبياء لم يورّثوا درهماً ولا ديناراً وإنّما ورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمَن أخذ بشيء منها فقد أخذ بحظّ وافر». روح المعاني:١٦/٦٤.

أقول: إنّ الآلوسي غفل عن مرمى الحديث ومفاده، فالحديث بصدد بيان أنّه ليس من شأن الأنبياء إيراث ورثتهم أموالاً طائلة وكنوزاً مكتنزة، وإنّما شأنهم التبليغ ومسؤوليتهم الإرشاد والتعليم وقد قاموا بها من خلال أحاديثهم.

وأمّا لو فرض أنّ نبيّاً ما، مات وعنده سجّادة أو إبريق أو عنده عباء وقباء، فهذا لا يورَث؟ فالرواية غير ناظرة إليه.

لو فرضنا أنّ الأنبياء لا يورَثون من غير استثناء، أفليس من واجب النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يذكر ذلك على رؤوس الأشهاد أو لا أقلّ من أن يذكره لأولاده وورثته قبل أن يذكره لأبي بكر، حتى لا يحصل نزاع بينهم بعد وفاته(صلى الله عليه وآله وسلم)؟ ولذلك نرى أنّ سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء(عليها السلام)تحتجّ على أبي بكر في حرمانها من الإرث وتخاطبه بقولها: «يا ابن أبي قحافة أفي كتاب الله أن ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فرياً؟ أفعلى عَمْد تركتم كتابَ الله ونبذتموه وراء ظهوركم، إذ يقول فيما اقتصّ من خبر يحيى بن زكريا(عليه السلام):(فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ)». تفسير نور الثقلين:٣/٣٢٤.

الآيات: السابعة إلى الخامسة عشرة(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ اسْمُهُ يَحْيَى.... وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا).

(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا).

المفردات

غلام: الغلام: الذكر إذا بلغ.

سميّاً: شريكاً له في الاسم، فلم يسمّ أحد بهذا الاسم قبله.

أنّي: استفهام بمعنى كيف.

عِتيّاً: يقال: عتا يعتو، عتوّاً وعتيّاً، نظير عسا يعْسو، عسوّاً وعسيّاً، فهو عات وعاس: يطلق لمَن غيّره طول الزمان إلى حال اليبس والجفاف. التبيان في تفسير القرآن:٧/١٠٩.

هيِّن: سهل.

المحراب: هو المسمّى عند أهل الكتاب بالمذبح، وهو مقصورة في مقدَّم المَعبد يُصعد إليها بسُلّم، وعند المسلمين مقام الإمام في المسجد.

أَوحى: الإيحاء: إلقاء المعنى إلى النفس في خفية وبسرعة. وأُريد في المقام: الإيماء إليهم أن يشرعوا بالتسبيح.

بقوّة: بعزيمة وثبات.

الحُكم: لعلّ المراد به الحكمة.

صبيّاً: في حال الصِّبا قبل أن يبلغ الأشدّ.

حناناً: الحنان: التعطّف وحسن النظر على كافّتهم.

تقيّاً: موصوفاً بالتقى.

عصيّاً: صفة مشبهة من العصيان.

سلام: دعاء بالسلامة يقوله الزائر والراحل.

التفسير

٧ . (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا):

استجاب الله سبحانه دعوة زكريا وخاطبه بقوله: (يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ): أي نخبرك (بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا): أي شريكاً في الاسم، فهو المتوحّد بهذا الاسم. وفي هذا تشريف له من وجهين:

١. أنّ الله سبحانه تولّى تسميته ولم يَكِلها إلى الأبوين.

٢. أنّه تعالى سمّاه باسم لم يُسبق إليه، ويدلّ ذلك الاسم على فضله.

قال الطبرسي: وقرأ علي بن أبي طالب وجعفر بن محمد(عليهم السلام): «يرثني وأرث من آل يعقوب لم نجعل له من قبل سميّاً». قال أبو عبد الله]يعني جعفراً الصادق[(عليه السلام): «وكذلك الحسين(عليه السلام) لم يكن له من قبل سَميّ ولم تبك السماء إلاّ عليهما أربعين صباحاً»، قيل له: وما كان بكاؤها؟ قال: «كانت تطلع حمراء وتغيب حمراء، وكان قاتل يحي ولد زنا وقاتل الحسين ولد زنا». نور الثقلين:٣/٣٢٤، نقلاً عن مجمع البيان: ٦ / ٣٩٨ و ٤٠٥ في تفسير الآية.

وروى سفيان بن عيينة عن علي بن زيد عن علي بن الحسين(عليه السلام) قال: «خرجنا مع الحسين(عليه السلام)، فما نزل منزلاً ولا ارتحل منه إلاّ ذكر يحي بن زكريا، وقال يوماً: ومن هوان الدنيا على الله عزّ وجلّ أنّ رأس يحي بن زكريا أُهدي إلى بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل». نور الثقلين:٣/٣٢٤، نقلاً عن إرشاد المفيد.

نقل الطبرسي للفقرة معنى آخر وقال: قيل: إنّ معنى قوله: (لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا): أي لم تلد العواقر مثله ولداً، وهو كقوله: (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) مريم: ٦٥ . : أي مثلاً، عن ابن عباس.(مجمع البيان: ٦ / ٤٦٤.)

وهذا هو الذي اختاره ابن عاشور وأوضحه بقوله: لم يجئ قبل يحي من الأنبياء مَن اجتمع له ما اجتمع ليحي فإنّه أُعطي النبوّة وهو صبيّ، وجعل حصوراً ليكون غير مشقوق عليه في عصمته عن الحرام، ووُلد لأبيه بعد الشيخوخة، ولأُمّه بعد العَقر، وبُعث مبشِّراً برسالة عيسى(عليه السلام)، ولم يكن هو رسولاً، وجُعل اسمه العلم مبتكراً غير سابق من قبله. انظر: التحرير والتنوير:١٦/١٤.

يلاحظ عليه: أنّه لو أُريد ذلك لكان اللازم أن يقول: ولم نجعل له من قبل مثيلاً. وأمّا الاستشهاد بالآية المذكورة فالظاهر أنّ ما فسّر به فهو مفهوم من القرينة، وإلاّ فالسميّ في اللغة هو الاشتراك في الاسم.

٨ . (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا):

لمّا سمع نبأ البشارة من الملائكة كما هو ظاهر قوله: (فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى) آل عمران:٣٩.، أخذ يسأل ويقول:

(قَالَ رَبِّ أَنَّى) كيف (يَكُونُ) يولد (لِي غُلَامٌ) وهو الذكر من جنس الإنسان (وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا) لا تلد (وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا): أي بلغت من كبر السنّ إلى حال اليُبس والجفاف وضعف العظم.

وحاصل سؤاله: كيف يرزق بولد وهو شيخ كبير وامرأته عاقر؟ وسؤاله هذا سؤال تعجُّب واستعلام لحقيقة الحال دون أن يطرأ عليه الشكّ في البشارة، وهو نظير سؤال إبراهيم(عليه السلام) عن كيفية إحياء الموتى، ليطمئنّ قلبه، فأُجيب زكريا(عليه السلام) بالآية التالية:

٩. (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا):
في الآية فعلان، فاعل الفعل الأوّل هو الضمير الراجع إلى الملَك المبشِّر، وفاعل الثاني هو الربّ تعالى المذكور في الآية، فقوله: (قَالَ): أي الملَك (كَذَلِكَ): أي الأمر كما وصفت لكن (قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ): أي قدرة الله تعالى فوق ما تتصوّر بشهادة (وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا): أي أنشأتك من العدم ولم تكن شيئاً، فأنا أقدر على أن أرزقك ولداً.

طلب العلامة لحمل امرأته

١٠. (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا):
إنّ زكريا سأل الله تعالى أن يجعل له علامة يعرف بها وقت حمل امرأته: (قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً) استعجالاً للسرور واطمئناناً أكثر حتى يقابل هذه النعمة حمداً وشكراً، وأمّا ما هي العلامة فهو كما يقول: (قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا): أي كاملة بأيامها، فجعل الله تعالى العلامة في إمساك لسانه فلم يقدر أن يكلِّم الناس إلاّ إيماءً من غير آفة حدثت فيه. وفي سورة آل عمران قال: (قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ) آل عمران:٤١.. فهذه الآية تدلّ على أنّ لسانه ينطق إذا أراد أن يلهج بذكر الله وتسبيحه، ويحتبس عند الكلام مع الناس، وهذا ما تشير إليه الآية التالية:
١١. (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا):
ظاهر الآية أنّه كانت له غرفة خاصّة للعبادة يسبِّح فيها ويصلّي، ثم إنّه يخرج منها في مواقيت خاصّة ليصلّي مع الناس، وهذا هو الذي تذكره الآية، وتقول: (فَخَرَجَ): أي طلع بشهادة تعديته بـ(عَلَى)نظير قوله (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ) القصص:٧٩، (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ): أي أشار إمّا باليد أو بالعين(أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)ولعلّ المراد: صلّوا بكرةً وعشيّاً.

توضيح الآية رهن بيان أمرين:
١. إنّ زكريا بشّر الأحبار الذين يصلّون معه بكرة وعشيّاً بما أوحى الله إليه من أنّ علامة حمل زوجته هو اعتقال لسانه، وهو قد خرج عليهم حتى يؤدّي إليهم ذلك ولكي لا يتصوّروا أنّ صمته من صنوف العبادة، حيث كان الصمت في الشرائع السالفة أحد أنواع العبادة كما في قول مريم: (إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) مريم:٢٦. بل أنّ صمته كان لاعتقال لسانه فليس عليهم الاقتداء به في ذلك بل عليهم أن يعبدوا الله كما اعتادوا على ذلك.
٢. إنّ قوله: (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ) هل هو بمعنى أذن لهم أن يدخلوا المحراب فيصلّوا معه في محرابه هاتين الصلاتين؟ أو أنّ المراد أن كلاًّ يعبد الله في مكانه في الأيام الثلاثة وزكريا في محرابه والأحبار في معبدهم؟ الثاني هو الأظهر.
يُذكر أنّ قصة ولادة يحي بمعجزة ربّانية كانت متداولة عند النصارى في عهد الرسالة وقبله، بدليل أنّها جاءت في إنجيل لوقا بتفصيل يتقارب مضمونه مع ما جاء في القرآن، وإليك بعض الفقرات الواردة فيه:
«كان في أيام هيرودُس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا... له امرأة من بنات هارون اسمها أليصابات، وكان كلاهما بارّاً عندالله... ولم يكن لهما ولد لأنّ أليصابات كانت عاقراً، وقد طعن كلاهما في السنّ.
وبينما زكريا يقوم بالخدمة الكهنوتية أمام الله في دَور فرقته، أُلقيت القرعة على سنّة الكهنوت، فأصابته ليدخل مَقْدِس الربّ ويُحرق البَخور، وكانت جماعة الشعب كلّها تصلّي في خارجه... فتراءى له مَلاك الربّ... فاضطرب زكريا حين رآه واستولى عليه الخوف، فقال له المَلاك: لا تخف يا زكريا فقد سُمع دعاؤك، وستلد لك امرأتك أليصابات ابناً فسمّه يوحنّا، وستلقى فرحاً وابتهاجاً...
فقال زكريا للمَلاك: بم أعرف هذا وأنا شيخ كبير وامرأتي طاعنة في السنّ؟ فأجابه الملاك:... ستُصاب بالخَرَس، فلا تستطيع الكلام إلى يوم يحدث ذلك. وكان الشعب ينتظر زكريا، متعجّباً من إبطائه في المَقْدِس، فلمّا خرج لم يستطع أن يكلِّمهم، فعرفوا أنّه رأى

رؤيا في المَقْدِس، وكان يخاطبهم بالإشارة وبقي أخرس. الكتاب المقدّس، العهد الجديد ـ إنجيل لوقا: ١٨٦ـ١٨٨، الإصحاح الأوّل.

صفات يحي كما ذكرها القرآن الكريم

١٢. (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا):

في الكلام اختصار تقديره: فوهبنا لزكريا يحي حتى نشأ وآتيناه الفهم والعقل، وعندئذ خاطبناه بالوجه التالي:(يَا يَحْيَى) الظاهر أنّ القائل هو الله سبحانه، ولم يذكر ما ذكرنا من الأُمور لعدم تعلّق الغرض به، قال: (خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ): أي خذ التوراة بكلّ عزيمة وثبات في جانبَي العلم والعمل. والمراد بالكتاب التوراة، ويُحتمل هي وسائر كتب الأنبياء، ويحتمل أن يكون كتاباً خاصّاً به.

ثمّ إنّه سبحانه يصفه بالأوصاف التالية:

١. (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) الظاهر أنّ المراد بالحكم الحكمة لقوله سبحانه: (يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) الجمعة:٢.. ولعلّ المراد من الحكمة العلم بالمعارف الحقّة الإلهية في مجاري العلم والعمل، فالله سبحانه عزّزه وكرّمه حيث أعطاه ذلك العلم وهو صبيّ لم يبلغ الحلم بعد.

وربّما يفسّر الحكم بالنبوّة، وهو بعيد لأنّ الحكم في قسم من الآيات جاء في مقابل النبوّة، قال سبحانه: (وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ). الجاثية: ١٦.

روى الكليني عن يزيد الكُناسي عن أبي جعفر الباقر في حديث طويل يقول فيه(عليه السلام): «ثمّ مات زكريا فورثه ابنُه يحي الكتاب والحكمة وهو صبيّ صغير، أما تسمع لقوله عزّ وجلّ: (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا)؟ فلمّا بلغ عيسى(عليه السلام) سبع سنين تكلّم بالنبوّة والرسالة حين أوحى الله إليه، فكان عيسى الحجّة على يحي وعلى الناس أجمعين». الكافي:١/٣٨٢، برقم ١، باب حالات الأئمّة(عليهم السلام) في السنّ.

١٣. (وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا):

٢. (وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا): أي جعلنا في قلبه تعطّفاً على العباد كافّة. وهذا نظير قوله سبحانه في حقّ نبيّنا(صلى الله عليه وآله وسلم): (حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) التوبة:١٢٨.. قال الراغب: ولمّا كان الحنين متضمّناً للإشفاق، والإشفاق لا ينفكّ من الرحمة، عُبِّر عن الرحمة بالحنان المفردات: ١٣٣ ، مادة «حنّ».، فتكون النتيجة: جعلنا فيه تحنُّناً على العباد ورقّة قلب عليهم ليدعوهم إلى طاعة الله....

٣. (وَزَكَاةً): أي عملاً صالحاً زاكياً.

٤. (وَكَانَ تَقِيًّا) التقيّ صفة مشبَّهة من التقوى، وهي الورع عن محارم الله تعالى، وتجنب المناهي المؤدّية إلى عذابه.

١٤. (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا):

٥. (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ) البَرّ ـ بفتح الباء ـ صفة مشبهة من البِرّ وهو الإحسان، أي وكان محسناً ومُكرِماً لوالديه.

٦. (وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا): أي لم يكن مستكبراً مستعلياً يحمل الناس على ما أراد ولا يتحمّل عنهم.

إنّ الأوصاف الأخيرة: «تقياً، بَرّاً، لم يكن جبّاراً عصيّاً» سيقت لتبيان جوامع أحواله بالنسبة إلى الخالق والمخلوق، فقوله: (وَكَانَ تَقِيًّا) حالُه بالنسبة إلى ربّه، وقوله: (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ) حاله بالنسبة إلى والديه، وقوله: (وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا) حاله بالنسبة إلى سائر الناس، الميزان في تفسير القرآن:١٤/٢١. فكان مطيعاً لربّه، بارّاً بوالديه، ناصحاً للناس غير متحكّم بهم بما أُوتي من النبوّة.

١٥. (وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا).

إنّه سبحانه سلّم على يحي(عليه السلام) في مواطن ثلاثة:

١. يوم مولده كما قال تعالى:(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ).

٢. يوم موته، كما قال تعالى:(وَيَوْمَ يَمُوتُ).

٣. يوم بَعْثه حيّاً، كما قال تعالى: (وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا)في الآخرة. ولعلّه إشارة إلى كونه من الشهداء لقوله تعالى:(بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) آل عمران:١٦٩..

ثمّ إنّ السلام يمكن أن يكون من الله أو من الملائكة. وعلى كلّ تقدير، فهو يدلّ على شرفه وفضله، وقد جاء السلام على نوح وإبراهيم(عليهما السلام)في قوله تعالى: (سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ) الصافات:٧٩، وقوله:(سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ) . الصافات:١٠٩..

ولكنّ المسيح(عليه السلام) هو الذي سلّم على نفسه وقال: (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا) مريم:٣٣..

وفي نهاية المطاف كانت نهاية حياة هذا النبيّ الصالح التقيّ، أن يُقتل بسيف الظلم، ويُهدى رأسه إلى امرأة بغيّ. ومن أراد أن يقف على قصته تفصيلاً، فليرجع إلى المصادر الحديثية والتاريخية. انظر: بحار الأنوار:١٤/١٦٣ـ١٩٠.

عبر ودروس في قصة زكريا ويحي(عليهما السلام)

تعطينا قصة زكريا (عليه السلام)دروساً في الحياة، منها:

١. يجب أن لا يقطع الإنسان أمله من رحمة الله حتّى في الظروف القاسية الّتي تنقطع فيها الأسباب والوسائل الطبيعية، لأنّه سبحانه قادر على استجابة دعاء الإنسان وتحقيق حاجته عن طريق غير عاديّ.

٢. إنّ الولد وإنْ كان نعمَ العضُد والعَون لأبيه، ولكن ليس كلّ ولد عضداً ومساعداً ومعيناً، بل هو الولد الطيب المرضيّ عند الله كما ورد في دعاء زكريا، حيث قال: (ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً)وقال: (وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا). وقد وصف الله سبحانه عباد الرحمن بأنّهم هم الذين يطلبون من الله أن يهبهم ذرية تكون قرّة أعين لهم، كما قال: (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَ ذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَ اجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) الفرقان: ٧٤..

٣. إنّ الأنبياء يُورثون كسائر الناس ولا وجه لحرمان أولاد الأنبياء من الإرث، فإنّما لا يتوارث أهل ملّتين لا أهل ملّة واحدة كما احتجّت بذلك الزهراء(عليها السلام)عند حرمانها من ميراثها، ولذلك ورث يحي ما لزكريا من الأموال.

٤. إنّ زكريا (عليه السلام)طلب من ربّه ولداً رضيّاً، حتّى يرثه، ويحجب الموالي (بنو عمّه) الذين كانوا ـ كما ورد في الأخبار ـ غير صالحين، عن وراثته .

وهذا الأمر، يدعو الإنسان إلى أن يفكّر في مصير أولاده وأن يهتمّ فيما يتركه من الأموال حتّى لا يسيطر عليها الطالحون فيصرفونها في غير ما يرضي الله سبحانه .

٥. يجب أن يكون الرجاء مقترناً مع الخوف، فالرجاء المنفصل عن الخوف يورث الطغيان، كما أنّ الخوف المجرّد عن الرجاء يوجب اليأس، فالرجاء مع الخوف من العوامل البنّاءة للحياة السعيدة، والخاسر مَن اعتمد على الرجاء وغضّ النظر عن الخوف، وبالعكس.

٦. جرت سنّة الله تعالى على أن يخصّ عباده المخلَصين بالمواهب، وهم في مرحلة الشباب أو الكهولة، ولكن ربّما تقتضي حكمته سبحانه أن يؤتيهم المواهب والكرامات وهم في سنّ الطفولة والصِّبا، ويكون لهم شأن خطير في مجتمعاتهم، وقابلية واستعداد على التذكير والتوجيه والإرشاد والقيادة.

ومن هنا لا ينبغي إخضاع أمثال هذه الشخصيات للمقاييس المألوفة لجُلّ البشر، فهم يُنكرون أو يستبعدون توافر هذه المزايا والمؤهّلات في مثل هؤلاء الأشخاص، الذين تستضيء بأنوارهم أُممهم، وهم في عمر كواكب الأسحار، فالله هو الّذي يختار بعلمه من يُجزل له من عطائه، ويفيض عليه من كرمه، و (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) الأنعام: ١٢٤ .

وقد تجلّى هذا العطاء الإلهي في النبيّ يحي (عليه السلام)، الّذي آتاه سبحانه الحكم وهو صبيّ، وأضفى عليه من الصفات والسمات، ما جعله سيِّد قومه في علمه وحكمته وأخلاقه، وملاذاً يلجأون إليه في مهمّاتهم وشؤونهم الدينية.

٧. إنّ أنبياء الله هم الأُسوة لنا في حياتنا، فالنبيّ يحي (عليه السلام)كان زاهداً، تقيّاً، مجتنباً للمعاصي، صائناً لنفسه عن ملذّات الحياة الدنيا، مستجيباً لطاعة الله، منتهجاً شريعته الغرّاء، وفي الوقت نفسه كان بارّاً بوالديه محسناً إليهما، عطوفاً على الناس غير متجبّر عليهم ولا ظالم لهم، وبهذا استحقّ هذه المنزلة الخصيصة عند ربّه، والسيادة على قومه .

٨. يستفاد من قصة يحي (عليه السلام)(من خلال الروايات والأخبار) أنّ أتقى الناس وأشرفهم وأكرمهم عند الله تعالى قد يُقتلون بيد الأشقياء والأشرار، فتُحرم الأُمم من بركاتهم وعطاءاتهم وأنوارهم، بفعل استهتار هؤلاء الظالمين بأرواح الأبرار، وبالقيم والمبادئ الّتي يحملونها ويسعون إلى بثّها ونشرها بين الناس.

فالنبي يحي (عليه السلام)قد قتله الحاكم الظالم، وأهدى رأسه إلى إحدى البغايا، استجابة لنزوة تافهة، وحقد أعمى .

وما أشبه الّذي جرى لريحانة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)الإمام الحسين (عليه السلام)، بما جرى ليحي (عليه السلام)، إذ قُتل السبط(عليه السلام)بيد أحد الفجرة، وأُهدي رأسه إلى لعين ناكر للوحي والنبوّة على رؤوس الأشهاد، إذ تمثّل يومئذ بأبيات ابن الزِّبَعْرى، وزاد فيها (يزيد) هذا البيت الطافح بالكفر: نقل ذلك الباغندي عن ابن عساكر. انظر: أعيان الشيعة: ١ / ٦١٦ .

لعبتْ هاشم بالملك فلا *** خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزل

والحديث ذو شجون.

الآيات: السادسة عشرة إلى الحادية والعشرين(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ.... وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا).

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَـنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا).

المفردات

انتبذت: اعتزلت وتنحّت.

مكاناً شرقيّاً: شرقيّ بيت المقدس.

حجاباً: ساتراً توارت به منهم.

روحنا: هو جبرئيل(عليه السلام).

سويّاً: كامل الخلقة.

أعوذ: أعتصم وألتجئ.

أمراً مقضيّاً: أمراً تعلّق به قضاء الله.

التفسير

١٦. (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا):

قوله: (وَاذْكُرْ) عطف على قوله تعالى: (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ) من باب عطف قصة على قصة حيث جاء في الأُولى ذكر ولادة يحي من أب طاعن في السنّ لا يُرجى منه الإنجاب ومن أُمّ عاقر، وجاء في الثانية ذكر قصة مريم وكيفية ولادة عيسى.

وإنّما قدّم ولادة يحي على ولادة المسيح، لأنّ خلق الولد من شيخين فانيين أقرب إلى مناهج العادات، من خلق الولد بلا أب، وأحسن

الطرق إلى التعليم والتفهّم الأخذ من الأقرب فالأقرب، مترقّياً من الأصعب إلى الأصعب. تفسير الرازي:٢١/١٩٥.

ثمّ إنّ النوع الثاني من الولادة وإن كان على خلاف المألوف، إلاّ أنّه ليس أمراً محالاً؛ لأنّ قدرة الله تعالى مطلقة لا يحدّها شيء، وسلطانه نافذ لا يحول دونه شيء. وقد ظهر هذا الاقتدار جليّاً في خلق آدم من تراب من دون أن يكون له أب أو أُمّ، قال سبحانه:(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَاب ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) آل عمران:٥٩. وسيوافيك تفصيله في فصل العبر والعظات.

الحلقة الأُولى من قصّة مريم

ثمّ إنّه سبحانه ذكر قصّة زكريا بصورة جملة خبرية: (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ) وأمّا قصة مريم فذكرها بصورة جملة إنشائية وقال: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ): أي في القرآن قصة (مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا): أي انفردت عن أهلها إلى مكان في جهة المشرق وقعدت ناحية منه، وقوله: (انْتَبَذَتْ) من «النَّبْذ» بمعنى الطرح، ومنه بيع المُنابذة، حيث إنّ المعاملة تصير لازمة بطرح الثوب أو الحصاة، والتعبير عن ترك الأهل بالنبذ، كناية عن أنّها خرجت بسرعة إلى مكان يلي جهة الشرق. وأمّا هو المراد من هذا الجانب، فليس في الآية دليل عليه. وأمّا ما هي الغاية من الخروج، فذكروا لها وجوهاً أفضلها: أنّها انفردت عن أهلها إلى ذلك الجانب لتتفرّغ للعبادة وتعتكف لها. ولعلّ هذا المكان، هو الذي يشير إليه قوله سبحانه: (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا) آل عمران:٣٧، الميزان في تفسير القرآن: ١٤/٣٥. وسيأتي الكلام فيه. ولعلّ هذا المكان كان واقعاً في شرق بيت المقدس. وعن ابن عباس: إنّما جعلت النصارى قبلتهم إلى المشرق لأنّ مريم اتّخذت من جهة الشرق موضع صلاتها. التبيان في تفسير القرآن:٧/١١٤.

١٧. (فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا):

الآية تتضمّن بيان أمرين:

١. إنّ السيدة مريم اتّخذت من دون أهلها ستراً وحاجزاً بينها وبينهم.

٢. إنّ الروح تمثّل لها بصورة بشر سويّ.

أمّا الأوّل: فاتّخاذ السِّتر، يحكي عن أنّها كانت في مكان لولا السِّتر لَمَا خلا لها المكان من الأغيار. وهذا يكشف عن أنّ الحادثة لم تقع في محرابها الخاصّ بها الذي كلّما دخل عليها زكريا وهي فيه وجد عندها رزقاً، ـ كما مرّ ـ لأنّه كان مستوراً بالجدران، فلا يحتاج إلى ستر آخر. وتفسير السِّتر بالجدار كماترى، لأنّ المتبادر من اتّخاذ السِّتر، إيجاد السِّتر الذي لم يكن قبل موجوداً، وليس الجدار كذلك، والآية ساكتة في واقع هذا الحجاب، كما هي كذلك في تعيين المكان الشرقيّ، فنسكت ـ تبعاً للقرآن ـ ما لم يدلّ دليل قاطع على المراد.

وأمّا الثاني: أي تمثُّل الروح لها بصورة إنسان سويّ، فهو الذي سبّب لها الرعب والاضطراب، حيث شاهدت أمامها شاباً جميلاً في محلّ خلوتها، فاهتزّت بكلّ وجودها بمشاهدته، فمريم التي يُضرب بها المثل في العفّة والتقوى شعرت بحَرَج الموقف الذي لا ينجو منه إلاّ اللاجئ إلى الله تعالى، ولذلك قالت:

١٨.(قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَـنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا):

لمّا توهّمت أنّ هذا الإنسان المجهول ربّما يريد ما ليس من شأنها، تعوّذت بالرحمن ورحمته العامّة و(قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ) حتى يرتدع هذا الرجل عن نيّته السيئة، وأتمّت كلامها بقولها: (مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا)لعلمها بأنّ الاستعاذة لا تؤثر إلاّ إذا كان المستعاذ منه تقيّاً خائفاً من الله، نظير قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) البقرة:٢٧٨.. كانت السيدة مريم في تلك اللحظات تعيش في أحلك الظروف وأصعبها، وكانت تنتظر رد فعل ذلك الإنسان، وهل تَعوّذها بالرحمن يؤثّر فيه

فيرتدع عن نيّته السيئة، فإذا ذلك المجهول يُطلق كلامه قائلاً:

١٩. (قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا):

كان لهذا الكلام (إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ) أثر بالغ في تقليل الاضطراب أو القلق الذي أحاط بوجودها كلّه، واطمأنّت إلى أنّ الرجل ليس معتدياً آثماً أو فاجراً زنيماً، وإنّما هو رسول ربّها. ثم إنّه أبان عن وجه حضوره لديها بقوله: (لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا): أي أحمل لك من ربّك هبة ربّانية، وغلاماً طاهراً من كلّ سوء، من دون وقاع. وسياق الكلام يدلّ على أنّ السيدة مريم صدّقته في نفسها، وأنّه ليس هناك أمر مريب، ولكنّها انتقلت من قلق إلى قلق آخر، وقالت:

٢٠. (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا):

لقد استغربت من وقوع هذه البشارة ـ كما استغرب زوج خالتها زكريا من قبل ـ و(قَالَتْ أَنَّى): أي كيف (يَكُونُ لِي غُلَامٌ) مع أنّ الطريق إليه أحد أمرين: الزواج (وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ) أو الانحراف (وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا)ولم تسمع أُذن الدنيا أنّ امرأة تكون ذات ولد، ولم يكن هناك أي وقاع حلالاً كان أو حراماً.

كانت السيدة تتفكّر في واقع هذه البشارة باضطراب، فإذا برسول الربّ:

٢١. (قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا):

تشتمل الآية على فعلين أعني:(قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ) فالقائل في الأوّل هو رسول الربّ، وفي الثاني هو الله سبحانه، فقوله(قَالَ كَذَلِكِ)يعني أنّ الأمر واقع كما أخبرتك. ولعلّ المراد أنّ الحقّ ما تقولين حسب العادات، لكن هنا إرادة قاهرة إذا تعلّقت بشيء، فإنّه يوجد بلا ريث ولا تأخير، وهي إرادة الله سبحانه، التي تتعلّق تارة بوجود المسبِّبات غِبَّ الأسباب، وأُخرى بتحقّقها بلا سبب عادي (قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ): أي سهلٌ لا يشقّ عليّ ذلك، فالله سبحانه لا يمتنع عليه فعل ما يريد خلقه ولا يحتاج في إنشائه إلى الآلات والأدوات والموادّ.

ثمّ إنّه سبحانه ذكر ما يرتّب على هذا المولود من الآثار والحكم:

١. (وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ) برهاناً ساطعاً على قدرة الله تعالى. وهذا يرجع إلى كيفية خلقه من أُمّ بلا سبب طبيعيّ.

٢. (وَرَحْمَةً مِنَّا)للعباد برسالاته التي يبلّغها عن الله تعالى والآيات الجارية على يده. وهذا يرجع إلى وصف المولود.

٣. (وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا) تعلّق به قضاء الله سبحانه. ولعلّ فيه إشارة إلى أنّ الأغراض الإلهية أعظم من أن يحيط بها فهم إنسان.

إلى هنا تمّت الحلقة الأُولى من قصّة مريم، وسيوافيك الكلام في الحلقة الثانية بعد بيان أمرين:

١. ما هو المراد من الرُّوح في قوله: (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا)؟

٢. ما هو المراد من التمثّل في قوله: (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)؟

ما هو المراد من الرّوح؟

أمّا الأوّل: فالظاهر أنّ الرُّوح الذي أرسله الله إليها، هو جبرئيل(عليه السلام)بشهادة أنّه سبحانه سمّاه روحاً في قوله: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ) النحل:١٠٢، وقوله تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ) الشعراء:١٩٣ـ ١٩٤، وسمّاه رسولاً في قوله: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) الحاقة:٤٠. وقد جاء الوصفان: الرُّوح والرسول في المقام: (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا)، (إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ).

تبيين حقيقة التمثُّل

أمّا الثاني: أي واقع التمثّل وحقيقته، فالتمثّل مأخوذ من المثول وهو الوقوف أمام شخص أو شيء كمثول العبد أمام مولاه. وأمّا ما هو المراد به من قوله: (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)، فربما يقال: إنّ جبرئيل(عليه السلام)كان شخصاً عظيماً فكيف صار بدنه في مقدار

جثة الإنسان؟ وأجاب عنه الرازي:أنّه لا يمتنع أن يكون جبرئيل(عليه السلام) له أجزاء أصلية وأجزاء فاضلة، والأجزاء الأصلية قليلة جدّاً، فحينئذ يكون متمكّناً من التشبّه بصورة الإنسان. تفسير الرازي:٢/١٩٧.

إنّ الإشكال والجواب نابعان عن تصوّر غير صحيح في حقيقة التمثل، حيث تصوّر أنّ حقيقته عبارة عن انقلاب الملَك عن واقعه وصيرورته بشراً واقعاً، وعندئذ تأتي مشكلة صيرورة الجسم الكبير جسماً صغيراً، بل حقيقة التمثّل عبارة عن أنّ الله سبحانه أو الملَك يتصرّف في إدراك المتمثَّل له ويرى صورة إنسان وهو يتكلّم معه من دون أن يكون فيه انقلاب وتحوّل عن واقعه، أو دخول وحلول. والآية لا تدلّ على أزيد من أنّ السيدة مريم شاهدت إنساناً سويّاً أمامها، وهو يتحقّق بالتصرّف في إدراك الإنسان ليرى صورة إنسان سويّ أمامه ويتكلّم كتكلّم الإنسان الطبيعي.

وبهذا يمكن تفسير نزول الملائكة في قصة تمثّلهم لإبراهيم ولوط في صورة الإنسان. الميزان في تفسير القرآن: ١٤ / ٣٦ ـ ٣٧. بتصرّف وتلخيص.

الآيات: الثانية والعشرون إلى السادسة والعشرين(فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا.... فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا).

(فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا).

المفردات

فانتبذت: النَّبْذ ـ كما مرّ ـ هو الرمي، وأُريد تَركُ المَحلّ بسرعة.

قصيّاً: المكان البعيد، أي بعيداً عن مكان أهلها. واحتمال أنّها خرجت إلى البلاد المصرية فارّة من قومها بعيد جدّاً، كيف وهي وحدها ليس معها أحد والمسافة غير قليلة؟!

فأجاءها: ألجأها.

المخاض: وجع الحمل عند تحرّك الجنين للخروج.

نَسْياً: النسي: الشيء الحقير الذي من شأنه أن يُنسى ولا يذكر، وكأنّه مبالغة في النسيان.

سَرِيّاً: السَّرِيّ: النهر الصغير.

هزِّي: الهزّ: تحريك الشيء.

تُساقط: تُسقط.

بِجِذع: الجِذْع: ساق النخلة.

جنيّاً: صالحاً للاجتناء.

صوماً: صمتاً وإمساكاً عن الكلام فقط لا عن الطعام والشراب، بشهادة أكلها وشربها في نفس اليوم، اللّهم إلاّ أن يكون اليومان متعدّداً.

قرّي: من قرّ يقرّ، يقال: قرّ في مكانه إذا ثبت ثبوتاً، وهو كناية عن المسرّة، يقال: أقرّ الله عينك، أي سرّك.

التفسير

الحلقة الثانية: حمل مريم ومخاضها

هذه هي الحلقة الثانية من حياة مريم العذراء، حيث إنّها لمّا أحسّت بالحمل وتحرّك الجنين في أحشائها للخروج، اعتزلت عن

الناس وتركت مكانها الشرقيّ وغادرته إلى مكان قصيّ بعيد وانفردت به. وعلى هذا فحَبلها كان في مكان شرقيّ قريب، ووضعها للولد في مكان بعيد، يقول سبحانه:

٢٢. (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا):

قوله:(فَحَمَلَتْهُ): أي حملت ما وهب لها رسول ربّها (فَانْتَبَذَتْ بِهِ): أي اعتزلت بسرعة بالذي حملت به (مَكَانًا قَصِيًّا): أي بعيداً، حياءً وخوفاً من أن تُتّهم في عفّتها وشرفها.

وهذا المكان القصيّ الذي وُلد فيه عيسى(عليه السلام)، يراد به، كما في التاريخ المسيحي، بيتَ لحم. انظر: إنجيل متّى، الإصحاح٢، وإنجيل لوقا، الإصحاح ٢ (الميلاد).وهي تقع على بُعد حوالي (٨كم) جنوبيّ القدس.

وأمّا كيفية حملها فربّما يقال إنّ جبرئيل نفخ في كمّها، وقيل غير ذلك. وأمّا مدّة حملها ففيه اختلاف كثير، فقيل: ساعة واحدة، وقيل: تسع ساعات وقيل: ستة أشهر. وبما أنّ القرآن سكت عن كيفية الحمل ومدّته فلنسكت عنهما. والذي يمكن استظهاره من الآية هو قلّة الفاصل الزماني بين الحمل والولادة، وذلك بوجهين:

الأوّل: قوله: (فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا) لأنّ الفاء في قوله: (فَانْتَبَذَتْ) يدلّ على عدم الفصل الزماني بين كونها حاملاً والخروج إلى مكان قصيّ، وإلاّ كان اللازم أن يقول: ثمّ انتبذت.

الثاني: ما يستفاد من الآية التالية:

٢٣. (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا):

قوله تعالى: (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ): أي ألجأها وجع الولادة وألم الطّلْق (إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ) لتتّخذه سناداً، ولظهرها عماداً.

إنّ عطف الأفعال الثلاثة: «حملته»، «انتبذت»، «أجاءها» كلّها بالفاء، يدلّ على تسلسل هذه الأُمور بلا فصل بيّن، فلم يكن حملها ووضعها كسائر المواليد. وفي «مجمع البيان»: كانت مدّة حملها تسع ساعات، وهذا مرويّ عن أبي عبد الله(عليه السلام). مجمع البيان: ٦ / ٤١٧.

ويؤيّد ما ذكرنا دراسة القصّة من أوّلها إلى آخرها، إذ لو كان حملها ووضعها كسائر المواليد فهاهنا صورتان:

الأُولى: أنّها ـ سلام الله عليها ـ عاشت تلك الفترة غائبة عن قومها وعشيرتها. وهذا ما لا يمكن تصديقه، إذ كيف يمكن افتراض غيبتها عن قومها ولم يكن هناك لقومها أي تفحّص وبحث عن مكانها مع أنّها الدرّة الطاهرة بين بني إسرائيل؟ فهل يمكن تصوّر عدم تحرّي الأحبار عن غيبتها ومكانها؟!

الثانية: أنّها عاشت تلك الفترة بين ظهرانيهم. وهذا أيضاً بعيد مثل ما تقدّم، لأنّ علائم الحمل تظهر بعد ثلاثة شهور، وحينئذ تثير حالتها الخاصّة وتتعرّض للمساءلة من قومها، مع أنّ ظاهر القصّة أنّ السؤال والجواب لم يكن إلاّ في مدّة قصيرة، بل في يوم واحد.

ويؤيّد ما ذكرنا من كون مدّة الحمل قصيرة، قوله سبحانه: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَاب ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) آل عمران:٥٩، ومطلق المماثلة يقتضي كون مدّة الحمل قصيرة، كما هي الحال في خلق آدم، حيث (قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).

وعلى كلّ تقدير، ألجأها المخاض إلى جذع النخلة حتى تستند إليه وتضع ولدها، وفي هذه الحالة غمر وجودها تيار من الغمّ والحزن، وأحسّت أنّ اللحظة التي كانت تخشاها قد حانت، وستتوجه إليها سيول الاتّهامات من الناس، فأثقلت تلك الهموم كاهلها وتمنّت و (قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا) تمنّت الموت أو شيئاً لا يؤبه به استحياءً من الناس من أن يظنّوا بها سوءاً. روي عن الصادق(عليه السلام): «أنّها لم تر في قومها رشيداً ذا فراسة ينزّهها من السوء ويؤمن بمقالتها». مجمع البيان:٦/٤٧٧.

فحقّ لها أن تقول: (يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا).

نعم إنّ هذه الحالة لم تدم طويلاً، فالله سبحانه رفع عنها الغمّ، إذ سمعت فجأة نداءً ملؤه الرجاء والسُّرور، وهذا هو الذي تتحدّث عنه الآية التالية:

٢٤. (فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا):

مَن هو المنادي؟ هل هو وليدها، أو الرُّوح الأمين؟ يؤيّد الأوّل قوله: (فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا)، حيث يفيد هذا القَيْد (مِنْ تَحْتِهَا) أنّه ناداها عند وضعه قبل أن ترفعه، مبادرَة للتسلية والبشارة، وتصويراً لتلك الحالة التي هي حالة تمام اتّصال الصبيّ بأُمّه. التحرير والتنوير:٢٦/١٦. وقيل: إنّ الرُّوح الأمين كان حين الوضع في أكمة، وكان واقفاً من تحت الأكمة، فناداها من تحتها، والأوّل أظهر.

ثمّ إنّ المنادي ناداها بنداءات ثلاثة:

نداءات ثلاثة توجهت إلى مريم

١. (أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا): أي لا تغتمّي لهذا الأمر، فقد أجرى ربّك تحت قدميك نهراً صغيراً.

٢٥. (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا):

٢. هذا هو النداء الثاني، حيث وجّه نظرها إلى الأعلى، على خلاف النداء الأوّل الذي توجّه فيه نظرها إلى الأسفل، فغمرتها النِّعم من تحتها بوجود العين الجارية لتغتسل وتغسل ولدها، ومن أعلاها إلى الجذع اليابس الذي يفقد الحياة والتمر، فلو هزّته لاجتنت منه غذاءً طيّباً كما قال: (وَهُزِّي إِلَيْكِ): أي حرّكي (بِجِذْعِ النَّخْلَةِ)فإذا هي (تُسَاقِطْ): أي يتساقط (عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) صالحاً للاجتناء، فالماء الجاري تحت رجليها، والرطب الجنيّ فوق رأسها كلّ ذلك لرفع حاجتها، فالنفساء تحتاج إلى الاغتسال عن الدم وإلى التغذية بمادّة سكّرية. يحتوي التمر على نسبة عالية من السكريات تزيد على ٨٥٪ من وزنه الجاف، كما يحتوي على كميات من الأملاح المعدنية والعناصر النادرة، حتى أطلق عليه لقب منجم لغناه بالمعادن. فتناول (١٠٠غم) من التمر يمدّ جسم الإنسان بكامل احتياجاته من كلٍّ من المغنيسيوم والمنغنيز والنحاس والكبريت، وبنصف احتياجاته من الحديد، وربع احتياجاته من كلٍّ من الكالسيوم والبوتاسيوم.انظر: الموسوعة العربية العالمية:١٨٩/٧.وأمّا النداء الثالث الذي رفع به قلقها واضطرابها عند لقاء القوم، فسيوافيك عند تفسير الآية التالية.

قال الطبرسي: إنّ الجذع كان يابساً لا ثمر عليه، إذ لو كان عليه ثمر لهزّته من غير أن تؤمر بذلك، وكان في الشتاء فصار معجزة بخروج الرطب في غير أوانه وبخروجه دفعة واحدة، فإنّ العادة أن يكون التمر نَوْراً أولاً ثم يصير بَلَحاً ثم بُسْراً ثم رطباً. وبذلك أتمّ الله نعمته على أمته الصالحة في حملها ومخاضها ووضعها وإروائها من جدول ماء أُجري تحت قدميها، وإطعامها من ثمرة طيّبة في غير فصلها. مجمع البيان:٤٧٨/٦.

٢٦. (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا):

فهذه الخطابات الثلاثة أعني قوله: فكلي، واشربي، وقرّي، ليس شيئاً جديداً بل هي عصارة للخطابين السابقين. وحاصل الآية: أنت بين عيش رغيد (فَكُلِي) من الرطب الجنيّ، (وَاشْرَبِي) من العين الجارية، (وَقَرِّي عَيْنًا) وطيبي نفساً، ولتقرّ عينك بهذا الولد الذي ترَين.

إلى هنا تمّت نعم الله سبحانه في حقّ السيدة مريم العذراء، بقي هنا شيء وهو قلقها واضطرابها من الولد الذي تحمله إلى قومها، وهذا هو الذي عالجه النداء الثالث.

٣. (فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا): أي إنّك لا تحتاجين للدفاع عن نفسك، فإنّ هناك مَن يدافع عنك ويثبت بوضوح طهارتك من الدَّنَس وعصمتك من الذنب. وأمّا طريق الدفاع فهو: (فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا): أي إذا رأيت أحداً يسألك عن ولدِكِ فعليكِ أن لا تجيبيه إلاّ (فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـنِ صَوْمًا): أي نذرت صوم الصمت.

وطبع الحال يقتضي أنّها نذرت بعد الأمر (قُولِي) صوم الصمت (فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا). ومن المعلوم أنّ سكوتها وصومها عن الكلام لا يدفع عنها سهام التُّهم التي يرشقها بعض أقوامها بها، فلابدّ إذاً أن يكون هناك عامل آخر يثبت طهارتها من الذنب، وهذا هو الذي يأتي في الحلقة الثالثة من قصّتها.

الآيات: السابعة والعشرون إلى السابعة والثلاثين(فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا.... مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ).

(فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ).

المفردات

فَرِيّاً: أمراً شنيعاً بذيئاً. وقيل: أمراً قبيحاً منكراً، من الافتراء وهو الكذب.

المهد: الموضع الذي يُهيّأ للصبيّ ويوطّأ له.

الكتاب: الإنجيل.

مباركاً: نفّاعاً للناس.

جبّاراً: الجبّار: المتكبّر العاتي، لا يرى لأحد عليه حقّاً.

شَقِيّاً: الشقيّ: ضدّ السعيد. قال الراغب: إنّ السعادة في الأصل ضربان: سعادة أُخروية، وسعادة دنيوية. المفردات للراغب: ٢٦٤، مادة «شقا» أمّا الأُولى فهي ثلاثة أضرب: سعادة نفسية، وبدنية، وخارجية. كذلك الشقاوة على هذه الأضرب. والأَولى أن يفسّر السعيد بمن تكون حياته حياة مرضية، والشقيّ من تكون حياته كدرة ومؤلمة.

السلام: أي السلام من الله، وهو تكريم الله سبحانه عبده.

التفسير

الحلقة الثالثة من قصة مريم(عليها السلام)

٢٧. (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا):

عودتها إلى قومها

أدام الله تعالى نعمته على مريم العذراء بأن رفع عنها معاناة التفكير في الموقف الذي ينبغي أن تتّخذه إزاء قومها في أمرها وأمر ولدها، وكيف تقنعهم بأنّها حملته من دون أن يمسّها بشر، وأنّ ولدها آية معجزة من الحكيم القدير، ولذلك نقرأ في الآيات التالية أنّها حملت ولدها الى قومها من دون اضطراب.

دلت «الفاء» في قوله سبحانه: (فَأَتَتْ بِهِ) أنّها بعد ما كلّمها ابنها لقوله تعالى:(فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا) فضمير الفاعل يرجع للمولود، ويؤيّده هذا التقييد (مِنْ تَحْتِهَا) فإنّه أنسب لحاله عند وضعه.بالخطابات الستة (أَلَّا تَحْزَنِي)و (هُزِّي)و (كُلِي)و(اشْرَبِي) و (قَرِّي)و (فَقُولِي)، أنّها حملت ولدها بعد تلك الخطابات إلى قومها من دون تأخير، خلافاً لما في إنجيل «لوقا» أنّها بقيت في (بيت لحم) إلى انتهاء واحد وأربعين يوماً انظر: إنجيل لوقا، فقرة (تقدمة يسوع لله)، وهو كماترى، إذ من البعيد أن تبقى الدرّة الطاهرة في ذاك المحلّ دون أن يطّلع عليها أحد، ودون أن يبحثوا عنها، إذ لم تكن من الجواري المغمورات اللاّتي لا يعتدّ بغيبتهنّ. وعلى كلّ حال، جاءت مريم العذراء بولدها

في حال (تَحْمِلُهُ) معلنة به غير ساترة، حيث اطمأنّت أنّها عطيّة ربّانية، فهو يذود عنها ويحفظ كرامتها، وعندئذ واجهت أسئلة لاذعة من قومها (قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا)شنيعاً ومنكراً.

٢٨. (يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا):

إيكال التُّهم إلى مريم العذراء

فتارة اتّهموها بالأمر الشنيع (لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا)، وأُخرى شرعوا في التوبيخ قائلين: (يَا أُخْتَ هَارُونَ)ومن كانت أُخته، ليس من شأنها أن تفعل ما فعلتِ (مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ) فقد كان أبوك مثله في العفّة والتُّقى، وقد فعلتِ ما ليس في شأن أبيك (وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا) ولم تكن أُمّك امرأة سوء، فعملك هذا شنيع من جانب، ودون شأن والديك.

ثمّ إنّ المفسّرين اختلفوا في تفسير كونها أُخت هارون، على أقوال:

أحدها: أنّ هارون هذا كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل ينسب إليه كلّ من عرف بالصلاح. عن ابن عباس وقتادة وكعب وابن زيد والمغيرة بن شعبة يرفعه إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، فقولهم: (يَا أُخْتَ هَارُونَ) معناه: يا شبيهة هارون في الصلاح، ما كان هذا معروفاً منك.

وثانيها: أنّ هارون كان أخاها لأبيها ليس من أُمّها، وكان معروفاً بحسن الطريقة. عن الكلبي.

وثالثها: أنّه هارون أخو موسى(عليهما السلام) فنُسبت إليه لأنّها من ولده، كما يقال: يا أخا تميم مجمع البيان:٦/٤٧٩، أي واحداً منهم.

ويؤيّد بعض هذه الوجوه ما رواه السيوطي عن عدّة من المحدّثين عن المغيرة بن شعبة، قال: بعثني رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أهل نجران فقالوا: أرأيت ما تقرأون يا أُخت هارون، وموسى قبل عيسى بكذا و كذا؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله؛ فقال: «ألا أخبرتهم أنّهم كانوا يسمّون بالأنبياء والصالحين قبلهم». تفسير الدر المنثور: ٥/٥٠٧.

وحاصل كلامهم: إنّ في ناموس الطبيعة أنّ الولد يتبع والديه في سلوكه وحياته، ومن هنا أخذوا يذكّرونها بأصلها الطيِّب فقالوا معيّرين إيّاها بإتيان هذه الفعلة الشنعاء التي لا تصدر عن سلسلة الطاهرين.

ولمّا أراد القوم الاسترسال في التوبيخ وإيكال التهم، قطعت السيدة مريم(عليها السلام) عليهم كلامهم، وحالت بينهم وبين ما أرادوا، وذلك بالإشارة إلى ولدها وأنّ في إمكانهم أن يسألوه عن حقيقة الحال.

٢٩. (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا):

امتثلت (عليها السلام) ما أمرها الله سبحانه به وهو عدم التكلّم مع القوم، واكتفت بالإشارة إلى الرضيع (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ) ليسألوه عن حقيقة الأمر!! فظنّوا أنّها تهزأ بهم، فاعترضوا عليها و(قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا): أي أمرُكِ بسؤالنا إيّاه أمر عجيب غير محقّق، إذ لم يعهد تكلّم الصبيّ وهو في المهد. ثمّ إنّ لفظة (كَانَ)في الآية ليست زائدة بل هي منعزلة عن الدلالة على الزمان لما في الكلام من معنى الشرط والجزاء، فإنّها في معنى مَن كان صبيّاً لا يمكن تكليمه. والغاية بيان الملازمة بين الشرط والجزاء سواء أكان في الماضي أو الحال. ثمّ إنّ المراد من المهد فراش الصبيّ وما يمهَّد لوضعه، سواء أكان سريراً أو كان محلاًّ لوضعه فيه، مثل كونه ملفوفاً بالقِماط وموضوعاً في مكان خاصّ من البيت .

ومهما يكن، ففي هذا الموقف العصيب لأُمّه البتول انطلق الصبيّ يكسر حاجز الصمت ويهدم جدران السكوت بكلمات قدسية عرّف فيها نفسه بأجلى بيان، ولم يُبقِ لقائل كلاماً... عرّفها بتعابير سبعة كلٍّ يكرس موقعه وموقع رسالته وطهارة أُمّه، وبذلك سدّ الباب في وجه كلّ غلوّ يتصوّر فيه وفي أُمّه، أو كلّ تفريط يُنسب إليهما، وبهذه الخطابات تجلّى مفاد قوله: (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً) المؤمنون:٥٠، حيث يعترف بعبوديّته لله، وأنّه ابن الإنسان، وأنّه لا صلة بينه وبين الله سوى كونه ربّاً وهو له عبد. وإليك

بيانات الصبيّ المتكلّم بأمر من الله.

٣٠. (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا):

تكلّم المسيح في المهد دفاعاً عن أُمّه

كشف(عليه السلام) في هذه الآية عن حقيقته بالأُمور التالية:

١. (إِنِّي عَبْدُ اللهِ) ابتدأ بالإعلان عن عبوديته لله تعالى، ليدحض عقيدة الغلاة من النصارى الذين زعموا فيما بعد أنّه ابن الله. فأين خرافة التثليث من الأب والابن وروح القدس؟! أين خرافة الأبوة والبنوّة للمسيح، من الاعتراف بالعبودية: (إِنِّي عَبْدُ اللهِ)؟

٢. (آتَانِيَ الْكِتَابَ) وهو الإنجيل. ولعلّ التعبير بالماضي لأجل كونه أمراً متيقّناً وأنّه سوف يؤتى الكتاب. انظر: الميزان في تفسير القرآن:١٤/٤٦.

٣. (وَجَعَلَنِي نَبِيًّا) إعلام بنبوّته. ولم يقل رسولاً، وإنّما آتاه الله الكتاب والنبوّة، إذ الرسالة عبارة عن تحمّل النبيّ هداية الناس إلى الشريعة الإلهية، وقد تلبّس بها بعدما أصبح شابّاً.

٣١. (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا):

٤. (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا): أي محلاً لكلّ بركة، والبركة نماء الخير، والمبارك الذي يُنمي الخير به، وكان(عليه السلام) نفّاعاً للناس، ولذا وصف بالمبارك، فصار معلّماً ومؤدّباً.

٥. (وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ) مشيراً إلى تشريعهما في شريعته. والصلاة هي صلة الإنسان بالله سبحانه، والزكاة صلته بالناس، وقد تقارن ذكر الصلاة والزكاة في القرآن الكريم في نيف وعشرين مورداً، وهذا يدلّ على وحدة الشرائع السماوية جوهراً وإن اختلفت شكلاً. وأمّا كيفية العبادتين فربّما تختلف مع ما في الشريعة الإسلامية.

٣٢. (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا):

٦. (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي): أي وجعلني مطيعاً محسناً لها. وأين هذا ممّا جاء في إنجيل مرقس: إذ كان يكلّم تلاميذه وجاء حينئذ إخوته وأُمّه ووقفوا خارجاً وأرسلوا إليه يدعونه، وكان الجمع جالساً حوله فقالوا: هو ذا أُمُّك وإخوتك يطلبونك، فأجابهم قائلاً: مَن أُمّي وإخوتي؟! ثم نظر إلى الجالسين ها أُمّي وإخوتي لأنّ من يصنع مشيئة الله هو أُختي وأُمّي». إنجيل مرقس: ٣ / ٣١.

وفي إنجيل لوقا: «أُمّي وإخوتي هم الذين يسمعون كلام الله فيعملون بها». إنجيل لوقا: ٨ / ٣١.

٧. (وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا): أي متكبّراً مستعلياً على الناس يحملهم على ما يريد ولا يتحمّل منهم، ولم يجعلني شقيّاً بالنسبة إلى سائر الناس.

٣٣. (وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا):

هذه التسليمات الثلاث أجراها الله سبحانه على لسانه ليعلموا أنّه محلّ عناية ربّه تعالى. وعلى هذا فاللاّم في السلام إشارة إلى سلام الله، وفيه إيذان لما ستقوم به اليهود إذ طعنوا فيه في الأحوال الثلاثة فقالوا: وُلد من زنا، وقالوا: مات مصلوباً، وقالوا: يحشر مع الملاحدة والكفرة لأنّه في زعمهم كفر بأحكام التوراة.

٣٤. (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ):

قوله: (ذَلِكَ) إشارة إلى ما مرّ من بدء القصة إلى ختامها ومن ولادته إلى ما وصف به نفسه، فما ذكر هو واقع (عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ) وحقيقته، وأكّد هذا المعنى بقوله: (قَوْلَ الْحَقِّ): أي أقول ذلك قول الصدق، فهو مفعول لفعل محذوف، أي أقول قول الحقّ(الذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ): أي يتنازعون أو يشكّون.

هذا، ومع أنّ معجزة كلام عيسى(عليه السلام) في طفولته المبكّرة لم ترد في الأناجيل الأربعة المتداولة إلاّ أنّ بعض الباحثين ذكر أنّها واردة في بعض الأناجيل، ذكر ذلك «فيليب حتّي» في كتابه «تاريخ العرب» المترجم إلى العربية، ص ٩٥، وذكره أيضاً «طاهر التنير» في كتابه «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية: ص ١٤١». وممّا ذكره هذا اسم إنجيلين، هما: إنجيل الطفولة، وإنجيل ولادة عيسى، وقال: إنّهما ذكرا خبر كلام عيسى حين ولادته. انظر: التفسير الحديث لدَرْوزة:١٥٣/٣.

٣٥. (مَا كَانَ لِلهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ):

تنزيهه سبحانه عن اتّخاذ الولد

الآية إبطال لقول النصارى ببنوّة عيسى، وتتضمّن برهانين:

الأوّل: أنّ الغاية من اتّخاذ الولد هو الاستعانة به في قضاء الحوائج، والله سبحانه غنيٌّ عن ذلك. وإليه يشير بقوله: (مَا كَانَ لِلهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ): أي هو منزّه عن الفقر والعجز.

الثاني: أنّ الولد عبارة عن عزل جزء من وجود الأب يعزل ويربّى تدريجاً حتى يكون ولداً، والله سبحانه أعلى وأنبل من ذلك، فإنّه إذا أراد شيئاً خاطبه بقوله: (كُنْ فَيَكُون) بلا تريّث وإمهال. ولعلّه إلى ذلك يشير بقوله: (إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)، وحاصل الكلام: إنّ اتّخاذ الولد لا يناسب قداسة الله سبحانه من جهات شتّى:

١. إذ الولد الحقيقي فرع كون الوالد جسمانياً، ينشأ وجود الولد من وجوده.

٢. أنّ اتّخاذ الولد لرفع الحاجة، والله غنيّ بالذات.

٣. أنّ اتّخاذ الولد يلازم المحدودية، إلى غير ذلك من التوالي، فالله سبحانه في حاكميّته أجلّ من ذلك كلّه.

٣٦ و ٣٧. (وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ):

قوله: (وَإِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ) هل هو من كلام الله سبحانه أمر به النبيّ أن يقوله، أو هو من قول عيسى(عليه السلام)عطف على قوله: (إِنِّي عَبْدُ اللهِ)؟ الظاهر هو الثاني لوجهين:

الأوّل: لورود الآيتين في سورة الزخرف كما قال سبحانه: (إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ). الزخرف: ٦٤ ـ ٦٥.

الثاني: لورود الآية الأُولى من سورة آل عمران، أعني قوله: (فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) آل عمران: ٥١.. ولعلّ الغاية من التصريح بكونه سبحانه «ربّهم» كما هو «ربّي»، كونه حجّة على الحواريّين وغيرهم ممّن يؤمنون به.

وحاصل الآية: إنّ الخالق هو الربّ، فبما أنّه سبحانه خالق الجميع فهو ربّ الجميع كما قال: (إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ) ثم عطف عليه قوله: (فَاعْبُدُوهُ) شكراً لنعمه، (هَذَا) أي التوحيد في الربوبية والتوحيد في العبادة (صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)، فمَن عدل عن أيّ واحد من المجالين، فقد عدل عن الصراط المستقيم.

إلى هنا تمّ ما تكلّم به عيسى(عليه السلام) في المهد. ولازم التصريح بعبوديته(عليه السلام) ألاّ يختلف فيه أحد بعده، ولكنّهم يا للأسف اختلفوا إلى فرق شتّى كما يقول سبحانه:(فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ) أُريد أحزاب النصارى، وظهور الاختلاف يدلّ على أنّهم كانوا متّفقين على قول واحد في عصر من العصور، ثمّ تسرّب الاختلاف إلى أعقابهم، أمّا فرقهم فكثيرة :

فرق النصارى البائدة والقائمة

قال الشهرستاني: ثم افترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة، وكبار فرقهم ثلاثة: المَلْكانية، والنسطورية واليعقوبية،وانشعبت منها: الإليانية، والبليارسية، والمقدانوسية، والسبالية، والبوطينوسية، والبولية، إلى سائر الفرق.

ثمّ إنّه فصّل في عقائد بعض هذه الفرق فمن أراد التفصيل فيرجع إليه. لاحظ : الملل والنحل: ٢ / ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

ولكنّ الموجود من هذه الفرق التي تنتمي إليها الأكثرية الساحقة هي ثلاثة:

١. المَلْكانِيّة: وهم الكاثوليك.

٢. اليعقوبية: وهم الأُرثوذوكس.

٣. الاعتراضية: وهم البروتستانت. والفرقة الأخيرة هي التي أوجدها مارتن لوثر(المتوفّى ١٥٤٦م) في ألمانيا، فقد أنكر كثيراً من المراسم، ومع ذلك فجميع النّصارى، مع تشتّت مذاهبهم، يتّفقون على بنوّة المسيح(عليه السلام).

ثمّ إنّه سبحانه يهدّد هؤلاء الذين عدلوا عن الصراط المستقيم فيقول:(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) قوله: (وَيْلٌ) كلمة تهديد للذين كفروا، وأمّا ما هو المهدّد به فهذا ما يشير إليه بقوله: (مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ): أي من شهود يوم عظيم أهواله.

إلى هنا تمّ ذكر قصّة مريم وقصّة ولدها وما تكلّم به وهو في المهد مصرّحاً بعبوديّته لله تعالى وبالتوحيد في الربوبيّة والعبادة، غير أنّ الأحزاب اختلفوا بعد رفعه(عليه السلام).

عبر وعظات

بقي هنا شيء آخر وهو تبيين العبر والعظات وما يتّصل بها من تلك القصّة، وهي كالتالي:

الأُولى: الولادة المعجزة

إنّ ولادة المسيح(عليه السلام) كانت ولادة خارقة للعادة، إذ جرت العادة على تولّد كلّ إنسان من نطفة أمشاج مؤلّفة من حيمن الرجل وبويضة المرأة، غير أنّ حساب الإعجاز يغاير القانون العادي، فالمعجزة عبارة عن خرق القوانين الطبيعية وتحقّق الشيء بدون سبب من أسبابها، فمن أنكر ذلك فقد أنكر قدرة الله سبحانه وخلط بين أمرين: محال عادي، ومحال عقلي. وتولّد الإنسان من دون لقاح، محال عادي وليس بمحال عقلي، كمثل إدخال الجسم الكبير في جوف الجسم الصغير مع الاحتفاظ بحجميهما (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) الأنعام:٩١..

الثانية: الفرج بعد الشدّة

عند تراكم المحن وتكاثر الغصص تنفتح أبواب الرجاء والنجاة للمؤمنين، وقد تجلّى ما ذكرنا في حياة مريم، حيث إنّها بعد ما تعرّضت لتلك المواقف الصّعبة، انتابها قلق شديد، وتملّكتها الحَيْرة في كيفية مواجهة قومها عندما تحمل عيسى إليهم، إذ لا يمكن إقناعهم بأيّ دليل وبرهان بأنّه وُلد من غير أب، وهنا ـ في هذا الظرف العصيب ـ امتدّت يد الرحمة إلى تلك المرأة القانتة لله، الدائبة على طاعته، لتنقذها من محنتها، إذ أنطق سبحانه مَن يدافع عنها بأفضل البراهين، ذلك هو وليدها الذي يرقد في المهد، حيث انبرى قائلاً: إنّي عبد الله، فهذه الهديّة الربّانية كشفت تراكمَ المحن والغصص عن وجهها القدسيّ.

الثالثة: الأمر بهزّ النخلة

إنّه سبحانه هيّأ كلّ ما تحتاج إليه مريم العذراء عند الولادة حتى أنّ الشجرة اليابسة أثمرت بأمره سبحانه، ولكنّه أمرها بتحريك النخلة لتستفيد من ثمرها، وبذلك أعطى سبحانه درساً تربوياً لها ولعامّة الناس، وهو ألاّ يترك الإنسان السعيَ وهو في أشدّ الحالات وأصعب الأوقات، وأن لا يَكِل كلّ الأُمور إلى الله ويجلس في زاوية البيت منتظراً حكم القضاء والقدر.

وهذا المعنى استلهمه بعض الشعراء، فنظمه في هذين البيتين:

ألم ترَ أنّ اللهَ أوحى لمريم *** وهُزّي إليك الجذعَ يَسّاقطِ الرُّطَبُ

ولو شاء أحنى الجذعَ من غير هزِّه *** إليها، ولكن كلُّ شيءٍ له سَبَبُ

الرابعة: اجتناء الرُّطب

يستفاد من عدد من الروايات أنّ الرُّطب من أفضل الأغذية للنساء بعد وضع الحمل، فقد روى الكليني بسند رفعه إلى أمير المؤمنين(عليه السلام) قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«ليكن أوّل ما تأكل النفساء الرُّطب، فإنّ الله تعالى قال لمريم(عليها السلام):(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) قيل: يا رسول الله فإن لم يكن أوان (إبّان) الرُّطب؟ قال: سبع تمرات من تمر المدينة، فإن لم يكن فسبع تمرات من تمر أمصاركم، فإنّ الله عزّ وجلّ يقول: وعزّتي وجلالي وعظمتي وارتفاع مكاني لا تأكل النفساء يوم تلد الرطب فيكون غلاماً إلاّ كان حليماً، وإن كانت جارية كانت حليمة». الكافي: ٢٢/٦، كتاب العقيقة، رقم الرواية ٤؛ نور الثقلين:٣٣٠/٣ برقم٥١.

وفي «مجمع البيان» وقال الباقر(عليه السلام):«لم تستشف النفساء بمثل الرُّطب إنّ الله أطعمه مريم». مجمع البيان:٤٧٧/٣.

الخامسة: صوم الصمت

إنّه سبحانه أمرها بصوم الصمت، بأن تقول للقوم عند الجدال:(إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَـٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) مريم:٢٦. وحقيقته أن يمتنع الإنسان عن الكلام في المدّة المحدّدة. ويظهر من الآية أنّه كان أمراً معروفاً لدى المجتمع.

نعم هو ممنوع في الشريعة الإسلامية، فقد روى زُرارة عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام) في حديث: «ولا صمت يوماً إلى الليل».

وفي رواية أُخرى: «وصوم الصمت حرام»، إلى غير ذلك من الروايات. لاحظ: الوسائل: ١٠، الباب٥ من أبواب الصوم المحرّم والمكروه، الحديث١ و٢.

ولا إشكال في ذلك، لإمكان اختلاف الأحكام لاختلاف الظروف.

السادسة: البِرّ بالأُمّ

إنّ الوليد (المسيح) وصف نفسه بصفات منها قوله:(وَبَرًّا بِوَالِدَتِي)وكأنّ البرَّ بالوالدة من المميّزات الرسالية، وفي نفس الوقت هو من النواميس العامّة. وعلى كلّ تقدير فالإظهار بهذه المزيّة يدلّ على أنّ البرَّ بالوالدة في درجة إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. وفي الروايات الإسلامية تحريض على تكريم الأُمّ بوجه معجب، وقد عقد الشيخ الحرّ العاملي باباً تحت عنوان: «استحباب الزيادة في برّ الأُمّ على برّ الأب» ونكتفي هنا بنقل روايتين:

١. روى الكليني بسند صحيح عن أبي عبد الله[الصادق(عليه السلام)] قال: «جاء رجل إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: يا رسول الله مَن أبرُّ؟ قال: أُمّك، قال: ثم مَن؟ قال: أُمّك، قال: ثمّ مَن؟ قال: أُمّك. قال: ثم مَن؟ قال: أباك». الوسائل: ٢١، الباب ٩٤ من أبواب أحكام الأولاد، الحديث ١.

٢. وروى الصدوق في «الأمالي» عن أبي جعفر[الباقر(عليه السلام)] قال: قال موسى بن عمران(عليه السلام): يا ربّ أوصني، قال: أُوصيك(بك ثلاث مرات) قال: يا ربّ أوصني، قال: أُوصيك بأُمّك مرّتين، قال: يا ربّ أوصني، قال: أُوصيك بأبيك، فكان لأجل ذلك يقال: إنّ للأُمّ ثلثي البِرّ، وللأب الثلث». الوسائل: ٢١، الباب ٩٤ من أبواب أحكام الأولاد، الحديث٤.

الآيات: الثامنة والثلاثون إلى الأربعين(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا.... وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ).

(أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا

يُؤْمِنُونَ * إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ).

المفردات

أسمعْ بهم وأبصرْ: هما صيغتا تعجّب، وهو تعجّب على لسان الرسول أو المؤمنين، والمعنى: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم، وفيه تهديد ووعيد.

يوم الحسرة: من أسماء يوم القيامة، أي يوم الندامة.

قُضيَ الأمر: أي تمّ أمر الله بزجّهم في العذاب.

التفسير

٣٨. (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ):

لمّا كان الانحراف عن أصل التوحيد مبدأً لسائر الانحرافات، وكان انحراف المسيحيّين عنه إلى نسبة اتّخاذ الولد إلى الله سبحانه من أشدّ مظاهر الانحراف، جاء البيان القرآني يهدّدهم ويقول: (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ): أي ما أسمعهم وأبصرهم (يَوْمَ يَأْتُونَنَا) وقد كانوا قبل ذلك صُمّاً وعُمياناً، ولكن حجاب الغفلة سيزول عن أسماعهم وأعينهم فيسمعون ويبصرون ما كانوا في غفلة عنه (لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) ولعلّ اللام في قوله: (اليوم) إشارة إلى الحياة الدنيا، والمعنى مع كون الظالمين أسمع وأبصر يوم القيامة (لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ): أي في الحياة الدنيا (فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) على عكس ما سيكونون عليه يوم القيامة إذ ستزول الحجب عن أسماعهم وعن أعينهم. هذا، ويذهب السيد الطباطبائي إلى أنّ اللام في قوله: (لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ) للعهد الذهني وهو يوم القيامة، ويقول: إنّ هؤلاء قد رسخت فيهم ملكة الضلال في الدنيا، وانقطعوا عن موطن الاختيار بحلول الموت، فليس لهم إلاّ أن يعيشوا مضطرّين على ما هيّأوا لأنفسهم من الضلال، لا معدل عنه، فلا ينفعهم انكشاف الحقّ وظهور الحقيقة. الميزان في تفسير القرآن: ١٤/٥٠.

ويؤيّد قولَه وحدة السياق، حيث تكرر اليوم في نفس الآية مرّتين، وأُريد بالأوّل يوم القيامة فيكون قرينة على أنّه المراد بالثاني، ولكنّ الذي يُبعده أنّه تفسير عرفانيّ دقيق بعيد من الأذهان.

٣٩. (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ):

إنذار بعد إنذار

لقد أمر سبحانه نبيَّه أن ينذر الناس جميعاً ويحذّرهم من يوم يتحسّر فيه الظالمون على ما فرّطوا في جنب الله وقال:(وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ): أي خوّفْهم هَول يوم الندامة الشديدة الباعثة على التلهّف، فهؤلاء يتلهّفون على الفرص التي ضيّعوها، ولم ينتفعوا بها في انتهاج السبيل المؤدّية إلى النجاة والسعادة (إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ) وحُكم على أهل الإيمان والإحسان بالجنّة، وعلى أهل الكفر والعصيان بالنار. وربّما ينادى كلٌّ من الفريقين بالقول التالي «لا خروج من هنا بعد اليوم، ولا موت بعد اليوم». والأسف أنّ الظالمين كانوا في غفلة عن هذا اليوم كما يقول: (وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ) عن ذلك اليوم وأحواله وحسراته، وكانوا لا يصدّقون بيوم القيامة والجزاء والحساب.

٤٠. (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ):

كأنّ الآية تسلية للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بأن لا يحزن لتكذيب الظالمين، فإنّ مرجع الجميع إليه، لماذا؟ لهذه العلّة:(إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ) فالأرض التي كانت تحت تصرّف الناس تَخرج عن أيديهم بعد هلاكهم، ولم يبق إلاّ خالقها، فيعود إليه التصرّف فيها، حيث لا يملكها غيره سبحانه. وهذا معنى (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ)فالأرض تركة هؤلاء الموتى يرثها الله سبحانه.

بقي الكلام في قوله: (وَمَنْ عَلَيْهَا) فماذا يريد من إرث مَن عليها؟ فإنّ الإرث عبارة عن تركة الميّت (وَمَنْ عَلَيْهَا) صاروا موتى لا

تركة حتى يرثهم الله سبحانه ولذلك أوجد عطف (وَمَنْ عَلَيْهَا) على (الْأَرْضَ)إبهاماً في الآية. فالأَولى أن يقال: إنّ المراد من الوراثة هو أنّه سبحانه يميتهم ويخرب ديارهم وأنّه يفني أجسادهم ويفني الأرض ويذهب بها. تفسير الكشّاف: ٢٧٩/٢.

قال السيد الطباطبائي بعد ذكر الإشكال في عطف(وَمَنْ عَلَيْهَا)على (الْأَرْضَ): ويمكن أن نحمل الآية على معنى أدقّ من ذلك، وهو أن يراد أنّ الله سبحانه هو الباقي بعد فناء كلّ شيء فهو الباقي بعد فناء الأرض يملك عنها ما كانت تملكه من الوجود وآثار الوجود، وهو الباقي بعد فناء الإنسان يملك ما كان يملكه كما قصر الملك لنفسه في قوله: (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) غافر: ١٦. وقوله: (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا) مريم: ٨٤ .. ويرجع معنى هذه الوراثة إلى رجوع الكلّ وحشرهم إليه تعالى فيكون قوله: (وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)عطف تفسير وبمنزلة التعليل للجملة الثانية أو لمجموع الجملتين، بتغليب أُولي العقل على غيرهم، أو لبروز كلّ شيء يومئذ أحياء عقلاء. وهذا الوجه أسلم من شبهة التكرار اللازم للوجه الأوّل، فإنّ الكلام عليه نظير أن يقال: ورثت مال زيد وزيداً.

الميزان في تفسير القرآن: ١٤ / ٥١.

ولله دَرُّ الشاعر، حيث يقول:

سَتَدْرُسُ* آثارٌ وتُعقِبُ حسرةً *** ستخلُو قصورٌ شُيِّدتْ وحُصونُ

نَصون فلا نبقى ولا ما نصونُهُ *** ألا إنّنا، للحادثات، نصونُ

وكم عِبرة للناظرين تكشّفتْ *** فخانت عيونَ الناظرين جفونُ

نرى، وكأنّنا لا نرى كلّما نرى *** كأنّ مُنانا للعيون سُجونُ

وكم من عزيز هان من بعد عزّة *** ألا قد يَعِزُّ المرءُ ثم يَهونُ

ألا رُبَّ أسباب إلى الخير سهلة *** وللشرّ أسبابٌ، وهنّ حُزون[1]

*دَرَس: امّحى.

[1] الحزون: جمع حَزْن، وهي الأرض الغليظة الصلبة.

[2] ديوان أبي العتاهية:٣٨١.

الآيات: الحادية والأربعون إلى الخمسين(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ... وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا).

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا *فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا).

المفردات

اذكر في الكتاب: أي اتْلُ (من التلاوة).

صدّيقاً: مبالغة في الصدق، لم يكذب قطّ.

سويّاً: مستقيماً ليس فيه اعوجاج. شبّه الاعتقاد الموصل إلى الحقّ بالطريق المستقيم الموصل إلى المقصود.

وليّاً: الوليّ: الصاحب و التابع، فكنّى بالولاية عن المقارنة في المصير.

أراغب أنت عن آلهتي: أي أكاره أنت لها ومعرض عنها.

لأرجمنّك: الرَّجم: الرمي بالحجارة.

واهجرني: الهَجْر: قطع المعاشرة.

مَليّاً: طويلاً، وهو وصف لموصوف محذوف أي هَجْراً مليّاً.

حَفيّاً: الحَفيّ: الشديد البِرّ والإلطاف، يقال: حَفيَ به إذا اعتنى بإكرامه.

شقيّاً: خائباً في السعي.

لسان صدق: أي ثناء حسناً. قال الشريف الرضي: المراد بذكر اللسان هاهنا ـ والله أعلم ـ الثناء الجميل الباقي في أعقابهم والخالف في آثارهم، والعرب تقول: جاءني لسان فلان، تريد مدحه أو ذمّه، فلمّا كان مصدر المدح والذمّ عن اللسان، عبّروا عنهما باسم اللسان، وإنّما قال سبحانه: (لِسانَ صِدق)إضافة اللسان إلى أفضل حالاته وأشرف متصرّفاته، لأنّ أفضل أحوال اللسان أن يخبر صدقاً أو يقول حقّاً. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١١٤ـ ١١٥.

التفسير

القصّة الثالثة

مناظرة إبراهيم(عليه السلام) مع آزر

إنّ مناظرة إبراهيم(عليه السلام) ـ وهو فتى يافع ـ مع أبيه آزر سوف يوافيك أنّ آزر كان عمّه أو جدّه لأُمّه، ولم يكن أباً حقيقياً. وهو كبير الأُسرة تعدّ من ألطف المناظرات، لأنّها جاءت في إطار خاص استلزم أُسلوباً في الحوار ينسجم مع الإرادة الإلهية من جهة ومع العلاقة الأُسرية والارتباط العاطفي من جهة أُخرى.

ترى أنّه يخاطب رئيس الأُسرة وهو من أشدّ المتشدّدين في الوثنية، مرّة بعد أُخرى ويقول:

١. (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ).

٢. (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ).

٣. (يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ).

٤. (يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَـنِ).

ولمّا عجز آزر عن الحوار معه وردّ الحجج التي يلقيها عليه، هدّده بالهجر، ولكنّ إبراهيم قابله بقوله:

٥. (سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي).

هكذا كانت سيرة الأنبياء يقابلون العتاة الطغاة بألطف العبارات وأعطفها .

إذا عرفت ذلك، فلنشرع في تفسير الآيات:

٤١. (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا):

كانت الوثنية قد غطّت بيئة بابل على نحو كان أقرب الناس إلى إبراهيم(عليه السلام)، وثنياً مدافعاً عنها بشدّة. ولعلّ من سنن الله تبارك وتعالى أن يُخرج داعية التوحيد من وسط أحضان الوثنية، وكان اللازم عليه أن يبدأ بنشر التوحيد في عقر داره، وأن يُرشد إليه أقرب الأفراد المنتمين إليه، وهو أبوه آزر.

ناظر إبراهيم أباه آزر في موقفين:

الأوّل بشكل انفرادي، والثاني بحضور قومه المشركين معه، فالآيات المتقدّمة ناظرة إلى الموقف الأوّل إذ لا نرى فيها ذكراً لقومه.

وقبل أن يبدأ القرآن بذكر الحوار قدّم تعريف إبراهيم ووصْفَه، فقال: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ)وصْف (إِبْرَاهِيمَ) وأنّه كان جامعاً بين أمرين كما يقول:(إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا) لم يكذب قطّ (نَبِيًّا) طرَفاً لكلامه سبحانه ووحيه.

وأين قوله سبحانه:(إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا) لم يكذب قطّ، مع ما نسبه إليه أبو هريرة من أنّه كذب ثلاث كذبات؟! فقد روى مسلم في صحيحه بإسناده عن أبي هريرة أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: لم يكذب إبراهيم النبيّ(عليه السلام)قط إلاّ ثلاث كذبات، ثنتين في ذات الله، قوله: (إِنِّي سَقِيمٌ) الصافات: ٨٩ ، وقوله:(بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُم هذا)(الأنبياء: ٦٣)، وواحدة في شأن سارة... إلى آخر الرواية. صحيح مسلم:٧/٩٨، باب من فضائل إبراهيم الخليل(عليه السلام).

ونحن لا نعلّق على هذه الرواية إذ في متنها ما لا ينسجم مع مقام النبوّة، مع ما في الأُكذوبة الثالثة ممّا لا يصدر عن إنسان مهتمّ بناموسه، فكيف يصدر عن أبي الأنبياء الذي وُصف في القرآن بخمسة عشر وصفاً لم يوصف بها غيره من سائر الأنبياء؟! وإلى الله المشتكى.

٤٢. (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا):

اعتمد إبراهيم في نقد عمل آزر وإثبات بطلانه تارة على إثارة الفطرة، وأُخرى على إثارة العقل بقضايا واضحة تتمثّل بما يلي:

١. أنّ العبادة لغاية التقرّب من المعبود وهو فرع التفاته إلى عمل العابد وعلمه به. ومن المعلوم أنّ الأصنام لا تسمع ولا تبصر، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ) التاء في أبت نابت مناب الياء (لِمَ تَعْبُدُ) وتخضع أمام (مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا).

٤٣. (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا):

٢. أنّ سلوك الطريق الصحيح في العبادة للوصول إلى ساحل النجاة لا يحصل إلاّ من خلال العلم بهذا الشأن، وقد خصّه الله به من دون آزر، ومن هنا كان على آزر أن يتّبعه، ولا يضيق صدره بذلك. وهذا ما خاطب به أباه بقوله: (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ) و اللازم على هذا ما يقول: (فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) معتدلاً موصلاً لك، إلى المقصود المطلوب.

٤٤. (يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَـنِ عَصِيًّا):

٣. أنّ عبادة الأصنام تعبير آخر عن عبادة الشيطان وإطاعته، حيث إنّه يغوي الناس بالأمر بعبادة الأصنام، فعليك ألاّ تتّبع الشيطان كما قال: (يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ) ولا تطعه (إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَـنِ عَصِيًّا): أي عاصياً.

٤٥. (يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَـنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا):

٤. أنّ إبراهيم يخوّف آزر من أن يمسّه عذاب الرحمن بعد ما تبيّن له الحقّ، وأنّ الله هو المستحقّ للعبادة، وأنّ عبادة غيره طاعة للشيطان ودخول في ولايته وخروج عن ولاية الله، كما قال:(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَـنِ): أي من جهته سبحانه لإصرارك على الكفر (فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا): أي تابعاً ولاحقاً بالشيطان باللّعن والخذلان، ومن ثمّ تكون له قريناً في النار.

٤٦. (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا):

بالرّغم من البراهين الواضحة التي ساقها إبراهيم(عليه السلام) في حواره مع أبيه آزر، لكنّ الأب ـ للأسف ـ لم يتأثّر بكلامه بل أصرّ على موقفه وهدّد إبراهيم بالرّجم وأمره بالابتعاد عنه فترة طويلة و:(قَالَ أَرَاغِبٌ): أي أمُعرض (أَنْتَ عَنْ) عبادة (آلِهَتِي) التي هي الأصنام (يَا إِبْرَاهِيمُ)؟ ثم هدّده بقوله: (لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ): أي لم تترك كلامك حول الأصنام (لَأَرْجُمَنَّكَ) بالحجارة (وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا): أي فارقْني دهراً طويلاً. هذا هو منطق ذلك الرجل الطاغي، وأمّا ما هو موقف إبراهيم الحليم فهو ما يذكره سبحانه.

٤٧. (قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا):

لم يقابل إبراهيم هذا الأُسلوب العنيف لأبيه بمثله، بل واجه الموقف انطلاقاً من مسؤوليته كنبيّ واعٍ لدوره، فأظهر المرونة والعطف والرفق به من جهة، حيث (قَالَ) له: (سَلَامٌ عَلَيْكَ) سلام توديع وهجر على ألطف الوجوه (سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي) وهذا أيضاً لطف آخر في مقابل تشدّده (إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا): أي بارّاً لطيفاً رحيماً، وأبدى، من جهة أُخرى، موقفاً صارماً من الآلهة المزيّفة وعَبَدتها، كما يدلّ عليه قوله:

٤٨. (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا):

اعتزال إبراهيم قومه ومغادرته إلى فلسطين

بما أنّه أحسّ أنّ البيئة غير مستعدّة لنشر الدعوة أخبر آزر ومَن على دربه قائلاً: (وَأَعْتَزِلُكُمْ): أي أتنحّى عنكم جانباً، (وَ) أعتزل (مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُوا رَبِّي): أي أعبده وحده تعالى (عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي): أي راجياً أن لا أكون بسبب عبادة ربّي(شَقِيًّا): أي خائباً. وفيه تعريض بعبّاد الآلهة المزعومة بأنّهم أشقياء.

٤٩ . (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا):

لمّا تحدّث إبراهيم (عليه السلام)عن أنّه سوف يعتزل المشركين وآلهتهم المكذوبة، وقال: (اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ) جاء البيان القرآني لتبيين واقع الاعتزال وقال: (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ): أي فارقهم وهاجرهم إلى الأرض المقدّسة فالله سبحانه جزاه بجزاء أوفى وهو أن النبيّ إبراهيم (عليه السلام)لم ينجب إلى يومه هذا فصار جزاؤه ما يقول: (وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ) ولداً (وَيَعْقُوبَ) ولد الولد (وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا)يقتدى به في الدين.

٥٠. (وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا):

قوله تعالى: (وَوَهَبْنَا لَهُمْ): أي لإبراهيم ولولديه إسحاق ويعقوب (مِنْ رَحْمَتِنَا) ما هو المراد من هذه الرحمة وقد جاءت مبهمة وهي غير النبوّة لما مرّ من جعلهم أنبياء؟

يحتمل أن يراد بها نعم الدين والدنيا. وقال السيد الطباطبائي: ولعلّ المراد جعلهم أئمة يهدون بأمر الله، قال سبحانه:(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا). الأنبياء: ٧٢ ـ ٧٣.

قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ): أي جعلنا لهم ثناءً حسناً في الناس (عَلِيًّا) مرتفعاً سائراً في الناس. ويشهد لذلك أنّ أتباع عامّة الشرائع يتولّون إبراهيم وذرّيته ويثنون عليهم ويدّعون أنّهم على دينهم، وقد اشتهرت في أعصارنا الأديان الإبراهيمية مكان الشرائع الإبراهيمية، وكلٌّ يدّعي الانتماء إليه.

يقول الشريف الرضيّ: إضافة اللسان إلى الصدق لأنّه من أفضل حالاته وأشرف متصرّفاته. تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١١٥. بتصرف يسير.

قال أمير المؤمنين(عليه السلام): «أَلاَ وَإِنَّ اللِّسَانَ الصَّالِحَ يَجْعَلُهُ اللهُ تَعَالَى لِلْمَرْءِ فِي النَّاسِ، خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْمَالِ يُورِثُهُ مَنْ لاَ يَحْمَدُهُ». نهج البلاغة: الخطبة ١٢٠.

كلام في أُبوّة آزر

ربّما يتبادر من خطاب إبراهيم(عليه السلام) لآزر بقوله: (يَا أَبَتِ) أنّه كان والده، إذ لا شكّ في أنّه إذا أُطلق الأب يتبادر منه الوالد بالمعنى الحقيقي، ولكن في الآيات الواردة حول استغفار إبراهيم لأبيه آزر دليل قاطع على أنّه لم يكن أباً حقيقياً بل كان من أقربائه. والدليل على ذلك أنّه(عليه السلام) تبرّأ من آزر أيام إقامته في بابل، وهي أيام شبابه كما قال سبحانه:(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ

إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) التوبة:١١٤. هذا من جانب، ومن جانب آخر نجد إبراهيم (عليه السلام)بعد ما طعن في السنّ ورُزق بولدين صالحين أخذ يدعو لوالديه بالمغفرة ويقول: (الْحَمْدُ لِلّهِ الذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)، إبراهيم:٣٩ـ ٤١. ويُفهَم من هذا أنّ المستغفَر له في أيام شيخوخته غير المتبرّأ منه في أيّام شبابه، وعندئذ فالذي سمّي بالأب، هو غير الذي دعا له في أُخريات حياته وسمّاه بالوالد.

وهذه قرينة واضحة على أنّ تسمية آزر بالأب، إنّما هي لوجود صلة قوية بينه وبين إبراهيم(عليه السلام)ككونه عمّه أو جدّه لأُمّه، فقد دعا له بالمغفرة ثم تبرّأ منه. وسيوافيك تفصيل المقام في سورة الممتحنة.

القصة الرابعة

قصة موسى وهارون

الآيات: الحادية والخمسون إلى الثالثة والخمسين(وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى.... أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا).

(وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا).

المفردات

مُخلَصاً: المُخلَص: هو الذي أخلصه الله لنفسه فلا نصيب لغيره تعالى فيه لا في نفسه ولا في عمله وهو أعلى مقامات العبودية. الميزان في تفسير القرآن: ٦٣/١٤.ويمكن أن يقال: إنّه عبارة عمّن خرج عن طاعة النفس والهوى إلى طاعة الله سبحانه تماماً، فالعبد أخلص لله سبحانه والله استخلصه فصار عبداً خالصاً. ولعلّه إلى ذلك يشير قوله سبحانه: (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي) طه:٤١، وفي آية أُخرى: (إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي) الأعراف:١٤٤..

الطُّور: جبل بين بلاد الشام ومصر، ويقال له طور سَيناء.

الأيمن: هل هو صفة الطور أو صفة الجانب؟ لا يظهر من الآية شيء، ولكن يدلّ ما ورد في سورة طه أنّه صفة للجانب قال: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ) طه:٨٠. فكون الأيمن منصوباً دليل على أنّه وصف للجانب المنصوب مثله. قيل:المراد من الجانب الأيمن ناحيته السُّفلى، ووصفه بالأيمن لأنّه الذي على يمين مستقبلي مشرق الشمس، لأنّ جهة مشرق الشمس هي الجهة التي يضبط بها البشر النواحي التحرير والتنوير:٥٥/١٦.

نجيّاً: أي مناجياً مكلّماً لله بلا واسطة.

التفسير

٥١.(وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا):

خصّ سبحانه قصّة موسى بالذكر بعد ذكر قصة إبراهيم وولديه ؛ لأنّه أشرف نبيّ من ذرّية إبراهيم أو من ذرّية إسحاق ويعقوب، ولذلك قال: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ): أي اتلُ في القرآن النبيَّ (مُوسَى). وذكر من صفاته أُموراً ثلاثة:

١. (إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا) وقد مرّ أنّ الفعل (كان) مجرّد عن الزمان، وعرفتَ معنى المخلَص وهو خلوصه من كلّ شيء يدفعه إلى غير عبودية الله.

٢ و ٣.(وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا): اشتهر بين المفسّرين أنّ الرسول بالمعنى الشرعي أخصّ من النبيّ، لأنّ الرسول هو المرسل بوحي من الله ليبلّغ إلى الناس فلا يكون إلاّ نبيّاً، وأمّا النبيّ فهو المنبّأ بوحي من الله ولو لم يؤمر بتبليغه، فإذا لم يؤمر بالتبليغ فهو نبيّ وليس

رسولاً. التحرير والتنوير:١٦/٥٤.

الفرق بين النبيّ والرسول

وما ذُكر هو خيرة عدّة من المفسّرين، ولكن يرِدُ عليه أنّ المعيار في مقام التعريف هو الترقّي من العالي إلى الأعلى، فلو كان مقام الرسالة أشرف من مقام النبوّة كان اللازم في مقام الإطراء هو تأخير الرسول عن النبيّ مع أنّا نرى تأخير النبيّ عن الرسول في المقام ومقام آخر. والذي يمكن أن يقال هو أنّ النبوّة متقوّمة بالاتّصال بالله والإنباء عنه ونزول الوحي إلى مَن يسند إليه منصبها بأحد الطرق المذكورة في الآية (٥١) من سورة الشورى. وأمّا الرسالة فهي متقوّمة بتحمّل الرسول إبلاغ كلام من المرسل إلى المرسل إليه، وليس في مفهوم الرسول المصطلح أنّه يوحى إليه وأنّه منبئ عن الله، إذ ربّما يكون رسولاً من جانب إنسان إلى إنسان كما قال:(فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ) يوسف:٥٠.. وعلى هذا فالنبيّ عبارة عن الإنسان الموحى إليه من ناحيته سبحانه، وأمّا الرسول فليس في صميم معناه سوى أنّه مأمور بتبليغ أمر أو إنفاذ عمل من الله أو من غيره، ولذلك نرى أنّه سبحانه عندما يذكر أوصاف الأنبياء يقدّم الرسول على النبيّ في المقام وفي قوله:(إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا) مريم:٥٤..

هذا خلاصة ما اخترناه في الفرق بين الرسول والنبيّ، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى «مفاهيم القرآن». لاحظ: مفاهيم القرآن: ٤ / ٣٤٣ ، بحث حول النبيّ والرسول في القرآن الكريم .

٥٢.(وَ نَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا):

بعد أن وصفه سبحانه بالإخلاص والرسالة والنبوّة، ذكر الموضع الذي أوحى فيه إلى موسى بقوله: (إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) القصص:٣٠، وهذا الموضع حدّده بقوله:(وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ): أي الجانب الأيمن من الطُّور، وهو الجانب الغربيّ منه. هذا، وبين النداء (وَنَادَيْنَاه)الدالّ على الجهر بالصوت لإسماع البعيد، وقوله: (وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا)الدالّ على المحادثة السرّية، نوع تقابل، فكيف يتمّ الجمع بينهما؟ لعلّ وصفه بالمناجاة لأجل أنّه ما اطّلع عليه أحد وإن كانت المحادثة بصورة المناداة. وللسيد الطباطبائي بيان آخر يقول: الظاهر أنّ تقريبه(عليه السلام)كان تقريباً معنوياً وإن كانت هذه الموهبة الإلهية في مكان وهو الطور ففيه كان التكليم، ومثاله من الحسّ أن ينادي السيّدُ العزيز عبدَه الذليل فيقرّبه من مجلسه حتى يجعله نجيّاً يناجيه، ففيه نيل ما لا سبيل لغيره إليه. الميزان في تفسير القرآن: ١٦/٦٣.

روى الترمذي بإسناده عن الأجلح، عن أبي الزّبير، عن جابر قال: دعا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) علياً يوم الطائف فانتجاه، فقال الناس: لقد طال نجواه مع ابن عمّه، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «ما انتجيته، ولكنّ الله انتجاه». سنن الترمذي:١٠٦٥، برقم ٣٧٤٧، باب مناقب علي بن أبي طالب(رضي الله عنه)(وفيه: ومعنى قوله:«ولكنّ الله انتجاه»: إنّ الله أمرني أن أنتجي معه).

وروى نحوه محمد بن الحسن الصفّار بإسناده عن معاوية بن عمّار]الدُّهني[، عن أبي الزّبير، عن جابر بن عبد الله الأنصاري. بصائر الدرجات:٢/٢٨٩، برقم ١٤٥٥، باب ١٦.

٥٣. (وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا):

لمّا طلب موسى(عليه السلام) من ربّه سبحانه وزيراً من أهله وقال: (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي)نودي بقوله سبحانه:(قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى) طه:٢٩ـ ٣٦.. والآية تشير إلى تلك الموهبة، قال: (وَوَهَبْنَا لَهُ): أي لموسى (مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا): أي أنعمنا عليه بأخيه هارون وآتيناه النبوّة فجعلناه شريكاً في أمره.

ثمّ إنّه سبحانه لخّص قصّة موسى بما يناسب المقام، وسيأتي تفصيلها في سورتي: «طه» و «القصص»، وغيرهما.

القصة الخامسة

قصة إسماعيل(عليه السلام)

الآيتان: الرابعة والخمسون والخامسة والخمسون(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ... وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا).

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا).

المفردات

صادق الوعد: أي ما وعد عِدَةً إلاّ وفى بها.

رسولاً نبياً: قد عرفت الفرق بينهما، وأنّ النبوّة أسمى مقاماً من الرسالة لوجود الاتّصال بالله في معنى النبوّة دون الرسالة.

التفسير

٥٤. (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا):

لمّا فرغ من الكلام في توالي النبوّة في الشجرة الإسرائيلية، بدأ بذكر إسماعيل على وجه الاستقلال.

ورد اسم إسماعيل في القرآن المجيد اثنتي عشرة مرّة انظر: البقرة:١٢٥، ١٢٧، ١٣٣، ١٣٦، ١٤٠؛ آل عمران:٨٤؛ النساء:١٦٣؛ الأنعام:٨٦؛ إبراهيم:٣٩؛ مريم:٥٤؛ الأنبياء:٨٥؛ ص:٤٨.، مقروناً بالمدح والثناء، وبيان بعض خصائصه وشمائله، فقد منّ الله عليه بالهداية إلى الصراط المستقيم، واجتباه للنبوّة من أجل دعوة الناس إلى التوحيد، وإرشادهم إلى الخير والفلاح، كما يدلّ على ذلك قوله تعالى:(وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) النساء:١٦٣، وقوله: (وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) البقرة:١٣٦، كما أسبغ عليه القرآن الكريم صفات الصبر والحلم والصلاح.

والآيات الواردة في قصّة إبراهيم، تُشيد بالموقف الرائع لإسماعيل، والمعبّر عن شجاعته النادرة، وإيمانه العميق، وإخلاصه الشديد، وبصيرته النافذة، إذ جاد بنفسه لله، راضياً بقضائه، مطمئناً إلى مشيئته وحكمته، ولم يتردّد في تسليم رقبته لأبيه الّذي أُمر بذبحه، ولـكن الله تعالى أنجاه من القتل، وفداه بذِبح عظيم بعد أن ظهر كمال إخلاصهما لله، وبان جوهرهما ومعدنهما الحقيقيّان.

وقد ذهب أكثر المفسّرين إلى أنّ المراد بإسماعيل هنا ـ كما في سائر الآيات ـ هو ابن إبراهيم الخليل(عليه السلام)، ولو أُريد به غيره في هاتين الآيتين، لكان الأنسب التصريح بالتعدّد والتغاير.

وقيل: إنّ المذكور في هاتين الآيتين، هو غير المذكور في سائر الآيات، وإنّ هذا ـ كما ورد في بعض الروايات انظر: الميزان في تفسير القرآن:١٤/٦٤ـ٦٥. ـ هو إسماعيل بن حزقيل، وهو بعيد جدّاً. وعلى كلّ تقدير فقد وصفه سبحانه بعد قوله: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ) بصفات خمس:

١. (إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ) وأي دليل أفضل على كونه كذلك من استسلامه للذبح بعدما وعد أباه بقوله:(سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) الكهف: ٦٩ ؟.

وفي «مجمع البيان»: كان إذا وعد بشيء وفى ولم يخلف، قال ابن عباس: إنّه واعد رجلاً أن ينتظره في مكان ونسي الرجل، فانتظره سنة حتى أتاه الرجل لا يخفى أنّ الانتظار لتلك المدّة يضيع وقت النبي المبعوث إلى هداية الناس، والانتظار أزيد من يوم إلى ثلاثة أيام بعيد لا تصدّقه الموازين.. وروي ذلك أيضاً عن أبي عبد الله(عليه السلام). تفسير نور الثقلين: ٣/٣٤٣ برقم ١٠٤.

ونقل السيد الطباطبائي في تفسيره : أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وعد بعض أصحابه بمكّة أن ينتظره عند الكعبة حتى يرجع فمضى الرجل لشأنه ونسي الأمر فبقي(صلى الله عليه وآله وسلم) ثلاثة أيام هناك ينتظره فاطّلع بعض الناس عليه فأخبر الرجل بذلك فجاء واعتذر إليه. وهذا مقام الصدّيقين لا يقولون إلاّ ما يفعلون. الميزان في تفسير القرآن: ٦٥/١٦.

٢ و٣. (وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا) إلى «جرهم»، وقد مضى الفرق بينهما.

٥٥. (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا):

٤ و ٥. (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ) كان من مواصفاته أنّه يهتمّ بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ويبدأ بأهله في الأمر بهما كما يقول: (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ) وهما من فروع الشريعة الإبراهيمية التي تبعها ولده إسماعيل(عليه السلام).

٦. (وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) وهذا هو المقام السامي أن يصل العبد إلى درجة يكون المولى راضياً عنه. وفي نهاية المطاف لو صار يعقوب في رأس الرسالات الإسرائيلية، فإسماعيل أيضاً في رأس الرسالة المحمّدية إذ جعل أشرف الأنبياء من ذريته، كما جعله أباً لأُمّة عربية وهي العرب العدنانية.

القصّة السادسة
قصّة إدريس(عليه السلام)
الآيتان: السادسة والخمسون والسابعة والخمسون(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ.... وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا).
(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا).
المفردات

إدريس: هو جدّ أبي نوح واسمه في التوراة اخنوخ.

صدّيقاً: مبالغة في الصدق، كأنّه لم يكذب قطّ.

مكاناً عليّاً: رفيع المنزلة أو رفيع المكان. وسيأتي تفسيره.

التفسير

٥٦. (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا):

جاء اسم النبيّ إدريس(عليه السلام) في موضعين من القرآن الكريم مقروناً بأجمل الأوصاف وأعطر الثناء، قال سبحانه:(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ): أي اتلُ في القرآن إدريس، بالثناء عليه(إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا) لم يكذب قط (نَبِيًّا) يوحى إليه بأحد الطرق المذكورة في آخر سورة الشورى(الآية ٥١).

٥٧. (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا):

ما هو المراد من المكان العليّ؟

اختلف المفسّرون في معنى هذه الآية على أقوال:

١. أنّه رُفع إلى السماء الرابعة(عن أنس)، أو إلى السماء السادسة(عن ابن عباس) انظر: التبيان في تفسير القرآن:٧/١٣٤..

٢. رفعنا ذكره وأعلَينا قدْره في الملأ، نظير قوله سبحانه:(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ). الانشراح:٤.

٣. رفعناه إلى درجة عالية من درجات القرب.

ولعلّ القول الثاني هو الأقرب، لأنّ لفظ المكان يستعمل في مطلق المنزلة خيراً كان أو شرّاً، قال سبحانه حاكياً عن يوسف(عليه السلام) مخاطباً إخوانه (أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا) يوسف:٧٧..

ثمّ إنّه سبحانه ذكر إدريس في آية أُخرى في عداد الذين غمرهم بنعمته لصلاحهم وصبرهم، فقال: (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ). الأنبياء: ٨٥ ـ ٨٦ .

ورغم أنّ اسمه(عليه السلام) تلا اسم إسماعيل(عليه السلام) إلاّ أنّ المؤرّخين والنسّابين يقولون: إنّه جدّ أبي نوح(عليه السلام)، وإنّ

نسبه كالتالي:

إدريس بن يادر بن مهلائيل بن قينان بن آنوش بن شيث بن آدم(عليه السلام)، ويقول ابن كثير: إنّه أوّل بني آدم أُوتي النبوّة بعد آدم وشيث(عليهما السلام)، وقد أدرك من حياة آدم (٨٠٨) سنة. البداية والنهاية:١/٩٢ـ٩٣.

قال العلاّمة السيد الطباطبائي: إنّ القرآن لم يراعِ في ذكر الأنبياء هنا الترتيب بحسب الزمان ولا الانتقال من السابق إلى اللاحق.

هذا، وقد اختلف في مولدِ إدريس(عليه السلام)، فقالت فرقة إنّه ولد في مصر وسمّوه بهرمس الهرامسة، وقالوا: هو باليونانية إرميس (ومعناه عطارد) وعرّب بهرمس، وقال آخرون: اسمه باليونانية طرميس، وهو عند العبرانيّين خنوخ، وعرّب اخنوخ.

وقالت فرقة أُخرى: إنّه ولد ببابل (في العراق)، وآتاه الله النبوّة فيها، ثم رحل إلى مصر.

وقد شاع بين أصحاب السير والآثار أنّه أوّل مَن خطّ بالقلم، وحاك الثياب وارتداها، وأوّل مَن نظر في النجوم وتعلّم الحساب، إلى غير ذلك من الأخبار التي وردت في حقّه، والّتي لا ينبغي الركون إلى أكثرها، لتقادم العهد به(عليه السلام)، وللدور الذي لعبته الإسرائيليات فيها، حيث إنّ قسماً منها مرويّ عن كعب الأحبار ووهب بن منبّه، وهما مَن هما.

ومهما يكن، فإنّ خلود اسم إدريس(عليه السلام) بين الحكماء والعلماء، يدلّ بجلاء على مكانته السامية بينهم، وعلى عمق دوره في التعليم ونشر المعارف الإلهية، وفوق ذلك كلّه مقامه الرفيع عند الله، والزلفى لديه سبحانه.

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو أنّ النبي نوحاً(عليه السلام) هو شيخ الأنبياء وأوّل نبي بعث ومعه شريعة سماوية ولم تكن قبله أي شريعة أُخرى، فما هي وظيفة ومسؤولية الأنبياء المبعوثين بين آدم ونوح؟

والّذي يمكن أن يقال: إنّ هؤلاء الأنبياء كانوا يدعون إلى توحيد الباري تعالى وإلى أحكام الفطرة الّتي لا تتغير وإلى أحكام العقل الحصيف كحسن العدل وقبح الظلم، والإحسان إلى الوالدين، إلى غير ذلك من الأحكام الفطرية والعقلية الواضحة.

الآيات: الثامنة والخمسون إلى الستين(أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ ... وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا).

(أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا).

المفردات

إسرائيل: يعقوب(عليه السلام).

اجتبينا: اصطفينا واخترنا.

سُجّداً: جمع ساجد.

بُكيّاً: جمع «باك».

خلْف: الخلف (بسكون اللام): النَّسل الطالح، (وبفتحها): النَّسل الصالح. قال لبيد بن ربيعة:

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم *** وبقيتُ في خَلْف كجلد الأجربِ

أضاعوا: أهملوا.

غيّاً: الغيّ: الضّلال، الفساد، الخَيبة. وقد يطلق عند العرب على كلّ شرّ. قال المُرقِّش الأصغر:

فمَنْ يلقَ خيراً يَحمَدِ الناسُ أمرَهُ *** ومَن يَغوَ لا يعدم على الغيِّ لائما

التفسير

٥٨. (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا):

تفسير الآية بوجه دقيق رهن بيان إعرابها.

قوله: (أُولَئِكَ) إشارة إلى مَن سبق ذكره في السورة من قوله: (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ) إلى هذه الآية وستوافيك أسماؤهم. وأمّا خبره فهنا احتمالان:

١. أنّ الموصول (الَّذِينَ) مع صلته (أَنْعَمَ اللهُ) خبره.

٢. أنّ الموصول وصلته بدل لقوله: (أُولَئِكَ) وبيان للمشار إليه، وأمّا الخبر فهو قوله: (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا)، أي هؤلاء الذين أنعمنا عليهم، إذا تليت عليهم آيات الله تراهم ساجدين وباكين.

ولعلّ الثاني أفضل.

ثمّ إنّ قوله: (وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا) عطف على قوله: (مِنَ النَّبِيِّينَ). وعلى هذا فالذين أنعم الله عليهم على صنفين:

١. النبيّون من ذرية آدم(عليه السلام).

٢. غير الأنبياء ممّن هداهم الله سبحانه واجتباهم.

ثمّ إنّه سبحانه أخبر عن كلا الصنفين بالخرور ساجدين باكين، عند تلاوة آيات الله.

إذا عرفت ذلك، فإليك الكلام في الصنف الأوّل.

الصنف الأوّل ممّن أنعم الله عليهم

قوله سبحانه: (أُولَئِكَ): أي أُولئك الذين قصصنا عليك أنباءهم، يعني: زكريا، ويحي، وعيسى، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وموسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس(عليهم السلام)، تلك عشرة كاملة.

فهؤلاء(الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ) على أصناف أربعة:

١. (مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ) كإدريس.

٢. (وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ): أي من ذرّية من حملنا مع نوح كإبراهيم.

٣. (وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ) كإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب.

٤. (وَإِسْرَائِيلَ): أي من ذرّية إسرائيل كموسى، وهارون، وزكريا، ويحي، وعيسى.

وإنّما فرّق سبحانه نسبهم مع أنّ جميعهم كانوا من ذرّية آدم لبيان مراتبهم في النسب، حيث إنّ إدريس أقرب إلى آدم من غيرهم، وهكذا. مجمع البيان:٦/٤٩٢.

ويظهر من السيد الطباطبائي وجه آخر قال: ولعلّ الوجه فيه، الإشارة إلى نزول نعمة السعادة وبركة النبوة على نوع الإنسان كَرّة بعد كَرّة، فقد ذُكر ذلك في القرآن الكريم في أربعة مواطن لطوائف أربع:

أحدها لعامّة بني آدم، حيث قال: (قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).[٢]

والثاني: ما في قوله تعالى: (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ). هود:٤٨.

والثالث: ما في قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

الحديد:٢٦..

والرابع: ما في قوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) الجاثية:١٦..

فهذه مواعد أربع بتخصيص نوع الإنسان بنعمة النبوّة وموهبة السعادة، وقد أُشير إليها في الآية المبحوث عنها. الميزان في تفسير القرآن: ١٤ / ٧٥ ـ ٧٦.

قد عرفت أنّ الله سبحانه يصنِّف (الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ)إلى صنفين:الأوّل منهم: النبيّون، وقد مرّ الكلام فيهم.

الصنف الثاني ممّن أنعم الله عليهم

فهم غير النبيّين، وأشار إليه بقوله: (وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا)، فنعمة الله تعالى تعمّ الأنبياء وغيرهم، بشهادة قوله سبحانه: (فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) النساء:٦٩.. وقد مرّ في ثنايا ما قصّه سبحانه، ذكرُ مريم، وهي داخلة في الصنف الثاني لكونها صدّيقة، لقوله سبحانه:(مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ). المائدة:٧٥.

وعلى كلّ تقدير، فهذان الصنفان مع كونهما ممّن أنعم الله عليهم، يشاركان في أمر آخر وهو (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ): أي كلّ ما يحكي عن شأن من شؤون الربّ، وتفسيرها بالقرآن بعيد (خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) فسجودهم لربّهم وبكاؤهم أفضل دليل على خضوعهم وخشوعهم.

بقي هنا شيء، وهو أنّه روى ابن شهر آشوب في كتاب المناقب في مناقب الإمام زين العابدين(عليه السلام) أنّه قال في قوله: (وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا): نحن عُنينا بها تفسير نور الثقلين: ٣ / ٣٥١، ورواه الطبرسي في مجمع البيان: ٦ / ٤٩٣..

نقد كلام الآلوسي

لم يزل السيد الآلوسي ناقداً لما يذكره الشيخ الطبرسي في تفسيره حول عقائد الإمامية وأحاديثهم، ومن ذلك قوله في المقام: وروى بعض الإمامية عن علي بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ انّه قال:«نحن عنينا بهؤلاء القوم» ولا يخفى أنّ هذا خلاف الظاهر جدّاً، وحال روايات الإمامية لا يخفى على أرباب التمييز. تفسير روح المعاني: ١٦ / ١٠٨.

إنّ الداعي لتلقّي الرواية على كونها خلاف الظاهر، هو أنّه جعل قوله: (وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا)معطوفاً على قوله: (مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ) فانحصر قوله: (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ...) في النبيّين، ولا يشمل غيرهم، ولذلك ردّ الرواية، غير أنّه غفل عمّا ذكرنا من أنّ قوله:(وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا) معطوف على قوله:(مِنَ النَّبِيِّينَ)، فصار من أنعم الله عليهم على صنفين: أنبياء، وقد مرّت أسماؤهم وأوصافهم، وغير أنبياء من (الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ). النساء:٦٩.

والذي يشهد على خلاف ما ذكر أنّ قوله: (أُولئكَ) إشارة إلى المذكورين في السورة، من قوله: (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ) إلى إدريس، وفيهم مريم العذراء التي كانت صدّيقة ولم تكن نبيّة، ومع ذلك شملها قوله:(أُولئِكَ).

وأمّا ما وصف به روايات الإمامية، فنحن نمرّ عليه مرور الكرام، ومَن أراد أن يقف على حال روايات القوم فعليه أن يرجع إلى كتابنا «الحديث النبوي بين الرواية والدراية» حتى ينكشف له ما هو الأليق بما وصف، وإلى الله المشتكى.

٥٩. (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا):

الآية تحكي عن وجود عقب لهؤلاء الذين أنعم الله عليهم غير مقتفين أثر آبائهم، بل أساؤوا القول والعمل فصاروا لهم خلفاً كما قال: (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ): أي نسلٌ طالح وعَقِبُ سوء.

ثمّ إنّه سبحانه يحكي عن أفعالهم الذميمة أمرين:

ما هو المراد من إضاعة الصلاة ؟

١. (أَضَاعُوا الصَّلاَةَ)وربّما تفسَّر إضاعتها بتركها وهو بعيد، بل إضاعة الصلاة عبارة عن إتيانها على غير وجهها الواجب، والتهاون في أوقاتها وشروطها وأجزائها. والذي يدلّ على ما ذكرنا هو أنّه سبحانه يصف المنافقين بهذا النوع من الوصف ويقول: (وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى) التوبة:٥٤، ويقول أيضاً: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ)، الماعون:٤ـ٥. فإنّ السهو عن الصلاة كناية عن كونهم غير معتنين بشأنها.

٢. (وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ): أي انهمكوا في المعاصي واتّبعوا الهوى، فلا يهمّهم إلاّ شهوة البطن وشهوة الفرج.

ثمّ إنّ نتيجة هذين الأمرين، ما يقوله سبحانه:(فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا): أي يلقون جزاء غيّهم. ويحتمل أن يكون المراد: يلقَون نفس ضلالهم عند الموت أو في البرزخ أو يوم القيامة، فيُكشَف عنهم غطاؤهم كما يقول: (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَة مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) ق:٢٢..

دبيب الانحراف إلى المسلمين بعد رحيل النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)

ولا شكّ في أنّ مخالفة النبيِّين والمجتبَين يقود إلى الانحراف عن سبيل الهدى وإلى تغيير معالم الدين شيئاً فشيئاً، ومن هنا حذّر نبيّنا محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) من الابتعاد عن نهجه وسنّته، لئلاّ تبلغ بهم الأُمور إلى ذلك المصير القاتم، ومن ذلك ما رواه أحمد بن حنبل بإسناده عن أبي سعيد الخدري، عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال:«ائتمّوا بي يأتمّ بكم مَن بَعدكم، فإنّه لا يزال قوم يتأخّرون حتى يؤخّرهم الله عزّ وجلّ». مسند أحمد: ٣ / ٣٩٥، برقم ١٠٧٥٦، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

ولكن قبيل أن يفارق ـ بأبي وأُمّي ـ هذه الدنيا عُصي، ورُدّ أمره، فقد روى المحدّثون بأسانيدهم عن ابن عباس قال: لمّا حُضِرَ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)وفي البيت رجال، فيهم عمر بن الخطاب، قال النبي(صلى الله عليه وآله وسلم):«هَلُمَّ أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده». فقال عمر: إنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتابُ الله. فاختلف أهل البيت فاختصموا، منهم مَن يقول: قرّبوا يكتب لكم النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كتاباً لن تضلُّوا بعده، ومنهم مَن يقول ما قال عمر، فلمّا أكثروا اللّغو والاختلاف عند النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «قوموا». قال عبيد الله: فكان ابن عباس يقول: إنّ الرزيّة كلّ الرزيّة ما حال بين رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب، من خلافهم ولَغَطهم. صحيح البخاري:١٠/٤ـ١١، كتاب المرضى (٧٥)، الباب(١٧)، برقم ٥٦٦٩(واللّفظ له)؛ مسند الحُميدي:٢٤١/١، برقم ٥٢٦؛ تاريخ الطبري:٤٣٦/٢(وفيه: إنّ رسول الله يهجر).

ثم أخذت خطوات الانحراف عن نهج الإسلام تتّسع يوماً بعد آخر، لا سيّما بعد تسلّط الأمويين على مقاليد الحكم في عهد عثمان، ثم بلغ الانحراف مداه في عهد معاوية وما بعده، حتى شمل معالم الصلاة!!

روى البخاري بإسناده عن مطرّف بن عبد الله قال: صلّيت خلف علي بن أبي طالب(رضي الله عنه)، أنا وعمران بن حُصين، فكان إذا سجد كبّر، وإذا رفع رأسه كبّر، وإذا نهض من الركعتين كبّر، فلما قضى الصلاة، أخذ بيدي عمران بن حصين فقال: قد ذكّرني هذا صلاة محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، أو قال: لقد صلّى بنا صلاة محمد(صلى الله عليه وآله وسلم). صحيح البخاري:١٨٨/١، كتاب الأذان، الباب(١١٦)، برقم ٧٨٦؛ وصحيح مسلم:١٩٤، كتاب الصلاة، الباب(١٠)، برقم ٧٥٩.

وروى بإسناده عن أنس قال: ما أعرف شيئاً ممّا كان على عهد النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم). قيل: الصلاة؟ قال: أليس ضيّعتم ما ضيّعتم فيها؟ صحيح البخاري:١٣٤/١، كتاب مواقيت الصلاة، الباب(٧)، برقم ٥٢٩.

٦٠. (إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا):

أخبر سبحانه عن أنّ باب التوبة مفتوح في وجه هؤلاء الذين أضاعوا الصلاة واتّبعوا الشهوات، لكن بشروط :

١. (إِلاَّ مَنْ تَابَ) توبة نصوحاً، وتعني الندم عندئذ على ما مضى، والعزم على ترك العَود إليه أبداً، وأداء حقوق المخلوقين إليهم، إلى غير ذلك من شرائط التوبة. انظر: نهج البلاغة، قسم الحكم:٤١٧.

٢. (وَآمَنَ) الظاهر أنّ الاستثناء متّصل، ولكن ليس لازم الاتّصال أنّهم كانوا كافرين وإنّما طلب منهم الإيمان بمعنى رسوخه في أنفسهم الداعي إلى إتيان الواجبات وترك المحرّمات.

٣. (وَعَمِلَ صَالِحًا) في مقابل اتّباع الشهوات (فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ) وعداً قطعيّاً من الله (وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا): أي لا يُنقَصون من أُجورهم شيئاً.

الآيات: الحادية والستون إلى الثالثة والستين(جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ... مَنْ كَانَ تَقِيًّا).
(جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا * لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلاَمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ الْجَنَّةُ التي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا).

المفردات

جنات عدن: أي جنّات إقامة واستقرار.

بالغيب: متعلّق بقوله: (وعد): أي وعدها إيّاهم وهي غائبة عنهم لم يشاهدوها. ويحتمل أن يُراد: وعدهم بها في الأزمنة الغائبة عنهم كما يحكي عنهم قوله سبحانه:(أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ). آل عمران:١٣٣.

مأتيّاً: ربّما يقال إنّ المفعول بمعنى الفاعل أي آتياً. والأَولى أن يقال: إنّه بمعناه المفعولي، والمأتيّ عبارة عن الذي يأتيه غيره.

التفسير

لمّا تقدّم في الآية الأخيرة من المجموعة السابقة بأنّ التوّابين والعاملين عملاً صالحاً يدخلون الجنة، جاء البيان القرآني لتبيين حال الجنة ووصفها بقوله:

٦١. (جَنَّاتِ عَدْنٍ التي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا):

١. وصف سبحانه الجنّات بأوصاف منها(جَنَّاتِ عَدْنٍ): أي جنّات إقامة وخلود وتقابلها الجنّات البرزخية حيث تفنى بفناء الدنيا، وأمّا جنّات العدن فتبتدئ بفناء السماوات والأرض ولا انتهاء لها، وقد جاء وصف الجنّات بالخلود في كثير من ا لآيات، قال سبحانه: (وَ أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا). هود:١٠٨.

٢. ثمّ إنّه سبحانه وصفها بقوله:(وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ): أي وعدهم بها وهي غائبة عنهم لا يشاهدونها، أو وعدهم في الأزل كما قال: (أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) آل عمران:١٣٣.. ثمّ أكّد سبحانه على تحقّق وعده على سبيل الجزم، فقال:(إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا): أي هؤلاء الموعودون بهذا الوعد (وهو الجنّة) صائرون إليه وسيأتونه.

٦٢. (لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلاَمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا):

مرّ الوصف الأوّل للجنّات بكونها جنّة استقرار، وتضمّنت هذه الآية وصفين آخرين يعرّفان مكانة الجنّة.

٣.(لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلاَمًا) لا شكّ في أنّه استثناء منقطع، أي: لكن يسمعون سلاماً، قال تعالى:(تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ) إبراهيم:٢٣.، وقال تعالى: (لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا * إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا) الواقعة: ٢٥ ـ ٢٦.، حتّى أنّ الملائكة تحيّيهم بالسلام قائلين: (ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ) ق:٣٤.. وحاصل الآية: إنّ الجنّة منزل ملؤه السلامة، سلامة الجسم وسلامة الروح،

ويسودها الصفاء والعلاقة الحميمة والهدوء والاطمئنان.

٤. (وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) مع أنّ نِعَم الجنة تحت تصرّفهم وإرادتهم، فأي رزق هذا الذي يأتيهم بكرة وعشياً؟ وربّما يجاب بما في حديث رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) حيث تأتيهم طرف الهدايا من الله بمواقيت الصلوات التي كانوا يصلّون فيها في الدنيا وتسلّم عليهم الملائكة. تفسير الدر المنثور: ٥ / ٥٢٩.

ويمكن أن يقال: البُكرة كناية عن النصف الأوّل، والعشيّ كناية عن النصف الأخير، والجمع بينهما كناية عن جميع الزمن، فكلّما شاءوا فلهم رزقهم.

ثم إنّ وصف الجنة بالبكرة والعشيّ دليل على أنّ الشمس تطلع وتغرب مع أنّ الظاهر من قوله سبحانه:(أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلّها) الرعد:٣٥. هو دوام النهار فما هو وجه الجمع؟ لا محيص من أن يقال: دوام الظلّ مختصّ بأوقات النهار، فإنّ الظلّ ملازم لوجود النهار، والله العالم.

٦٣. (تِلْكَ الْجَنَّةُ التي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا):

بعدما وصف سبحانه نِعَم الجنّة على ما عرفت، ذكر أنّ مفتاح الجنّة بيد الإنسان، فمن كان تقيّاً يدخل الجنة كما يقول: (تِلْكَ الْجَنَّةُ) على ما عرفت من الأوصاف (التي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا): أي نورثها عبادنا المتّقين الذين يطيعون الله سرّاً وعلانية. وحقيقة الإرث انتقال مال القريب إلى قرينه بعد موته، واستعير هنا للعطيّة المدّخرة لمعطاها، تشبيهاً بمال الموروث المدّخر الذي ينتقل إلى وارثه، فيتصرّف فيه كيف يشاء.

الآيتان: الرابعة والستون والخامسة والستون(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ.... هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا).

(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا* رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا).

المفردات

نَتنزّل: التَّنزُّل:مطاوعة نزّل، يقال: نزّله، فتنزّل. ويستعمل في النزول التدريجي.

مابين أيدينا: أي أمامنا.

وما خلفنا: أي وراءنا.

وما بين ذلك: أي اليمين والشمال.

نَسيّاً: صيغة مبالغة من نَسِيَ، أي كثير النسيان، وأُريد هنا النسبة إلى النسيان.

اصطبر: من الاصطبار: شدّة الصبر.

سميّاً: أي مماثلاً في الاسم.

التفسير

٦٤.(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا):

ذكر غير واحد من المفسّرين أنّ موقع هذه الآية وما بعدها غريب لخفاء الصّلة بينهما وما تقدّم من الآيات، فلجأوا في رفع الخفاء إلى الروايات، التي أكثرها لا ينسجم مع أدب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ومكانته؛ مثلاً رووا عن أنس أنّه سُئل النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم): أي بقاع أحب إلى الله وأبغض إلى الله؟ قال: ما أدري حتى أسأل جبرئيل، وكان قد أبطأ عليه، فقال: لقد أبطأت عليّ حتى ظننت أنّ بربّي عليَّ مَوجِدة، فقال: (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ) تفسير الدر المنثور:٥/٥٣٠، إلى غير ذلك من الروايات التي لا توافق

الأُصول. نعم روى البخاري عن ابن عباس، قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) لجبرئيل: ما يمنعك أن تزورنا أكثر ممّا تزورنا؟ فنزلت: (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا). صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة مريم، الحديث ٤٧٣١.، وهذه الرواية أهون من كلّ ما ورد في المقام، ومع ذلك لم يتبيّن وجه الصلة بين الآيتين وما سبقهما من الآيات.

وسيأتي منّا وجه الصلة بعد الفراغ من تفسير الآيتين.

قوله سبحانه:(وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ) قد تقدّم أنّ(نَتَنَزَّلُ) مطاوعة «نزل»، فالمنزِّل هو الله سبحانه والمتنزَّل هم الملائكة، فلا ينزلون (إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ)، وأمّا ما هو وجه العدول من إضافة الربّ إلى أنفسهم، أي أن يقولوا: (بأمر ربّنا) إلى إضافة الربّ إلى ضمير الخطاب، فالظاهر أنّه توطئة لما يأتي بعده من أمر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)بالعبادة والاصطبار، أعني قوله: (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ).

ثمّ إنّ الملائكة يصفون الربّ المذكور بقولهم:(لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ) وقد اختلف المفسّرون في تفسير هذه الفقرة إلى أقوال تناهز العشرة أو أكثر، ولكن التعبير لا يحتمل إلاّ معنى واحداً؛ فلو حُمل قوله: (مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ) على المكان، يراد من الأوّل: الأمام، ومن الثاني: الوراء، ومن الثالث: الشمال واليمين؛ ولو حُملت الفقرة على الزمان فيُحمل على الأزمنة الثلاثة: الماضي، والمستقبل، والحال. وعلى كلا الفرضين فلا محيص من القول بأنّ الفقرة كناية عن إحاطة مُلكه تعالى بصحيفة الوجود الإمكاني إحاطة قيّومية لا يتصرّف فيه غيره إلاّ بإذنه حتى الملائكة بما أنّهم معصومون لا يعصون الله تعالى وهم بأمره يعملون، لا يقومون بأمر إلاّ بإذنه، ولأجل إحاطته بصحيفة الوجود الإمكاني لا يعرض عليه النسيان، ولا يختلّ أمر التدبير كما يقول:(وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا).

وبذلك ظهر أمران:

الأوّل: إنّ الفقرة ـ سواء حُملت على المكان أو الزمان ـ أُريد منها المعنى الكنائي، لا المعنى اللغوي، ويؤيّده قوله في الآية التالية:(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا) وهذه قرينة على أنّه أُريد من الفقرة إحاطته سبحانه بصحيفة الوجود الإمكاني.

الثاني: إنّ قوله: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) تعليل لما قبله، فالفقرة السابقة لمّا دلّت على أنّ صحيفة الوجود ـ خلقاً وتدبيراً ـ له سبحانه وأنّه خالق ولا مدبّر سواه، علّل ذلك بقوله: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا)أمْرَ التدبير، حتى يطرأ على الكون الاختلال.

٦٥. (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) :

هذه الآية كأنّها إيضاح لمفاد الآية السابقة فإنّها لمّا دلّت على أنّ صحيفة الكون لله سبحانه بوجه كنائي، جاء البيان القرآني للتعبير عن ذلك تصريحاً لا كناية وقال: (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا): أي كيف لا يملك(مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ) مع أنّه خالق الجميع ومدبّره بعلمه وقدرته؟

فإذا ثبت كون (رَبِّكَ) خالقاً ومدبّراً، وجب عليك توحيده في العبادة والثبات عليها، كما قال: (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ) مرتّباً الأمر بالعبادة والاصطبار عليها على قوله:(هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا): أي هل تعلم له مشاركاً في الاسم؟ ومن المعلوم أنّ المراد ليس هو الاشتراك في اللفظ بل المراد المشاركة في المعنى، أي الرُّبوبيّة والتدبير، فليس له سبحانه سَميٌّ في الكون حتى تعبده وتستمر على عبادته.

إلى هنا تبيّن مفاد الآيتين من دون أن تكون لهما صلة بما ورد في الروايات، وأمّا وجه صلتهما، فهذا ما يذكره السيد الطباطبائي ويقول: إنّ ملكَ الوحي لمّا تنزّل عليه(صلى الله عليه وآله وسلم) بالسورة، وأوحى إليه الآيات الثلاث والستين منها، وهي مشتملة على دعوة كاملة إلى الدين الحنيف، خاطبه(صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّه لم يتنزّل المَلَك وليس يتنزّل بما تنزّل به من عند نفسه، بل عن أمر من ربّه وبرسالة من عنده، فالكلام كلامه، والدعوة دعوته، وهو ربُّ النبيّ وربُّ كلّ شيء، فليعبده وحده، فليس هناك ربٌّ آخر

يعدل عنه إليه، فالآيتان ممّا أُوحي إلى ملَك الوحي ليلقيه إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) تثبيتاً له وتأكيداً للآيات السابقة.

وهذا نظير أن يُرسل مَلِك رسولاً بكتاب من عنده أو رسالة إلى بعض عُمّاله، فإذا جاءه الرسول وقرأ عليه الكتاب أو أدّى الرسالة، قال له: إنّي ما جئتك من عند نفسي بل بأمر من الملك وإشارة منه، والكتاب كتابه والرسالة قوله وحكمه، وهو مليكك ومليك عامّة من في المملكة، فاسمع له وأطع وأقم على ذلك، فليس هناك مليك غيره حتى تعدل عنه إليه.

فكلام هذا الرسول تأكيد لكلام الملك، وإذا فُرض أنّ الملك هو الذي أمره أن يعقّب على رسالته بهذا الكلام، كان الكلام كلاماً للرسول ورسالة أيضاً من قِبَل الملك وكلامه.

وغير خفيّ عليك أنّ هذا الوجه أوفق بالآيتين وأوضح انطباقاً عليها، ممّا تذكره روايات سبب النزول على ما فيها من الاختلاف والوهن. الميزان في تفسير القرآن: ١٤ / ٨٥ ـ ٨٦ (مع قليل من التصرّف).

الآيات: السادسة والستون إلى الثانية والسبعين(وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ... وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا).

(وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا * فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا * وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا).

المفردات

يَذكُر: يتذكّر ويتفكّر.

لَنحشرنّهم: لَنجمعنّهم.

جِثيّاً: جمع جاث، وهو البارك على ركبتيه.

شيعة: الشيعة: الجماعة على رأي واحد، يلتقون عنده، ويتعاونون عليه، ومنه:تشايع القوم، إذا تعاونوا. ثمّ إنّ هذا الأمر الذي تعاونوا عليه ربّما يكون حقّاً، وأُخرى باطلاً، وبذلك يظهر أنّ تفسير المراغي للفظة (شيعة) بقوله: جماعة تعاونت على الباطل وتشايعت عليه تفسير المراغي:١٦/٧٢، غير صحيح، إلاّ إذا أراد كون المورد منه، وقد قال سبحانه: (وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ) الصافات:٨٣..

عِتيّاً: تكبّراً وتمرُّداً. وهو مصدر أصله العُتوّ، على وزن فُعول، فقلبت الواو ياءً، كما انقلب ضم الفاء إلى كسرها لمناسبة الياء.

لَننزعنّ: نزع الشيء: جذبه من مقرّه. والنازعات هي الملائكة التي تنزع الأرواح عن الأشباح.

صِليّاً: الصِّلِيّ: الاصطلاء بالنّار والقرب منها، والظاهر أنّ المراد به هنا: الدخول فيها، أو الاحتراق بها.

واردها: مارٌّ عليها.

حتماً: الحَتْم: الجزم والقطع.

التفسير

٦٦. (وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا):

إنّ مضمون هذه الآية هو منطق الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور وكان المشركون في عصر الرسالة يستبعدون إحياء الموتى بعد أن تصير أجسامهم تراباً وعظاماً بالية، فردّ عليهم سبحانه هذه الشبهة في مواضع من كتابه المجيد، وأقام من الأدلّة ما يفنّدها. ويأتي في هذا المجال ما روي عن ابن عباس وأبي مالك وقتادة والسدّي وغيرهم أنّ أُبيّ بن خلف جاء بعظم بال متفتّت وقال: يا محمد كيف يبعثه الله وهو رميم، فأنزل الله: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) يس:٧٨..

ولا شكّ في أنّ منطق مَن يُنكر الإعادة بعد الموت ليس منطقاً صحيحاً لأنّه يقوم على مجرّد الاستبعاد، قال سبحانه:(وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ)وصرت تراباً وعظاماً بالية(لَسَوْفَ أُخْرَجُ)من القبر (حَيًّا)؟ ثمّ إنّه سبحانه أجاب عن هذا الاستبعاد بتذكير الإنسان بما قبل خلقه بقوله:

٦٧. (أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا):

فقوله:(أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ) استفهام إنكاري يتضمّن التعجُّب من ذهول الإنسان عن أوّل خلقه الذي يصفه سبحانه بقوله: (أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) فالله الموجد من العدم، هو الأقدر على الإيجاد بعد الموت، قال تعالى: (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ) الواقعة:٦٢.. فهل بدء الخلق أهون أو إعادته؟(وَهُوَ الذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) الروم:٢٧.. نعم الإعادة أهون في حسابنا، وأمّا في حساب الله فالكلّ سواء.

والآية ـ كنظائرها ـ أفضل دليل على كون المعاد جسمانيّاً، ولكن ربّما يقال: إنّ إعادة خلق الإنسان وإحياء عظامه الرِّمام ينتج كون المُعاد مثل الإنسان السابق لا عينه، بينما المطلوب في المَعاد كون المُعاد عين الأوّل. وإن شئت قلت: تعدّد الإيجاد يدلّ على تعدّد الموجود، فالشخصية الثانية إذاً غير الشخصية الأُولى وإن كانت المواد فيهما واحدة.

والجواب: إنّ الشبهة مبنيّة على أنّ الإنسان هو نفس البدن، بما فيه من أعضاء وأعصاب وغير ذلك، فإذا صار تراباً بطلت روحياته ونفسانياته من خير وشرّ، فلو أُعيد يكون مثلاً لا عين الأوّل، ويقع الثواب والعقاب في غير محلّه.

وأمّا لو قلنا بأنّ للإنسان ـ وراء البدن ـ حقيقة متعالية لا تندثر بمَرّ الزمان وكَرّ الجديدَين، وهي التي تحمل روحيات الإنسان من خير وشرّ، وهي الصلة الوثيقة بين المبتدأ والمُعاد، فلا يلزم الإشكال. وذلك لأنّ ما هو المحفوظ عند الله يجعل البدن الثاني إعادة للشخص الأوّل، والبدن الثاني وإن لم يكن عين البدن الأوّل بل مثله، لكن الروح المصونة عن كلّ تغيّر، إذا تعلّقت بالبدن الثاني يكون المُعاد هو المبتدأ، لأنّ المناط في تحديد الشخصية الإنسانية هو روحه ونفسه، والبدن غير مهتمّ به. والسبب الداعي لحشره ببدنه هو عدم إمكان تعذيب الروح أو تنعّمها إلاّ عن طريق البدن، فإذا كانت الشخصية محفوظة فلا تنقطع الصلة بين المبتدأ والمُعاد، خصوصاً أنّ أجزاء البدن المبعثرة معلومة لله سبحانه، فهو يركّب تلك الأجزاء المبعثرة وتصير بواسطة الحركة الجوهرية في داخلها إلى حدٍّ تكون قابلة لأنْ تتعلّق بها الروح السابقة.

٦٨. (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا):

مصير المشركين المنكرين للمعاد

لمّا قدّم البرهان على إمكانية الإعادة بقياسها على المُبتدأ، أقسم على وقوعها بربوبيّته مضافاً إلى رسوله(صلى الله عليه وآله وسلم) في هذا القسم تكريم له(صلى الله عليه وآله وسلم) وتفخيم لشأنه. فبدأ هذه الآية بفاء التفريع، فمضمون الآية متفرّع على عناد الكافرين المنكرين للمعاد مع سماع الجواب الكافي، فلأجل ثباتهم على العتو، جاءت الآية تذكر مصيرهم السّيئ يوم القيامة. والآية تتضمّن أمرين:

الأوّل: حشر منكري البعث والشياطين معاً، كما يقول: (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ) أقسم سبحانه بذاته أنّه يجمع بين هؤلاء وبين الشياطين الذين اتّخذوهم أولياء من دون الله، في مصاف واحد.

الثاني: إحضارهم إلى جهنم باركين على رُكَبهم، كما يقول: (ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا): أي لنحضرنّهم حول جهنم لينظروا أهوالها وهم جالسون على رُكَبهم، وعلى ما ذكرنا فالضمائر الغائبة في (لَنَحْشُرَنَّهُمْ) و (لَنُحْضِرَنَّهُمْ) ترجع إلى المنكرين للمعاد، وهذا قرينة على أنّ الضمير الغائب في الآية التالية أيضاً يرجع إليهم.

٦٩. (ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا):

أي بعدما صاروا حِلَقاً حول جهنّم جاثين على الرُّكب، فالله سبحانه يبدأ بأخذ أئمة الضلال وقادة الكفر، الأعتى فالأعتى من كلّ فرقة، ويضع كلاًّ منهم في المكان المستحقّ له من العذاب. وهذا هو مفاد قوله:(ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ): أي لنخرجنّ من كلّ طائفة(أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا): أي عناداً وتمرّداً عليه.

٧٠. (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا):

أي أنّه سبحانه عالم بالغيب والشهادة، فهو يعرف من هو الأكثر عناداً وتمرّداً على الحقّ، ومن ثمّ استحقاقاً للعذاب، فيبدأ بهم أوّلاً ثمّ بمن يليهم، كما يقول: (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا): أي دخولاً في النار أو احتراقاً بها.

إلى هنا تمّت الآيات التي تكفّلت ببيان مصير المشركين المنكرين للبعث، والذين لا ينجو أحد منهم من النار.

٧١. (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا):

ما سبق من الآيات كان يتضمّن مصير المشركين المنكرين للمعاد، أكبرهم وكبيرهم وأدناهم، وأمّا هذه الآية وما بعدها فتتضمّن حال سائر المحشورين يوم القيامة، وهم بين كونهم متّقين، وكونهم ظالمين، فتصف الجميع وتخاطبهم بالقول:(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا) والضمير يرجع إلى جهنّم، إنّما الكلام فيما هو المراد من الورود، فقد اختلفت كلمات المفسّرين إلى وجوه:

١. المراد بالورود الرؤية والمشاهدة، ومعنى الآية: ما من أحد إلا ويرى النار عياناً يوم القيامة صالحاً كان أم طالحاً، فالطالح يراها ويدخلها جاثياً على ركبتيه، والصالح يراها ويتجاوزها حامداً شاكراً نعمة النجاة.

ويدلّ على هذا المعنى قوله سبحانه:(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ)، القصص:٢٣.حيث إنّ موسى(عليه السلام) بلغ ماء مدين وشاهده ولم يدخل فيه.

يلاحظ على هذا المعنى أنّ ظاهر الآية هو الورود بمعنى الدخول، وأمّا استعماله في سورة القصص بمعنى الوصول فلأجل القرينة. فإنّ الوارد لا يدخل البئر التي يستقي منها الماء، وإنّما يقترب منها ويشاهدها.

هذا، وقيل في فلسفة وصول المؤمن إلى النار وإشرافه عليها، إنّه ليعلم تمام فضل الله عليه، وكمال فضله وإحسانه إليه، فيزداد لذلك فرحاً وسروراً بالجنّة ونعيمها.

٢. إنّ المراد بالورود هنا هو المرور عليها. ويؤيّد هذا الوجه روايات الصراط الواردة في مصادر الفريقين انظر: معاني الأخبار للصدوق:٣٢، باب معنى الصراط، برقم ١؛ وسنن الترمذي:٩٠٣، كتاب تفسير القرآن، برقم ٣١٧٠.، وخلاصتها أنّه جسر ممدود على جهنّم، يؤمر العباد جميعاً أن يمرّوا عليه، فيجوزه الأبرار، ويزلّ عنه ا لفجار فيهوون فيها. قال الإمام علي(عليه السلام):«وَاعْلَمُوا أَنَّ مَجَازَكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ (السّراط) وَمَزَالِقِ دَحْضِهِ، وَأَهَاوِيلِ زَلَلِهِ، وَتَارَاتِ أَهْوَالِهِ. فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ تَقِيَّةَ ذِي لُبٍّ شَغَلَ التَّفَكُّرُ قَلْبَهُ...». نهج البلاغة: الخطبة ٨٣.

قال الشيخ محمد جواد مغنية ـ بعد أن ذكر قول جماعة بأنّ الصراط شيء فوق جهنم ـ : وغير بعيد أن يكون المراد بالصراط هنا في قول الإمام(عليه السلام) نقاش الحساب الذي يُرهق، ويُهلك المجرمين والمترفين، ووطأة الحساب تشبه وطأة الحريق إلى حدّ بعيد. في ظلال نهج البلاغة:٢/١٦٤.

٣. إنّ المراد دخول النار حقيقة، ويدلّ عليه قوله تعالى في الآية التالية:(ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا): أي نتركهم باركين على ركبهم.

ويدلّ عليه بعض الروايات المرويّة في مصادر السنّة، منها ما رواه أحمد بن حنبل بإسناده عن كثير بن زياد، عن أبي سميّة قال:

اختلفنا هاهنا في الورود، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا: يدخلونها جميعاً، ثم ينجّي الله الذين اتّقوا، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له: إنّا اختلفنا في ذلك الورود، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن، وقال بعضنا: يدخلونها جميعاً، فأهوى بإصبعيه إلى أُذنيه وقال: صُمّتا إن لم أكن سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)يقول: «الورود الدخول، لا يبقى بَرٌّ ولا فاجر إلاّ يدخلها، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى إنّ للنار ـ أو قال: جهنم ـ ضجيجاً من بردها (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا). مسند أحمد: ٣ / ٣٢٨ ـ ٣٢٩. ونقله الطبرسي في مجمع البيان:٦/٥٠٦(وفيه: عن أبي سمينة خطأً).

وعلى هذا فما دلّ على أنّ المراد هو الاجتياز يؤوّل.

وقد استبعد الشيخ الطوسي هذا الوجه. انظر: التبيان في تفسير القرآن:١٤٣/٧.

استثناء قوم من الورود

بقي هنا كلام وهو أنّه يستفاد ممّا ورد في سورة الأنبياء أنّ طائفة ممّن سبقت لهم الحسنى لا يسمعون حسيس النار، فهل يمكن أن يَرِدُوا النار ثم يخرجوا منها ولا يسمعوا حسيسها؟ بل يدلّ على أنّهم مبعدون عن النار، قال سبحانه: (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيمَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ) الأنبياء:١٠١ـ ١٠٢..فكيف الجمع بين الآيتين، آية تدلّ على ورود الجميع النار، وأُخرى تدلّ على أنّ مجموعة من الناس لا يدخلونها بل لا يسمعون حسيسها وهم عنها مبعدون؟

والجواب: إنّ السؤال مبنيّ على أنّ قوله سبحانه:(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا) خطاب لعموم المبعوثين يوم القيامة مؤمنين كانوا أم مشركين، صالحين أم طالحين، وعندئذ يتوجه السؤال المذكور. ولكنّ التدبّر في الآيات الواردة في سورتنا هذه (مريم) يدلّ بوضوح على أنّ الخطاب موجّه لطائفة خاصّة من المبعوثين.

وإليك ما يدلّ على ذلك:

١. قال تعالى: (أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا). مريم:٦٧.

٢. قال تعالى: (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا) مريم:٦٨..

٣. قال تعالى: (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا) مريم:٧٠..

فالتدبّر في هذه الآيات التي تصف لنا حال المشركين المكذّبين بيوم الدّين وغيرهم من المكذّبين به، يثبت أنّ مورد الخطاب هم: المشركون، والفاسقون من الموحّدين، وعندئذ يكون الضمير في قوله:(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا) راجعاً إلى تينك الطائفتين، أي مَن أنكر المعاد أو خرج عن طاعة الله تعالى، ولا يشمل من أطاع الله سبحانه ليلاً ونهاراً، فطاب قلبه وزكت روحه.

وعندئذ يرتفع التعارض المتوهَّم، فما ورد في قوله سبحانه:(إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) لم يكن داخلاً في خطاب قوله سبحانه:(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا).

وبعبارة واضحة: يستفاد ممّا ورد في سورة مريم وما ورد في سورة الأنبياء أنّ الناس على أصناف ثلاثة:

١. المشركون المنكرون للمعاد.

٢. الموحّدون، ولكن خرجوا عن طاعة الله في فترات من أيام حياتهم.

٣. الذين سبقت لهم من الله الحسنى.

ثمّ إنّ الطائفتين الأُوليين حكم عليهما بقوله:(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا)لكن الطائفة الأُولى حكم عليها بالخلود، وإليه يشير سبحانه بقوله: (وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا).

وأمّا الطائفة الثانية فقد حكم عليها بقوله:

٧٢. (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا):

وبذلك يُعلم أنّ المراد من قوله سبحانه:(الَّذِينَ اتَّقَوْا): الذين اتّقوا نسبياً، ولذلك تُكتب لهم النجاة من النار بعد البقاء فيها مدّة، كلٌّ حسب ما اجترحه من المنكرات، كما أنّ المراد من قوله: (وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا)هم المشركون المنكرون للبعث. ووجه التعبير عنهم بالظالمين لأجل أنّ الشرك ظلم لله وتجاوزٌ على حقوقه، قال سبحانه: (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ). لقمان:١٣.

وأمّا الطائفة الثالثة فهم بعيدون عن النار وحسيسها.

الآيات: الثالثة والسبعون إلى السادسة والسبعين(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا....يرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا).

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْن هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا * قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلاَلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا * وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا).

المفردات

بيّنات: ظاهرات الحجج.

مقاماً: اسم مكان أُريد به الرفعة والمنزلة، كما في قوله تعالى:(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) الرحمن:٤٦..

نديّاً: مجلساً ومجتمعاً. يرادف النادي.

قَرن: القَرن: أهل كلّ عصر يجمعهم أمر واحد.

أثاثاً: الأثاث: متاع البيت.

وأحسنُ رِئياً: الرِّئي: على وزن فِعل، بمعنى مفعول، كذِبح بمعنى مذبوح، والمعنى: أحسن مرئيّاً ومنظراً وهيئة.

فليمدُد: المدّ والإمداد واحد، بمعنى الإمهال. قال الراغب: إنّ أكثر ما جاء الإمداد في المحبوب، والمدّ في المكروه.

جُنداً: أنصاراً.

الباقيات الصالحات: الأعمال التي تبقى آثارها.

مَرَدّاً: مرجعاً.

التفسير

٧٣.(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا):

يحكي سبحانه في فصول ثلاثة ما كان يحتجّ به المشركون، وهذا هو الفصل الأوّل، ويأتي الفصل الثاني في قوله سبحانه: (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ)، والفصل الثالث في قوله: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً)فلاحظ.

يظهر من بعض الآيات وما ورد في السيرة أنّ أكثر من كان حول الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) هم المستضعفون، وهؤلاء قد استقبلوا الإسلام بقلوب طاهرة وأيد خالية من زخارف الدنيا وأموالها، ولذلك اقترح بعض المشركين على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يطرد هؤلاء الفقراء، وجاء الوحي مندّداً باقتراحهم هذا قائلاً: (وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْء وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْء فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) الأنعام:٥٢.. فالمجتمعات التي تسود فيها القيَم المادّية تقيم وزناً للذين يتمتّعون بالثروة والجاه والسلطان، وقد يستدلّ المترفون بحياتهم الناعمة الراغدة على كونهم أصحاب كرامة عند الله تعالى كما حكى عنهم سبحانه ذلك بقوله:(وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ). سبأ:٣٥.

وفي هذا الإطار يأتي تعجّبهم من عدم نزول القرآن (عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) الزخرف:٣١.والله سبحانه يحكي في هذه الآية منطقهم الواهي ويقول: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ): أي التي تدلّ بإعجازها وإشراقها على أنّها وحي من الله سبحانه (قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا) بما أنّا خير منزلة وأحسن مجتمَعاً، فنحن لذو كرامة عند الله سبحانه!! يقولون ذلك بصورة الاستفهام (أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا)، إذ هم يومذاك في نواد فخمة ومجامع مُترَفة، وفي مقابلهم نواد متواضعة تضمّ مَن لا مال له ولا جاه دنيويّ. ومن المعلوم أنّ الكافرين يومذاك كانوا خيراً مقاماً وأحسن نديّاً حسب الموازين المادّية، ولكن كونهم كذلك لا يلازم كونهم أعزّاء عند الله تعالى، وذلك ما تدلّ عليه الآية التالية:

٧٤. (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا):

لو كانت الزخارف الدنيوية والثروة الطائلة دليلاً على الكرامة، لَمَا أهلك سبحانه أقواماً أحسن منهم متاعاً ومنظراً، كما يقول:(وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ): أي من أناس مجتمعين في عصر واحد، كعاد وثمود (هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا).

ومن ظريف الكلام هو أنّه سبحانه قابل مقالهم بنفس مقالهم، حيث إنّهم قالوا:

(خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) فوصف سبحانه الهالكين بقوله: (أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا): أي أحسن متاعاً وأحسن منظراً وهيئة، وهذا النوع من الجواب من الله سبحانه جواب نقضيّ. قيل: إنّ المعنيّ بالآية، النضر بن الحارث، وذووه، وكانوا يرجّلون شعورهم ويلبسون خزّ ثيابهم ويفتخرون بشارتهم وهيئاتهم على أصحاب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم). مجمع البيان:٦/٥٠٧.

إنّ هؤلاء المترفين العتاة يرون ظواهر الأمر غافلين عن أنّ كلّ ما يتمّتعون به من زخرف الحياة الدنيا، هو إمهال لهم واستدراج، وسوف ينقلب عليهم ضرراً وخسراناً، كما تشير إليه الآية التالية:

٧٥. (قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا):

(قُلْ) يا محمد (مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ) مستغرقاً فيها عادلاً عن طريق الحقّ إلى الباطل، كان على الرحمن ـ كما تقتضي حكمته ـ إمداده وإمهاله إلى مدّة، كما يقول: (فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا) هذا أمر، ولكن المقصود هو الإخبار، قال الطبرسي: إنّ الله سبحانه جعل جزاء ضلالته أن يمدّ له بأن يتركه فيها كما قال: (وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) الأنعام:١١٠. إلاّ أنّ لفظ الأمر يؤكّد معنى الخبر مجمع البيان: ٦ / ٤٤٤ ، وأوضحه السيد الطباطبائي بقوله: قوله:(فَلْيَمْدُدْ) صيغة أمر غائب ويؤول معناه إلى أنّ من الواجب على الرحمن أن يمدّه مدّاً، فإنّ أمر المتكلّم مخاطبه بأن يأمر بشيء معناه إيجاب المتكلّم ذلك على نفسه. الميزان في تفسير القرآن:١٤/١٠١.

ولكنّ هؤلاء يتصوّرون أنّ إمدادهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة لأجل كرامتهم عند الله، غافلين عن أنّه استدراج لهم وإملاء منه تعالى، كما قال: (وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) القلم:٤٥. وأنّ الغاية منه إظهار ما في مكنونات صدورهم وقلوبهم من الكفر والعناد، حتى يلاقوا أحد العذابين، كما يقول: (حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ)أُريد من الموصول العذاب المُبهَم، والتبيين فيما بعد: إمّا في الدنيا كما يقول: (إِمَّا الْعَذَابَ)كما ذاقوه في غزوة بدر وغيرها، أو في الآخرة كما يقول: (وَإِمَّا السَّاعَةَ): أي القيامة، فعندئذ يتميّز أصحاب الكرامة الحقيقيون عند الله عن غيرهم كما يقول:(فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا).

فقوله: (شَرٌّ مَكَانًا) في مقابل قولهم:(خَيْرٌ مَقَامًا).

وقوله: (وَأَضْعَفُ جُنْدًا) في مقابل قولهم: (وَأَحْسَنُ نَدِيًّا).

هذا، وممّا ورد في التحذير من أن يكون الإمداد بالنّعم الدنيوية استدراجاً، قول الإمام علي(عليه السلام): «كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإحْسَانِ إِلَيْهِ، وَمَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ! وَمَا ابْتَلَى اللهُ أَحَداً بِمِثْلِ الْإمْلاَءِ لَهُ». نهج البلاغة: قصار الحكم،

برقم ١١٦.

ولمّا عاتب النعمان بن بشير ـ بأمر من معاوية ـ قيس بن سعد بن عُبادة، على وقوف الأنصار إلى جانب علي(عليه السلام) في حروبه، قال قيس(من جملة ما قال): انظر يا نعمان، هل ترى مع معاوية إلاّ طليقاً، أو أعرابياً، أو يمانياً مستدرَجاً بغرور؟! انظر أين المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه... شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد:٨ /٨٨,٧٦. (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا):

هداية بعد هداية أُخرى

الظاهر أنّ قوله:(وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى) معطوف على قوله: (مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا)، فالله سبحانه توعّد الكافرين بالإمهال والاستدراج، وفي مقابله يبشّر الذين اهتدوا بزيادة الهدى، فالمنهمكون في المعاصي يزيدهم المدّ والإمهال ضلالة على ضلالة، وأمّا الذين استقاموا على الإيمان فيُمدّهم سبحانه بألطافه، ويزيدهم هدى على هداهم، كما يقول:(وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى)ومن ثمّ يوفّقون للأعمال الصالحة، كما يقول: (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ) وهي(خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا): أي مرجعاً، حيث يفوز الإنسان إذا قرن بين الإيمان وأفعال الخير بالنعيم الدائم في جنات الخلد. وما أجمل قول المعاصر:«التعب في أعمال الخير محطّة استراحة الأكرمين». القيم الإنسانية للدكتور محمود الموسوي:٤٨/١.

قال الراغب: الثَّوب: رجوع الشيء إلى حالته الأُولى التي كان عليها، وسمّي جزاء الأعمال ثواباً بتصوّر أنّه هوهو، ألاترى كيف جعل الله تعالى الجزاء نفس العمل وقال: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) الزلزلة: ٧.ولم يقل: جزاءه.

الآيات: السابعة والسبعون إلى الثمانين(أَفَرَأَيْتَ الذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا.... وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا).

(أَفَرَأَيْتَ الذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا * أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا * وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا).

المفردات

أطّلع: أصله (أإطّلع) حذفت همزة الوصل وبقيت همزة الاستفهام المفتوحة. واطّلع المشدّد أصله اطتلع من باب الافتعال، فقلبت التاء طاءً وأُدغمت فيما قبلها وصار أإطّلع، أي أبلَغ إلى درجة أشرف فيها على علم الغيب؟

عهداً: ميثاقاً يلزم مراعاته.

كلاّ: حرف زجر وردع.

سنكتب: أُريد به الإظهار.

نمدّ له من العذاب: أي نطيله.

ونرثه ما يقول: نسلب ما يقول ونأخذه بموته. شبّه أخذ الوارث ما يرثه.

فرداً: مجرَّداً عن المال والولد.

التفسير

الآيات الأربع التي نحن في صدد تفسيرها هي أشبه بما مرّ في المجموعة السابقة من الآيات التي حكى فيها سبحانه منطق المشركين وتفاخرهم بالمقام والمجلس، ثمّ إبطاله بما ورد في قوله: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا)، فهذه المجموعة نظير تلك، حيث يحكي فيها سبحانه منطقاً آخر للمشركين يفتخرون به على المؤمنين، ثمّ يبطله بقوله: (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ). وأمّا ما هو منطقهم الذي استعلَوا به على المؤمنين؟

فهناك وجهان:

الأوّل: الاعتماد على ما ورد في الروايات، فعن ابن عباس أنّ رجالاً من أصحاب النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كانوا يطلبون العاص بن وائل بدَين يتقاضَونه، فقال: ألستم تزعمون أنّ في الجنة ذهباً وفضةً وحريراً ومن كل الثمرات؟ قالوا: بلى، قال: فإنّ موعدكم الآخرة، والله لأوتينّ مالاً وولداً.

وفي رواية أُخرى: كان لرجل من أصحاب النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) دَين على رجل من المشركين فأتاه يتقاضاه، فقال: ألست مع هذا الرجل؟ قال: نعم، قال: أليس يزعم أنّ لكم جنة وناراً وأموالاً وبنين؟ قال: بلى، قال: اذهب فلست بقاضيك إلاّ ثمّة، فأُنزلت: (أَفَرَأَيْتَ الذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا) إلى قوله: (وَيَأْتِينَا فَرْدًا). تفسير الدر المنثور:٥/٥٣٦.وهذا هو الذي استند إليه أكثر المفسّرين.

يلاحظ عليه: أنّ القائل إذا كان من المشركين فهو لا يقول بيوم البعث فضلاً عن كونه ذا ولد ومال، ولو قاله استهزاء فهذا لا يليق بالردّ والإبطال.

وحصيلة الكلام: إنّ العاص بن وائل السَّهميّ ومن على شاكلته ينكرون المعاد، فكيف يَعِدون بوفاء الدَّين في ذلك اليوم؟! فلم يبق إلاّ قولهم بذلك تهكّماً واستهزاءً، وهو أنزل من أن يتعرّض له القرآن بالإبطال.

الثاني: ما ذكره السيد الطباطبائي ـ ضارباً بروايات سبب النزول عرض الجدار ـ بأنّ الظاهر أنّ بعض من آمن بالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، أو كان على عتبة الإيمان بعدما سمع قول الكفّار(المحكي في المجموعة السابقة من الآيات): نحن (خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) مالَ إليهم ولحق بهم قائلاً: (لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا)في الدنيا باتّباع ملّة الشرك، على خلاف ملّة التوحيد. انظر: الميزان في تفسير القرآن:١٤/١٠٣.

٧٧. (أَفَرَأَيْتَ الذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا):

يقول سبحانه حاكياً مقولة ذلك المستغوي بقول الكفّار: (أَفَرَأَيْتَ الذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا) بعد أن كان مؤمناً بها أو على عتبة الإيمان بها؟!والهمزة هنا للاستفهام التعجّبي. ثمّ إنّه لماذا كفر؟ يبيّنه قوله: (لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا) فكأنّ الكفر يلازم المال والولد على خلاف غيره!! ثمّ إنّه سبحانه يُبطله بقوله:

٧٨.(أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا):

أي من أين يقول ذلك، وأنّ الكفر يترتّب عليه كثرة المال والأولاد؟ فمقولته تلك لها طريقان:

١. ارتقاؤه إلى درجة يشرف بها على علم الغيب ومعرفته، وإليه يشير سبحانه بقوله: (أَطَّلَعَ الْغَيْبَ).

٢. أن يكون عنده ميثاق من الله سبحانه، وإليه يشير بقوله:(أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا).

ثمّ أكّد سبحانه بقوّة أنّه لم يحصل له كلا الطريقين، وقال:

٧٩. (كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا):

كلاّ ليس الأمر كذلك، فهو أتفه من أن يطّلع على الغيب أو يكون له عند الله عهد، فإن لوفرة المال والولد أسباباً طبيعية يصل إليهما مَن تمسّك بها، فكيف يكون الكفر سبباً لهما؟

ثمّ إنّه سبحانه يتوعّده بأُمور:

الأوّل:(سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ): أي نثبته ليواقف عليه يوم القيامة.

الثاني:(وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا): أي نزيده عذاباً فوق العذاب .

٨٠ . (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا):

الثالث:(وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ): أي ما عنده من المال والولد بعد إهلاكنا إيّاه.

الرابع: (وَيَأْتِينَا فَرْدًا) مجرّداً عن المال والولد.

الآيات: الحادية والثمانون إلى السابعة والثمانين(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً....لاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا).

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا * كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا * أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا * فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا * يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا * لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا).

المفردات

عزّاً: منَعَة وقوّة.

سيكفرون: سيجحدون.

تؤزّهم: الأزّ والهزّ بمعنى واحد، وهو التحريك بشدّة وإزعاج. والمراد تهييج الشياطين إيّاهم إلى الشرّ.

وفداً: الوفد (جمع وافد): الذين يقدمون على أكابر القوم لقضاء الحوائج.

إلى الرحمن: إلى جنّة الرحمن.

ورداً: عِطاشاً. وكأنّه مأخوذ من ورود الماء للشرب، ولا يكون الورود إلاّ عن عطش.

التفسير

٨١.(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا):

شرك المشركين في الربوبية

هذا هو الفصل الثالث من الفصول التي يحكي فيها سبحانه منطق المشركين ويردّ عليه، فيقول: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً) كالملائكة والجنّ والقدّيسين من الإنس حتى الجبابرة كفرعون، زاعمين بأنّ لهم دوراً في أمر التدبير ومصير الإنسان، ولأجل ذلك يعبدونهم (لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا): أي لتكون لهم العزّة والمَنعَة بهم في الدنيا. وبما أنّ المشركين كانوا منكرين للبعث، فالغاية من اتّخاذهم آلهة هو أن يشفعوا لهم عند الله ليصيروا معزّزين في الدنيا، بكونهم ذوي مَنَعة وقدرة في مجالَي المال والولد.

ثمّ إنّ قوله: (لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا) أدلّ دليل على أنّ مشركي عصر الرسالة كانوا مشركين في أمر التدبير بشهادة أنّهم كانوا يرون العزّة بأيدي الآلهة، كما كانوا يرون النصر بأيديهم، قال سبحانه حاكياً عنهم:(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ) يس:٧٤. ومن هنا يتّضح الخطأ الذي ارتكبه ابن عبد الوهاب ومَن تبعه من حصر شرك مشركي العهد النبوي بالشرك في العبادة فقط، وإنّما قالوا ذلك ليتسنّى لهم عطف المسلمين المتوسّلين بالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) على المشركين بحجّة أنّ توسُّل هؤلاء لا يختلف عن توسُّل المشركين بالآلهة المكذوبة!!

يلاحظ عليه: بأنّ عطف توسّل المسلمين بالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) على توسّل المشركين بالأصنام من باب عطف المباين على المباين، فأين الموحّد في الربوبيّة والتدبير، أعني: مَن لا يرى العزّة والنصر إلاّ بيد الله، ممّن يرى العزّة والنصر ونزول المطر بيد الأصنام؟ فكيف يكون التوسّلان من واد واحد؟ (مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ). الصافات:١٥٤.

٨٢ . (كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا):

الآية تشتمل على ضمائر أربعة، يرجع اثنان منها إلى الآلهة المكذوبة، أعني: ما في قوله تعالى: (سَيَكْفُرُونَ)و(يَكُونُونَ) .

وأمّا الآخران، أعني ما في قوله تعالى: (بِعِبَادَتِهِمْ)، (عَلَيْهِمْ)فيرجعان إلى عبّادهم من المشركين.

ثم إنّ قوله: (ضِدًّا)وصف للآلهة، كما أنّ قوله: (عِزًّا) كان وصفاً لها.

إذا تقرّر ذلك، فلندخل في تفسير الآية.

بما أنّ يوم القيامة هو يوم ظهور الحقائق وانكشاف الواقعيات، فإنّ الآلهة سينقلبون إلى الضدّ ممّا كان يأمل منهم المشركون، وعندئذ يقفون منهم موقف العداء ويكفرون بعبادتهم كما يقول: (كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ)ومن ثمّ (وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) وهذا يدلّ على أنّ العزّة لم تكن بأيدي الآلهة وإلاّ لثبتوا على ذلك، فتكون الآية ردّاً لما جاء في الآية السابقة من تعزّزهم بالآلهة، أعني قوله: (لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا). وقد جاء هذا المضمون في آية أُخرى قال تعالى: (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِير * إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ). فاطر:١٣ و١٤.

٨٣ . (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا):

إنّ المشركين لمّا عكفوا على عبادة الآلهة المزيّفة، وأعرضوا عن آيات الله والإرشاد النبويّ عناداً واستكباراً، تركهم سبحانه والشياطين تهيّجهم على الشرّ والفساد، فعبّر سبحانه عن ذلك بالإرسال كما يقول: (أَلَمْ تَرَ): أي كيف ترى (أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ) ولا ضير في نسبة الإرسال إليه سبحانه، لأنّ الشياطين إنّما يتسلّطون على مَن استحبّوا العمى على الهدى، فالإرسال لم يكن منه ابتداءً، وإنّما هو مجازاة لأعمالهم (تَؤُزُّهُمْ أَزًّا): أي تهيّجهم على الفساد وعلى التمادي في الغيّ والضلال، وتغريهم بذلك إغراءً. ونحو هذه الآية، قوله سبحانه: (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) الزخرف:٣٦ و ٣٧.ولكنّه سبحانه يحفظ المؤمنين من كيد الشياطين لقوة إيمانهم وصلاح عملهم لقوله: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوِينَ). الحجر:٤٢.

٨٤ . (فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا):

الآية تطييب لنفس النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، فكأنّ مقتضى الحال الاستعجال بإهلاك الذين يستهزئون بالدين، ويؤذون النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، لكنّه سبحانه يسلّي النبيّ ويخاطبه بقوله:(فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا): أي نعدّ لهم الأيام والسنين أو نعدّ أنفاسهم في الدنيا إلى أن يبلغ الأجل الذي أجّلنا لهم في الدنيا. قال الإمام علي(عليه السلام): «نَفَسُ الْمَرْءِ خُطَاهُ إِلَى أَجَلِهِ».

نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ٧٤.

وقد أخذ هذا المعنى أحد المعاصرين، فقال:

نَفَسي خُطايَ تقودُني نحو الأجَلْ *** فَدَعِ التواني، واتّبعْ خيرَ العملْ

فإلى متى تعصي إلهَكَ عامداً *** وتَروغُ عن قَصْد السبيل وتُستزَلْ؟

أجعَلْته صَلَفاً كأهْونِ ناظر *** هلاّ اتّعظتَ بحادث فذَّ جَلَل

لمّا تجلّى الله جلَّ سناؤه *** أضحى هباءً ساطعاً ذاك الجبلْ

أم هل أمِنتَ عقابَه متغافلاً *** عن موقف أدنى شدائده الوَهَلْ؟

ومضات في الليل البهيم لحيدر الطحّان البغدادي:٨٠.

٨٥ . (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلى الرَّحْمنِ وَفْدًا):

لمّا دلّت الآيات السابقة على أنّ المشركين لا ينتفعون بعبادتهم، حتى أنّ الآلهة سينقلبون عليهم ضدّاً، بيّن سبحانه في هذه الآية مصير المتّقين، وفي الآية التالية مصير المجرمين. أمّا الأوّل فقال فيه: (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ)الذين استجابوا لله ولرسوله تقرّباً (إِلَى الرَّحْمنِ): أي إلى جنّته ودار كرامته (وَفْدًا) تشبيهاً بالوفد الذي يرحل إلى أعاظم القوم لاستنجاز الحاجة. والتعبير يُشعر بالتكريم والرعاية.

وأمّا مصير المجرمين فهو ما تذكره الآية التالية:

٨٦ . (وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا):

أي نسوقهم إلى مصيرهم السيّئ، وتعليق السَّوق إلى جهنّم بوصف الإجرام كما قال: (وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ) يُشعر بالعِلِّيّة، مثلما يشعر تعليق الحشر إلى الرحمن في الآية المتقدّمة بوصف التقوى. وبيّن سبحانه حالهم عند سوقهم إلى جهنّم بقوله:(وِرْدًا): أي عطاشاً.

٨٧ . (لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا):

لمّا كان هنا سؤال عن وجه عدم انتفاع المشركين بشفاعة الآلهة، جاءت الآية إجابة لهذا السؤال، وهو أنّ حقّ الشّفاعة لله سبحانه وحده كما قال في سورة أُخرى:(قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا) الزمر:٤٤، وكما يقول في المقام: (لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ) إلاّ فريق واحد، وهو ما عبّر سبحانه بقوله: (إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا). وأمّا ما هو المراد من اتّخاذ العهد، فلعلّ المراد منه إذنه سبحانه له كما يقول (يَوْمَئِذ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ) طه:١٠٦.. ويحتمل أن يراد من اتّخاذ العهد هو الشهادة بالحقّ كما يقول: (وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ) الزخرف:٨٦..

وربّما يفسَّر بمَن قال بالإيمان بالله والتصديق بالنبوّة، وهو كماترى، فإنّ الشفاعة مقام رفيع لايأذن الله بها لأحد من عباده إلاّ إذا كان مخلصاً، قد خلصت نفسه من كلّ هوى، وخاف مقام ربّه الأعلى، ولا يكفي مجرّد الإيمان بالأمرين. والله العالم.

وقد أجمل سبحانه صفات الشفعاء وأسماءهم لمصلحة هو أعرف بها، ولكن صرّح في آية أُخرى بشفاعة الملائكة، فقال: (وَكَمْ مِنْ مَلَك فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) النجم:٢٦..

الآيات: الثامنة والثمانون إلى الخامسة والتسعين(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا.... وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا).

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا).

المفردات

جئتم: فعلتم.

إدّاً (بالكسر والفتح): أمراً منكراً عظيماً.

يتفطّرنَ: التفطُّر: التشقُّق.

تخرّ: تسقط.

هدّاً: الهدّ: الهدم.

عبداً: مطيعاً منقاداً.

فرداً: لا شيء معه من الأنصار والأتباع.

التفسير

الفصل الرابع الذي يتضمّن حكاية أقوال المشركين.

هذا هو الفصل الرابع الذي يتضمّن حكاية أقوال المشركين.

٨٨ . (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا):

قوله تعالى: (وَقَالُوا) عطف على قوله: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً)، وأُريد بهم أُولئك الذين نسبوا إلى الله ولداً، وهم ثلاث طوائف:

١. المشركون، كما في قوله سبحانه: (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا). الإسراء: ٤٠.

٢. النصارى، كما في قوله سبحانه: (وَقَالَتِ النَّصَارى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ).(التوبة:٣٠.)

٣. اليهود، كما في قوله سبحانه: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ). التوبة:٣٠.

وقد هدّد الله سبحانه تلك الطوائف في عدد من الآيات، لكنّه سبحانه ذكر قولهم هنا بأُسلوب رهيب، وردّ عليهم بوجوه:

الأوّل:

٨٩ . (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا):

أي لقد فعلتم أمراً منكراً فظيعاً؛ وذلك لأنّ الولد شبيه بوالده، والله سبحانه ليس له مثل. ثمّ إنّ اتّخاذ الولد لأجل الحاجة نفسياً أو بدنياً، والله غنيٌّ عن العالمين، إلى غير ذلك من الدلائل.

الثاني والثالث:

٩٠. (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا):

لقد بلغت فظاعة هذا القول إلى حدّ (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ)ويسقطن (وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ): أي كادت الأرض تنشق وتنصدع (وَتَخِرُّ الْجِبَالُ): أي كادت الجبال تسقط وتتهاوى (هَدًّا): أي سقوطاً شديداً، وما ذلك إلاّ لأنّه أعظم افتراء على الله سبحانه، حيث يقولون منكراً من القول وزوراً. قال تعالى: (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا) الكهف:٥..

٩١. (أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا):

قوله:(أَنْ دَعَوْا) علّة لكلّ من الأفعال الثلاثة، أعني: (يَتَفَطَّرْنَ)و(تَنْشَقُّ) و(تَخِرُّ). و(أَنْ) مصدرية، أصلها لأن دعوا، أي هذه الأُمور العظيمة من التفطّر والتشقّق والخرور، لأجل نسبتهم للرحمن ولداً، فقوله: (دَعَوْا) بمعنى النسبة، نظير قوله:(ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ) الأحزاب:٥..

الرابع:

٩٢.(وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا):

قوله: (وَمَا يَنْبَغِي) يحتمل وجهين:

الأوّل: (مَا يَنْبَغِي): أي ما يتأتّى وليس ممكناً.

الثاني: لا يليق بالرحمن وهو دون شأنه. وعلى كلّ تقدير، فسواء فسّرنا بنفي الإمكان أو بنفي الشأن، لا ينبغي للرحمن أن يتّخذ ولداً، بل اتّخاذ الولد من المحالات، دلّ على استحالة اتّخاذه الولد، دلائل لزوم توحيده وأنّه واحد لا مثل له وامتناع مثله، إلى غير ذلك من الأدلّة. فلو كان له ولد، بما أنّ الولد مثل الوالد، يلزم وجود مثل له.

ثمّ إنّ قسماً من المشركين أو النصارى لجأوا إلى القول بالبنوّة التشريفية، وهذه أيضاً نظرية ساقطة، إذ لا أشرف من العبودية، كيف والبنوّة التشريفية تزييف لساحة الرحمن.

ثمّ إنّ المشركين كانوا يتأذّون من سماع اسم الرحمن، قال سبحانه:

(وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ) الفرقان:٦٠، ولعلّ ذكر اسم الرحمن هنا لقصد إغاظتهم بسماع اسم أنكروه.

الخامس:

٩٣. (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا):

هذا هو الردّ الخامس على تلك المقولة المنكرة التي تنسب الولد إلى الله سبحانه، وبيانه: أنّ الولد المدّعى لا يخلو من أن يكون في السماوات أو في الأرض مع أنّ الجميع سيأتون يوم القيامة عباداً خاضعين لله تعالى منقادين لحُكمه، كما يقول: (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ): أي عُلوياً وسُفلياً (إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا). فأين هذا الولد الذي يكون كالوالد غير خاضع ولا مُنقاد؟

٩٤. (لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا):

أي لقد أحاط بهم سبحانه وعلم تفاصيلهم وأعدادهم وصفاتهم، فليس فيها مَن يوصف بكونه ولداً لله تعالى.

السادس:

٩٥. (وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا):

بما أنّ المشركين نسبوا إلى الله سبحانه ولداً، حتى يتّخذوه شفيعاً لهم عند الله، فالله سبحانه أيأسهم بقوله: (وَكُلُّهُمْ): أي كلّ مَن في السماوات والأرض(آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) دون أن يكون معهم واحد مَن هؤلاء الشفعاء. وهذه الفقرة تكون حجّة على مَن يعتقد بيوم البعث كالنصارى واليهود دون المشركين.

وهذه الحجج الستّ كأنّها تعبير عن شيء واحد، يقول السيد الطباطبائي: ومحصّلها أنّ كلّ مَن في السماوات والأرض عبد لله مطيع له في عبوديته ليس له من الوجود وآثار الوجود إلاّ ما آتاه الله فأخذه هو ممتثلاً لأمره تابعاً لإرادته من غير أن يملك من ذلك شيئاً، وليس من عبوديتها هذا فحسب، بل الله أحصاهم وعدّهم فسجل عليهم العبودية وأثبت كلاًّ في موضعه وسخّره مستعملاً له فيما يريده منه فكان شاهداً لعبوديته... إلخ». الميزان في تفسير القرآن:١٤/١١٢.

الآيات: السادسة والتسعون إلى آخر السورة(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.... أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا).

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا).

المفردات

ودّاً: محبّة.

بلسانك: بلغتك، وهي العربية، قال تعالى: (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ). الشعراء: ١٩٥.

لُدّاً: جمع ألَدّ، وهو الشديد الخصومة، يقال: لَدَّ لَدَداً، أي اشتدّت خصومتُه ولَجاجته.

تُحسّ: من الإحساس، وهو الإدراك بالحسّ.

رِكزاً: الرِّكز: الصوت الخفيّ.

التفسير

جرت سنّة الله سبحانه في الذكر الحكيم على المقابلة بين الكفّار والمؤمنين، فلمّا ذكر في المجموعة السابقة بأنّ الكفار يأتون يوم القيامة مجرّدين ليس معهم شيء، أفاد في هذه المجموعة بأنّ المؤمنين على عكس ذلك، حيث قال:

٩٦. (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا):

أي ينتهي أمره أنّه سبحانه (سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا): أي يأنس بعضهم ببعض، وأنّهم يحشرون بالمودّة والتكريم. هذا إذا كان هذا الأمر راجعاً إلى يوم القيامة. وقيل في معنى الآية: إنّ الله سبحانه يُحدث في قلوب عباده مودّة لأهل الإيمان والإخلاص لا لشيء إلاّ تقديراً للفضيلة والخلق الكريم.(التفسير الكاشف: ٥/٢٠١.)

والظاهر أنّ الآية أوسع ممّا ذُكر، بل هي تعمّ الدنيا والآخرة.

هذا، وممّا ورد في أسباب النزول، ما رواه فرات الكوفي بإسناده عن عطيّة العوفي، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي: يا أبا الحسن، قل: اللّهُمَّ اجعل لي عندك عهداً، واجعل لي عندك ودّاً، واجعل لي في قلوب المؤمنين مودّة. فنزلت هذه الآية... تفسير فرات الكوفي:٢٥٢، برقم ٣٤٤. ونقله عنه الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل:٤٧٤/١، برقم ٥٠٤.

وروى نحوه أبو حمزة الثُّماليّ، عن أبي جعفر الباقر(عليه السلام). نقل ذلك الطبرسي عن تفسير الثّمالي، وقال: وروي نحوه عن جابر بن عبد الله الأنصاري. مجمع البيان:٥١٩/٦.

وقال السيوطي في الدر المنثور: أخرج ابن مردويه والديلمي، عن البراء قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)لعليّ: «قل: اللّهُمَّ اجعل لي عندك عهداً، واجعل لي عندك ودّاً، واجعل لي في صدور المؤمنين مودّة، فأنزل الله: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا)قال: نزلت في عليّ. تفسير الدر المنثور: ٣ / ٥٤٤.

لا شكّ في أنّ علياً(عليه السلام) (وكذا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)) أعلى مصداق لهذه الفضيلة، فكلّ مَن يدين بدين الإسلام، إذا لم يكن بينه وبين الواقع حاجز، يحبّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وأولاده، ولكن ظاهر الآية أنّ الموضوع أوسع من ذلك .

ثمّ إنّ التجربة تؤيّد ذلك جدّاً، فكلّ مَن خدم المجتمع بعمل نافع نرى أنّ له في قلوب الناس محبّة وودّاً، ولذلك صار للأنبياء والأولياء والمخلصين الذين قدّموا إلى المجتمع الإنساني خدمات جليلة، صار لهؤلاء مقامٌ سام في قلوب الناس حسب درجة معرفتهم بمقاماتهم وأعمالهم الصادقة الصالحة.

٩٧. (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا):

هذه الآية وما بعدها خير ختام لما جاء في هذه السورة حيث بعدما وصفت المشركين باللّدد والخصام والعناد في مقابل الحقّ، ذكر تعالى ـ تطييباً لقلب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وتسلية له ـ أنّ الله أنزل الذّكر الحكيم بلغة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لأمرين: قال: (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ) وهذه الفقرة تدلّ على أنّ القرآن سُهّل بلسان النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم). ولعلّ المراد أنّ للذكر الحكيم وجودين:

١. وجود في أُمّ الكتاب وهو غير سهل ولا ميسّر كما قال: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) الزخرف:٣ و٤.فمادام القرآن بوجوده الإجمالي في أُمّ الكتاب كان غير ميسَّر تلاوة وفهماً، ولكن نزوله من أُمّ الكتاب على قلب النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الذي سبّب سوقه بلسان عربي مبين سهُلت تلاوته وفهمه، وإلى ذلك يشير بقوله: (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ) وأُريد من اللسان اللغة، لا الجارحة المعروفة.

ثمّ إنّ الغاية من ذلك أحد أمرين:

١. (لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ)الذين على استعداد لفهم القرآن والعمل به.

٢. (وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا): أي قوماً شديدي الخصومة حتى تتمّ الحجّة عليهم.

هذا ما فهمناه من الآية، والله العالم.

٩٨. (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا):

لمّا تقدّم في الآية السابقة بأنّ شأن القرآن هو إنذار قوم لُدّ، فجاءت هذه الآية نوع إنذار لهم، وهو عطف نظرهم على من قبلهم من الطوائف الطاغية الذين كانوا أكثر منهم مَنعَة وقوّة، فقال: (وَكَمْ) كناية عن كثرة العدد (أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ): أي قبل مشركي قريش (مِنْ قَرْنٍ) والقرن هم أهل زمان واحد متقارب اشتركوا في أمر من الأُمور المقصودة(هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ): أي هل تدرك

أحداً منهم فتراه وتعاينه؟ (أَوْ) هل (تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا): أي صوتاً خفيّاً؟ فلا أعيانهم موجودة ولا أصواتهم مسموعة.. لقد اضمحلّوا فلاترى لهم أثراً.

***

تمّ تفسير سورة مريم

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه (١) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٣) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨) وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١) اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (٤٢) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٤٨) قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ

بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ
أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤) قَالُوا يَا مُوسَى
إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ
فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ
السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ
الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى
(٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا
لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا
(٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ
جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (٧٧)
فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (٧٩) يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ
عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ
عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢) وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ
قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ
(٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ
عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا
فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ
قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا
أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ
أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤)
قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦)
قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ
لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨) كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ
وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ
يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ
طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا
وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا
مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ
خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا
وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ
وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤) وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ

فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا
وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى
(١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ
عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣)
وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ
كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى
(١٢٧) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (١٢٨) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ
مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ
فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ
خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢) وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ
رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ
مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (١٣٥)

خصائص السورة

تسمية السورة

سُمّيت السورة في المصاحف بسورة (طه) لوقوع هذين الحرفين أو هذا الاسم في أوّل السورة.

يُذكر أنّ لكلّ حرف من الحروف الثمانية والعشرين، اسماً خاصّاً به، مثلاً«أ» حرف والاسم منه «الف» و «ب» حرف والاسم منه «با»، وهكذا المقام، فاسم السورة مركّب من حرفين «ط» و«ه»، فيكتب الاسم بالحروف «طه» ويتلفّظ على الاسم «طاها».

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها ١٣٥ في عدّ الكوفي، و١٣٤ في عدّ الحجازي، و١٣٢ في عدّ البصري، وقد عيّن الطبرسي في «مجمع البيان» موارد اختلاف القرّاء في عدّ الآيات.

وهي مكيّة، تدلّ على ذلك مضامين آيات السورة. نعم ربّما يستثنى منها بعض الآيات. قال السيوطي في «الإتقان»: استُثني منها آية: (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا) طه:١٣٠.. وربّما يستثنى أيضاً قوله: (وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) طه:١٣١، وليس ثَمّ دليل صالح للاستثناءين.

أغراض السورة

تضمّنت السورة تاريخ الرسالة الموسوية على وجه التفصيل، ثمّ ذكرت قصة آدم وزوجه كذلك. ولذا فالسورة نوع تسلية للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)بالإشارة إلى أنّ تاريخ الرسالات السماوية كان مقروناً بالنَّصَب والعناء، ولم تزل فئة كبيرة من المترفين تناهض رسالات الأنبياء ودعواتهم، والرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) مدعوّ إلى أن لا يحزن بما يسمع وما يقابَل به من تكذيب واستهزاء من تلك الفئة، ولذلك افتُتحت السورة بدعوة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أن لا يُتعب نفسه في تبليغ الرسالة.

هذا، وقد جاء في ثنايا السورة ذكر البعث وتهويل يوم القيامة وما يتقدّمه من الحوادث والأهوال.

الآيات: الثمان الأُولى(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى..... لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنى).
(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى * تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنى).

المفردات

لِتشقى: حكى الراغب عن بعضهم أنّه قال: قد يوضع الشَّقاء موضع التَّعب، يقال: شقيتُ في كذا. المفردات للراغب:٢٦٥، مادة «شقا».

إلاّ تذكرة: استثناء منقطع من قوله: (لِتَشقى)، وهو مصدر بمعنى الفاعل أي مذكِّراً، ومفعول لقوله: (ما أنْزَلنا).

تنزيلاً: مصدر بمعنى اسم المفعول، حال من القرآن.

العُلى: جمع عَلْيا مؤنث أعلى.

العرش: يطلق تارة على السقف كما في قوله: (وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) البقرة:٢٥٩، وأُخرى على سرير المَلِك كما في قوله تعالى: (أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا). النمل:٣٨والعرش هنا كناية عن المُلك والتدبير، وإنّما عبّر سبحانه عن ذلك بالاستواء على العرش لأنّ المَلك يدبّر شؤون مملكته من على عرشه.

استوى: الاستواء هنا بمعنى التمكّن التام والاستيلاء المطلق.

الثَّرى: التراب النَّديّ، والمراد هنا مطلق التراب. وما تحته، هو باطن الأرض كلّه.

السرّ: من الإسرار خلاف الإعلان، قال تعالى: (سِرًّا وَعَلاَنِيَةً). إبراهيم:٣١.

أخفى: أي أخفى من السرّ. روي عن ابن عباس أنّه قال: ما أضمره في نفسه ولم يحدّث به غيره، وقيل غير ذلك.

التفسير

١ و٢.(طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى):

اختلف المفسّرون في المراد من لفظ (طه) على وجوه:

١. هو من الحروف المقطّعة، ويأتي فيه ما ذُكر في عامّة الحروف المقطّعة في القرآن الكريم، وسوف تقرأ تفصيل ذلك في تفسيرنا لسورة الأحقاف.

٢. أنّه من أسماء النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم). وهذا هو الأظهر. ويشهد لذلك وجود الخطاب في الآية الثانية، أعني قوله تعالى: (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى)وكأنّه قال: يا طه ما أنزلنا... إلخ.

ونظير ذلك قوله تعالى: (يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ) يس:١ و٢. فالظاهر أنّه من أسماء النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لوجود الخطاب بعده، وهو قوله: (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) يس:٣..

ويؤيّد ذلك أيضاً ما ورد من الروايات.

قال السيوطي: أخرج ابن مردويه عن أبي الطفيل قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «لي عشرة أسماء عند ربّي» قال أبو الطفيل: حفظت منها ثمانية: محمد، وأحمد، وأبو القاسم، والفاتح، والخاتم، والماحي، والمعاقب، والحاشر، وزعم سيف أنّ أبا جعفر قال: الإسمان الباقيان: طه و يس. تفسير الدر المنثور: ٢٨٩/٤.

وروى الصَّدوق بإسناده عن سفيان بن سعيد الثوري عن الصادق(عليه السلام)في حديث طويل يقول فيه: «وأمّا «طه» فاسم من أسماء النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ومعناه: يا طالب الحقّ الهادي إليه». معاني الأخبار:٢٢، برقم ١، باب معنى الحروف المقطّعة.

٣. ما عن ابن عباس:(طه) هو كقولك: يا رجل.

يلاحظ عليه: أنّ خطاب النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: يا رجل، بعيد عن أدب القرآن. وقد قيل: إنّه بهذا المعنى في اللغة النبطية أو السريانية أو الحبشية.

٤. أنّه لفظ مركّب من أمر، مشتق من وطأ يطأ. والأمر «طَأ» وأُلحق بآخره ضمير التأنيث الراجع إلى الأرض، والمقصود: ضع قدميك على الأرض. واستشهدوا على ذلك بما روي من أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كان في أوّل أمره إذا قام في صلاة الليل قام على رِجْل واحدة، فأمره الله بهذه الآية أن يطأ الأرض برجله الأُخرى. وروي أيضاً أنّه كان يقوم على صدور قدميه إذا صلّى، فأنزل الله تعالى: (طَهَ * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) تفسير الدر المنثور:٥/٥٤٩ـ ٥٥٠، ولا يخفى ضعفه بل بطلانه ؛ لأنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) من أفضل الخلائق وأعلمهم بالشريعة الحنيفية، ويعلم كيف يصلّي ويعبد ربّه.

وأمّا ما هو المراد من التعب على ما ذكرنا، فيُحتمل قوياً أنّه التّعب الكثير الناشئ عن تبليغ الرسالة وهداية الناس، وعن الإحساس بالغمّ والحزن لإعراض قومه عن الهدى الذي جاء به. ويشهد لذلك قوله سبحانه: (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) الكهف:٦،

وقوله تعالى: (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)[١].

فعلى هذا فالمراد: ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب، بالمبالغة في مكابدة الشدائد ومقابلة العتاة ومحاورة الطغاة، وفرط التأسُّف على كفرهم به، والتحسّر على أن لا يؤمنوا به.

ويؤيّد ذلك الآية التالية:

٣. (إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى):

أي تذكرة للمتذكِّر وتبصرة للمتبصِّر، ولا ينتفع به إلاّ مَن كان في طبعه خشية من الله سبحانه ويكون مستعداً لقبول كلام الحقّ، ولذلك قيّد التذكرة بالخشية.

ثمّ إنّ مفاد الآية أفضل دليل على أنّ المراد من الشقاء والتعب في الآية المتقدّمة هو تحمُّله في تبليغ الرسالة، حيث إنّ تلك الآية جاءت تسلية للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وأنّه لا ينبغي له أن يهلك نفسه في تبليغ الرسالة، لماذا؟ لأنّ القرآن تذكرة لمن يخشى، (فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) الكهف:٢٩..

ثمّ إنّ وصف القرآن بالتذكرة لأجل أنّه يذكر ما فُطر عليه الإنسان من التوحيد والأخلاق الفاضلة، وربّما ينسى ذلك الإنسان لأجل عوارض تصدّ بينه وبين فطرته، فالقرآن يخرق تلك الموانع ويريه ما فُطر عليه في أمر الدين.

٤. (تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى):

قد سبق منّا أنّ (تَنْزِيلا) بمعنى المفعول أي مُنزَلاً وهو حال من القرآن، فقد وصف القرآن بوصفين:

١. كونه (تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى).

٢. كونه (تَنْزِيلاً): أي مُنزَلاً (مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى).

هذه الآية وما بعدها بصدد بيان عظمة مَن نزّل القرآن، فقد وصفته بأوصاف:

الوصف الأوّل لمنزِّل القرآن

إنّه تعالى خالق الكون. وفي وصف السماوات بالعُلى إشارة إلى عظمة قدرة الخالق (المُنزِّل)، وبالنتيجة عظمة شأن القرآن (المُنزَل).

كما أنّ التعبير مناسب لمعنى التنزيل الذي لا يتمّ إلاّ بعُلوّ وسُفْل، فالسماوات مبدأ التنزيل، والأرض منتهاه. انظر: الميزان في تفسير القرآن:١٤/١٢٠.والآية تدلّ على التوحيد في الخالقيّة.

٥.(الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى):

الوصف الثاني لمنزِّل القرآن

هذا هو الوصف الثاني لمُنزِّل القرآن. والآية ناظرة إلى التوحيد في التدبير وأنّ مُنزِّل القرآن هو خالق الكون ومدبّره، ولا مدبّر سواه، وهو مستول بعد خلق السماوات والأرض على عرش التدبير، فمن حاول أن يفسّر الفقرة بقوله: الرحمن جالس على العرش أو مستقرّ عليه، فقد حمل الآية على معنى مبتذل لا صلة له بما قبلها ولا ما بعدها، فإنّ الآيات كلّها بصدد بيان عظمة المنزِّل وكبريائه، وأي صلة لذلك بجلوس الربّ واستقراره على العرش وقعوده فيه بمضمون الآية؟ وهذا بخلاف ما إذا قلنا بأنّه بعد خلق السماوات والأرض استولى على عرش التدبير ولم يعيَ بتدبيرها ولم يفوّضه لغيره. وأمّا جمهور المحدّثين من السنّة فقد أخذوا بحرفية الآية وظهورها التصوّريّ دون ظهورها التصديقي، وأيّدوه بروايات ملؤها التجسيم كما فيما يلي.

روى أبو داود بإسناده عن جُبير بن مُطعم قال: أتى رسولَ الله(صلى الله عليه وآله وسلم)أعرابيّ فقال: يا رسول الله، جَهِدَت الأنفس، وضاعت العيال، ونُهكت الأموال، و هلكت الأنعام، فاستسق الله لنا، فإنّا نستشفع بك إلى الله ونستشفع بالله عليك. فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«ويحك!! أتدري ما تقول»؟ وسبّح رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)فما زال يسبّح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه.

ثمّ قال: «ويحك!! إنّه لا يُستشفَع بالله على أحد من خلقه، شأنُ الله أعظم من ذلك. ويحك!! أتدري ما الله؟ إنّ عرشه على سماواته لهكذا» وقال بأصابعه مثلَ القبّة عليه، «وإنّه لَيَئّط به أطيط الرَّحل بالراكب». قال ابن بشّار هو محمد بن بشّار، أحد شيوخ أبي داود الذين روى عنهم هذه الرواية. في حديثه:«إنّ الله فوق عرشه، وعرشه فوق سماواته» وساق الحديث. سنن أبي داود:٢/٤١٨، برقم ٤٧٢٦، كتاب السنّة، باب الجهمية.

والحديث ملؤه التجسيم والتشبيه، أعاذنا الله ممّن شبّهه بمخلوقاته.

وحاصل الكلام في تفسير الآية: إنّ الاستواء فيما إذا عُدّي بعلى يكون بمعنى الاستيلاء والتمكّن التامّ حتى فيما يقال: استوى على الفرس والسفينة. ويشهد لذلك قول البَعيث المُجاشعيّ يمدح بشراً أخا عبد الملك بن مروان حين ولي إمرة العراق:

قدِ استوى بِشرٌ على العراقِ *** من غير سيف ودم مُهراقِ

وقال آخر:

فلمّا علَونا واستوينا عليهمُ *** تركناهمُ صرعى لنَسر وكاسرِ

هذا كلّه حول الاستواء، وأمّا العرش فله ظهور تصوّريّ وهو سرير المَلك، الذي تصدر منه أوامره في تدبير المملكة، وله ظهور تصديقي وهو المتبادر من التدبّر في القرائن الحافّة بتلك الجملة، وتكون النتيجة الاستيلاء على ملكه في الدنيا والآخرة وتدبيره من دون استعانة بأحد، وقد ورد هذا الوصف (الاستواء على العرش) في غير واحدة من السور وجاء بعده ما يرجع إلى الله سبحانه من عظمة القدرة على الخلق والتدبير، ونكتفي هنا بذكر آية واحدة ونشير إلى سائر الآيات في الهامش.

قال تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيع إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ) يونس:٣، ولاحظ: الرعد:٢، السجدة: ٤ و٥، الأعراف:٥٤..

وسيأتيك تفصيل الكلام في سورة الحديد بإذن الله سبحانه.

وليعلم أنّ ما ذكرناه من التفسير ليس تأويلاً، فالتأويل هو حمل الظهور التصديقي على خلافه، ولم نقم بذلك، وإنّما قمنا بالتدقيق في الآية نفسها وما قبلها، فلاحَ لنا الظهور التصديقي وأخذنا به، إذ ينسجم مع تنزيهه سبحانه عن صفة الأجسام، فالعرش في الظهور التصوّري عبارة عن عرش المَلك، ولكنّه بملاحظة القرائن تبيين لعظمة الله سبحانه في تدبير ما خلق.

هذا، وقد حاول الأشاعرة وغيرهم من أهل إثبات الصفات الخبرية أنْ يخرجوا من التجسيم والتشبيه، فذهبوا إلى إمرارها، ولكن من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، فقالوا ـ مثلاً ـ إنّ الله استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله، ونقلوا عن مالك بن أنس أنّه قال: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة). انظر: محاسن التأويل للقاسمي:٧/٢٧٠٨.

وهذه البلكفة(قولهم بلا كيف) لا تفيد شيئاً في تنزيهه سبحانه، فضلاً عن أنّها لا تخلو من غموض وتعقيد وإبهام. راجع المجلد الثاني(ص ١٢٢ـ ١٣٤) من موسوعتنا«بحوث في الملل والنحل» للاطّلاع أكثر على هذا الموضوع.

بيان سيد قطب للآية

وممّن لم يرتضِ هذا القول من مفسّري السنّة سيد قطب (بالرغم من تأثّره بالعقيدة السلفية)، حيث قال في تفسير الآية الرابعة من سورة الحديد:

(أمّا الاستواء على العرش فنملك أن نقول: إنّه كناية عن الهيمنة على هذا الخلق، استناداً إلى ما نعلمه من القرآن عن يقين من أنّ الله سبحانه لا تتغيّر عليه الأحوال، فلا يكون في حالة عدم استواء على العرش، ثم تتبعها حالة الاستواء، والقول بأنّنا نؤمن بالاستواء ولا ندرك كيفيّته لا يفسّر قوله تعالى: (ثُمّ اسْتَوى). والأَولى أن نقول: إنّه كناية عن الهيمنة كما ذكرنا. والتأويل هذا لا يخرج على المنهج الذي أشرنا إليه آنفاً، لأنّه لا ينبع من مقرّرات وتصوّرات من عند أنفسنا، إنّما يستند إلى مقرّرات القرآن ذاته. في ظلال القرآن:٧/٧١٩.

٦. (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى):

الوصف الثالث لمنزِّل القرآن

هذا هو الوصف الثالث لمُنزّل القرآن، وهو ناظر إلى مالكيته التكوينية (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى) فمُنزّل القرآن هو الخالق للكون والمدبّر له، والمالك لكلّ شيء في السماوات والأرض وفيما بينهما، وكذلك باطن الأرض كلّه، ملكية تكوينية نابعة من خالقيته، بمعنى أنّ له التصرّف فيه كيف شاء.

ولا بأس أن نذكر هنا شيئاً من كلام أحد الباحثين، وهو يلقي الضوء على قوله تعالى:(وَمَا بَيْنَهُمَا)، قال:

تُجمع العلوم المكتسبة على أنّ كلاًّ من المادة والطاقة يملأ فسحة الكون، لأنّ خلْقَ كلٍّ من المكان والزمان، والمادّة والطاقة، قد تزامن مع عملية الانفجار العظيم(فتق الرّتق)، فلا يمكن تصوّر مكان بلا زمان، ولا زمان بلا مكان، كما لا يمكن تصوّر مكان وزمان بغير مادة وطاقة. فكلّ من المادّة والطاقة يتكثّف في مختلف أجرام السماء بتركيز مختلف، كما يوجد بكثافات قليلة ومتباينة بين كلّ جرم وآخر. وتحرّك المادّة والطاقة بين السماء الدنيا وأجرامها من الأُمور الثابتة علمياً، والتي أكّدتها الدراسات الفلكية. من آيات الإعجاز العلمي.. السماء في القرآن الكريم، للدكتور زغلول النجار:٥٥٧.

٧. (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى):

الوصف الرابع لمنزِّل القرآن

هذا هو الوصف الرابع الذي يشير إلى سعة علم منزّل القرآن بعد الإشارة إلى سعة قدرته في مجالَي الخلق والتدبير، قال تعالى: (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ) فهو لا يحتاج إلى الجهر(فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) فعلى هذا فأدب الدعاء يقتضي أن يكون دون الجهر العالي ؛ لأنّه

سبحانه عالم بالسرّ والأخفى، قال سبحانه: (وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ) الأعراف:٢٠٥.. وبهذا تؤول الآيات المتقدّمة إلى هذه النتيجة: أنّ القرآن تنزيل ممّن استجمع صفات الجمال والكمال.

٨. (اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى):

لمّا تقدّم في الآية السابقة الدعوة إلى عدم الجهر بالقول في دعاء الله سبحانه، جاء البيان القرآني بهذه الآية النادرة الفاخرة.

والظاهر أنّ لفظ الجلالة خبر لمبتدأ محذوف والتقدير هو الله، وجملة (اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) حال من اسم الجلالة، وكذلك جملة (لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى). ويُحتمل أن يكون لفظ الجلالة مبتدأ وقوله:(لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) خبراً، وقوله: (لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) خبراً بعد خبر، وبما أنّ حقيقة الحال هو الوصف، فإنّ لفظ الجلالة يكون قد وُصف هنا بوصفين:

١. توحيد الألوهية، أي لا إله إلاّ هو.

٢. كونه ذا أسماء حسنى، فللمؤمن أن يدعو الله بأيّ اسم شاء، قال سبحانه: (وَللهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا). الأعراف:١٨٠.

ثمّ إنّ مفهوم الإله في قوله:(لاَ إِلَهَ) هو نفس ما يفهم من لفظ الجلالة لكن بإلغاء العلَمية، فالله علَم جامع للذات الجامعة لصفات الجمال والكمال، والإله كلّي انحصر مصداقه في فرد واحد. وسيوافيك برهان ذلك في تفسيرنا لسورة المجادلة.

أسماؤه في أحاديث أئمّة أهل البيت(عليهم السلام)

روى الصدوق بإسناده عن الصادق(عليه السلام) عن آبائه، عن علي(عليه السلام) قال:

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «إنّ لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنّة وهي: «الله، الإله، الواحد، الأحد، الصمد، الأوّل، الآخر، السميع، البصير، القدير، القاهر، العليّ، الأعلى، الباقي، البديع، البارئ، الأكرم، الظاهر، الباطن، الحيّ، الحكيم، العليم، الحليم، الحفيظ، الحقّ، الحسيب، الحميد، الحفِيّ، الرب، الرحمن، الرحيم، الذارئ، الرَزّاق، الرقيب، الرؤوف، الرائي، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبّار، المتكبّر، السيّد، السُّبّوح، الشهيد، الصادق، الصانع، الطاهر، العدل، العفوّ، الغفور، الغنيّ، الغياث، الفاطر، الفرد، الفتّاح، الفالق، القديم، المَلك، القدّوس، القويّ، القريب، القيّوم، القابض، الباسط، قاضي الحاجات، المجيد، المولى، المنّان، المحيط، المبين، المُقيت، المصوّر، الكريم، الكبير، الكافي، كاشف الضرّ، الوِتر، النور، الوهّاب، الناصر، الواسع، الودود، الهادي، الوفيّ، الوكيل، الوارث، البَرّ، الباعث، التوّاب، الجليل، الجواد، الخبير، الخالق، خير الناصرين، الديّان، الشَّكور، العظيم، اللطيف، الشافي». التوحيد للصدوق:١٩٤، برقم ٨. ورواه في الخصال:٥٩٣، أبواب الثمانين فما فوقه، برقم ٤.

والمذكور في الحديث مائة اسم، لكن الظاهر أنّ لفظة الجلالة ليست من الأسماء الحسنى، وقد ذكر بعنوان المسمّى الجاري عليه الأسماء، وبذلك يستقيم العدد.

أسماؤه سبحانه في أحاديث أهل السنّة

أخرج الترمذي، وابن المنذر، وابن حِبّان، وابن مندة، والطبراني، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «إنّ لله تسعة وتسعين اسماً مئةً غيرَ واحدة، من أحصاها دخل الجنّة: هو الله الذي لا إله إلاّ هو الرحمن، الرحيم، الملك، القدّوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبّار، المتكبّر، الخالق، البارئ، المصوّر، الغفّار، القهّار، الوهّاب، الرزّاق، الفتّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المُعزّ، المُذلّ، السميع، البصير، الحَكَم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العليّ، الكبير، الحفيظ، المُقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحقّ، الوكيل، القويّ، المتين، الوليّ، الحميد، المُحصي، المُبدئ، المُعيد، المُحيي، المُميت، الحيّ، القيّوم، الواجد، الماجد، الواحد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدّم، المؤخّر، الأوّل، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البَرّ، التوّاب، المنتقم،

العفوّ، الرؤوف، مالك الملك، ذوالجلال والإكرام، المُقسط، الجامع، الغنيّ، المُغني، المانع، الضارّ، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور». سنن الترمذي:١٠٠٧ـ١٠٠٨، كتاب الدعوات، باب (٨٧/٨٢)، برقم ٣٥١٨.

وقد مرّ في سورة الأعراف بحوث حول الأسماء الحسنى فراجع.

الآيات: التاسعة إلى السادسة عشرة(وَ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى.... وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى).

(وَ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَس أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْس بِمَا تَسْعَى * فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى).

المفردات

الحديث: كلّ كلام يبلغ الإنسان

امكثوا: المكث: الإقامة.

آنستُ: أبصرتُ.

بقبس: القَبَس: شُعلة النّار تؤخذ من معظم النّار.

هدى: هادياً يدلّني على الطريق.

طُوى: اسم للوادي.

اخترتك: اصطفيتك.

أكاد أخفيها: أي أُبالغ في إخفائها ولا أُظهرها لأحد، أو أُريد أخفيها.

فتَرْدى: فتهلَك.

التفسير

قد تكرّر ذكر قصة موسى وآدم(عليهما السلام) في القرآن الكريم، إمّا على وجه التفصيل أو على وجه الإيجاز، ولذكرهما في كلّ موضع غرض خاص يقف عليه المفسّر عند التدقيق. وأمّا الغاية من ذكر قصة موسى(عليه السلام)هنا فهي تسلية النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وتثبيت عزمه، وأنّ تكذيب الأنبياء سنّة جارية في الأُمم السابقة، ولذلك جاء بعد ما أتمّ قصة موسى قوله: (وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا) طه:٩٩.. وأمّا الغاية من ذكر قصة آدم(عليه السلام)فهي دعوة النبيّ إلى الثبات على طريق أداء رسالته، حيث وصف آدم بعدم العزم بقوله: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) طه:١١٥، ولذلك ختم قصة آدم بقوله: (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) طه:١٣٠..

إذا عرفت ذلك، فلندخل في تفسير آيات هذه المجموعة.

٩. (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى):

الآية معطوفة على قوله: (مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) والمناسبة بينهما واضحة، والاستفهام في قوله: (وَهَلْ أَتَاكَ) لغاية التشويق لسماعه. وظاهر الآية تذكير النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بقصة موسى(عليه السلام) وكأنّه لم يسمع بها من قبل. ولعلّ الآية دليل على تقدّم نزول السورة على سورة القصص.

وأمّا ما هو الحديث، فتذكره الآيات التالية:

١٠. (إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى):

بدأ البيان القرآني في حديثه عن موسى(عليه السلام) بما يتعلّق بغرض السورة، وهو تشريفه بالنبوّة وترك الحديث عمّا يتّصل به من تزوّجه كريمة شيخ كبير في مَدين ووفائه بالعقد الذي أبرمه معه، والذي يشير إليه قوله سبحانه: (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ...) القصص:٢٩.قاصداً بلاده مصر، لكنّه ضلّ الطريق في ليلة مظلمة شديدة البرد، فتحيّر في أمره، فبينما هو كذلك رأى نوراً يضيء من جانب الجبل كما قال سبحانه: (إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ)زوجه وولده (امْكُثُوا): أي أقيموا في هذا المكان (إِنِّي آنَسْتُ نَارًا): أي أبصرتها وسأذهب إليها لإحدى الغايتين:

١. (لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ): أي بشعلة من النار لتستدفئوا بها.

٢. (أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى): أي أجد هناك مَن يرشدني إلى الطريق.

ولا شكّ في أنّ ما أبصره لم يكن ناراً بل كان نور الوحي ولذلك أبصره هو دون أهله.

النداء الأوّل والثاني الموجّهان إلى موسى

١١ و ١٢. (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى):

بعد أن بلغ موسى(عليه السلام) النار، سمع عدّة نداءات، وهي:

النداء الأوّل: قوله تعالى: (إِنِّي أَنَا رَبُّكَ)، وفي سورة القصص قال تعالى: (إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) القصص:٣٠.

النداء الثاني: قوله تعالى: (فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)

أمره بخلع النعلين اللّتين في رجليه، وفيه إشارة إلى قداسة المكان. ولعلّ من علائم قداسته أو أسبابه سماع كلام الله هنا، ولذلك علّله بقوله: (إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) والوادي هو الأرض الواقعة بين الجبال والتلال. والظاهر أنّ (طوًى)اسم لنفس الوادي فيكون عطف تفسير للوادي. ولعلّ وصفه بـ«طوى» لأجل أنّه كان ضيّقاً بمنزلة الثوب المطويّ، أو غائراً كالبئر المطويّة. التحرير والتنوير:١٦/١٠٤.

لزوم تقديس كلّ مكان له صلة بالوحي

وإذا كان تقديس هذا المكان لغاية أنّه موضع المناجاة وموطن نزول الوحي، فعلى هذا يقدّس كلّ مكان تكون له صلة بالوحي، بل يقدَّس كلّ مكان ينتسب إلى شخصية قدسيّة أو واقعة دينية من غير فرق بين مكان ومكان. فالموضع الذي وُلد فيه النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وموضع نزول الوحي عليه، بل المواضع التي صلّى فيها والتي خاض فيها(صلى الله عليه وآله وسلم) مع أصحابه الميامين غمرات الجهاد ضد الشرك، تُعدّ مواضع مقدّسة محترمة يجب حفظها واحترامها.

ومن هنا فإنّ تخريب هذه المراكز والمواضع وهدم الآثار الإسلامية باسم التوحيد، هو في الحقيقة إساءة للتوحيد باسم التوحيد، وطمس لأنواره التي تشعّ من تلك الآثار المقدّسة، وإلى الله المشتكى.

النداء الثالث:

١٣. (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى):

هذا النداء وما قبله ومابعده يحكي عن بلوغ موسى(عليه السلام) منصب النبوّة، حيث صار موضعاً لتلقّي الوحي، فأخبره سبحانه بقوله: (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ): أي اصطفيتك لغاية إلهية، وهي إعطاء النبوّة والرسالة بشهادة قوله: (فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى).

النداء الرابع والخامس:

١٤. (إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي):

الآية تركّز على أمرين:

١. التوحيد (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا) فالألوهية بمعنى وجوب الوجود أو كونه مستجمعاً لكلّ صفات الكمال، أو خالق الكون، أو كلّ تعبير يتضمّن ذلك وما يشبهه، منحصر في الله سبحانه.

٢. الدعوة إلى عبادة نفسه، قال تعالى: (فَاعْبُدْنِي) دون غيري (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي): أي أقم الصلاة لأجل أن تذكرني، فقوله: (لِذِكْرِي) متعلّق بقوله: (وَأَقِمِ). والآية فيها إشارة إلى الحكمة من تشريع الصلاة.

النداء السادس:

١٥. (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى):

تشير الآية إلى أحد الأُصول التي اشتركت فيها كافة الشرائع السماوية، أعني: قيام الساعة، لكنّه وصفها هنا بقوله: (أَكَادُ أُخْفِيهَا)، وقد اختلف المفسّرون في تفسير هذه الفقرة، ووجه الاختلاف أنّ فعل (أَكَادُ) يدلّ على عدم وقوع ما دخل عليه، كما في قوله تعالى: (كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا) الجن:١٩، وقوله تعالى: (فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ)(البقرة:٧١.)، وعلى هذا يكون معنى الفقرة: أقربُ أن أُخفيها ولكن لم يقع الإخفاء، وهذا خلاف ما دلّت عليه الآيات الكثيرة من أنّه سبحانه استأثر بعلم الساعة لنفسه، كما في قوله: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) لقمان:٣٤. فذهب المفسّرون يميناً وشمالاً في تفسير الآية حتى تنسجم مع سائر الآيات، غافلين عن أنّ لفظ كاد ربّما يستعمل بمعنى الإرادة، وعلى هذا فمعنى الفقرة: أكاد أُخفيها، أي أُريد أن أخفيها عن عبادي لئلاّ تأتيهم إلاّ بغتة. ذكر هذا القول الطبرسي، وحكى عن ثعلب تصحّفت في المطبوع إلى تغلب. وثعلب هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد، إمام الكوفيّين في النحو واللغة. توفّي سنة (٢٩١هـ). الأعلام:١/٢٦٧. أنّه قال: هذا أجود الأقوال، وهو قول الأخفش. مجمع البيان:١٣/٧.

وللتعرّف على سائر الأقوال راجع الكشاف. لاحظ : تفسير الكشّاف: ٢٩٧/٣؛ مجمع البيان:٨/٧.

وللشريف الرضيّ بيان آخر، قال: قوله تعالى: (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا): وهذه استعارة على أحد التأويلين، وهو ما سمعته من شيخنا أبي الفتح النحوي عفا الله عنه، قال: الذي عليه حُذّاق أصحابنا أنّ (أكاد) هاهنا على بابها من معنى المقاربة، إلاّ أنّ قوله تعالى: (أُخْفِيهَا) يؤول إلى معنى الإظهار؛ لأنّ المراد به أكاد أسلبها خفاءها. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١١٦.

قوله:(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى) متعلّق بقوله: (آتِيَةٌ) واللاّم للغاية. والمعنى واضح.

النداء السابع:

١٦. (فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى):

الظاهر أنّ الخطاب متوجّه إلى موسى(عليه السلام)، واحتمال كونه موجّهاً إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بعيد. والضمير في (عَنْهَا) يرجع إلى الساعة لقربها، والمعنى: فلا يصدّنك ويصرفنّك عن الإيمان بها مَن لا يؤمن بها. كما يحتمل أن يعود إلى الصلاة ولكنّه بعيد، خصوصاً بعد قوله: (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى) فإنّ الظاهر أنّ المراد هو فرعون ومَن تبعه من الذين انقادوا لأهوائهم وكذّبوا بالبعث (فَتَرْدَى): أي تهلك كما هلك من قبلك.

نعم، الخطاب لموسى ولكن المقصود به عامّة المكلّفين.

وهنا نكتة، وهي أنّ الأشاعرة يفسّرون كلامه سبحانه بالكلام النفسي القائم بنفس النبيّ، مع أنّ الظاهر من قوله سبحانه (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) النساء:١٦٤.

هو أنّ هذا الكلام سمعه موسى(عليه السلام) عندما اقترب من المكان الذي رأى فيه ناراً، فبما أنّ الأشاعرة جعلوا تكلّمه سبحانه من صفات الذات، فإنّهم تركوا الأخذ بظواهر هذه الآيات التي تدل على أنّه من صفات الفعل، وهو أنّه سبحانه خلق هذه الأصوات

التي سمعها موسى(عليه السلام)، وعلى هذا فتكلُّمه سبحانه من صفات فعله، وتفسيره بالكلام النفسي مرجعه إلى التفسير بالعلم، والتفصيل في محلّه.

الآيات: السابعة عشرة إلى الثالثة والعشرين(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى... لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرى).

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى * وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى * لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرى).

المفردات

أتوكّأ عليها: اعتمد عليها في المشي والوقوف.

أَهُشّ بها: أي أخبط بها ورق الشجر. وهناك معنى آخر تقرأه خلال التفسير.

على غنمي: لأجل غنمي.

مآرب: منافع، مفردها: مأربة.

حيّة: الحيّة تطلق على الصغير والكبير و الذكر والأُنثى من هذا النوع.

سيرتها: حالها.

أُضمم: الضَّمّ: الجمع.

جناحك: الجَناح: أصل الجناح للطائر، ثم أُطلق على اليد و العضُد والجنب، والأخير هو المراد هنا.

سوء: قُبح أو مرض.

آية أُخرى: معجزة ثانية.

التفسير

معاجز موسى(عليه السلام)

قد تقدّم أنّ الكليم(عليه السلام) بلغ منصب النبوّة بل الرسالة، وهذا يعني أنّه قد أُلقيت على عاتقه مهمّة كبرى ستعرضها آيات السورة. ومن المعلوم أنّ كلّ نبيّ يجب أن يكون مؤيَّداً بمعجزة أو معاجز حتى تكون دليلاً على صلته بالله تعالى، وقد أُوتي موسى(عليه السلام) في هذا المقام معجزتين:

المعجزة الأُولى: العصا

١٧. (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى):

الآية وما بعدها تتضمّن بقية ما نودي به موسى(عليه السلام) فانتقلت الآيات من محاورة إلى محاورة أُخرى. ففي المرحلة الأُولى يأخذ تعالى من موسى الإقرار بواقع عصاه، وما هي فائدتها، سائلاً: (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)وظاهر السؤال غريب لأنّه ليس أمراً مخفيّاً للسائل والمسؤول، ولكنّها لمّا صارت مقدّمة لإقرار موسى بأُمور لا صلة لها بما تنقلب إليه في المستقبل، صحّ ذلك السؤال. وكان جوابه كالآتي:

١٨. (قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرى):

أجاب(عليه السلام) بأنّ ما في يمينه عصاه، وذكر ما هو الغرض من اتّخاذها وقد نصّ على أمرين:

١. (أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا): أي اعتمد عليها في المشي.

٢. (وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي): أي اضرب بها الشجر ليتساقط ورقها فتأكله غنمي.

ويمكن أن يقال: إنّ الهشّ اسم صوت لزجر الغنم كالهسّ، والفعل مشتق من اسم الصوت، أي أنهى بها على غنمي وأزجرها بها من التفرّق والتقدّم، وهذا هو الرائج بين رعاة الغنم حيث يستخدمون ما يشبه تلك الكلمة.

ثمّ أشار على وجه الإيجاز إلى غرض آخر بقوله: (وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ): أي منافع وأغراض (أُخْرى).

وإنّما أطنب موسى في الجواب لأنّ المقام مقام تشريف يلتذّ فيه الإنسان بطول الكلام.

وأمّا المآرب الأُخرى فبيانها هو أنّه كان يحمل عليها زاده ويطرد بها السباع، إلى غيرها من الأغراض. مجمع البيان:١٧/٧. فلمّا اعترف موسى بهوية العصا وأنّها موجود ماديّ لا شعور له، وأنّه يستخدمها في حوائجه، أمره بما يلي:

انقلاب العصا إلى حيّة

١٩ ـ ٢١. (قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى):

أمره سبحانه بإلقاء العصا على الأرض، فأتمر (فَأَلْقَاهَا) فصارت ثعباناً وحيّة كبرى و اهتزت بشدّة، كما يقول: (فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى) والسعي هو المشي الذي فيه شدّة. ثمّ أمر ـ وهي على تلك الحال وقد اعتراه الخوف منها ـ بأخذها وقال: (قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى): أي سنرجعها إلى الحالة والطبيعة الأُولى قبل أن تكون حيّة، وعند ذلك تقف على أنّ عصاك إحدى المعجزات.

إنّ الإعجاز خرق للقوانين العادية لا القوانين العقلية من أنّ كلّ ممكن يحتاج إلى علّة، فإرادة الله سبحانه إذا اقتضت قلبَ العصا حيّة ينزع الصورة الخشبية من المادّة ويلبسها صورة الحيّة، فالمادة واحدة والصور مختلفة. وطروء الخوف أمر طبيعي لكلّ إنسان مهما بلغ مرتبة من اليقين خصوصاً في المرحلة الأُولى.

المعجزة الثانية: اليد البيضاء

٢٢. (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرى):

هذه هي المعجزة الثانية، حيث أمره سبحانه أن يدخل يده في فتحة قميصه، فإذا أدخلها فيها ثم أخرجها بدت بيضاء متلألئة كتلؤلؤ الشمس، كما يقول: (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ) أُريد من قوله:(وَاضْمُمْ): أي اجمع، ومن الجناح: الجنب، والمعنى أن يجمع يده إلى جنبه تحت العضُد، وذلك عن طريق إدخالها في جيب قميصه، كما قال تعالى في آية أُخرى: (اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ) القصص:٣٢. ويدلّ على ذلك قوله:(تَخْرُجْ).

قوله: (مِنْ غَيْرِ سُوءٍ): أي من غير مرض، كما في المبتلى بالبرص، وفيه تعريض لما في التوراة الحاضرة في هذا الموضع من القصة والتي ورد فيها: ثم قال له الربّ أيضاً: أدخلْ يدك في عبئك، فأدخل يده في عبئه ثمّ أخرجها فإذا يده برصاء مثل الثلج. سفر الخروج، الإصحاح٤، الفقرة ٦.

وقيل في معناه: إنّ النور الذي كان يشعّ من يد موسى(عليه السلام) يفوق نور الشمس في شدّته، ولكنّه مع ذلك لا يؤذي عيون الناظرين إليه، ولا يُلحق بها سوءاً. سيأتي تفصيل هذا القول عند تفسير الآية(١٢) من سورة النمل.

قال الشريف الرضيّ(رحمه الله) في قوله: (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ): هذه استعارة، والمراد بها ـ والله أعلم ـ وأدخل يدك في قميصك مما يلي إحدى جهتي يديك، وسمّيت تلك الجهتان جناحين لأنّهما في موضع الجناح من الطائر. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١١٨.

٢٣. (لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرى):

اللاّم في قوله:(لِنُرِيَكَ) متعلّق بقوله: (تَخْرُجْ): أي لنريك بعض آياتنا حتى تقف على عظيم قدرتنا، وتوصيف الآيات بالكبرى بمعنى

القوّة.

إلى هنا تمّ ذكر بعض المعاجز التي جُهّز بها موسى(عليه السلام) لغاية الإرسال إلى طاغية عصره. وقد أشار تعالى في سورة القصص إلى معجزة ثالثة وهي ما في قوله تعالى: (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) القصص:٣٢، وسيوافيك تفسيره في سورة القصص، فانتظر.

الآيات: الرابعة والعشرون إلى السادسة والثلاثين(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى.... قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى).

(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى).

المفردات

طغى: تجاوز الحدّ في عتوّه وتجبّره.

اشرح لي صدري: الشَّرْح: التوسعة، أي وسّعْه لتحمّل أعباء الرسالة.

احلُل: الحَلّ ضد العَقد.

عُقدة: العُقدة: جملة مجتمعة يصعب تفكيكها.

يسّر لي أمري: سهّل لي ما أمرتني به من تبليغ الرسالة.

يفقهوا: يفهموا.

وزيراً: معيناً. قال الراغب: الوزير: المتحمِّل ثقل أميره وشغله.

أزري: الأَزْر: أصله الظَّهر، ولمّا كان الظَّهر مجمع حركة الجسم وقوام استقامته أطلق اسمه على القوّة، ومن هنا يقال: آزره إذا أعانه. وسمّي الإزار إزاراً لأنّه يُشدّ به الظّهر، كأنّ قوله:(اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي): أي قوِّ به أمري.

أشركه في أمري: اجعله شريكاً لي في النبوّة والرسالة.

بصيراً: عالماً بأحوالنا.

سُؤلك: السؤل بمعنى المسؤول أي المطلوب، كالخبز بمعنى المخبوز.

التفسير

الوصايا الإلهية لموسى(عليه السلام)

٢٤. (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى):

نال موسى(عليه السلام) مقام النبوّة في وادي طوى، وأمره سبحانه أن يذهب إلى فرعون قائلاً: (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ) معلّلاً أمره بذلك، بقوله:(إِنَّهُ طَغَى). وقد جاءت الوصايا في هذه السورة بصورة موجزة، وأمّا في سورة النازعات فجاءت على وجه التفصيل، قال تعالى: (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى) النازعات: ١٧ ـ ١٩. . وسيأتي تفصيل الوصايا في سورتنا هذه أيضاً.(لاحظ: طه: ٤٢ ـ ٤٤).

ولمّا أمره سبحانه بالذهاب إلى فرعون الذي تمادى في طغيانه وجبروته حتى ادّعى الألوهية لنفسه وبالغ في استعباد بني إسرائيل وقمعهم، سأل ربَّه سبحانه أن يعطيه الأُمور الأربعة التالية، وهذه الأسئلة تأتي في أربعة عشرة آية.

حاجات موسى(عليه السلام) في تبليغ الرسالة

إنّ نجاح موسى في النهوض بأعباء الرسالة رهن أُمور يستعين بها على إنجاز مهمّته، وهي:

٢٥. (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي):

إنّ الدعوة إلى الله تعالى، وتبليغ الرسالة، ومواجهة الطغاة والمعاندين، تتطلّب رحابة في الصدر، واستقامة على الطريق، وصبراً على المشاكل التي تسبّبها طبيعة الصراع بين الحقّ والباطل، والهدى والضلال.

٢٦. (وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي):

بجعل هذا الأمر العسير الشاقّ يسيراً بالنسبة إليه، وهيّناً لديه، وذلك بتهيئة الأسباب إليه، وتذليل العقبات التي تحول دون تحقيقه.

٢٧ و ٢٨. (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي):

وهذا السؤال يرجع إلى وجود عقدة في لسانه(عليه السلام)، والتنكير في (عُقْدَةً) للدلالة على النوعية، وهو الذي يلوح من قوله: (يَفْقَهُوا قَوْلِي): أي عقدة تمنع من فقه قولي وفهمه.

قال الشريف الرضي (رضي الله عنه)حول قوله تعالى: (وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي): في الآية احتمالان:

١. قوله: (وَاحْلُلْ عُقْدَةً) استعارة، والمراد بها إزالة لفف كان في لسانه(عليه السلام) فعبّر عنه بالعقدة، وعبّر عن مسألة إزالته بحلّ العقدة، ملاءمة بين النظام، ومناسَبَة بين الكلام.

٢. أن يكون المراد بذلك إزالة التقيّة عن لسانه، وكفايته سطوة فرعون وأعوانه حتى يؤدّي عن الله تعالى آمناً، ويقول متمكّناً، فلا يكون معقود اللسان بالتقيّة، ولا معكوم الفم بالخوف والمراقبة، وذلك كقول القائل: لسان فلان معقود، إذا كان خائفاً من الكلام، ولسان فلان منطلق، إذا كان مقداماً على المقال. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١١٨ـ ١١٩.

٢٩ ـ ٣٢. (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي):

هذا هو طلب رابع لموسى(عليه السلام) يسأل فيه ربّه أن يجعل له وزيراً من أهله (وهو أخوه هارون) لأنّ المسؤولية الملقاة على عاتقه مسؤولية ضخمة مترامية الأطراف، يصعب عليه القيام بها وحده، فهو يتطّلع إلى المؤازر والمناصر والمدافع الذي يتحمّل جزءاً منها، بل هو يرجو الله أن يجعل أخاه شريكاً له في أمره كالقيام بتبليغ بعض ما يوحى إليه من ربّه عنه، وسائر ما يختصّ به من عند الله كافتراض الطاعة وحجّية الكلمة. الميزان في تفسير القرآن:١٤/١٤٧.

ويطيب لنا أن نذكر في المقام حديث المنزلة الذي روي بأسانيد صحيحة عند الفريقين، لكن آثرنا إرجاء ذكره إلى ما بعد الفراغ من تفسير السورة ملحقاً بها.

ثمّ إنّ النبيّ موسى(عليه السلام) ذكر ما هو السبب في طلبه الأُمور الأربعة بقوله:

٣٣ ـ ٣٦ . (كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى):

أي طلبتُ منك هذه الأُمور لغاية، وهي (كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا): أي ننزّهك عمّا لا يليق بك،(وَ)كي (نَذْكُرَكَ كَثِيرًا) بالتحميد والتسبيح، (إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا) بأحوالنا وأُمورنا.

فاستجاب الله تعالى دعاء عبده المؤمن المخلص الأمين على الرسالة والحريص على تبليغها، وأن يؤتيه مُناه كما قال: (قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى).

وهذا يدلّ على حلّ العقدة من لسانه، وأنّه حاور طاغية مصر بلسان طَلْق ليس فيه عقدة، أخذاً بقوله:(قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى).

وحاصل الكلام: إنّك بصير بأنّنا بحاجة إلى هذه الأُمور، ولولاها لم نتمكّن من القيام بالرسالة التي أُمرنا بها.

وهناك حديث جميل رواه الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) عن آبائه(عليهم السلام) عن أمير المؤمنين(عليه السلام): قال: «كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فإنّ موسى ابن عمران خرج يقتبس لأهله ناراً فكلّمه الله عزّ وجلّ فرجع نبيّاً، وخرجت ملكة سبأ كافرة فأسلمت مع سليمان، وخرج سحرة فرعون يطلبون العزّة لفرعون فرجعوا مؤمنين». مجمع البيان:١٩/٧.

الآيات: السابعة والثلاثون إلى الحادية والأربعين(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخرى... وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي).

(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخرى * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي * إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى * وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي).

المفردات

مَنَنَّا: أصل المَنّ القَطْع، ومنه قوله سبحانه:(فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُون) التين:٦، فيطلق على النعمة، المنّ لأنّها تقطع لصاحبها من غيره.

اقذفيه: من القذف بمعنى الطرح.

التابوت: الصندوق وما يُشبهه.

اليمّ: البحر، وأُريد به هنا نهر النّيل.

لتُصنع على عيني: أي تُربّى وتُغذّى بمرأى منّي، وأنا مراعيك ومراقبك.

تَقرّ عينها: تُسرّ برؤيتك وحياتك.

الغمّ: الكَرْب وضيق الصَّدر.

فتنّاك فتوناً: اختبرناك اختباراً.

على قدَر: أي ما هو المقدّر من هذه الابتلاءات.

اصطنعتك: اخترتك لِوحيي ورسالتي.

التفسير

٣٧.(وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخرى):

أُريد من المنّة الدالّ عليها قوله: (وَلَقَدْ مَنَنَّا)، النعمة إذ كانت نعم الله سبحانه على موسى(عليه السلام) كثيرة متتابعة، ذكر منها سبحانه هنا حفظه من الخطر العام الذي كان متوجّهاً إلى ولدان بني إسرائيل حيث كانوا يُذبَحون، وأمّا كيفية صيانته فكما يلي:

٣٨ و ٣٩. (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ * وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي):

أُمّ موسى تقذف ولدها في البحر

لمّا وضعت أُمّ موسى حملها خافت على وليدها موسى من أن يطّلع عليه جواسيس فرعون، وتحيّرت في أمره، إلى أن أُلهمت إرضاعه مادامت تستطيع إخفاءه، وإذا خافت عليه الطّلب، فلتضعه في الصندوق، كما قال: (أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ). ولعلّ التعبير بالقذف الذي هو بمعنى الإلقاء وهو لا يناسب وضع الطفل في الصندوق، لأجل أنّ وضع الطفل في التابوت وإلقاء التابوت في اليمّ، هو من باب إلقاء الطفل في اليمّ من دون أن يُعبأ بحاله (فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ): أي البحر، والمراد به نهر النّيل (فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ): أي تلقي أمواج البحر الصندوق إلى شاطئ البحر وجانبه، كلّ ذلك بمشيئة الله سبحانه وعنايته(يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ): أي يأخذه فرعون،

وهو عدوّ الله وعدوّ رسوله. وطبيعة الحال كانت تقتضي أن يُقتل الطفل الذي وجدوه في الصندوق، لكنّه سبحانه صانه من القتل بإلقاء محبّته في قلب فرعون وزوجه كما قال:(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي): أي جعلتك بحيث يحبّك من يراك حتى أحبّك فرعون، فسَلِمتَ من شرّه وأحبّتك امرأته آسية بنت مزاحم فتبنّتك، وهذه هي المنّة الكبرى والنعمة العظمى.

قال الشريف الرضيّ(رحمه الله): (وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي) بمعنى جعلتك بحيث لا يراك أحد إلاّ أحبّك، ومال قلبه نحوك حتى أحبّك فرعون وامرأته فتبنّياك وربّياك واسترضعا لك وكفَلاك. تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١١٩.

قوله: (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) أي تُربّى وتغذّى بمرأى منّي وتحت رعايتي.

قال الشريف الرضيّ(رحمه الله): (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) المراد بذلك ـ والله أعلم ـ أن تتربّى بحيث أرعاك وأراك، وليس هناك شيء يغيب عن رؤية الله سبحانه ولكن هذا الكلام يفيد الاختصاص بشدّة الرعاية وفرط الحرص والكلاءة. ولما كان الحافظ للشيء في الأغلب، يديم مراعاته بعينه، جاء تعالى باسم (عَيْنِي) بدلاً من ذكر الحفظ والحراسة على طريق المجاز والاستعارة، ويقول العربي لغيره: أنت منّي بمرأى ومسمع، يريد بذلك أنّه متوفّر عليه برعايته، ومنصرف إليه بمراعاته. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١١٩.

والفقرة تدلّ على أنّ الأنبياء العظام يُربَّون تحت رعاية الله تعالى إمّا مباشرة، أو برعاية ملائكته، قال الإمام علي(عليه السلام) في وصف أخيه النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم): «وَلَقَدْ قَرَنَ اللّهُ بِهِ(صلى الله عليه وآله وسلم) مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَك مِنْ مَلاَئِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلاَقِ الْعَالَمِ، لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ». نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢، القاصعة.

٤٠. (إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَر يَا مُوسَى):

إرجاع موسى إلى أُمّه

لمّا عثر آل فرعون على الوليد في التابوت الذي ألقاه الماء بالساحل، وامتثل فرعون لرغبة امرأته بإبقائه حيّاً، أخذوا يبحثون له عن مرضعة، ولكنّ الله تعالى قدّر لهذا الوليد أن يعاف جميع المراضع اللّواتي عُرضن عليه، كما قال سبحانه: (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ) القصص:١١. وكانت أخت موسى واقفة هناك إذ أمرتها أُمّها أن تتبع أثر التابوت، فقالت إنّي آتي لكم بامرأة ترضعه، وذلك قوله: (إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ): أي أدلّكم على امرأة تربّيه وترضعه وهي ناصحة له، فقالوا: نعم، فجاءت بالأُم فقبل ثديها، وبذلك ردّ سبحانه الوليد إلى أُمّه، كما قال: (فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ) من خوف قتله أو غرقه.

ثمّ إنّه سبحانه أشار إلى منّة أُخرى من مننه الكبرى، وهي أنّ موسى(عليه السلام) قتل قبطياً وقُضِي عليه بالقصاص، فالله سبحانه يشير إلى خلاصه من القصاص، بقوله:(وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ): أي من الكرب وضيق الصدر الناشئ من خوف الاقتصاص منك. ثمّ يشير سبحانه إلى اختباره مرّة بعد أُخرى ويقول: (وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا): أي اختبرناك اختباراً حتى خلُصتَ للاصطفاء بالرسالة. فالله سبحانه وإن جعل الجميع منّة واحدة وقال: (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى) ولكنّها متضمّنة لمِنَن كثيرة.

ثمّ إنّ موسى(عليه السلام) بعد ما قتل القبطي في قصة سيوافيك بيانها في سورة القصص، أخبره مَن في بلاط فرعون بهذا الأمر: (إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ) القصص:٢٠.فخرج موسى من مصر متوجّهاً إلى (مَدْين) خائفاً يترقّب، فلما وصل إليها أقام فيها عشر سنين كما يقول: (فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ)غادر (مدين) مع أهله عائداً إلى مصر، وهذا هو الذي يذكره سبحانه بقوله: (ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَر يَا مُوسَى): أي ما هو المقدّر من ابتلاءاتك ونجاتك من الغمّ بالخروج من مصر ولبثك في أهل مدين، قد ابتليت بهذه الابتلاءات وخلصتَ من كل هوى إلاّ هوى الله سبحانه فصارت النتيجة قوله تعالى:

٤١. (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي):

أي جعلتك خالصاً لنفسي لا يشاركني فيك غيري. ولعلّه عبارة عن كونه مُخلصاً كما في قوله سبحانه: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا) مريم:٥١، فكلامه كلامه ودعوته دعوته.

قال الشريف الرضيّ(رحمه الله):... وقد يجوز أن يكون ذلك على معنى قول القائل: «اتّخذت هذا الغلام لنفسي»: أي جعلته خاصّاً لخدمتي لا يشاركني في استخدامه أحد غيري. وسواء قال اتّخذته لي أو اتّخذته لنفسي في فائدة الاختصاص، ليس أنّ هناك شيئاً يتعلّق بالنفس على الحقيقة. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٢٠.

الآيات: الثانية والأربعون إلى الثامنة والأربعين(اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي.... أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى).

(اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى * قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى * فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى * إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى).

المفردات

بآياتي: الآيات: المعجزات. وتشمل الآيتين المذكورتين، أعني: العصا واليد البيضاء، وما سيُجريه سبحانه على يديه من آيات عندما يقتضي الأمر ذلك.

ولاتِنيا: أي لا تفترُا.

في ذكري: أي إبلاغ رسالتي.

طغى: تجاوزَ الحدّ، حيث قال: (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى) النازعات:٢٤..

يفرُط علينا: الفَرَط: التقدّم، ومنه الفارط: المتقدّم إلى الماء، ومعناه: أن يتقدّم فينا بعذاب ويعجّل علينا بالأذى.

يطغى: الطغيان: العتوّ والتجبّر.

التفسير

٤٢. (اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي):

لمّا اختار الله تعالى موسى(عليه السلام) للنبوّة في الوادي المقدَّس، انتدبه سبحانه، هو وأخاه هارون، للذهاب إلى فرعون لإبلاغه الرسالة الإلهية، كما قال: (اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي) التي جُهِّز بها موسى (وَلاَ تَنِيَا): أي لا تضعُفا ولا تفترُا، وهو مشتق من «وني يني»: أي ضعُف في العمل (فِي ذِكْرِي): أي في إبلاغ رسالتي. وأمّا المقصد فلم يأت ذكر شيء منه في آيتنا هذه، وإنّما تضمّنت بيانه الآية التالية.

٤٣. (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى):

خصّ دعوته بفرعون لأنّه رأس الفساد والضلال، وإمام الجبّارين المتكبّرين. ثمّ إنّه وصف فرعون بالطغيان حيث ادّعى الألوهية واستعبد بني إسرائيل.

وأمّا أُسلوب الدعوة، فهو ما تذكره الآية التالية.

٤٤. (فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى):

أمرهما سبحانه بأن يحاورا فرعون برفق ولين. وأمّا الغاية من دعوته فأحد الأمرين:

١. (لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ): أي يرجع إلى قضاء الفطرة ويسلك سبيل التوحيد.

٢. (أَوْ يَخْشَى)عقاب الله تعالى، فيطامن من غروره، ويقلّل من ضغطه على بني إسرائيل واستعباده لهم. وفي سورة «النازعات» ورد نفس المضمون، قال تعالى: (فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى) النازعات: ١٩ و٢٠.فكلّ من الفقرتين من السورتين يقوم مقام الأُخرى، والغاية إمّا التزكّي والتطهُّر من رجس الشرك والوثنية، أو الخشية من الله سبحانه ليرتدع عن طغيانه وظلمه لبني إسرائيل.

إنّ الدعوة الإلهية تنحصر في أمرين كما قال سبحانه:(عُذْرًا أَوْ نُذْرًا) المرسلات: ٦.أي إعذاراً من الله وإنذاراً إلى خلقه، ثمّ إنّ الإنذار تارة يؤثر تماماً، وهذا ما يشير إليه قوله سبحانه:(لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ)، أو يؤثّر بعض التأثير، وإليه يشير قوله تعالى:(أَوْ يَخْشَى) وبذلك يظهر الجواب عمّا أثاره الرازي في تفسيره حيث قال:إنّه لا يعلم سرّ إرساله تعالى إلى فرعون مع علمه بأنّه لا يؤمن، إلاّ الله، ولا سبيل في المقام وأمثاله إلى غير التسليم، وترك الاعتراض. تفسير الرازي:٢٢/٥٩، بتصرّف في العبارة.

نقد كلام الرازيّ

والإجابة عنه واضحة وإن تجاهلها الرازي، حيث إنّ إرسال الرسل تارة يكون برجاء تأثيرهم وأُخرى لإتمام الحجّة، والغرض في عالم الثبوت هو الثاني، أي قطع العذر على فرعون لئلاّ يحتجّ يوم القيامة بعدم إرسال الرُّسل، قال سبحانه: (لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ). النساء:١٦٥.

وأمّا في مقام الإثبات مع قطع النظر عن علمه سبحانه بالواقع، فهو أحد الأمرين: التذكّر أو الخشية.

فإن قلت: إنّ ظاهر قوله:(لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) أنّه يحتمل إيمان فرعون مع علمه سبحانه بأنّه لا يؤمن.

قلت: إنّ هناك مقامين: مقام المحاورة وله مقتضيات من نكران الواقع والأخذ بظواهر المحاورة، ومقام علمه سبحانه وهو أمر آخر، فالكلام جرى على مقتضيات المحاورة من منظار المحاور، أعني: النبيّ موسى(عليه السلام).

٤٥. (قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى):

خوف موسى لم يكن على نفسه بل على مصير الدعوة

لمّا أمر تعالى موسى وهارون(عليهما السلام) أن يأتيا فرعون ويبلغاه رسالة ربّهما، أعربا عن خوفهما من أن يستعمل معهما العنف قبل أن تُتاح لموسى(عليه السلام) فرصة الإتيان بالآيتين البيّنتين، أو أن يتّخذ موقفاً أشدّ ظلماً من موقفه السابق تجاه بني إسرائيل. ثمّ إنّ إعرابهما عن الخوف من فرعون لم يكن على أنفسهما، بل على مصير الدعوة، والإجهاز عليها قبل أن تُبلَّغ.. لقد خافا من أحد أمرين، وهما:

١. أن يعجّل عليهما بالشرّ قبل تبليغ الرسالة والإتيان بالمعجزتين. وهذا هو الذي يشير إليه بقوله: (أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا).

٢. (أَوْ أَنْ يَطْغَى) بتشديد العذاب على بني إسرائيل انظر: الميزان في تفسير القرآن:١٤/١٥٦. والمبالغة في اضطهادهم.

وبما تقدّم يظهر الجواب عمّا أُشكل على الآية بأنّ قوله تعالى: (سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا) القصص:٣٥.يدلّ على إعطاء الأمان لهما، فكيف أعربا عن الخوف؟ حيث تبيّن لنا أنّ خوفهما كان على مصير الدعوة وليس على أنفسهما.

٤٦. (قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى):

لمّا أعربا عن خوفهما في الآية السابقة أمّنهم هنا بقوله: (لاَ تَخَافَا) من كلا الأمرين: لا من فَرَطه عليكما ولا من طغيانه (إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)وهو تعليل لعدم الخوف، والمعنى: أسمع ما يقال، وأرى ما يفعل، فأنصركما ولا أخذلكما.

ومن غريب القول ما ذكره الرازي حيث قال: إنّ هذه الآية تدلّ على أنّ كونه تعالى سميعاً وبصيراً، صفتان زائدتان على العلم لأنّ

قوله: (إِنَّنِي مَعَكُمَا) دلّ على العلم، فقوله:(أَسْمَعُ وَأَرَى) لو دلّ على العلم لكان ذلك تكريراً، وهو خلاف الأصل. تفسير الرازي:٢٢/١٦١.

وقد عزب عن الرازي أنّ قوله: (إِنَّنِي مَعَكُمَا) بمعنى حضوره سبحانه وشهادته، وليس بمعنى علمه. وقد نشأ التفسير الخاطئ لقوله: (إِنَّنِي مَعَكُمَا) من القول بفصل ذاته سبحانه عن العالم الإمكاني واستقراره على عرشه منفصلاً عن صحيفة الكون الإمكاني، ولكنّه غفل عن أنّ لازم ذلك كونه سبحانه محاطاً لا محيطاً، مستقراً في جهة خاصّة، على أنّ الآيات تنصّ على حضوره سبحانه في العالم كله حضوراً قيّومياً لا حلولياً، يقول سبحانه: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد:٤، ويقول سبحانه: (مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ) المجادلة:٧..

٤٧. (فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى):

قد تكرّر الأمر بذهاب موسى وأخيه هارون(عليهما السلام) إلى فرعون في الآية ٤٢ و ٤٣، فما هو الوجه لتكرار هذا الأمر في هذه الآية، حيث قال:(فَأْتِيَاهُ)؟

الظاهر أنّ الأمر بإتيان فرعون، ورد هنا كالمقدّمة لمّا سيذكره تعالى من غاية الأمر بالذهاب إليه.

وقد ذكر السيد الطباطبائي وجهاً آخر، وقال: جدّد أمرهما بالذهاب إلى فرعون بعد تأمينهما ووعدهما بالحفظ والنصر، وبيّن تمام ما يكلّفان به من الرسالة، وهو أن يدعوَا فرعون إلى الإيمان وإلى رفع اليد عن تعذيب بني إسرائيل وإرسالهم معهما، فكلّما تحوّل حال في المحاورة جدّد الأمر حسب ما يناسبه، وهو قوله أوّلاً لموسى: (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)، ثمّ قوله ثانياً لمّا ذكر أسئلته وأجيب إليها: (اِذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ)، (اِذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)، ثمّ قوله لما ذكرا خوفهما وأُجيبا بالأمن:(فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ...إلخ). الميزان في تفسير القرآن:١٤/١٥٧.

متن رسالة النبيّ موسى (عليه السلام)

وأمّا متن الرسالة التي أُمرا بتبليغها، فهذا ما يذكره بقوله: (فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ)، فالفقرة تشتمل على أمرين:

١. أنّهما رسولان من ربّ فرعون إليه، وقد أُمرا بتبليغه رسالته.

٢. أنّهما نسبا فرعون إلى الربّ، كما في قوله تعالى: (فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ)في وقت كان يدّعي فيه أنّه الربّ الأعلى، كما حكى عنه سبحانه ذلك بقوله: (أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى) النازعات:٢٤ .

ثمّ أبلغاه هذا المطلب: (فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ): أي أطلقهم من الاستعباد لنذهب وإيّاهم إلى حيث شاء الله، ولا تعذّبهم بإهدار كرامتهم وتسخيرهم في الأعمال الشاقّة. ثمّ أشارا إلى دليل رسالتهما بقولهما: (قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ): أي بمعجزة ظاهرة تثبت صدق ما ادّعيناه من رسالة الله.

وعلى كلّ تقدير، فلو طلب منهما دليلاً واضحاً على رسالتهما، فإنّهما مستعدّان للإتيان به. ولمّا أتمّا بيان الخطوط العريضة للرسالة خاطباه بأمرين: أحدهما تبشير، والآخر إنذار.

أمّا الأوّل فأشار إليه تعالى بقوله: (وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)وهو وإن كان تبشيراً فهو يحمل إنذاراً أيضاً، وأريد من قوله: (وَالسَّلاَمُ)السعادة لمن اهتدى، فلا يصادف في مسير حياته مكروهاً لا في دنياه ولا في عقباه.

وأمّا الثاني فأشار إليه سبحانه بقوله:

٤٨. (إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى):

أوعداه تلميحاً بأنّه لو كذّب بآيات الله أو رسالته وأعرض عنها، فسوف يأتيه العذاب.

وربّما يقال: إنّه سبحانه أمرهما أن يقولا له قولاً ليّناً، في حين أنّ الفقرتين الأخيرتين على خلاف هذا الأمر.

وهذا القول غير سديد، فإنّ النبيّ موسى(عليه السلام) لأجل حفظ هذه الغاية أتى بهاتين الفقرتين بدون أن يخاطب بهما فرعون، بل أتى بهما كضابطتين كلّيتين كسائر الضوابط.

الآيات: التاسعة والأربعون إلى الثانية والخمسين(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى... لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى).

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى).

المفردات

ثمّ هَدَى: أي عرّفه الطريق الموصل إلى مطلوبه.

بال: البال: الحال، الشأن.

لا يضلّ: لا يخطئ.

لا ينسى: لا يعرض له الجهل بعد العلم.

التفسير

تذكر الآيات حوار موسى وأخيه(عليهما السلام) مع طاغية مصر، ولكنّها لا تذكر كيف أذِنوا لهما بالدخول إلى البلاط، فإن من شيم الفراعنة عدم الإذن لغير المترفين والمقرّبين . وللإمام علي(عليه السلام) في هذا المقام كلام يطيب لنا ذكره، قال:

وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ(عليهما السلام) عَلَى فِرْعَوْنَ، وَعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ، وَبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ، فَشَرَطَا لَهُ ـ إِنْ أَسْلَمَ ـ بَقَاءَ مُلْكِهِ، وَدَوَامَ عِزِّهِ؛ فَقَالَ: «أَلاَ تَعْجَبُونَ مِنْ هذَيْنِ يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ، وَبَقَاءَ الْمُلْكِ؛ وَهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ وَالذُّلِّ، فَهَلاَّ أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَب؟»

إِعْظَاماً لِلذَّهَبِ وَجَمْعِهِ، وَاحْتِقَاراً لِلصُّوفِ وَلُبْسِهِ! وَلَوْ أَرَادَ اللهُ سُبْحَانَهُ لاِنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبَانِ، وَمَعَادِنَ الْعِقْيَانِ، وَمَغَارِسَ الْجِنَانِ، وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ وَوُحُوشَ الأَرْضِينَ لَفَعَلَ. وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلاَءُ، وَبَطَلَ الْجَزَاءُ، وَاضْمَحَلَّتِ الأَنْبَاءُ، وَلَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلِينَ، وَلاَ اسْتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِينَ، وَلاَ لَزِمَتِ الأَسْمَاءُ مَعَانِيهَا.

وَلكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّة فِي عَزَائِمِهِمْ، وَضَعَفَةً فِيمَا تَرَى الأَعْيُنُ مِنْ حَالاَتِهِمْ، مَعَ قَنَاعَة تَمْلاَُ الْقُلُوبَ وَالْعُيُونَ غِنىً، وَخَصَاصَة تَمْلاَُ الأَبْصَارَ وَالأَسْمَاعَ أَذىً.

وَلَوْ كَانَتِ الأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّة لاَ تُرَامُ، وَعِزَّة لاَ تُضَامُ، وَمُلْك تُمَدُّ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ، وَتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرِّحَالِ، لَكَانَ ذلِكَ أَهْوَنَ عَلَى الْخَلْقِ فِي الأَعْتِبَارِ، وَأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الأَسْتِكْبَارِ، وَلآمَنُوا عَنْ رَهْبَة قَاهِرَة لَهُمْ، أَوْ رَغْبَة مَائِلَة بِهِمْ، فَكَانَتِ النِّيَّاتُ مُشْتَرَكَةً، وَالْحَسَنَاتُ مُقْتَسَمَةً. وَلكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الأَتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ، وَالتَّصْدِيقُ بِكُتُبِهِ، وَالْخُشُوعُ لِوَجْهِهِ، وَالأَسْتِكَانَةُ لاِمْرِهِ، وَالأَسْتِسْلاَمُ لِطَاعَتِهِ، أُمُوراً لَهُ خَاصَّةً، لاَ تَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ. وَكُلَّمَا كَانَتِ الْبَلْوَى وَالأَخْتِبَارُ أَعْظَمَ كَانَتِ الْمَثُوبَةُ وَالْجَزَاءُ أَجْزَلَ». نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢(القاصعة).

إذا عرفت ذلك فلندخل في صلب التفسير.

٤٩. (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى):

لمّا خاطب النبيّ موسى وأخوه هارون طاغية عصرهما بقولهما:(إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ) أخذ فرعون يلوي شدقه معرضاً عن الاستجابة للدعوة مخاطباً موسى في استنكار، كما حكى عنه سبحانه ذلك بقوله: (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى)ولم يقل: مَن ربّي هذا؟ لأنّه لا يُقرّ بعبوديّته لأحد. وهنا أخذ موسى يعرّف ربه بأفضل بيان وأخصره.

استدلال موسى بتخصيص الربوبية بالله سبحانه

٥٠. (قَالَ رَبُّنَا الذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى):

عرّف موسى(عليه السلام) ربّه بأمرين متلازمين:

أ. هو (الذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ): أي خلق كلّ شيء على الهيئة اللاّئقة به والتي يستقيم بها وجوده.

ب. (ثُمَّ هَدَى): أي هداه إلى الكمال الذي خُلق لأجله، فالهداية في طول الخلقة. والفقرة الأُولى فيها إشارة إلى التوحيد في الخالقية ولم يكن ذلك مورد إنكار لفرعون. أمّا الفقرة الثانية ففيها إشارة إلى التوحيد في الربوبية الخاصّة بالله سبحانه فهو خالق كلّ شيء وربّ كلّ شيء، ولا ربّ غيره، فما يدّعيه فرعون من أنّه هو الربّ الأعلى، إنكار للتوحيد في الربوبية، فصحيفة عالم الإمكان فقيرة بالذات لا تتمتع بشيء من التحصّل والوجود، والعالم بحاجة إلى علّة تامّة تخرجه من العدم إلى الوجود، فالمخرج له لا يكون ممكناً مثله وإلاّ لَدار أو لَتسلسَل، بل موجود تامّ قائم بالذات لا يحتاج في وجوده وفعله إلى غيره، ولذلك صار سبحانه الخالق وحده.

ثمّ إنّ الربوبية بمعنى تدبير استمرار وجود الممكن، وإن كانت في عالم التصوّر غير الخالقية، لكن التدبير التكويني غير منفكّ عن الخلق والإيجاد، ولذلك يجب أن يكون الخالق مديراً ومدبّراً أيضاً بنفس البيان الذي ذكرناه.

وبذلك يُعلم أنّ (ثُمّ) في قوله: (ثُمَّ هَدى) للترتيب الرُّتَبي لا الزّمني، لِما عرفت من أنّ الهداية بمعنى التدبير غير منفكّة عن الخلق، ولذلك نرى أنّه سبحانه عطف الهداية على الخلق بواو الجمع، قال: (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ). البلد: ٨ ـ ١٠.

٥١. (قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى):

قد تقدّم في المفردات أنّ البال بمعنى الحال، قال سبحانه:(وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) محمد:٢.. لمّا لم يجد فرعون ما يردّ به على جواب موسى (عليه السلام) القويّ المُفحِم، أراد أن يحاجّه بحال الأُمم الماضية التي لم تؤمن بربّ موسى وهارون، حيث إنّهم ـ على زعمكما: (أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى) ـ في الضلالة والعذاب، فهل يمكن توصيف تلك الأُمم في العصور الخالية بالضلالة؟ فأجاب موسى بقوله:

٥٢. (قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى):

وهذا الجواب من النبيّ موسى(عليه السلام) يدلّ على براعته في المناظرة وتبليغ الرسالة، حيث إنّ فرعون صرفه إلى موضوع هامشيّ ألا وهو مصير القرون الخالية، مع أنّه لم يُبعث إلاّ إلى الأحياء، ولذلك أجمل الجواب.

وحاصله: ربّي أعلم بحالهم ولست مسؤولاً عنهم وعن بيان مصيرهم، قائلاً: (عِلْمُهَا): أي علم أحوالها (عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ) مسجَّل فيه أعمالهم (لاَ يَضِلُّ): أي لا يخطئ (رَبِّي وَلاَ يَنْسَى)، وبذلك برّأ نفسه من تحمّل المسؤولية بما يتعلّق بالأُمم الماضية، حتى يُغلق على فرعون باب النقاش فيه.

الآيات: الثالثة والخمسون إلى الخامسة والخمسين(الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَا. . . وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخرى).

(الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأولِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخرى).

المفردات

مهداً: المَهْد: ما يمهَّد للصبيّ ويفرش له.

سلَكَ: السَّلْك: إدخال الشيء في الشيء، أي أدخل لكم في الأرض طرقاً تسلكونها.

سبلاً: واحدها سبيل، وهي الطريق.

أزواجاً: أصنافاً.

شتّى: جمع شتيت، بمعنى المفرّق.

التفسير

هل هذه الآيات الثلاث من كلام الله سبحانه على عادة القرآن من التفنّن في ذكر الأغراض لأجل تجديد نشاط الأذهان، كما عليه بعض المفسّرين؟ لاحظ: روح المعاني:١٦/٢٠٥؛ التحرير والتنوير:١٦/١٣١. أو أنّها من كلام موسى(عليه السلام) على أن يكون قد سمعه من الله عزّ وجلّ فأدرجه بعينه في كلامه؟

الظاهر هو الأوّل، لأنّ الدلائل التي جاءت في هذه الآيات مذكورة في غير واحدة من السور والآيات. وعلى كلّ تقدير فسواء أكانت لله سبحانه أو لموسى(عليه السلام)، فقد احتجّت بدلائل ثلاثة على التوحيد في الربوبية.

٥٣. (الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى):

أمّا الدليل الأوّل فقوله: (الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا): أي جعلها مستقَرّاً للعباد، حيث يستطيعون العيش عليها والقيام بمختلف النشاطات والفعاليات كالسّير والحراثة والزراعة أو أخذ قسط من الراحة والنوم وغير ذلك من وجوه المنافع، قال سبحانه: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا). البقرة: ٢٢.

وأمّا الدليل الثاني فقوله: (وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً): أي جعل لكم فيها طرقاً، ووسّطها بين الجبال والأودية.

وأمّا الدليل الثالث فقوله: (وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً): أي مطراً (فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى). وقوله: (فَأَخْرَجْنَا) دليل على ما اخترناه من أنّ هذه الآيات من كلام الله سبحانه.

قال سبحانه:(وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ).(الأنعام: ٩٩.)

الاعتراف بتأثير العلل الطبيعية بإذن الله

قال الرازي: ظاهر الآية يدلّ على أنّه يخرج النبات من الأرض بواسطة إنزال الماء، فيكون للماء فيه أثر.

ثمّ قال: وهذا بتقدير ثبوته لا يقدح في شيء من أُصول الإسلام، لأنّه سبحانه وتعالى هو الذي أعطاها هذه الخواص والطبائع، لكن المتقدِّمين من المتكلّمين ينكرون ويقولون: لا تأثير له فيه ألبتة. تفسير الرازي:٢٢/٦٩.

أقول: إنّ ما جاء في الآية هو نفس أُصول الإسلام وليس شيئاً يخالفه حتى يحتاج إلى التأويل، وذلك لأنّ حصر الخالقية بالله ليس بمعنى إنكار السببيّة بين الأشياء، والله سبحانه هو الذي خلق السبب والمسبِّب والسببيّة، فلا مانع من إسناد الإخراج إلى الماء وفي الوقت نفسه إلى الله سبحانه، نظير قوله سبحانه:(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى) الأنفال:١٧، والعجب أنّ الرازي نسب الإنكار إلى المتكلّمين مع أنّه من أهازيج المحدّثين، والتفصيل في محلّه. ثم إنّه سبحانه ذكر انتفاع الإنسان من هذه النّعم بقوله:

٥٤. (كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى):

إنّ ما تخرجه الأرض من النباتات هو قوت للإنسان ولأنعامه، فعليه أن يتدبّر في هذا النظام المتقن كما يقول:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى): أي لذوي العقول الواعية، فهذا النظام المتصل المستمرّ عبر العصور دون أن يتخلّله خطأ يدلّ على أنّ ربّ العالمين واحد لا ثان له.

ثمّ إنّه سبحانه وجّه نظر الإنسان من الدنيا إلى الآخرة، وقال:

٥٥. (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى):

فالإنسان يدور بين مثلّث من الولادة إلى الإماتة إلى الإحياء. أمّا الضلع الأوّل فيقول فيه: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ): أي من الأرض، فإنّ

النطفة الإنسانية تتولّد من الأغذية التي تتكون بوسائط من الأرض. وأمّا الضلع الثاني فهو الإعادة، كما يقول: (وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ): أي إلى الأرض فتصيرون تراباً.

وأمّا الضلع الثالث فهو قوله:(وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرى)، وجاء مضمون هذه الآية في قوله سبحانه: (فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) الأعراف:٢٥..

روى الصّدوق بإسناده إلى أحمد بن علي الراهب قال: قال رجل لأمير المؤمنين(عليه السلام): يا ابن عمّ خير خلق الله، ما معنى السجدة الأُولى؟ فقال: تأويله: اللّهم إنّك منها خلقتني ـ يعني من الأرض ـ ورفع رأسك: ومنها أخرجتنا، والسجدة الثانية: وإليها تعيدنا، ورفع رأسك من الثانية: ومنها تخرجنا تارة أُخرى. علل الشرائع: ٤٥٨ ، الباب ٣٢، رقم الرواية ٤.

الآيات: السادسة والخمسون إلى الرابعة والستين(وَ لَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا.. .. وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى).

(وَ لَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى * قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنْتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى * فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى * قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى * فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى * قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى * فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى).

المفردات

أبى: امتنع.

موعداً: ميعاداً معيّناً.

سُوى: أي أرضاً مستوية.

يوم الزينة: يوم العيد، ليكون الناس فارغين عن العمل ومستعدين للاجتماع.

يُحشَر الناس: يجتمعون.

ضحى: وقت حرارة الشمس بعد طلوعها.

كيدَه: ما يكيد به من السحرة وأدواتهم.

ويلكم: الويل: اسم للعذاب والشرّ، أي هلاك لكم.

فيسحتكم: يستأصلكم ويهلككم.

فتنازعوا: أي وقع التّنازع بينهم، وهو الاختلاف والتخاصم.

أسرّوا النجوى: بالغوا في إخفاء نواياهم.

المُثلى: الفُضلى.

فأجمِعوا كيدَكم: اتّفقوا في الكيد على موسى.

صفّاً: مصطفّين، حتى يكون وسيلة للرّهب.

استعلى: غلب.

التفسير

بعد ما أشارت الآيات السابقة إلى دلائل التوحيد في الربوبية، رجعت إلى قصة موسى وحواره مع فرعون، وحاصلها: إنّ موسى احتجّ

عليه بالآيات كلّها، ولعلّه احتجّ بالتسع، فلم يُثمر، كما قال:

٥٦. (وَ لَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى):

أي عرض موسى على فرعون كلّ ما عنده من معاجز وآيات، ولكنّ فرعون كذّب وأبى عناداً واستكباراً، وحرصاً على عرشه وعلى امتيازات السلطة، فصارت الأنانية حاجباً بينه وبين الواقع.

اتّهام موسى بالسيطرة على مصر

٥٧. (قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى):

لمّا عجز فرعون عن مواجهة الآيات الباهرات التي جاء بها موسى(عليه السلام)بالمنطق والدليل، أخذ يوجّه إليه التُّهم، كما هو شأن المفسدين في موقفهم من المصلحين عبر التاريخ، وما ذاك إلاّ لأنّ مشاريع المصلحين غالباً ما تصطدم مع مصالح الطغاة المترفين، فلأجل أن يحولوا بينهم وبين الناس يتّهمون المصلح بما يشوّه سمعته ويُضعف من مكانته. وانسجاماً مع هذا الغرض، يأتي اتّهام فرعون، كما حكاه عنه سبحانه: (قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى)وهكذا جعل فرعون الغاية من إعمال السحر هي سعي موسى للسيطرة على مصر وطرد فرعون وقومه منها، وقد حاول فرعون بهذا الاتّهام أن يثير غضب قومه على موسى(عليه السلام)، كما يتّضح ذلك من موضع آخر في القرآن الكريم: (قَالَ لِلْمَلاَ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) الشعراء:٣٤ـ٣٥.

٥٨. (فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنْتَ مَكَانًا سُوًى):

قد تصوّر غير واحد ممّن سمع اتّهام موسى بالسِّحر بأنّ ما يأتي به سيتوارى ويتلاشى أمام عمل السَّحَرة الذين يجيدون التمويه والخداع، ومن ثمّ تسقط حجّته، وتنهار دعوته، فلذلك دعوا موسى إلى تحديد موعد لإقامة المباراة، قائلين: (فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنْتَ)بشرط أن تُقام المباراة في مكان مستوٍ مكشوف للناظرين، كما قال:(مَكَانًا سُوًى).

والذي يمكن أن يقال: إنّ فرعون والملأ من حوله وسائر مَن حضر مجلسه لم يكونوا في أنفسهم ـ حتى الآن ـ مؤمنين بصحّة دعوة موسى(عليه السلام)وأنّ ما جاء به من الآيات من الله سبحانه، وإلاّ لما اقترحوا عليه المنازلة والمباراة في مكان مستوٍ لتشهدها الجماهير، وما يقوله سبحانه: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ) النمل:١٤. ناظر إلى ما بعد مشاهدة المعاجز، وأنّه كيف غلب موسى على كيدهم على نحو آمن به من كان ناصراً لفرعون، ومنتظراً لجوائزه، حيث علموا أنّ ما أتى به موسى لا يمتّ إلى السحر بصلة.

ولذلك نرى أنّ موسى(عليه السلام) قَبِل ذلك الاقتراح، واختار له موعداً، وهو يوم العيد، اعتماداً واطمئناناً بأنّه سينتصر عليهم ويغلبهم، كما قال:

٥٩. (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى):

انتهز(عليه السلام) فرصة هذه الدعوة التي أتاحها له الطغاة المعاندون ليستثمرها إعلامياً لمصلحة رسالته الإلهية، فاختار الموعد في يوم كان بمنزلة العيد لهم فيتزيّنون فيه ويجتمعون، كما قال: (قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ) مضافاً إلى (وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى) مستهدفاً بذلك إيصال دعوته الحقّة ورسالته الصادقة إلى أكبر عدد من الناس، الذين سيرَون نتيجة المباراة، ويعرفون المحقّ من المبطل، وينقل الحاضر قصتها لمن لم يشهدها منهم.

٦٠. (فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى):

لمّا تمّ الاتّفاق بين الطرفين وتعيّن زمان المباراة ومكانها، انصرف فرعون عن موسى(عليه السلام)، كما قال: (فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ) متوجّهاً إلى وزرائه وأمرهم بجمع السحرة لميقات وقت معلوم (فَجَمَعَ كَيْدَهُ): أي جمع السَّحَرة (ثُمَّ أَتَى) الموعد. ومن المعلوم أنّ الطاغية لا

يرِدُ الموعد إلاّ أن يكون محاطاً بجنوده ورجال حمايته ويجلس على عرش يقام له هناك وحوله وزراؤه، وأمّا موسى فقد ورد الموعد مع أخيه مستعيناً بقوّة ربّه، ودون أن تكون له طنطنة. ولمّا عرف موسى كيد فرعون وسحرته شرع في نصيحتهم، وقال:

٦١. (قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَاب وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى):

أخذ موسى(عليه السلام) في تحذيرهم من الافتراء على الله كذباً، كما يقول: (قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا) ماذا أراد بذلك؟ لعلّ المراد اعتقادهم بربوبية فرعون، وهو كذب على الله، وقد عُدّ ذلك افتراء على الله في مواضع أُخرى من القرآن كقوله: (قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ) الأعراف:٨٩. ومن ثمّ: (فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَاب): أي بعذاب الاستئصال. ثم أنذرهم بقوله: (وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى): أي خسر الذين افتروا على الله كذباً، وانقطع رجاؤهم عن بلوغ ما يأملون.

التنازع والاختلاف بين السحرة

٦٢. (فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى):

ظاهر الآية أنّه وقع التنازع والاختلاف بين السَّحَرة إزاء موقفهم من موسى(عليه السلام)، كما قال: (فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ)، حيث تركت كلماته (عليه السلام)التحذيرية المتقدّمة أثراً في نفوس بعضهم، فتردّد في مواجهته بالسِّحر، ولكنّهم بالغوا في كتمان ما دار بينهم من شجار، وتناجَوا فيما بينهم سرّاً، كما قال: (وَأَسَرُّوا النَّجْوَى). وقيل في معنى تنازعهم الأمر: أنّهم تشاوروا وتفاوضوا كي يستقرّ رأيهم على موقف واحد.

٦٣. (قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى):

لفظة (إِنْ) في قوله: (إِنْ هَذَانِ) مخففة من المثقّلة ولذلك ألغيت عن العمل، نعم قرأ غير واحد من القرّاء بتشديد النون، ولذلك ذكر غير واحد في إعراب (هَذَانِ) وجوهاً بلغت الستة، أفضلها أن يقال: إنّ لفظة (إِنْ)حرف جواب مثل: نعم وأجل، فيكون المعنى: نعم، هذان لساحران، غير أنّ الحجّة ما هو المكتوب في المصاحف.

لعلّ مفاد الآية كان بياناً صدر من جانب فرعون لتوضيح الهدف من الاجتماع، فقُرئ على المجتمع (إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ) إشارة إلى موسى وهارون (يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا) لتصفوَ لهما البلاد وتتمحّض لهما الرئاسة (وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى): أي الوثنية التي هي الطريقة المثلى، والسنّة القومية التي كانت حاكمة عصراً بعد عصر، وجيلاً بعد جيل، وقد اشتدّ بها عَظمُهم ونبت عليها لحمُهم. هذا من جانب، ومن جانب آخر أنّ عامّة الناس تقدّس السنن القومية وخاصّة ما اعتادت عليها وأذعنت أنّها سنن ظاهرية سماوية. وكانت نتيجة هذا الكلام دعوتهم إلى التثبّت والاستقامة على الوثنية لوجهين:

أ. أنّها دين حقّ لا شبهة فيه.

ب. أنّها سنّة قوميّة عاشوا عليها.

خطاب فرعون للسَّحرة

٦٤. (فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى):

أي أجمعوا ـ أيّها السَّحَرة ـ قواكم وكونوا يداً واحدة (ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا)مصطفّين إلى موضع إلقاء سحركم، فإنّ الفوز والفلاح نصيب مَن غلب وظهر في هذا الجمع الحاشد، كما يقول: (وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى). وأرادوا الفلاح في الدنيا لأنّهم لم يكونوا يؤمنون بالحياة الأُخروية.

الآيات: الخامسة والستون إلى السادسة والسبعين (قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ ... وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى).

(قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى *

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَفٍ وَلأصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى * قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى).

المفردات

فأوجس: إيجاس الخوف: الإحساس بشيء منه في النفس. وحاصله: أحسّ خوفاً غير بارز.

تلقف: يقال: لقفت الشيء إذا أخذته بسرعة، وأُريد هنا البلع.

صنعوا: افتعلوا.

كَيد ساحر: أي زوّروه لا حقيقة له.

حيث أتى: حيث وُجد.

لَكبيركم: الكبير (في اللغة): الرئيس، ولهذا يقال للمعلم: الكبير.

من خِلاف: قطع اليمنى من اليد، واليسرى من الرِّجْل.

نؤثرك: الإيثار: الاختيار.

فَطَرَنا: خَلَقَنا عليه.

عَدْن: محلّ إقامة.

تزكّى: طلب التطهير.

التفسير

٦٥.(قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى):

في الكلام إيجاز وحذف، أي لمّا اجتمع الناس لمشاهدة المباراة بين موسى والسَّحَرة وجاء أبطالها إلى المكان المعيّن، فعندئذ خاطب السَّحَرة موسى(عليه السلام) بقولهم: (إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى). فهل كلامهم هذا يدلّ على أدبهم أو أنّه جرى مجرى الأمر الطبيعي لأنّه لا يمكن الإلقاء مجتمعين؟ وعلى كلّ تقدير، أجابهم موسى بما في أوّل الآية التالية:

٦٦. (قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى):

أجابهم موسى(عليه السلام) بأن يكونوا هم أوّل مَن يُلقون حتى يبرزوا ما عندهم من مكائد السحر ويستخرجوا أقصى مجهودهم، فعندئذ إذا غلب عليهم موسى وأظهر الله سلطانه عليهم كان المورد من مصاديق قوله سبحانه:(جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) الإسراء:٨١. فلمّا ألقوا (فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ): أي إلى موسى (مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) والآية تدلّ على أنّهم سحروا أعين الناس بالحبال والعصيّ.

وقد صنعوها بشكل إذا لاقت شعاع الشمس تحرّكت الحبال والعِصيّ كتحرُّك الثعبان. وأمّا ما هي المادّة التي جعلتها مستعدّة للسعي والتحرّك، فقيل: إنّهم قد وضعوا فيها طلاء الزئبق، وقيل غير ذلك.

٦٧. (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى):

أي أحسّ في داخله ـ لعَظَمَة سحرهم قال تعالى: (فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ). الأعراف:١١٦. ـ نوعاً من الخوف لا يُعبأ به، ولم يظهر حتى على ملامح وجهه.

وهذا الإحساس الآنيّ العابر بالخوف، علّله أمير المؤمنين(عليه السلام)بقوله:«لَمْ يُوجِسْ مُوسَى(عليه السلام) خِيفَةً عَلَى نَفْسِهِ، بَلْ أَشْفَقَ مِن غَلَبَةِ الْجُهَّالِ وَدُوَلِ الضَّلالِ!». نهج البلاغة: الخطبة ٤.

وهذا القول يدلّ على أنّه(عليه السلام) حينما رأى سحرهم العظيم، خاف أن تلج الفتنة والشبهة على الجموع المحتشدة، فيغترّوا بتمويهاتهم وأباطيلهم، وبذلك تقوى دولة الضلالة، وتغلب كلمة الجهّال.

وقيلت في تفسير الآية وجوه أُخرى غير مقبولة في نظرنا.

وعلى كلّ تقدير، لمّا خالج موسى(عليه السلام) شيء من الإحساس بالخوف للعلّة التي كشف عنها الإمام(عليه السلام)، وافاه الوحي الإلهي بقوله:

٦٨. (قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى):

أي أنت الظافر والغالب لهم، وستُبدّد ما صنعوا من أوهام كاذبة لاستغفال الجهلة لحظة شروق نور الحق الساطع، وبزوغ ضياء الحجّة اللامع، فبادر إلى المنازلة بإلقاء عصاك، كما يقول:

٦٩. (وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى):

عبّر سبحانه عن عصاه بقوله: (مَا فِي يَمِينِكَ) استذكاراً لما كلّمه به في وادي طوى، حيث قال له:(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى). طه:٧.

قال المفسّرون: لمّا ألقى عصاه صارت حيّة فطافت حول الصفوف حتى رآها الناس كلُّهم، ثمّ قصدت الحبال والعِصيّ فابتلعتها كلَّها على كثرتها، ثمّ أخذها موسى فعادت عصاً كما كانت. وأمّا قوله: (إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ) فلعلّه تعليل لبلعها ما صنعوا، وهو أنّ ما صنعوه لا يخرج عن كيد الساحر ومكره (وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ): أي لا يظفر الساحر ببغيته (حَيْثُ أَتَى):

أي أينما وُجد، خصوصاً إذا أراد مواجهة الحقّ ومعارضته.

٧٠. (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى):

الفاء في قوله: (فَأُلْقِيَ) تدلّ على عدم وجود الفاصل الزماني بين عمل موسى وإيمان السحرة، كما يقول: (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا) إمّا لله سبحانه أو تعظيماً وتكريماً لموسى(قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى)قدّم هارون وأخّر موسى مع أنّ طبيعة الحال تقتضي العكس، وما ذاك إلاّ لحفظ فواصل الآيات حيث إنّ الجميع انتهى بالألف المقصورة.

هكذا تؤثّر الحجج الإلهية في القلوب المستعدّة، وذلك لأنّهم كانوا أعرف بموازين الإعجاز ومعايير السحر فعلموا لأجل تبحّرهم في هذا العلم أنّ ما أتى به موسى(عليه السلام) لا صلة له بالسحر، وإنّما هو عمل إلهي وبرهان قدسيّ، ولذلك اهتزّت ضمائرهم بقوّة فسجدوا لله تعالى أو تكريماً لموسى(عليه السلام).

ردّة فعل فرعون

٧١. (قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى):

كانت الهزيمة مصيبة كبرى لفرعون وملئه، حيث استشعروا تزلزل عرشهم ومُلكهم وزوال سطوتهم عن قلوب رعيّتهم، ولذلك صبّ فرعون جام غضبه على السَّحَرة، و(قَالَ) لهم منكراً متوعّداً:

أ. (آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ).

والفقرة تشير إلى أنّ فرعون مصر احتكر كلّ شيء لنفسه حتى أنّ الشعب المستضعف ليس له الحرية في اختيار الدين حتى ولو كان حقّاً، فإيمانهم بدون إذنه يُعدّ جريمة كبرى، حيث يكشف عن امتلاكهم إرادتهم وحريتهم، وهذا ما لا يحتمله الطاغية!! فكيف يختارون بأنفسهم نوع الدين دون أن يستأذنوا «ربهم الأعلى» فرعون في هذا الاختيار؟ وكيف لا يكون ذلك جريمة عند الطاغية، وهؤلاء السَّحَرة قضوا حياتهم السابقة في الخضوع والاستسلام في كلّ شؤونهم لإرادة فرعون وجبروته وسلطانه؟!

ب. (إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ) لم يكتف بالأمر الأوّل حتى أدخل عنصراً خارجياً وفكرة التآمر المخطَّط له مُسبقاً بين موسى والسحرة، وحاصله: إنّ هزيمته الفاضحة في يوم الزينة إنّما تقع على عاتق السَّحَرة، الذين كشف موقفهم عن أنّهم تلاميذ منهج موسى وهو معلّمهم، وقد اتّفقوا على العمل ضدّنا ورسموا هذه الخطة، ولذلك قال: (إِنَّهُ): أي موسى (لَكَبِيرُكُمُ): أي رئيسكم ومتقدّمكم (الذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ).

فإذا ثبت تآمركم على زعزعة عرشي وإجلاء قومي عن ديارهم، فسوف تعاقبون بأقسى عقوبة لعظم جريمتكم وهي كما يقول: (فَلأقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَف). إنّه يراهم مستحقّين للحُكم الذي يصدر في حق أفسد المفسدين للشريعة الإسلامية، أعني: قطّاع الطريق. قال تعالى: (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَف أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)(المائدة:٣٣). أي أقطع اليمنى من أيديكم واليسرى من أرجلكم مضافاً إلى: (وَلأصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ) والتصليب: مبالغة في الصَّلْب، وهو ربط الجسم على خشبة أو دقّه عليها بمسامير. ثم قال: (وَ) عند ذاك (لَتَعْلَمُنَّ)أيّها السَّحَرة (أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى): أي أدوم، هل نحن أم ربّ موسى؟ لتكونوا عبرة لكلّ مَن يفكّر في التمرّد عليّ. ومن المعلوم أنّ طاغية مصر بعمله هذا يريد تهديد الآخرين لئلاّ يقتدوا بالسحرة، وأن يخفّف من حقده المشتعل في صدره.

ثبات السَّحَرة

٧٢. (قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاض إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا):

إنّ الذي سبب هيجان غضب فرعون أكثر ممّا سبق، ما جوبه به من جواب السَّحَرة الذي لم يكن يتوقّعه، إذ أخذوا يستهينون بتهديده ويكشفون عن موقفهم من التُّهم التي كالَها لهم، كما حكى سبحانه عنهم ذلك بقوله:

أ.(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ): أي لن نفضّلك ولن نختارك على ما أتانا من الحُجج الدالّة على صدق موسى وصحّة نبوّته.

ب. (وَ) لن نؤثرك على (الذِي فَطَرَنَا) فإنّ الإنسان فُطر على التوحيد في مجالَي الخلقة والربوبية، وقد كنّا غافلين عن قضاء الفطرة، فلن نؤثرك على الذي فَطَرنا وخَلَقنا. وإذا كان الأمر كذلك (فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاض): أي اصنع ما أنت صانع واحكم بما شئت، فلن يردّنا ذلك عن موقفنا بعد أن كُشِفَتْ عن أعيننا أغطية الجهل وأبصرنا الحقّ جليّاً واضحاً، إذ غاية ما تحكم (إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) وتحكم فيها وهي فانية زائلة، ونحن نطمع في الآخرة الباقية الخالدة، ولا سلطان ولا حُكم لك فيها.

٧٣. (إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى):

الآية تتضمّن أمرين:

١. إنّ حبّ الله اشتعل في قلوبهم، فقالوا بكلّ شجاعة وبطولة متضرّعين إلى ربّهم: (إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا). لقد عظم الخالق في أنفس هؤلاء السَّحَرة، فكيف يأبهون بفرعون ووعيده؟!

ب. (وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ) وهذا يدلّ على أنّ فرعون أكرههم على السِّحر. ولعلّ هذا حصل قبيل المباراة، حيث قال:

(فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى).

ثم قالوا: (وَاللَّهُ خَيْرٌ) ثواباً (وَأَبْقَى) عقاباً للعصاة. ولعلّه جواب على قول فرعون: (وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى).

إنّ صدور مثل هذه الكلمات من أُناس كانوا قبل ساعات على الوثنية لشيء عجيب مع أنّهم أقسموا قبل إلقاء حبالهم وعصيّهم بعزّة فرعون وقالوا: (بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ) الشعراء:٤٤، ولكنّهم أصبحوا الآن موحّدين مؤمنين.

٧٤ ـ ٧٦. (إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى * وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى):

لو كانت هذه الآيات من تتمّة كلام السحرة فهي تدلّ على أنّهم كانوا عارفين بتفاصيل دعوة موسى(عليه السلام)أو دعوة سائر الأنبياء الذين كانت سيرتهم مثل سيرة موسى(عليه السلام) وإلاّ فأين الناس البعداء عن دعوة الأنبياء وهذه المفاهيم السامية؟ فإنّ الاعتقاد بالحياة الأُخروية وما فيها من النّعم وإدراك أنّ الحياة الدنيوية وزخارفها منقطعة وزائلة وأنّ الله يغفر خطايا المجرمين، كلّ ذلك يكشف عن معرفتهم بشرائع الله سبحانه.

ويحتمل أن تكون هذه الآيات جملاً معترضة بين قصة السحرة وقصة خروج بني إسرائيل، يذكرها سبحانه في هذا المقام بشرى للمؤمنين وإنذاراً للكافرين، وقد مرّ نظيرها أيضاً في قوله تعالى:(الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا...) طه:٥٣ ـ ٥٥.

وحاصل الآيات: إنّه تعالى يبيّن مصير المجرم والمؤمن، والضمير في قوله: (إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا)، ضمير الشأن، أي إنّه الشأن المقرّر الثابت، والمراد بالمجرم الكافر المرتكب للآثام (فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ)جزاءً على تمرّده وعصيانه (لاَ يَمُوتُ فِيهَا) حتى يستريح من العذاب (وَلاَ يَحْيَى) حياة طيّبة فيها راحة ومتعة،بل هو معاقب بأنواع العقاب.

هذا حال مَن يلقى ربّه مجرماً، وأمّا مَن يلقاه مؤمناً به وبآياته وأنبيائه، ومعه ثمار هذا الإيمان، وهي صالح الأعمال، كما يقول: (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ)، فإنّه يكون أهلاً لحلول المنازل الرفيعة في جنات النّعيم، كما يقول: (فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى). ثمّ إنّه سبحانه يشرح تلك الدرجات بقوله: (جَنَّاتُ عَدْنٍ): أي إقامة (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى): أي تطهّر عن دنس الكفر.

إلى هنا تمّت قصة مباراة موسى مع السَّحَرة وهزيمتهم، ومصير السحرة مصيراً قليل النظير، حيث كانوا أوّل النهار سَحَرة وفي آخره شهداء بررة؛ فيما لو أقدم فرعون على تنفيذ تهديده لهم، وليس في الذكر الحكيم ما يدلّ عليه.

خروج موسى ببني إسرائيل من مصر

الآيات: السابعة والسبعون إلى الثانية والثمانين (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ... ثُمَّ اهْتَدَى).

(وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَ تَخَافُ دَرَكًا وَلاَ تَخْشَى * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى * يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى * كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى * وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى).

المفردات

أسرِ: أمر من السُّرَى، وهو السير في اللّيل.

يَبَساً: وصف بمعنى اليابس، أي طريقاً يابساً لا ماء فيه.

دَرَكاً: لَحاقاً، أي لا تخاف أن يدركك فرعون.

تخشى: الخشية: شدّة الخوف.

غَشِيَهم: غَمَرهم وعلاهم.

اليمّ: البحر.

أضلّ: سلك بهم طريقاً أدّى إلى الخسران مع ادّعاء أنّ طريقته هي المُثلى.

الأيمن: وصف للجانب.

المنّ: مادة تتزهّر على أوراق بعض الأشجار، طعمها حلو. وقيل في معناه غير ذلك.

السَّلوى: طائر بريّ لذيذ اللّحم، ويسمّى أيضاً السُّمانَى.

فيحلّ: الحلول: النزول والإقامة بمكان، شبهت إصابة آثار الغضب بحلول الإنسان بداره.

التفسير

٧٧. (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَ تَخَافُ دَرَكًا وَلاَ تَخْشَى):

ابتدأ سبحانه هذه الآية بقوله: (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا) مكان أن يقول: وقد أوحينا، وما هذا إلاّ لوجود فصول من حياة موسى ونزاعه مع فرعون قبل خروجه من مصر، وقد جاء ذكر هذه الفصول في سورة الأعراف، ابتداءً من قوله تعالى: (وَقَالَ الْمَلأ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ) وانتهاءً بقوله تعالى: (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ) الأعراف:١٢٧-١٣٥، فقد ابتلاهم سبحانه بين الهزيمة والخروج من مصر ببلايا وسنين، قال سبحانه:(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ). الأعراف:١٣٣.

ويظهر من التفاسير أنّ كلاًّ من هذه البلايا استغرق سنة واحدة، وعلى هذا فهناك فاصلة زمنية بين الهزيمة وغلبة موسى على السحرة وبين مغادرة مصر تمتدّ لسنوات، وقد تُرك ذكرُها في المقام لعدم تعلُّق غرض مهمّ بذكرها.

وعلى كلّ تقدير، فالله سبحانه أوحى إلى موسى(عليه السلام) أن يغادر مصر بالسير في الليل وقال: (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي) وإضافة العباد إلى ياء المتكلّم نوع تشريف، وإيماء إلى تخلُّصهم من عبودية الفراعنة إلى عبودية الله تبارك وتعالى.

وأمّا كيفية الخروج من مصر إلى سيناء مع أنّ بينهما البحر، فالله سبحانه أرشده إليها قائلاً:(فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ): أي اجعل لهم طريقاً في البحر، فالضَّرب هنا بمعنى الجعل، بخلاف ما في قوله: (أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ) الشعراء:٦٣، ووجه أنّ متعلّق الضَّرب في آيتنا هو الطريق، وفي سورة الشعراء هو البحر.

ثمّ إنّه سبحانه وصف الطريق بقوله: (يَبَسًا): أي طريقاً يابساً ذهب ماؤه وبقي جافّاً، وذلك لأنّ قاع البحر طين ورمل، فلا يمكن السير عليه إلاّ إذا جفّ ويبس.

ولمّا كانت هناك مظنّة خوف من أمرين: لَحاق فرعون بهم، والغرق في البحر، فالله سبحانه أمّنهم منهما بقوله: (لاَ تَخَافُ دَرَكًا): أي أن يلحق بكم فرعون وجيشه فيمنعكم من الخروج (وَلاَ تَخْشَى) من الغرق في البحر.

٧٨.(فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ):

لمّا سلك موسى(عليه السلام) ببني إسرائيل الطريق الذي فُتح لهم في البحر بمعجزة ربّانية، سار فرعون مع جيشه في أَثَرهم، كما يقول: (فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ) دون أن يتيح له كبرُه وغيظه التفكير في هذا الطريق اليابس الذي جُعل بين ساحلَي البحر (فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ).

أتى بالموصول وقال: (مَا غَشِيَهُمْ) ولم يقل الماء الذي غشيهم، وذلك لأجل إفادة التهويل، أي كان الغاشي على حدٍّ لا يمكن وصفه

إلاّ بأن يقال: ما غشيهم. قال الزمخشري: قوله: (مَا غَشِيَهُمْ) من باب الاختصار ومن جوامع الكلم التي تستقلّ مع قلّتها بالمعاني الكثيرة، أي غشيهم ما لم يعلم كنهه إلاّ الله. تفسير الكشّاف:٢/٣٠٩.

وتفيد الآية إنّه لمّا وصل آخر إسرائيلي إلى الجانب الثاني من البحر ودخل آخر جندي من جنود فرعون في البحر، انطبق البحر عليهم فغرقوا جميعاً كما سلم الإسرائيليون جميعاً، فكانت النتيجة ما يقول:

٧٩. (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى):

تخبر الآية عن مصير فرعون وقومه بأمرين:

أ. (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ) حيث انقادوا إليه فعدل بهم عن جادّة الحقّ وسبيل النجاة في الدنيا والآخرة. وقد أشار سبحانه في موضع آخر إلى مآل فرعون وقومه وقال:(يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ). هود:٩٨ و ٩٩.

ب. (وَمَا هَدَى) الظاهر أنّه تأكيد لما سبق، ووجه الإتيان به للتهكّم بفرعون في قوله: (وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ) غافر:٢٩.

فصارت النتيجة على خلاف ما يقول.

وبذلك طويت الدولة الطاغية التي حكمت مصر لمئات السنين، حكماً دمويّاً استبدادياً مطلقاً، فصارت عبرة ومثلاً للأجيال القادمة.

إنجاء بني إسرائيل من عدوهم

٨٠ . (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى):

هل هذه الجمل معترضة في أثناء القصة مثل ما تقدّم آنفاً في قوله تعالى: (إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا)، طه:٧٤.وعلى هذا فالخطاب لليهود الذين في زمن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) تذكيراً لهم بنِعَم أُخرى. وقُدّمت عليها النعمة العظيمة، وهي خلاصهم من استعباد الكفرة. التحرير والتنوير:١٦/١٥٨.

أو أنّ الآية تحكي عن الخطاب الموجّه إلى بني إسرائيل يومذاك؟

الظاهر هو الثاني، أي قلنا: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ...) الميزان في تفسير القرآن:١٤/١٨٧، لأنّ السورة مكيّة ولم يكن يوم نزول السورة أي إسرائيليّ في مكّة المكرمة حتى يخاطب بهذه الآيات.

وعلى كلّ تقدير، فالله سبحانه يمنّ على بني إسرائيل بعدّة نِعَم:

١. (قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ): أي من فرعون وملئه.

٢. (وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ) ورد في سفر الخروج:«ففي الشهر الثالث بعد خروج بني إسرائيل من أرض مصر جاءوا إلى برّيّة سيناء، هنالك نزل إسرائيل مقابل الجبل، وأمّا موسى فصعد إلى الله فناداه الربّ من الجبل قائلاً...». التوراة، سفر الخروج، الإصحاح١٩.

وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى:(وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ)المواعدة لإنزالهم إلى ذلك المكان. وأمّا مناجاة موسى(عليه السلام) فإنّما كانت فوق الجبل.

٣. (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ) قد مرّ أنّه مادة حلوة تتجمّع على أوراق الشجر، (وَالسَّلْوَى) نوع من الطّيور.

٨١ . (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى):

أُريد من الأمر(كُلُوا) الإباحة، وقوله: (مِنْ طَيِّبَاتِ) من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف، أي (مَا رَزَقْنَاكُمْ) من طيبات، وليس

للتنويع، إذ لا معنى لتنويع ما رزقه الله سبحانه إلى طيّب وغير طيّب. وهذه هي النعمة الرابعة.

ومن المعلوم أنّ لكلّ نعمة شكراً خاصّاً، وهو ما يشير إليه بقوله: (وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ) والضمير يرجع إلى الأكل المعلوم من قوله: (كُلُوا) ولعلّ المراد من الطغيان في الأكل: كفران النعمة وعدم أداء شكرها، ولكنّهم ـ للأسف ـ طغوا فيما رزقهم الله من الطيّبات وشكوا إلى موسى(عليه السلام) قائلين: (يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا). البقرة:٦١.

قوله: (فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي): أي متى طغيتم فيه تنزل بكم آثاره.

فإن قلت: إنّ الرضا والغضب عبارة عن انفعال الإنسان بالنشاط تارة والسخط أُخرى، وهما لا ينفكّان عن التأثير والتأثّر، وذاته سبحانه منزّهة عن أي فعل وانفعال، فكيف يوصف بهما؟

قلت: ما ذكرته صحيح في مورد الإنسان حيث تنفعل نفسه بما يرضيه ويسخطه، وأمّا بالنسبة إليه سبحانه فهما فيه من الصفات الفعلية، فرضاه سبحانه عبارة عمّا يثيبه ويعطيه من الجزاء الحسن، كما أنّ عقابه عبارة عن سخطه وغضبه دون أن يكون في ذاته المقدّسة أي انفعال.

قوله: (وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي): أي نزل به غضبي بالمعنى الذي عرفته، (فَقَدْ هَوَى): أي سقط، فكُنّي بالسقوط عن الهلاك.

وكما أنّه سبحانه مظهر للقهر والانتقام، فإنّه أيضاً مظهر للرحمة وقبول إنابة التائب. وبما أنّه يمكن أن يوجد بين بني إسرائيل مَن يندم على عمله ويرجع إلى الله تعالى، أشار إليه في الآية التالية:

٨٢ . (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى):

وصف سبحانه نفسه بقوله: (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ) حاكياً عن كثرة المغفرة دون أن يقول: أنا غافر. وأمّا المغفور له فذكر له شروطاً أربعة:

١. (لِمَنْ تَابَ): أي رجع عن المعصية إلى الطاعة.

٢. (وَآمَنَ): أي بعد أن غسل روحه من لوث المعصية، غمرها بنور الإيمان بالله والتوحيد، فإنّ ارتكاب المعصية يضع حجاباً بين النفس وبين الإيمان الخالص.

٣. (وَعَمِلَ صَالِحًا): أي أن تظهر آثار الإيمان على سلوكه.

نعم، تختصّ هذه الآية بذكر العمل الصالح بعد التوبة، وذلك لأنّ للتوبة مراتب، فالمرتبة الكاملة انضمامها إلى العمل الصالح حتى يُستدلّ بالأثر على المؤثّر.

ثمّ إنّه سبحانه يعطف على هذه الأُمور الثلاثة أمراً رابعاً، وهو الهداية بقوله: (ثُمَّ اهْتَدَى) مشعراً بوجود الحدّ الفاصل بين الأُمور الثلاثة، والهداية.

واحتمل بعضهم أنّ المراد من الهداية هو الاستقامة والثبات على الهدى الحاصل من التوبة والإيمان والعمل الصالح، ومن المعلوم أنّ الاستقامة على الخير أعلى مرتبة من نفس الخير بشهادة قوله سبحانه:(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ) فصلت:٣٠. .

ثمّ إنّ الشيخ الطبرسي(رحمه الله) قال بعد هذه الفقرة من الآية: قال أبو جعفر [الباقر] (عليه السلام):«(ثُمَّ اهْتَدَى) إلى ولايتنا أهل البيت(عليهم السلام) فوالله لو أنّ رجلاً عبد الله عمره ما بين الركن والمقام ثم مات ولم يجئ بولايتنا لأكبّه الله في النار على وجهه».رواه الحاكم أبو القاسم الحسكاني بإسناده، وأورده العياشي في تفسيره في عدّة طرق. مجمع البيان:٧/٤٦.

نقد كلام الآلوسي

وأورد عليه الآلوسي بقوله: وأنت تعلم أنّ ولايتهم وحبّهم (رضي الله تعالى عنهم) ممّا لا كلام عندنا في وجوبه، لكن حمل الاهتداء في الآية على ذلك مع كونها حكاية لما خاطب الله تعالى به بني إسرائيل في زمان موسى(عليه السلام) ممّا يستدعي القول بأنّه عزّ وجلّ أعلمَ بني إسرائيل بأهل البيت(عليهم السلام) وأوجب عليهم ولايتهم إذ ذاك، ولم يثبت ذلك في صحيح الأخبار. روح المعاني:١٦/٢٤١.

أقول: إنّ هذا التفسير المرويّ عن أبي جعفر الباقر(عليه السلام)، ورد أيضاً عن ثابت بن أسلم البُناني هو من تابعي أهل البصرة ومحدّثيهم. وثّقه نقّاد السنّة، وروى له أصحاب الكتب الستّة، توفّي سنة (١٢٧هـ). انظر ترجمته في: تهذيب الكمال:٤/٣٤٢ برقم ٨١١، فقد روى الطبري بإسناده عنه أنّه قال: (ثُمّ اهْتَدى) إلى ولاية أهل بيت النبي(صلى الله عليه وآله وسلم). انظر: جامع البيان(تفسير الطبري):٩/٢٤٤، رقم ٢٤٢٤٤؛ التبيان في تفسير القرآن:٧/١٩٦.

ثمّ إنّ الخلل في كلام الآلوسي يظهر بعد ذكر هذين الأمرين:

الأوّل: أنّ الهداية التامّة تتحقّق بقبول ولاية رسول العصر والاهتداء بهداه والاقتداء به، سواء أكان الرسول موسوياً أم عيسوياً أم محمدياً، وإلاّ فالتوبة والإيمان بالله والعمل الصالح من دون اعتناق لولاية الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)الذي هو الوسيلة بينه وبين الله، هداية ناقصة، ولذلك قال سبحانه: (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ) النساء:٨٠..

الثاني: أنّ الروايات المأثورة عن أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) في هذه الموارد ليس تفسيراً للآية بل تطبيقاً للمعنى الكلّي على المصاديق الموجودة عبر الزمان، فإنّ القرآن كالشمس كما أنّها تطلع على القرون السابقة تطلع على القرون اللاحقة، فالهداية التامّة في كلّ عصر فرع قبول ولاية الرسول وخلفائه، وأهل بيت النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) هم خلفاؤه بحقّ.

الآيات: الثالثة والثمانون إلى الحادية والتسعين(وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى.. .. حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى).

(وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هُمْ أُولاَءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى * قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ * أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا * وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى).

المفردات

على أَثَري: أي ورائي، يدركونني عن قريب.

فَتَنّا: اختبرنا.

أضلّهم: أوقعهم في الضَّلال.

أَسِفاً: حزيناً.

بِمَلْكنا: باختيارنا.

أوزاراً: الأوزار: الأثقال، وأُريد هنا: زينة القوم.

خُوار: صوت العِجل.

لن نبرح: لا نزال.

عاكفين: مقيمين.

التفسير

٨٣ . (وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى):

توضيح هذه الآيات رهن بيان أمرين:

أ. أنّه سبحانه واعد موسى(عليه السلام) بأن يحضر في المكان الذي عُيّن له ليكلّمه وينزل عليه التوراة، ولذلك فارق قومه ثلاثين ليلة ثم زاد عشرة، وإليه يشير سبحانه بقوله:(وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْر فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لاِخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ). الأعراف:١٤٢.

ب. أنّه اختار من قومه عند خروجه إلى ميقات ربه سبعين رجلاً ليكلّم الله سبحانه بحضرتهم ويعطيه التوراة فيكونوا شهداء له عند بني إسرائيل، وإليه يشير سبحانه بقوله: (وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا). الأعراف:١٥٥.

سبب خروج موسى إلى الميقات قبل مَن اختارهم

إذا عرفت هذين الأمرين، فالظاهر من الآية أنّ موسى(عليه السلام) ذهب إلى الطور قبل أن يأتي معه نقباء بني إسرائيل، وكان من المترقّب أن يحضروا جميعاً في وقت واحد، وإلى هذا يشير سبحانه بالسؤال الممزوج بالتعجّب في قوله: (وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى) وأُريد من القوم هم العدد المختار لا بنو إسرائيل كلّهم.

ثمّ إنّ موسى(عليه السلام) أجاب بقوله:

٨٤ . (قَالَ هُمْ أُولاَءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى):

وهذا الجواب يتضمّن أمرين:

أ. (قَالَ هُمْ أُولاَءِ عَلَى أَثَرِي): أي سائرون خلفي وسيلحقون بي.

ب. (وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى): أي أنّ سبب استعجالي هو أن أنال رضاك يا ربّ، وأمتثل أمرك مسرعاً.

ومن المعلوم أنّ اكتساب رضا الله سبحانه بسرعة هو أحد الدواعي إلى خروجه قبل خروج قومه، ولكن ورد في «مصباح الشريعة» عن الإمام الصادق(عليه السلام) ما يظهر منه معنى أدقّ، يقول: قال الصادق(عليه السلام): «المشتاق لا يشتهي طعاماً، ولا يلتذّ شراباً، ولا يستطيب رقاداً، ولا يأنس حميماً، ولا يأوي داراً، ولا يسكن عمراناً، ولا يلبس ليّناً، ولا يقرّ قراراً، ويعبد الله ليلاً ونهاراً، راجياً بأن يصل إلى ما يشتاق إليه ويناجيه بلسان شوقه معبّراً عمّا في سريرته، كما أخبر الله عن موسى بن عمران(عليه السلام) في ميعاد ربّه بقوله: (وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى) وفسّر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) عن حاله أنّه ما أكل ولا شرب ولا نام ولا اشتهى من ذلك في ذهابه ومجيئه أربعين يوماً شوقاً إلى ربه». تفسير نور الثقلين:٣/٣٨٨، عن مصباح الشريعة.

٨٥ . (قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ):

أخبر سبحانه في هذه الآية موسى(عليه السلام) بأنّ الله سبحانه امتحن قومه واختبرهم كما قال: (قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ) وصارت نتيجة الاختبار هي إضلال السامريّ إيّاهم كما يقول: (وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ).

ومن المعلوم أنّ الافتتان بإضلال السامري لم يكن في أوليات الخروج بل وقع طبعاً في أواخر الثلاثين أو أوّل الأربعين، إذ تأخّر رجوع موسى عن الميقات. ويشهد لذلك أنّه تعالى بعد أن يذكر مواعدة موسى(عليه السلام) ثلاثين ليلة يذكر بعده فصولاً من حياة بني إسرائيل مرّت في سورة الأعراف، قال تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) الأعراف:١٤٣.وتنتهي تلك الفصول بقوله: (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الاْخِرَةِ...). الأعراف:١٤٧.

ثم يشير إلى افتتان القوم وقال: (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ) الأعراف:١٤٨. ولعلّه لأجل وجود الفاصل الزماني بدأ بقوله: (قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا) ولم يقل: (فقال).

ثمّ إنّ المفسّرين اختلفوا في من هو السامريّ، فقيل: إنّه منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لهم: السامرة. وقيل: إنّه منسوب إلى قرية اسمها (السامرة) من قرى مصر، فيكون فتى قبطيّاً اندسّ في بني إسرائيل لتعلّقه بهم في مصر أو لصناعة يصنعها لهم. وقيل غير ذلك. ومن الغرائب قول سيد قطب إنّ السامريّ رجل من «سامراء» كان يرافقهم!! (في ظلال القرآن: ١٦ / ٩٣).

افتتان قوم موسى وارتدادهم

ثمّ إنّ افتتان قوم موسى أو ارتدادهم يعبّر عن مدى إخلادهم إلى الأرض وركونهم إلى عالم المادّة، ويكشف أيضاً عن عدم تغلغل عقيدة التوحيد في أعماق نفوسهم، ومن هنا تاقت نفوسهم إلى الوثنية وتقاليدها والتي عاشوا في ظلالها وتأثّروا بها في مصر ردحاً من الزمن. والذي يدلّ على رسوخ الوثنية في قلوبهم أنّه (عليه السلام) لمّا عبر بهم إلى الجانب الشرقي وأنجاهم الله من مخالب فرعون، وشاهدوا قوماً (يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ). الأعراف:١٣٨.

٨٦ . (فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي):

رجع موسى إلى قومه بعد انقضاء الليالي الأربعين وهو يمور غضباً ويتقطّع حزناً كما يقول تعالى: (فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا) وكيف لا يكون كذلك وقد طُعن في صميم رسالته الإلهية ودعوته الربّانية بانسياق قومه وراء تقاليد وثنية، ومن هنا ثار غضب موسى وواجه الموقف بقوّة وحزم ينطويان على حزن شديد. فأنّب قومه بأُمور:

الأوّل: قوله: (قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا) فيقع الكلام: ما هو الوعد الحسن الذي وعد سبحانه قوم موسى؟

ربّما يقال: الوعد الحسن هو وعده موسى بإنزال التوراة، فهو وعد لقومه ؛ لأنّ ذلك لصلاحهم، ولأنّ الله وعدهم بأن يكون ناصراً لهم على عدوهم وهادياً لهم في طريقهم، وهو المحكيّ في قوله:(وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ) ط:٨٠.. التحرير والتنوير:١٦/١٦٤.

ويحتمل أن يراد ما في قوله سبحانه ـ في جواب اعتراض بني إسرائيل ـ : (قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) الأعراف:١٢٩..

الثاني: قوله: (أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ) وما فارقتكم إلاّ أربعين ليلة، فما هو المبرّر لهذا التدهور؟

الثالث: قوله: (أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ): أي أم أردتم أن تصنعوا صنعاً يكون سبباً لغضب ربّكم (فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي): أي أخلفتم ما وعدتموني من حسن الخلافة بعدي.

٨٧ . (قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ):

لمّا ندّد موسى(عليه السلام) بقومه بسبب اتّخاذهم العجل إلهاً وأوعدهم بقوله: (أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ) وأنّهم أخلفوا موعدهم مع موسى، أقرّ عُبّاد العجل على أنفسهم بالارتداد ونقض العهد، ولكن حاولوا الاعتذار عن ذلك فـ(قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا): أي بإرادتنا واختيارنا (وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ): أي أثقالاً من حُليّ آل فرعون ـ كما قيل ـ (فَقَذَفْنَاهَا): أي طرحنا تلك الحليّ (فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ) ما كان معه من الحليّ، ثم صاغ الجميع على هيئة العجل.

ومن المعلوم أنّ القائلين في قوله: (قَالُوا) ليس كلّ القوم بل كبارهم، معتذرين عن العمل الفظيع الذي أقدموا عليه.

لا شكّ في أنّ ما اعتذروا به كلام خاوٍ من الحقيقة ؛ لأنّ الحُليّ أحبّ الأشياء إلى الناس، فكيف طاب لهم أن يطرحوا أحبَّ الأشياء إلى أنفسهم، ومن ثمّ جمعها السامريّ؟ ولذلك قال بعض المفسّرين: إنّه اعتذار عليل يكشف عن التخلخل النفسي والسخف

العقلي، ويكشف عن ضآلة أنفسهم وصَغارها لحدّ كأنّهم لا يملكونها أمام مكر السامريّ، كما هو الظاهر من قولهم:(مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا) الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن والسنة:٥٩/١٦..

هذا، ولعلّ الوجه في وصف حليّهم بالأوزار ـ مع أنّ هذه الكلمة تستعمل في الآثام ـ ، هو ما ذكره المفسّرون من أنّهم استعاروها من القبط قبل خروجهم من مصر بحجّة التزيّن بها في عيد لهم، وهم ينوون سلبَها. ومن المعلوم أنّ القبط لم يملكوها إلاّ بالظلم والتعدّي، فصارت الحليّ أوزاراً في يد بني إسرائيل.

٨٨ .(فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ):

ألقى السامريّ كلّ أدوات الزينة والحليّ التي طرحها بنو إسرائيل أو كان هو يملكها في النار وكانت معه أدوات الصياغة على نحو صنع من زينة القوم (عِجْلاً جَسَدًا) لا روح فيه (لَهُ خُوَارٌ): أي صوت البقر. ولمّا رأى بنو إسرائيل هذا المشهد نسوا فجأة تعاليم موسى: (فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى). ثم إنّ التعبير عن صنع العجل بقوله: (فَأَخْرَجَ) دالّ على أنّ صنعه كان خفيّاً عن القوم وعلى غير مرأى منهم حتى فاجأهم بإظهاره وإراءته.

بقي الكلام في قوله: (فَنَسِيَ) فيحتمل أن يعود الضمير إلى السامريّ بمعنى أنّه ترك ما كان عليه من الإيمان، فيكون المعنى: فأخرج لهم عجلاً جسداً فنسيَ ما كان عليه من الإيمان. أي نسي عهده وميثاقه مع موسى(عليه السلام).

ويحتمل أن يكون الفاعل راجع إلى موسى(عليه السلام) والقائل هو السامريّ، أي ذهل موسى عن إلهه وذهب يطلبه ويبحث عنه في الطُّور و ما درى أنّه هنا بين أيديكم.

٨٩ . (أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا):

هذا توبيخ لعَبَدة العِجل، فهل القائل هو الله سبحانه أو الكليم(عليه السلام)؟ الأرجح الأوّل.

وعلى كلّ تقدير، فالآية تردّ عليهم اتّخاذَهم العجل ربّاً بأمرين:

الأوّل:(أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً): أي لا يردّ عليهم جواباً.

الثاني: (وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا).

ومن كان بهاتين الصفتين كيف يكون إلهاً يصلح للعبادة؟

٩٠. (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي):

كان موسى ـ لمّا استخلف أخاه هارون على قومه بني إسرائيل وقال له: (اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) الأعراف:١٤٢. ـ كان قد أوصاه بأمرين:

١. (أَصْلِحْ).

٢. (وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ).

وقد نهض(عليه السلام) بكلا الأمرين، أمّا الإصلاح فكما يقول سبحانه: (وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ): أي من قبل عودة موسى (عليه السلام) إليهم، قال لهم ناصحاً ومحذّراً: (يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ): أي اختُبرتم بهذا العجل، فلا تسقطوا في الفتنة باتّخاذه ربّاً (وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي)فيما أدعوكم إليه من عبادة الله تعالى وحده (وَأَطِيعُوا أَمْرِي) أُقِمْكم على الحق والهدى، وأُجنّبْكم الضّلال والرّدى.

وهذا هو القيام بالإصلاح الذي أُمر به من جانب موسى(عليه السلام)، ولم يكن يمتلك أزيد من هذا، بل يظهر من بعض الآيات أنّه لو قام بأكثر من ذلك فلربّما اجتمعوا على قتله كما يقول: (قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي). الأعراف:١٥٠.

وأمّا الأمر الثاني، وهو عدم اتّباع المفسدين فلا يحتاج إلى بيان.

نقد كلام الرازي

يقول الرازي في تفسير قوله: (يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ)، يقول: هاهنا دقيقة وهي أنّ الرافضة تمسّكوا بقوله(عليه السلام) لعليّ: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى» ثمّ إنّ هارون ما منعته التقية في مثل هذا الجمع، بل صعد المنبر وصرّح بالحقّ ودعا الناس إلى متابعة نفسه، والمنع من متابعة غيره، فلو كانت أُمّة محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) على الخطأ لكان يجب على علي(عليه السلام)أن يفعل ما فعله هارون(عليه السلام)، وأن يصعد على المنبر من غير تقية وخوف وأن يقول: (فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي)، فلمّا لم يفعل ذلك علمنا أنّ الأُمّة كانوا على الصواب. تفسير الرازي:٢٢/١٠٦.

عزب عن الرازي أنّ الإمام(عليه السلام) لم يسكت عن حقّه المغتصَب، بل صدع به في مواقفه وكلماته، ومن ذلك موقفه من أبي بكر، حيث امتنع عن بيعته، وانحاز إليه جماعة من المهاجرين والأنصار ممّن تخلّفوا عن البيعة، فلمّا أُتي به(عليه السلام) إلى أبي بكر ليبايع، قال: أنّا أحقّ بهذا الأمر منكم، لا أُبايعكم وأنتم أَولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، وتأخذه منّا أهل البيت غصباً؟! الإمامة والسياسة لابن قتيبة:١/١١.

وأمّا كلماته(عليه السلام) في التظلّم والتألّم ممّن سلبه حقّه فكثيرة، أوضحها الخطبة الشقشقية (وهي الخطبة الثالثة من خُطب نهج البلاغة)، كما أنّه(عليه السلام)استدلّ على خلافته بحديث الغدير المتواتر عند الفريقين مرّة بعد أُخرى، وقد ذكر الشيخ الأميني احتجاجاته بالحديث في موارد شتى من كتابه«الغدير».

«ولكنْ حفاظاً على كيان الإسلام، وتوثيقاً لعروة المسلمين، وولاءً لخلقه الأرفع الأمثل، نرى الإمام يسمو على غضبه العاصف لحقه المبتزّ المغصوب، كأنّه أخذ نفسه يسوغ ازدراد العلقم، ولعق الدم، والطّفو فوق الألم» السقيفة والخلافة لعبد الفتاح عبد المقصود:١٧٦، ويؤكّد ذلك قوله(عليه السلام) في بعض خطبه: «وَلاَ يَخْطُرُ بِبَالِي، أَنَّ الْعَرَبَ تُزْعِجُ هذَا الاْمْرَ مِنْ بَعْدِهِ (صلى الله عليه وآله وسلم) عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلاَ أَنَّهُمْ مُنَحُّوهُ عَنِّي مِنْ بَعْدِهِ! فَمَا رَاعَنِي إِلاَّ انْثِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلاَن يُبَايِعُونَهُ. فَأَمْسَكْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الاْسْلاَمِ، يَدْعُونَ إِلَى مَحْقِ دِينِ مُحَمَّد (صلى الله عليه وآله وسلم)فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الاْسْلاَمَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلْماً أَوْ هَدْماً، تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ فَوْتِ وِلاَيَتِكُمُ الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّام قَلاَئِلَ، يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ، كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ، أَوْ كَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ؛ فَنَهَضْتُ فِي تِلْكَ الاْحْدَاثِ حَتَّى زَاحَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ، وَاطْمَأَنَّ الدِّينُ وَتَنَهْنَهَ». نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٦٢.

ولعلّ هذا المقدار من الجواب يكفي، ومع ذلك فإنّ الرازي ينقل عن الإمام علي(عليه السلام) كلاماً رائعاً، يقول: قال بعض اليهود لعلي(عليه السلام): ما دفنتم نبيّكم حتى اختلفتم؟ فقال: «إنّما اختلفنا عنه وما اختلفنا فيه، وأنتم ما جفّت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم لنبيِّكم: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة». تفسير الرازي:٢٢/١٠٥.

٩١. (قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى):

قد بذل هارون ما يملك من الحول والقوة في نصيحة القوم وتحذيرهم من الوقوع في فتنة السامريّ، ولكنّهم لم يستجيبوا له، وأصرّوا على البقاء على ما هم عليه من عبادة العجل، وهذا ما تحكيه الآية: (قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ): أي مقيمين على عبادته (حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى) فننظر أنعبده أم لا؟

رجوع موسى إلى قومه

الآيات: الثانية والتسعون إلى الثامنة والتسعين(قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذا.. . وَسِعَ كُلَّ شَيْء عِلْمًا).

(قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي * قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي * قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لاَ مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا * إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْء عِلْمًا).

المفردات

ألاّ: مركّب من (أن) الناصبة واللاّم الزائدة، ويؤوّل بالمصدر أي اتّباعي.

ترقُب: تراع.

فما خَطبُك: فما شأنك، وما الأمر الفظيع الذي صدر منك.

بصرت: أي علمتُ ما لم يعلمه القوم، وفَطنت لما لم يَفطنوا له.

قبضة: المرّة من القبض.

أثَر: ما يتركه الماشي من صورة قدمه في الرّمل والتراب.

فَنبذتُها: طرَحتُها.

سوَّلتْ: زيّنت.

لا مِساس: لا مخالطة.

ظلْتَ: أصله ظلَلْتَ أي أقمتَ.

لَننسفنّه: يقال: نسف فلان الطعام إذا ذرّاه لتطير عنه قشوره. قال الطريحي: لنُطيّرَنّه ونُذرِينَّه في البحر. أو: نكسره إلى قطع صغيرة ثم تُلقى ذرّاته في البحر.

اليمّ: البحر.

التفسير

رجع موسى(عليه السلام) إلى قومه فرأى أنّ جهوده في توطيد التوحيد قد تبدّدت، ففكّر في معالجة هذه الظاهرة التي ستذهب بجهوده كلّها لو لم يعالجها علاجاً يقتضيه العقل والحكمة، ففكّر في ذلك ورأى أنّ الخطوط تنتهي إلى محاور ثلاثة، وهي تتشكّل من شخصين وإله مكذوب، فأخذ يتكلّم مع هارون أوّلاً، ثمّ مع السامريّ ثانياً، ثم توجّه إلى إلهه المكذوب بالنحو الذي سنبيّنه.

أمّا المحور الأوّل الذي يدور عليه كلام موسى(عليه السلام)، فتشير إليه الآيات التالية:

٩٢ و ٩٣.(قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي):

أي ما منعك يا هارون ـ وأنت خليفتي على قومي والمسؤول عن صيانة خطّ الإيمان والتوحيد ـ من اتّباع طريقتي، وهي منعهم من الضلال، وممارسة أُسلوب الشدّة في جنب الله؟(أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي)وخالفت وصيّتي التي سلف أن أوصيتك بها؟ مشيراً إلى قوله له: (اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) الأعراف:١٤٢..

٩٤. (قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي):

أجاب هارون(عليه السلام) بقوله: (قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ) كلمة استرحام لإسكات غضب موسى (لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي) وكأنّ

موسى(عليه السلام) قد أخذ بلحية أخيه ورأسه غضباً، وفي سورة الأعراف:(وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ) الأعراف:١٥٠..

قوله تعالى ـ حكاية عن هارون ـ : (إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي)معناه: إنّي خفت إن انتهجتُ معهم سياسة الشدّة وقاومتُ رغباتهم الملحّة في عبادة العجل لوقع الانشقاق في صفوفهم، لأنّني لو فعلت ذلك لم يطعني إلاّ بعض القوم، الأمر الذي يؤدي إلى انقسامهم إلى فرقتين: مؤمنة ومشركة، وعند ذاك يحلّ الشقاق والنزاع بين القوم محلّ الاتّحاد والاتّفاق، فيكون ذلك على خلاف الإصلاح الذي أمرتني به، بقولك :(وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ). الأعراف:١٤٢.

وظاهر الكلام أنّ موسى اقتنع باعتذار أخيه، ولذلك دعا له ولنفسه بقوله: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلاِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) الأعراف:١٥١.. الميزان في تفسير القرآن:١٤/١٩٤.

وربّما يثار سؤال وهو: أنّ هارون(عليه السلام) كان نبيّاً معصوماً فكيف واجهه أخوه النبي موسى(عليه السلام) بالعتاب حتى أخذ بلحيته ورأسه؟ والتمس هارون أن يتركه قائلاً: (يَا ابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي).

والجواب واضح، وهو أنّ موسى(عليه السلام) كان عالماً بأنّ هارون لم يشارك في عملهم ولم يقصّر في تبليغ رسالته للقوم، ولكنّه تعامل مع أخيه بالنحو المذكور حتى يقف بنو إسرائيل على أنّ الجريمة التي ارتكبوها كانت جريمة كبرى، وانحرافاً شديداً لا يغفر، فموقفه الحاسم هذا يؤثّر في قلوب المجرمين.

المحور الثاني، وهو الذي يدور عليه حوار موسى(عليه السلام) مع السامريّ، وتشير إليه الآيات التالية:

٩٥. (قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ):

أي ما شأنك يا سامريّ، وما الذي دعاك إلى هذا الأمر الفظيع. فأجاب بما في الآية التالية:

٩٦. (قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي):

هذه الآية من الآيات المبهمة، ولم يرد مضمونها في سائر الآيات حتى تُفسّر ببعضها، ولذلك اختلفت كلمات المفسّرين فيها.

ولنقدّم تبيين مفرداتها، حيث وردت في الآية أفعال أربعة، وأسماء ثلاثة. أمّا الأُولى فقوله:

١. (بَصُرْتُ). ٢. (لَمْ يَبْصُرُوا) ٣. (فَقَبَضْتُ)، ٤. (فَنَبَذْتُهَا).

وأمّا الثانية، أعني: الأسماء، فقوله: ١. (قَبْضَةً)، ٢.(أَثَرِ)، ٣. (الرَّسُولِ).

فمن المفسّرين مَن حملها على معانيها اللغوية، ومنهم مَن حملها على المعاني المجازية، وإليك تبيين معانيها الحقيقية:

١. بَصُر (بكلتا صيغتيه في الآية) بمعنى الرؤية بالعين، ولكن رؤية دقيقة على نحو يصير الإنسان بصيراً.

٢. القبض: أخذ الشيء، بمعنى قبض الراحة عليه، ضدّ البسط.

٣. النَّبْذ: الإلقاء والطَّرْح.

هذا حال الأفعال، وأمّا الأسماء:

١. القبضة: المرّة من القبض، وأُريد به المقبوض.

٢. الأثر: ما يتركه الماشي من صورة قدمه في الرّمل والتراب.

٣. الرسول: الإنسان المرسل من الله، وقلّما يستعمل في المَلَك مثل قوله: (إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا) الأنعام:٦١، وأحياناً في الإنسان العادي الذي يحمل كلاماً من إنسان إلى إنسان نظير: (فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ) يوسف:٥٠..

إلى هنا تمّ تفسير المفردات. أمّا تفسير الآية فجاء على وجوه ثلاثة:

التفسير الأوّل: هذا التفسير يعتمد على اعتبار الأثر الذي قبض منه السامريّ، أَثَر فرس جبرئيل، وقد رَووا في شأن ذلك هذه

القصّة:

إنّ السامريّ فتنه الله فأراه الله جبرئيل راكباً فرساً فوطئ حافر الفرس مكاناً فإذا هو مخضرّ بالنبات. فعلم السامريّ أنّ أثر جبرئيل إذا أُلقي في جماد صار حيّاً، فأخذ قبضة من ذلك التراب وصنع عجلاً وألقى القبضة عليه فصار جسداً، أي حيّاً، له خوار كخوار العجل، فعبّر عن ذلك الإلقاء بالنّبذ.

أقول: هذا الّذي ذكروه لا يوجد في كتب الإسرائيليين ولا ورد به أثر من السنّة، وهي أقوال لبعض السلف، ولعلّها تسرّبت في الناس من روايات القصّاصين. التحرير والتنوير: ١٦ / ١٧٤.

إنّ هذا التفسير مضافاً إلى أنّه ليس له مصدر صحيح، يخالف ظاهر الآيات السابقة، وذلك:

أوّلاً: يقول سبحانه: (فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ) فالمُخرَج هو جسد، وإن شئت قلت: تمثال العجل، لا العجل الحيّ.

وثانياً: أنّ مقتضى القصة أنّه سبحانه سلّط المشرك على أمر خارق للعادة، يعجز عن مثله سائر الناس، ومن المعلوم أنّ هذا النوع من التسليط يوجب إضلال الناس وهو أمر قبيح، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

ثم إنّ تفسير الرسول بالمَلَك على خلاف الظاهر كما مرّ، فهذا التفسير لا ينطبق على ظاهر الآية أوّلاً، ولا يوافق حكم العقل ثانياً.

التفسير الثاني: وهذا التفسير مبنيّ على حمل الأفعال والأسماء على غير معانيها الحقيقية سوى لفظ الرسول.

أمّا الأفعال فقد يفسّر قوله: (بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا) بقولهم: علمت ما لم يعلموا، قال في الكشاف: والمعنى علمت ما لم تعلموه وفطنت مالم تفطنوا له. وقوله: (قَبَضْتُ قَبْضَةً)بأخذ شيء من شرائع موسى، وقوله: (فَنَبَذْتُهَا) بـ : تركتها وخالفتها.

وأمّا الأسماء: فالقبضة بمعنى شيء من التعاليم، والأثر هو الشريعة، فمعنى الآية : (بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا به): أي عرفت أن الّذي عليه القوم ليس بحقّ، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أي شيئاً من دينك (فَنَبَذْتُهَا): أي طرحتها ولم أتمسّك بها. وتعبيره عن موسى بلفظ الغائب على نحو قول من يخاطب الأمير: ما قول الأمير في كذا؟ ويكون إطلاق الرسول منه عليه نوعاً من التهكُّم، حيث كان كافراً مكذّباً به على حدّ قوله تعالى حكاية عن الكفَرة: (يَا أَيُّهَا الذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ). الحجر: ٦. ولاحظ : تفسير الكشّاف:٢/٣١٢.

يلاحظ عليه أوّلاً: أنّه لو كان المراد ما ذكر، فاللازم أن يذكر أخذه بالشريعة قبل علمه بعدم صحّتها، كأنْ يقول: قبضت قبضة من أثر الرسول وشريعة موسى، ولمّا علمتُ ما لم يعلموا وأنّه ليس بحقّ نبذتُها وتركتها، مع أنّ الموجود في الآية تقدُّم الإبصار والعلم بعدم صحّة الشريعة، على قبضها وأخذها.

وثانياً: أنّ التعبير عن موسى (عليه السلام) وهو مخاطب بلفظ الغائب، بعيد جدّاً.

وثالثاً: أنّ الظاهر من خطاب موسى له: (انْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً) أنّه كان عابداً للصنم منذ زمن بعيد، وظاهر هذا التفسير أنّه كان موحّداً ثم صار وثنياً بإبصاره ما لم يبصروا به في غياب موسى .

التفسير الثالث: ما احتمله السيد الطباطبائي، قال: ويمكن أن يُتصوّر للآية معنىً آخر بناء على ما ذكره بعضهم أنّ أوزار الزينة الّتي حملوها كانت حليّ ذهب من القبط، أمرَهم موسى أن يحملوها وكانت لموسى أو منسوبة إليه، وهو المراد بأثر الرسول، فالسامريّ يصف ما صنعه بأنّه كان ذا بصيرة في أمر الصياغة والتقليب، يحسن من صنعة التماثيل ما لا علم للقوم به، فسوّلت له نفسه أن يعمل لهم تمثال عجل من ذهب، فأخذ وقبض قبضة من أثر الرسول وهو الحُليّ من الذهب فنبذها وطرحها في النار وأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار، وكان خواره لدخول الهواء في فراغ جوفه وخروجه من فيه على ضغطة بتعبئة صناعية.

ثم أورد السيد الطباطبائي نفسه بعض الملاحظات على هذا التفسير قائلاً: ويبقى الكلام على التعبير عن موسى وهو يخاطبه بالرسول،

وعلى تسمية حُليّ القوم أثر الرسول، وعلى تسمية عمل العجل، تسويلاً نفسانياً. الميزان في تفسير القرآن: ١٤ / ١٩٧ .

إنّ الآيات الواردة في القرآن الكريم إمّا بيّنة المراد واضحة المقصود، لا يحتاج المفسّر في تفسيرها إلى غير الإمعان في مفرداتها وجُمَلها، وإمّا مُجْمَلة المراد، مردّدة المعنى، لكن يمكن رفع إبهامها بآية أُخرى وردت في نفس الصدد، وفي كلا الموردين يتجسّد قوله سبحانه: (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ). المائدة:١٥.

ومع ذلك كلّه فقد وردت في القرآن الكريم آيتان كانتا واضحة المقصود في زمن النزول، ثم طرأ عليهما الإجمال بالابتعاد عن زمان الوحي، وذلك لزوال القرائن الحالية الموجودة في وقت النزول، إحداهما هذه الآية، والأُخرى قوله سبحانه: (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ) النمل: ٨٢ . .

فعلى المحقّقين إمعان النظر في هاتين الآيتين، عسى أن يقفوا على مغزى المراد منهما.

معاقبة السامري

٩٧. (قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لاَ مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا):

لقد جوزي هذا الضالّ المُضلّ بعقوبتين: الطرد والإبعاد، والعيش في عزلة عن أبناء المجتمع، فلا يخالطهم ولا يخالطونه، ولا يمسّ أحداً منهم، ولا يمسّه أحد منهم في أي شأن من شؤون الحياة. هذا هو الجزاء في الدنيا الّذي ورد على لسان موسى (عليه السلام) (قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لاَ مِسَاسَ). المساس: مصدر ماسّه بمعنى مسّه، و (لا) نافية للجنس، فيكون النفي بمعنى النهي. ولا مساس يعني لا تمسّوا، كما في قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): لا ضرر، أي لا تضرّوا، كما هو أحد الاحتمالات في تفسير الحديث .

وقيل: إنّه ابتُلي بوسواس، فكان يتوحّش ويفرّ من كلّ مَن يلقاه وينادي (لا مِساس). قال السيد الطباطبائي: وهو وجه حسن لو صحّ الخبر. الميزان في تفسير القرآن: ١٤ / ١٩٧ .

أمّا جزاء الآخرة، فقد ذكره بقوله: (وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ) .

قال في الكشّاف: أي لن يخلفكَ الله موعدَه الّذي وعدك على الشرك والفساد في الأرض، ينجزه لك في الآخرة بعد ما عاقبك بذلك في الدنيا، فأنت ممّن خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

موقف النبيّ موسى (عليه السلام)من الإله المزيّف

المحور الثالث، وهو الذي يدور عليه موقف موسى(عليه السلام) من الإله المزيّف، وتشير إليه الفقرات المتقدّمة في آيتنا.

عاد موسى(عليه السلام)، بعد أن أوعد السامريّ بما تقدّم، إلى إلهه المزعوم فحقّره بأمرين، كما يقول:(وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً) كيف يكون مصيره:

أوّلاً: (لَنُحَرِّقَنَّهُ) إذ بالإحراق الشديد يتغيّر شكله، وهذا نوع تذليل وتحقير له.

ثانياً: (لَنَنْسِفَنَّهُ): أي لَنُذرينّه (فِي الْيَمِّ نَسْفاً) فتُلقى ذرّاته في البحر.

وإنّما قام بتحريق العجل ونسفه في البحر لأجل قلع مادة الفساد وتحقير المعبود الذي اغترّ به القوم، فهم بعد ما شاهدوا عمل موسى وقفوا على أنّه لا يملك دفع الضرّ عن نفسه فضلاً عن غيره.

وبذلك يُعلم ما ربّما يُثار من أنّ إلقاء هذه المجموعة من الذهب كان إسرافاً، لماذا قام به موسى؟

والجواب: أنّه إنّما قام به لئلاّ يتّخذ عوامّ الناس الأجزاء المتفرّقة أمراً مقدّساً فتحلّ مكان المعبود، وهذا النوع من العمل يُعدّ من أعمال الثّورة التي يراد بها قلع الفساد من رأس، لئلاّ يعود الفساد بشكل آخر. ولذلك نرى أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)بعد ما

وقف على واقع ما اتّخذه المنافقون مسجداً، أمر بتخريبه وتهديمه حتى لا يبقى منه أثر. انظر: التوبة:١٠٧.

٩٨. (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا):

وصف موسى(عليه السلام) في هذا الكلام الذي خاطب به قومه ـ كما حكاه عنه سبحانه ـ وصف إله العالمين بوصفين:

أ. الوحدانية، وأنّه لا نِدّ ولا مثل له، كما قال: (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ) وبذلك أزال فكرة الوثنية عن أذهان بني إسرائيل.

ب. سعة العلم كما قال: (وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) ذكر ذلك لكي يقف الإنسان على أن لأعماله حساباً خاصّاً، وأنّه سبحانه لا يعزب عنه شيء.

إلى هنا تمّ الكلام في موضعين مهمّين:

أ. حوار موسى مع قومه وأخيه.

ب. حواره مع السامريّ.

وبقي الكلام في أمر ثالث، وهو معاقبة المرتدّين على أدبارهم، وهذا ما تُرِك ذكره في هذه السورة، وجاء تفصيله في سورة البقرة، الآية ٥٤، فلاحظ.

الهداية أنفع من الدّلالة

نقل الرازي عن أبي القاسم الأنصاري هو الفقيه الشافعيّ المفسّر سلمان بن ناصر بن عمران الأنصاري، النيسابوري(المتوفّى٥١١هأو ٥١٢هـ). انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسُّبكي:٧/٩٦ برقم ٧٩٣.قوله: الهداية أنفع من الدلالة، فإنّ السَّحَرة كانوا أجانب عن الإيمان وما رأوا إلاّ آية واحدة فآمنوا وتحمّلوا العذاب الشديد في الدنيا ولم يرجعوا عن الإيمان، وأمّا قومه فإنّهم رأوا انقلاب العصا ثعباناً والتقم كل ما جمعه السَّحَرة ثم عاد عصا، ورأوا اعتراف السَّحَرة بأنّ ذلك ليس بسحر وأنّه أمر إلهي، ورأوا الآيات التسع مدّة مديدة، ثم رأوا انفراق البحر إثني عشر طريقاً، وأنّ الله تعالى أنجاهم من الغرق وأهلك أعداءهم مع كثرة عددهم. ثم إنّ هؤلاء مع ما شاهدوا من هذه الآيات لمّا خرجوا من البحر ورأوا قوماً يعبدون البقر قالوا: (اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ) الأعراف:١٣٨، ولمّا سمعوا صوتاً من عجل عكفوا على عبادته، وذلك يدل على أنّه لا يحصل الغرض بالدلائل بل بالهداية. تفسير الرازي:٢٢/١٠٩.

ثمّ إنّ صديقنا الشيخ محمد جواد مغنية(رحمه الله) قال بعد أن لخّص كلام الأنصاري هذا: كم تمنّيت، وأنا أُفسِّر الآيات التي نزلت في بني إسرائيل، وحكت شذوذهم وغرائبهم، كم تمنّيت أن تتألف لجنة من العلماء بالإنسان وغرائزه لدراسة الإسرائيليين وطبيعتهم في ضوء سيرتهم وتاريخهم القديم والحديث لنعلم هل هم من البشر ظاهراً وواقعاً، أو أنّهم لا يشبهون الناس في شيء، ولا أحد من الناس يشبههم في شيء إلاّ في الشكل والصورة؟ كما يومئ إلى ذلك الكثير من آي القرآن الكريم. التفسير الكاشف:٥/٢٤١، ولاحظ:١/١٢٢؛ و ج٢/٣٣٧ و ٣٨٩.

الآيات: التاسعة والتسعون إلى الرابعة بعد المئة(كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ... إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا).

(كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً * يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا).

المفردات

كذلك: مركّب من كاف التشبيه واسم الإشارة، أي مثل هذا.

ذِكراً: قرآناً، لقوله سبحانه: (يَا أَيُّهَا الذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ) الحجر:٦..

وزراً: الوزر: الحمل الثقيل، وأريد به الجرائم.

حِملاً: الحَمل (بالفتح) يستعمل لما في بطن المرأة من ولد. والحِمل (بكسر الحاء) بمعنى المحمول كالذِّبح بمعنى المذبوح.

الصُّور: شيء مثل القرن يُنفَخ فيه للإحياء تارة والإماتة ثانية.

زُرقاً: جمع الأزرق، وهو الذي لونه الزرقة، والزرقة لون كلون السماء إثر الغروب، وهو في جلد الإنسان قبيح المنظر، لأنّه يشبه ما أصابه حرق النار.

يتخافتون: يُخفضون أصواتهم ويهمس بعضهم في أذن بعض.

أمثلُهم طريقة: أكملهم عقلاً.

التفسير

٩٩. (كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا):

قوله:(كَذَلِكَ) إشارة إلى ما جاء من قصة موسى(عليه السلام) من قوله سبحانه:(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى) إلى قوله: (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الذِي...) طه: ٩ ـ ٩٨.: أي هكذا (نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ): أي أخبار الأُمم الماضية، وقوله: (مِنْ أَنْبَاءِ) يدلّ على التبعيض لا الجميع، نقّصها عليك سلوة وتطييباً لنفسك وتقوية لمواقفك أمام العتاة الطغاة، ولذلك يقول:(وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا): أي قرآناً فيه ذكر من سبق من الأُمم، أو ذكر ما يحتاج إليه الإنسان في عاجله وآجله.

ما هو السرّ في بيان أحوال الأُمم؟

وربّما يقال: لماذا اشتمل قسم كبير من الذكر الحكيم على بيان أحوال الأُمم الماضية؟ وما هو السرّ في التركيز على ذلك؟

والجواب واضح حيث إنّ التاريخ صحيفة كبيرة مفتوحة أمام صحيفة المستقبل المطويّة، ومن خلال هذه الصحيفة المفتوحة ينبغي فتح ذلك القسم المطويّ وتحديد معالم مسيرة المستقبل، وتعلُّم دروس كثيرة من سيرة الماضين.

إنّ التاريخ الصحيح خير معلِّم يرشدنا إلى عوامل السموّ والرقيّ، كما يرشدنا إلى عوامل السقوط والتدهور، فإنّ الأُمم السابقة كانوا يعيشون على مدارين:

١. مدار الترقّي والازدهار وحُسن الاستفادة من الأرض والمصادر الطبيعية في مجالات البناء والعمران والزراعة.

٢. مدار التدهور والانحطاط واضمحلال القوى وانهيار الحضارة.

فعلى أبناء الأُمم اللاحقة أن يدرسوا علل نجاحهم وأسباب فشلهم، فإنّ دراسة التاريخ وسبر أخبار الأُمم الماضية يضيء طريق مسيرة الإنسان على المستويين الفردي والاجتماعي. وهاك ما يُفصح عن أهمية ذلك من كلام الإمام علي في وصيّته لابنه الإمام الحسن (عليهما السلام)، قال:«أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ؛ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ؛ بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ». نهج البلاغة، قسم الرسائل، برقم :٣١.

١٠٠.(مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا):

الإعراض عن القرآن إعراض عمّا فيه من المعارف والأحكام، والأوامر والنواهي، وغير ذلك ممّا يرشد إلى النور الذي يشفي الصدور من الكفر والنفاق. ومن لم يستضئ بهذا النور ارتكس في أوحال الذنوب والآثام، التي عبّر عنها سبحانه بالوِزر، كما قال: (مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ): أي عن القرآن (فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا): أي حِملاً ثقيلاً، وأُريد به الإثم، كما سيأتي.

١٠١. (خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً):

الآية تخبر عن أمرين:

١. خلود المُعرضين عنه في الوزر نفسه، أي الإثم كما يقول:(خَالِدِينَ فِيهِ) فالآية تدلّ على تجسّم الأعمال، فللمعاصي وجود دنيوي ولها وجود أُخروي إذ تتمثّل وتتجسّم فيكون الإنسان خالداً فيها. ومن المعلوم أنّ الأعمال السيئة تتجسّم بالعذاب.

٢. كونهم مسوئين بهذا الورز كما يقول: (وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً): أي بئس هذا الوزر الذي حملوه على أنفسهم.

ولا ريب في أنّ حال حَمَلَة القرآن العارفين شرفَه وفضلَه على العكس من حال أُولئك المعرضين عنه، ومن هنا كان الإمام علي بن الحسين، زين العابدين(عليه السلام) يبتهل إلى الله تعالى بهذا الدّعاء:

«اللّهمّ صلِّ على محمّد وآله... واجعلِ القرآنَ وسيلةً لنا إلى أشرف منازل الكرامة، وسُلّماً نَعرُج فيه إلى محلّ السّلامة، وسبباً نُجزى به النجاةَ في عَرْصة القيامة، وذريعةً نقدمُ بها على نعيم دار المُقامة. اللّهمّ صلِّ على محمّد وآله، واحطُطْ بالقرآن عنّا ثِقْلَ الأوزار، وهَبْ لنا حُسن شمائل الأبرار، واقفُ بنا آثار الذين قاموا لك به آناء اللّيل وأطرافَ النّهار». الصحيفة السجادية، دعاؤه(عليه السلام) عند ختمه القرآن.

١٠٢. (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا):

لمّا تقدّم في قوله سبحانه:(وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً) جاءت هذه الآية لتبيين سوء حال المجرمين في ذلك اليوم، وأنّهم يُبعثون من قبورهم قبيحي المنظر، مشوّهي الخَلق، كما يقول: (يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ)لإحياء الناس واجتماعهم في المحشر (وَ) عندئذ (نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ): أي يوم القيامة (زُرْقًا). وفي معنى الزُّرق وجوه، أهمّها: أنّ المراد بالزُّرق العُمي، لأنّ العين إذا ذهب نورها ازرقّ ناظرها. وقد استحسن السيد الطباطبائي هذا الوجه، وقال: ويؤيده قوله تعالى:(وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا) الاسراء:٩٧..وقيل: المراد زرق البَشَرة من الكدَر والهمّ ومقاساة الشدائد.

أقول: يمكن أن يشتدّ خوف المجرمين ورعبهم ـ وهم يواجهون تلك الأهوال ـ إلى درجة تبلغ بها قلوبهم الحناجر، وتضيق أنفاسهم، وعندما يُعاق التنفّس يحدث الاختناق بسبب توقّف الرئتين عن إمداد الدم بالأوكسجين الكافي، وفي هذه الحالة تبدأ الخلايا في التعطّل ثم تموت، وتصبح البشرة مشبعة بالدم، ثم يتحوّل لونها إلى الزُّرقة. انظر: موضوع الاختناق في: الموسوعة العربية العالمية:١/٣٤٣.

١٠٣. (يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا):

ثمّ إنّ المجرمين لمّا شاهدوا الأهوال والمصير السيّئ الذي سيحلّ بهم، أخذ يتكلّم بعضهم مع بعض، من شدّة الذُّعر والفزع، بصوت خافت، كما يقول: (يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ): أي يُخفضون أصواتهم ويهمس بعضهم في أُذن بعض، متسائلين عن الزمن الذي ظلّوا فيه في الأرض فيجيب أحدهم: (إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا). والظاهر أنّ المراد من اللّبث هو اللّبث بعد الموت لا اللّبث في الحياة الدنيا. وأمّا أنّهم كيف يستقلّون تلك السنين المتمادية في الكثرة، فيحتمل أن يكون ذهولهم عن واقع مدّة لبثهم لأجل شدّة الأهوال،كما يحتمل أنّهم يستقلّون تلك المدّة بالقياس إلى الخلود الذي يستشفّونه من القرائن، ولذلك يستقلّون مدّة لبثهم بالقياس إلى طول مدّة لبثهم في النار، من غير فرق بين أن يكون العشر وارداً على وجه التحقيق أو كناية عن القلّة، كما يقول سبحانه: (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً) الإسراء:٥٢..

قيل: وحكاية الحوار بين الكفّار عن مقدار ما لبثوا في القبور انطوى فيها قصد تصوير قوّة المباغتة التي سيُباغَتون بها، وقِصر موعد تحقيق الوعيد الربّاني الذي يرونه مستحيلاً وبعيداً، للتأثير في السامعين، وإثارة خوفهم وقلقهم على ما هو المتبادر. التفسير

الحديث:٣/٢٠٧.

١٠٤. (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا):

إذا قدّر أحدهم مقدار لبثهم بعشرة أيام، فإنّ فيهم مَن هو أكمل عقلاً قد قدّرها بيوم واحد، كما يقول:(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا). وأمّا كون تقديره أفضل من تقدير الآخر، فلعلّ وجهه أنّ الماضي إذا قيس بالمستقبل الذي لا نهاية له ليس إلاّ يوماً واحداً، فأين اللّبث المحدود من الانكباب على النار مادامت السماوات والأرض.

ما ذكرنا من التفسير مبنيّ على أنّ المراد هو اللّبث بعد الموت كما هو المتبادر. وأمّا إذا أُريد منه اللّبث في الحياة الدنيا، فكونها عشرة أيام أو يوم واحد، أظهر بالنسبة إلى الحياة الأُخروية، فإنّ الحياة التي كانوا عليها ويتنافسون فيها لم تكن إلاّ حلم لا يُعدّ بالزمان والأيام، فلو عُدّ فإنّما يُعدّ بيوم أو عشرة أيام، لكنّ الظاهر أنّ المراد منه، اللّبث بعد الموت، فإنّ كلّ إنسان يعلم مقدار حياته في الدنيا، والله العالم.

الآيات: الخامسة بعد المئة إلى الثانية عشرة بعد المئة(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ .. .. ا وَلاَ هَضْمًا).

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا * يَوْمَئِذ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا* يَوْمَئِذ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْمًا وَلاَ هَضْمًا).

المفردات

ينسفها: قال الراغب: نسفت الريحُ الشيءَ: اقتلعته وأزالته قال تعالى:(يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا). وما ذكره هو المناسب في المقام، وأمّا النَّسف في قوله:(ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا): فالمراد به التفريق والتذرية، كما مرّ آنفاً.

يذَرها: يتركها.

قاعاً: القاع: الأرض المستوية.

صفصفاً: الصفصف: الأرض المستوية الملساء، ليس فيها شيء من النبات ولا غيره.

عِوَجاً: العِوَج ضد الاستقامة، وأُريد هنا ما انخفض من الأرض.

أمتاً: الأمْت: ما ارتفع من الأرض.

لا عِوَجَ له: لا انحراف له ولا انعطاف.

خشعت: خفضت من شدّة الفزع.

همساً: الهَمْس: الصوت الخفيّ.

عنت: خضعت وانقادت.

القيّوم: القائم بنفسه، القائم به غيره. والمناسب للمقام أن يكون كناية عن القائم بأُمور غيره عاجلاً وآجلاً.

خاب: خسر.

ظلماً: أُريد به هنا الشرك.

هضماً: نقصاً.

التفسير

لمّا تقدّم ذكر البعث في قوله:(وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً)، صار ذلك سبباً لبيان أمارات يوم القيامة وأهواله.

١٠٥ ـ ١٠٧. (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لاَ تَرى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا):

هذه الآيات تدلّ على أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) سُئل عن الجبال عند انتهاء الدنيا، ولعلّهم سمعوا أنّ هذه الجبال تتصدّع وتُقلع من جذورها فاستبعدوا ذلك، إذ كيف يمكن قلع هذه الجبال الشامخة؟ فجاء الجواب بقوله: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا) يقلعها (رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا): أي فيتركها أرضاً مستوية بعد ارتفاع (صَفْصَفًا) ملساء جرداء. ومن ثم (لاَ تَرى فِيهَا عِوَجًا): أي انخفاضاً (وَلاَ أَمْتًا): أي ولا ارتفاعاً. وعندئذ تُعدُّ الأرض لحشر الناس على سطحها لأجل الحساب. قال سبحانه: (وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً) النبأ:٢٠، وقال تعالى: (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرى الأَرْضَ بَارِزَةً) الكهف:٤٧. ، وأوضح من الكل قوله: (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ). القارعة:٥.

١٠٨. (يَوْمَئِذ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا):

إذا نسفت الجبال وصارت الأرض مستوية ملساء مهيّأة لحشر الناس عليها، فـ (يَوْمَئِذ): أي يوم تُنسَف الجبال (يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ). وفي هذه الفقرة إبهامان:

أ. مَن هو الداعي، هل هو إسرافيل أو الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)؟ وما هو دعاؤه ودعوته؟

ب. قوله:(لاَ عِوَجَ لَهُ): أي لا انحراف ولا ميل، فهل هو صفة للداعي أو للمدعوّ؟

أمّا الإبهام الأوّل فيوضّحه قوله سبحانه في سورة القمر:(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْء نُكُر) القمر:٦، فظاهر الآية أنّ الداعي غير الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، بشهادة تقابُله مع قوله: (فَتَوَلَّ) الذي هو خطاب للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم).

وأمّا الإبهام الثاني، فيحتمل أن يكون وصفاً للداعي لعود الضمير عليه، لكونه أقرب، فلو أُريد ذلك فالمراد أنّ الداعي لا يترك أحداً إلاّ وقد دعاه، من غير أن يهمل أحداً بسهو أو نسيان أو مساهلة في الدعوة. ويحتمل أن يكون وصفاً للمدعوّ، وهو وإن كان أبعد بالنسبة إلى ظاهر الآية لكن يؤيّده ما جاء في سورة القمر، حيث إنّ شدّة الأهوال وسوء المصير تسبّب عدم انحراف المدعوّ إلى يمين ويسار، بل يوجّه كل اهتمامه ونظره نحو الداعي، قال سبحانه:(خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ) القمر:٧ و٨، فمعنى قوله: (مُهْطِعِينَ): أي مسرعين إليه، أو مادّين أعناقهم لاستماع كلام الداعي.

ويؤيّد ما ذكرنا قوله سبحانه: (وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا) فشدّة الأهوال الّتي يَرونها تفضي بهم إلى أن لا ينتقلوا من مكان إلى مكان، أو يتوجّهوا من جهة إلى جهة، أو يتكلّموا إلاّ بصوت خفيّ لا يكاد يُسمع.

شروط الشفاعة المقبولة

١٠٩. (يَوْمَئِذ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً):

ذكر سبحانه من أهوال ذلك اليوم أمرين:

أ. (يَوْمَئِذ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ) وقد مرّ شرحه.

ب. (يَوْمَئِذ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ) والآية بصدد نفي نفع الشفاعة لا أصلها، حيث إنّ المشركين كانوا يتصوّرون أنّ آلهتهم سوف تشفع لهم عند الله، والآية ناظرة إلى نفي نفع شفاعتهم، واستثنت من ذلك شفاعة صنف خاص، وهو مَنْ اجتمع فيه أمران:

أ. (أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ): أي أذن الله تعالى له أن يشفع. ولا ريب في أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)في مقدّمة مَنْ يُمنح هذا الإذن، وقد ورد في الحديث عنه (صلى الله عليه وآله وسلم)أنّه يقال له : سَلْ تُعطهُ، واشفعْ تُشفَّع. لاحظ: مسند أحمد:٢/٤٣٦. كما ورد عنه (صلى الله

عليه وآله وسلم)أنّه قال: «أشفع لأُمّتي حتّى يناديَ ربّي عزّ وجلّ: رضيتَ يا محمد؟ فأقول: ربِّ رضيت». الكشف والبيان (تفسير الثعلبي): ١٠ / ٢٢٤ .

ب.(رَضِيَ لَهُ قَوْلاً): أي كان مرضيّ القول عند الرحمن، بمعنى أن يكون مخلَصاً لا يوجد في سريرته شيء من الخطأ في الاعتقاد والزّلل في القول والعمل. وظاهر الآية أنّ الشرطين راجعان إلى الشافع لا إلى المشفوع له.

١١٠. (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا):

هل الضمائر الثلاثة في (أَيْدِيهِمْ) و(خَلْفَهُمْ) و(يُحِيطُونَ) راجعة إلى الذين يتّبعون الداعيَ في قوله: (يَوْمَئِذ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ) أو أنّها ترجع إلى (مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ)؟ وبعبارة أُخرى: هل كلامه سبحانه الذي يحكي عن سعة علمه بقوله: (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) يرجع إلى المدعوّين والمجرمين؟ أو يرجع إلى الشافعين؟

الظاهر هو الأوّل. ولعلّه كناية عن ظاهر أعمالهم وسرائرها، أو كناية عن أعمالهم في الدنيا وما سيلاقونه من الجزاء في الآخرة، فلا يخفى عليه شيء من أُمورهم (وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا) فالله هو المحيط وهؤلاء هم المحاط بهم. وعلى هذا فيقضي فيهم يوم القيامة بقضاء عدل، فعلمه سبحانه هو دعامة القضاء يوم القيامة، ولذلك يقول في الآية التالية:

وجه وصفه سبحانه بالحيّ القيوم

١١١. (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا):

قوله: (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ): أي خضعت الوجوه وذلّت. وخصّ الوجوه بالذكر لأنّ الإحساسات النفسية تظهر آثارها على وجه الإنسان (لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ).

وقد اختار سبحانه من صفاته ذينك الوصفين؛ لأنّ إحياء الموتى ومجازاتهم حسب أعمالهم فرع كون المحيي حيّاً، بل قيّوماً قائماً بتدبير الناس، ففي ذلك اليوم تنقطع الأسباب الظاهرية والباطنية فلا يبقى إلاّ الحيّ القيّوم.

قال الشريف الرضيّ حول هذه الآية: وهذه استعارة، والمراد بها ما يظهر في الوجوه يوم القيامة من آثار الضَّرَع وأعلام الجزع، وذلك مأخوذ من تسميتهم الأسير: العاني... فكأنّ الوجوه خضعت من خشية الله تعالى خضوع الأسير الذّليل في يد الآسر العزيز. تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٢١.

وبما أنّ قضاءه قضاء عدل، فالظالم يلقى في ذلك اليوم الخيبة والخسران، كما يقول:(وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) كأنّ الظُّلم يكون حملاً ثقيلاً على كاهله يمنعه من السير إلى نِعَم الله تعالى. وللظلم صور عديدة، في مقدّمتها ظلم الإنسان نفسه بالكفر والشرك والانغماس في المعاصي، وظلم الناس بالعدوان عليهم وامتهان كراماتهم.

قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللهِ كَانَ اللهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ. ثم قال: وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَة عَلَى ظُلْم». نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٥٣ .

وقال (عليه السلام): «بِئْسَ الزَّادُ إِلَى الْمَعَادِ، الْعُدْوَانُ عَلَى الْعِبَادِ». نهج البلاغة: قصار الحِكم، برقم ٢٢١ .

١١٢. (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْمًا وَلاَ هَضْمًا):

لمّا أشار سبحانه إلى حال المجرمين الظالمين لأنفسهم ولغيرهم يوم القيامة، بقوله:(وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا) قابله ـ كما هو أُسلوب القرآن المجيد ـ بذكر المؤمنين المطيعين لله تعالى وحالهم يومذاك، فقال (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ) فالأعمال الصالحة لا تثمر إلاّ إذا نبتت على أرض الإيمان وابتُغي بها وجهه سبحانه. ثمّ أشار إلى حال مَن يقرن بينهما، فقال: (فَلاَ يَخَافُ ظُلْمًا وَلاَ هَضْمًا). فالمؤمن لا يخاف من أمرين:

أ. (فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا) بأن يجزى مثل جزاء الظالمين، وذلك لافتراض أنّه مؤمن.

ب. (وَلَا) يخاف(هَضْمًا) بأن ينقص جزاؤه، فإيمانه وعمله الصالح يكون سبباً لعدم الاعتداء عليه (ظُلْمًا)ولا تنقيص جزائه (هَضْمًا).

إجمال ما يجري عليهم يوم القيامة

وللسيد الطباطبائي هنا كلام قيّم نأتي بنصّه، قال (رحمه الله):

وقد تمّ باختتام هذه الآية بيان إجمال ما يجري عليهم يوم الجزاء من حين يُبعثون إلى أن يُجزَوا بأعمالهم، فقد ذكر إحضارهم بقوله:(يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ) أوّلاً. ثمّ حشرَهم وقُربَ ذلك منهم حتى أنّه يرى أمثلهم طريقة أنّهم لبثوا في الأرض يوماً واحداً بقوله:(يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ)إلخ ثانياً. ثمّ تسطيح الأرض لاجتماعهم عليها بقوله:(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ)إلخ ثالثاً. ثمّ طاعتهم واتّباعهم الداعي للحضور بقوله: (يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ)إلخ رابعاً. ثمّ عدم تأثير الشفاعة لإسقاط الجزاء بقوله: (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ) إلخ خامساً. ثمّ إحاطة علمه بحالهم من غير عكس، وهي مقدّمة للحساب والجزاء بقوله:(يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)إلخ سادساً. ثمّ سلطانه عليهم وذلّتهم عنده ونفوذ حكمه فيهم بقوله:(وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ) سابعاً. ثمّ الجزاء بقوله: (وَقَدْ خَابَ) إلخ ثامناً. وبهذا يظهر وجه ترتّب الآيات وذكر ما ذكر فيها. الميزان في تفسير القرآن:١٤/٢١٣.

الآيتان: الثالثة عشرة والرابعة عشرة بعد المئة(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا... وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا).

(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا * فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا).

المفردات

صرّفنا: التصريف: التحويل من وجه إلى وجه.

ذِكراً: عظة وعبرة.

فتعالى: تنزّه وتقدّس.

الحقّ: لا يصدر منه ما يعدّ ظلماً أو شيناً.

يُقضى إليك وحيه: أي يُتمّ جبرئيل (عليه السلام)تلاوته.

التفسير

الغاية من تصريف الوعيد في القرآن

١١٣. (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا):

قوله:(وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ) عطف على قوله: (كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ) طه: ٩٩، وكلتا الآيتين بصدد تعريف القرآن وبيان مقاصده، فالآية الأُولى تركّز على قصصه وأخبار مَن سبق والتي فيها عبرة. والآية الثانية تركّز على كلّ آثاره وتقول: (وَكَذَلِكَ): أي كما قصصنا عليك من القصص هكذا (أَنْزَلْنَاهُ)الضمير هنا يرجع إلى ما أنزل على النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم). ثمّ وصفه بقوله: (قُرْآنًا) وهو حال من الضمير في (أَنْزَلْنَاهُ) وهو بمنزلة الوصف أي مقروءاً ومتلوّاً. فللقرآن حقيقة قبل نزوله، فإذا نزل عن مقامه الخاص صار جملاً وكلاماً فصيحاً وبليغاً مقروءاً ومتلوّاً (عَرَبِيًّا) وصف بعد وصف، وما هذا إلاّ لأنّ اللغة العربية أوسع اللغات وأتقنها قواعد. وبما أنّ هداية المخاطَبين تحتاج إلى التنويع في الأداء فيقول سبحانه: (وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ)بألوان البيان وذكرناه على وجوه مختلفة، يقول سبحانه: (انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ)(الأنعام: ٤٦)، ويقول: (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا

الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا) الإسراء: ٤١. وأمّا الغاية من التفنّن في عرض صور الوعيد، فهو أحد أمرين:

١. (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ).

٢. (أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا).

وأمّا ما هو الفرق بينهما؟ فيظهر من التدبّر في الفقرة الماضية:(لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)، طه:٤٤.فقوله: (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) يعادل قوله: (لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ) كما أنّ قوله: (أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا) يعادل قوله: (أَوْ يَخْشَى). وقد مرّ أنّ المراد من التذكّر هو الرجوع إلى قضاء الفطرة حتى يؤمن ويوحّد، فيكون معادلاً لقوله: (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ). كما مرّ أنّ المراد من قوله: (أَوْ يَخْشَى) أن يُطامن من عتوّه وغروه حتى يقلّل من ضغطه على بني إسرائيل واستعباده، وعلى هذا فيكون المراد: يحدث لهم شيئاً من التذكّر لأجل الخشية، فيقلّل من جرائمه.

وقد ذكر المفسّرون وجوهاً أُخرى، لاحظ : روح المعاني: ٢٦٧/١٦. وما أوردناه هو الأوضح.

١١٤. (فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا).

قوله تعالى:(فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ) تفصيل وتعليل لما تقدّم من أنّه سبحانه ذكر الوعيد في القرآن على وجوه مختلفة، كلّ ذلك مقتضى كونه ملكاً بيده الأُمور(الْحَقُّ) لا يجور ولا يظلم خلافاً لسائر الملوك، فإنّ سماع كلمة المَلك تُذكّر السامع بالظلم والجور، قال سبحانه حاكياً عن ملكة سبأ: (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً)،(النمل:٣٤.) ولذلك فإنّه سبحانه عندما يصف نفسه بالمَلِك يذكر بعده وصف القدّوس، أي المنزّه عن كلّ ما عليه الملوك في الدنيا، كما في قوله: (هُوَ اللهُ الذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ). الحشر:٢٣.

قوله سبحانه: (وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ) هل هو ناظر إلى ما ورد في سورة القيامة من قوله تعالى:(لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) القيامة:١٦ـ ١٧.؟ أو أنّ مرمى الآيتين مختلفان؟

أمّا الآية الثانية فهي ناظرة إلى ما نقله المفسّرون، وهي أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)كان يبادر ـ عندما يقرأ جبرئيل ـ إلى قراءة ما لم يقرأ بعد ويحرّك به لسانه، فأُمر بعدم التحريك، والإنصات حتى يتمّ الوحي، فالكلام في هذه الآيات يجري مجرى قول المتكلّم أثناء حديثه لمخاطبه إذا بادر إلى تتميم كلام المتكلّم باللفظة واللفظتين قبل أن يلفظ بها المتكلّم، وذلك يشغله عن التجرّد للإنصات، فيقطع المتكلّم حديثه ويعترض ويقول: لا تعجل بكلامي وأنصت لتفقه ما أقول لك، ثم يمضي في حديثه. الميزان في تفسير القرآن:١٠٩/٢٠.

وأمّا آيتنا هذه فيحتمل أنّها تشير إلى معنى آخر وهو أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)كان حريصاً على سماع الوحي لغاية الاهتمام بهداية الأُمّة، فإذا نزلت آية خطر في باله نزول آيات أُخرى تتضّمن نجاة الأُمّة، فورد الوحي فعلّمه أن يَكِلِ الأمرَ إلى الله سبحانه ولا يطلب نزول الوحي قبل أوانه. وعلى ما ذكرنا فموضوعا الآيتين مختلفان.

ثمّ إنّه سبحانه أتمّ الآية بقوله:(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) وهذه الفقرة دستور عام للمجتمع البشري، فإنّ صلاح كلّ أُمّة هو طلب العلم النافع لعاجلهم وآجلهم، فإنّ الأُمّة الأُميّة لم تزل تتردّى في جهلها وجهالتها فيستولي عليها الآخرون المجهّزون بالعلم. نعم ليس كلّ علم مطلوباً، بل هو العلم الذي يُعدّ عماد السعادة في الدنيا والآخرة.

الآيات: الخامسة عشرة بعد المئة إلى الثالثة والعشرين بعد المئة(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ ... فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى).

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُا فِيهَا وَلاَ تَضْحَى *

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى * فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى).

المفردات

عَهِدنا: العهد: هو الأمر والإيصاء.

من قبل: من قبل موسى (عليه السلام).

عزماً: ثباتاً.

فتشقى: الشقاء هو التعب.

تظمأ: تعطش.

تضحى: من أصابه حرّ الشمس في وقت الضُّحى.

فوسوس: الوسواس: حديث النفس والصوت الخفي، وكأنّ الشيطان ألقى في نفس آدم بكلام خفيّ.

شجرة الخُلد: أي الشجرة التي لو أكل الإنسان من ثمرتها خُلِّد ولم يمت.

لا يَبلى: لا يفنى.

يخصفان: يلصقان الورق على سوآتهما.

فغوى: الغيّ: خلاف الرُّشد (بمعنى إصابة الواقع).

التفسير

تقدّم في صدر السورة أنّ من أغراضها ذكر قصّتي نبيّين من الأنبياء لتكون عبرة للمعاندين والمكذّبين كما هي الغاية من ذكر سائر القصص، وبعد أن ذكر قصة موسى (عليه السلام)على وجه التفصيل، أعقب ذلك بقصة آدم(عليه السلام)، قد مرّ تفصيل قصة آدم (عليه السلام) في تفسيرنا لسورتي البقرة، والأعراف، وما في هذه السورة إجمال لها.فقال:

عهده سبحانه لآدم بأنّ إبليس عدوّ له

١١٥. (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا):

قوله تعالى:(وَلَقَدْ عَهِدْنا) عطف على قوله:(وَ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى)فيكون المراد: هل أتاك حديث آدم(وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ): أي من قبل موسى. أما أنّه سبحانه عهد إلى موسى فقد تقدّم في قوله: (وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى) طه:١٣. وأمّا أنّه عهد إلى آدم فيكفي في ذلك قوله سبحانه: (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) البقرة:٣٥، ولكن آدم (عليه السلام)ترك العهد ولم يثبت عليه، كما قال : (فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) كناية عن عدم الثبات، حيث ترك العمل بالعهد، فيكون المعنى: لقد أوحينا إلى آدم من قبل موسى فترك الوصية ولم نجد له قصداً جازماً إلى حفظها، أعني النهي عن الأكل من الشجرة.

١١٦. (وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى):

لمّا تقدّم في الآية السابقة عهده سبحانه إلى آدم ولم يبيّن ما هو العهد، جاء البيان القرآني لبيان ذلك العهد ضمن آيات، فقال: (وَ) اذكر يا محمد(إِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) تكريماً وتشريفاً لأجل أنّه صار معلّماً لهم، وبذلك صار ذا كرامة مستحقّة للتعظيم بالسجود له (فَسَجَدُوا): أي الملائكة كلّهم (إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى) أن يسجد.

ثمّ إنّ استثناء إبليس عن سجود الملائكة استثناء منقطع لأنّه لم يكن من جنس الملائكة، ولكن لمّا كان إبليس مع الملائكة من غير تميّز عنهم، والمقام الّذي كان يجمعهم جميعاً، كان مقام القدس، صار ذلك سبباً لصحّة استثنائه.

ثمّ إنّ سجود الملائكة كان سجوداً حقيقياً، كسجود الإنسان لله سبحانه، ومع ذلك فبين السجودَين بون شاسع، فسجود الملائكة لآدم إنّما هو لأجل كونه مخلوقاً مكرّماً عند الله معلّماً لهم، وأمّا سجودهم لله تعالى فإنّما هو لأجل كونه خالقاً للكون ومدبِّراً له، فالسجودان متماثلان عملاً وجوارح، مختلفان نيّة وجوانح. وبهذا يُعلم أنّ الملاك في كون السجود توحيداً أو شركاً إنّما هو نيّة الساجد لا ظاهر عمله، وإلاّ يلزم تكفير الملائكة أو اتّهامه سبحانه بأنّه أمر بالشِّرك، أو اتّهام يعقوب وأولاده بالشِّرك، حيث سجد هو وذرّيته ليوسف(عليه السلام)، قال سبحانه:(وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) يوسف:١٠٠.

١١٧. (فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى):

الآية بيان للعهد الّذي عهده سبحانه إلى آدم، وحاصله: إنّه سبحانه أعلمَ آدم بأنّ إبليس عدوّ له ولزوجه كما يقول: (فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ) أشار بـ(هَذَا) إلى إبليس تحقيراً، وكان يسعى ـ بعد أن أُخرج من الجنة ـ أن يخرجه وزوجَه منها، ولذلك يوصيه سبحانه بقوله: (فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى): أي تتعب بأن تصيبك الحياة الدنيا بمتاعبها، الّتي ستكشف عنها الآيتان التاليتان:

النهي عن الأكل كان إرشادياً لا مولويّاً

١١٨ و ١١٩.(إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُا فِيهَا وَلاَ تَضْحَى):

قوله تعالى: (إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرى) فيه إشارة إلى سعة نعَم الجنّة (وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَؤُا فِيهَا): أي لا تعطش (وَلاَ تَضْحَى): أي لا يصيبك حرّ الشمس.

وما في هاتين الآيتين من وصف للحياة الهانئة في الجنّة الّتي أُسكن فيها آدم وزوجه، يلقي ضوءاً على معنى الشقاء الّذي سيحلّ بهما فيما لو أُخرجا منها إلى الدنيا، وهو الجوع والعُري والظمأ والإضحاء.ومن هنا تُعدّ هاتان الآيتان، حيث تكشفان عن معنى الشقاء، أفضل دليل على أنّ النهي الوارد في قوله تعالى: (وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ) البقرة: ٣٥ .نهي إرشاديّ لصيانة آدم عمّا يترتّب على مخالفته من عواقب غير محمودة، ولم يكن نهياً مولويّاً حتى تُعدّ مخالفته عصياناً وتمرّداً على المولى جل شأنه حتّى يستحقّ به العقوبة، وإنّما هي (المخالفة) بمنزلة مَن خالف نصح الناصحّ المشفق، فيرى جزاء عمله وثمرة فعله، فلا يلوم إلاّ نفسه.

وإن شئت توضيحاً، نقول: إنّ النهيَ تارة يصدر عن المولى من موقع المولويّة والسُّلطة، فيجب الإتيان بما أمر به والاجتناب عمّا نهى عنه، وقد يصدر عنه من موقع النصح والإرشاد، والعظة والهداية، من دون أن يتّخذ لنفسه موقف الآمر، الواجبة طاعته، بل يتّخذ لنفسه موقف الناصح المشفق، القاصد إسعاد المخاطب وإنجاءه من الشقاء، وعند ذلك يترك للمخاطب حرّية العمل به أو العمل بخلافه، موضّحاً له ما يترتّب على العمل نفسه من آثار خاصّة من دون أن تترتّب على المخالفة ذاتها أيّة تبعة.

ونوضح ذلك بمثال، وهو أنّ الطبيب إذا وصف دواء لمريض وأمره بتناوله واجتناب أُمور أُخرى، فلو امتثل المريض أمر الطبيب ترتّب عليه البُرء والشفاء، وإن خالف لم يترتب على مخالفته سوى تلك المضاعفات المترتّبة على العمل نفسه، وذلك لأنّ الطبيب لم يكتب له ذلك الدواء إلاّ بوصفه طبيباً ناصحاً ومعالجاً مشفقاً.

إنّ حديث الشجرة المنهيّ عنها هو أقوى ما تمسّك به المنكرون لعصمة الأنبياء ويعدّون ذلك كبيت القصيد، ولو أنّهم أمعنوا النظر فيما جاء في سورة طه لتبيّن لهم أنّ النهي لم يكن مولوياً، تستتبع مخالفته الذمّ واللَّوم، وإنّما يترتّب عليه ما يترتّب على العمل نفسه.

بقي هنا أمران:

الأوّل: أنّه لا ملازمة بين عدم كون فعل شركاً وبين كونه جائزاً، فالسجود لغاية التكريم كان أمراً جائزاً في الشرائع السابقة، ولذلك نرى أنّ النبيّ يعقوب(عليه السلام) وأولاده خرّوا ليوسف سجّداً، وأمّا في الشريعة الإسلامية فهو أمر محرّم وإن لم يكن شركاً، ويشير إلى ذلك ما رواه أحمد بن حنبل، عن أبي ظبيان، عن معاذ بن جبل أنّه لمّا رجع من اليمن قال: يا رسول الله رأيت رجالاً باليمن يسجد بعضهم لبعض أفلا نسجد لك؟ قال: «لو كنت آمرُ بشراً يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها». مسند أحمد:٥/٢٢٧ ـ ٢٢٨.

ورواه الكليني عن أبي عبدالله الصادق (عليه السلام). الكافي: ٥ / ٥٠٧ ـ ٥٠٨، كتاب النكاح، رقم الرواية ٦ .

الثاني: أنّ المغترّين بترتيب الأثر على ظواهر الأعمال، الغافلين عن غاياتها ومقاصدها، لمّا وقفوا على هذه الآيات التي تأمر بالسجود لآدم أو سجود النبيّ يعقوب لولده، مالوا يميناً ويساراً واضطربوا في تفسيرها، وها نحن نذكر ما عمدوا إليه من التحريف:

الأوّل: جعل آدم قبلة فقط

يعتمد هذا القول على أنّ السجود عبادة فلا يمكن تشريعه لغير الله سبحانه. ولمّا كان سجود الملائكة سجوداً جماعياً متّجهاً إلى نقطة واحدة، جُعل آدم قبلة لتوحيد اتّجاههم إلى نقطة واحدة، وكان ذلك إجلالاً لآدم وتكريماً له. التبيان في تفسير القرآن: ١ / ١٥٠، نقلاً عن الجُبّائي والبَلخي.

يلاحظ على هذا الوجه:

أوّلاً: أنّه مخالف للآيات الواردة في هذا الشأن، والتي صرّحت بأنّه سبحانه أمر الملائكة بالسجود لآدم، وأمّا القبلة فلا يسجد لها الإنسان وإنّما يتّجه إليها في السجود لله تعالى.

وبعبارة أُخرى: قوله سبحانه:(اسْجُدُوا لآدَمَ) هو نفس قوله: «اسْجُدُوا للهِ» فالتفكيك بين التعبيرين غير صحيح.

وثانياً: لو كان السجود لآدم بمنزلة التوجّه إلى الكعبة دون أن يكون تواضعاً وتذلّلاً له، فلماذا استكبر إبليس وامتنع من السجود له وقال: (لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَر خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَال مِنْ حَمَأ مَسْنُون) الحجر:٣٣؟ فامتناعه واستكباره دليل على أنّ آدم كان مسجوداً له لا قبلة فقط.

الثاني: السجود كان بأمر الله سبحانه

ثمّ من يتحدث عن العبادة، دون أن يضع لها حدّاً منطقياً يميّزها عن التبجيل والتكريم، زاعماً أنّ كلّ تذلّل أمام شخص عبادة له، زعم أنّ سجود الملائكة لآدم إنّما خرج عن كونه عبادة له، لأنّه بأمر الله تعالى، ولولا أمره سبحانه، لكان سجودهم له عبادة. وبهذا أيضاً يُفسَّر سجود أبوي يوسف وإخوته له في قوله تعالى: (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) يوسف:١٠٠.

وهذا القول كثيراً ما يردّده ويؤكّد عليه مشايخ الحرمين الشريفين.

يلاحظ عليه: بأنّه لو كان سجود الملائكة لبشر مثل آدم داخلاً في الشرك موضوعاً وماهيةً، تكون حقيقته كحقيقة سجود المشركين لأصنامهم وأوثانهم، وعندئذ لا يُخرجُ أمر الله سبحانه بالسجود لآدم عن كون السجود عبادة لآدم، فإنّ الأمر لايغيّر الموضوع، غاية الأمر أنّ الشيء إذا كان حراماً فأمر الله سبحانه به في مجال خاص يجعله مباحاً دون أن يمسَّ ماهية الموضوع قيد شعرة. ولنمثّل لذلك بمثال:

إنّ السبّ محكوم بالحرمة في الإسلام، فإذا أمر الله سبحانه بسبّ المنافقين أو المشركين، فأمره هذا لا يُخرج السبّ عن واقعه، فالسبّ في عامّة الحالات سبّ، غاية الأمر أنّ أمرَ الله سبحانه به يعطي ترخيصاً في العمل، فيخرجه من الحرمة إلى الجواز.

ولذلك اشتهر بين الأُصوليين أنّ التخصيص غير التخصّص، فالثاني خروج موضوعي والأوّل خروج حُكمي، فلو قال أحدهم: أكرم

العلماء إلاّ زيداً، وكان زيد عالماً، فاستثناء زيد يُعدّ إخراجاً من الحُكم لا إخراجاً من الموضوع، فهو عالم من العلماء غاية الأمر لا يجب إكرامه، وهذا بخلاف ما إذا قال: لا تكرم زيداً الجاهل، فخروجه خروج تخصّصي من الموضوع.

١٢٠. (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْك لاَ يَبْلَى):

لمّا صار الشيطان ـ كما أخبر سبحانه ـ عدوّاً لآدم وزوجه لأجل أنّه لمّا ترك السجود له أُبعد من رحمة الله وأُخرج من الجنة، أخذ يخطّط لينتقم من آدم ويزيل عنه النّعم التي أغدقها سبحانه عليه، ولذلك جاءه من طريق خفيّ وبوجه الصديق الناصح(فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ) أي ألقى في نفس آدم بواسطة الوسوسة سرّاً لئلا تطلع عليه الملائكة فيحذّروا آدم من كيد الشيطان و (قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ): أي الشجرة التي لو أكل منها الإنسان لخُلِّد في الجنة وبقي في (مُلْك لاَ يَبْلَى) ولا يزول أبداً. غير أنّ الشيطان لم يعيّن شجرة الخلد وإنّما تكلّم عنها بصورة كلّيّة، لكن يظهر من سورة الأعراف أنّه عيّنها وقال: (مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ) الأعراف:٢٠..

إنّ هذا الكلام ـ أي ما ورد في سورتنا هذه أو في سورة الأعراف ـ هزّ مشاعر آدم وزوجه، وماجت بهما الحَيرة: كيف ينهاهما ربّهما عن الأكل من هذه الشجرة لتلك الغايتين الكريمتين؟ ثمّ عاد إليهما الشيطان ـ كما في آية أُخرى ـ لرفع حيرتهما بالحلف على أنّه من الناصحين لهما، قال تعالى: (وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) الأعراف:٢١. فقد غرّ الشيطان آدم بأمرين:

أ. تذكيره بأنّ الأكل من الشجرة يورث الملك الخالد والسُّكنى في الجنة.

ب. حلفه وإظهار كلامه بلهجة الناصح الأمين .

فصارت النتيجة ما في الآية التالية:

١٢١. (فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى):

أي أكل آدم وزوجه من الشجرة التي نُهيا عن الأكل منها، فصارت النتيجة (فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا): أي انكشفت عوراتهما وكانت مستورة عن أعينهما، فشرعا يلصقان ورق الشجر عليها ليستترا بها.

والآية تدلّ على أنّ للأكل من الشجرة تأثيراً طبيعياً في ظهور سوآتهما الذي هو أيضاً نوع من الشقاء.

ثمّ إنّ النّافين لعصمة الأنبياء منذ حياتهم إلى وفاتهم تمسّكوا بالمقام بالفعلين التاليين:

١. (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ).

٢. (فَغَوَى).

فجعلوا هذين الفعلين دليلاً على أنّه عصى ربّه عصياناً مستحقّاً للعقوبة، وأنّه غوى وضلّ.

ولكنّ الاستدلال ضعيف جدّاً.

أمّا الأوّل فلأنّ العصيان في مصطلح المتشرّعة هو ارتكاب الذنب والمخالفة للإرادة القطعية الملزِمة، وفي اللغة هو مجرد المخالفة، قال ابن منظور: العصيان خلاف الطاعة، والعاصي: الفصيل إذا لم يتبع أُمّه.

لا شكّ أنّ آدم لم ينتهِ عمّا نهاه ربّه، ولكنّ مخالفته كانت لنهي إرشادي، ولذا لا تعدّ عصياناً بالمعنى الاصطلاحي، بل عصياناً بالمعنى اللُّغوي الذي ينطبق على المخالفة للأوامر المولوية، وللخطابات الإرشادية أيضاً.

أمّا الثاني ـ أي الغواية ـ فالغيّ: تارة يراد به الضلال، وأُخرى: الخيبة، يقال: غوى الرجل أي خاب، وأغواه غيرُه، وثالثة: الفساد، وبه فُسّر قوله سبحانه: (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى): أي فسد عليه عيشه. انظر: لسان العرب:١٥/١٤٠.

وكلّ من المعنيين المذكورين (الخيبة، والفساد) يصلحان لتفسير الآية به، فأمّا فساد عيش آدم فواضح، إذ أهبطه الله إلى دار «لاَ

تَدُومُ حَبْرَتُهَا، وَلاَ تُؤْمَنُ فَجْعَتُهَا... عَيْشُهَا رَنِقٌ، وَعَذْبُهَا أُجَاجٌ، وَحُلْوُهَا صَبِرٌ». نهج البلاغة، الخطبة ١١١.

وأمّا الخيبة فبحرمانه من بلوغ أُمنيّته في أن يحيا خالداً في ظلال الراحة وغضارة النَّعيم.

وإذا افترض أنّ المراد بالغيّ هنا: الضَّلال الذي هو في مقابل الرُّشد، فليُعلم أنّه لا ملازمة بين الضلال والمعصية (التي هي بمعنى اقتراف الذنب والجرم) فقد يضلّ الإنسان عن مقاصده الدنيوية ومصالحه الشخصية، وحينئذ يصدق إطلاق لفظ (غوى) عليه مقابل (رَشَد)، ولكن ذلك لا يلازم المعصية المصطلحة.

١٢٢. (ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى):

توبة آدم
يدلّ قوله سبحانه في هذه الآية، وفي الآية (٣٧) من سورة البقرة، أعني قوله: (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَات فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)، على أنّه سبحانه قبل توبة آدم (عليه السلام).

والضمير المستتر في «تاب» في كلا الموردين يرجع إلى الله. والمعنى: رجع الله إليه بالرحمة والمغفرة، نظير قوله: (لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ)، التوبة:١١٧. فرجوعه سبحانه إلى آدم بعد تلقّي الكلمات دليل على توبة آدم وندامته على ما فعل.

ومع ذلك كلّه، ففي الآية ألفاظ ثلاثة ربما تقع ذريعة لمن قال بعدم عصمة الأنبياء وهي:

١. (اجْتَبَاهُ رَبُّهُ).

٢. (فَتَابَ عَلَيْهِ).

٣. (وَهَدَى).

أمّا الأوّل، فلأنّ المراد من الاجتباء هو الاجتباء بالنبوّة بعد ما تاب.

وأمّا قوله: (فَتَابَ عَلَيْهِ) فإنّ الضمير يرجع إلى الله أي رجع إليه بالرحمة، وآية رجوعه اجتباؤه حيث صار أوّل الأنبياء، وللنبوّة أباً.

وأمّا قوله: (وَهَدَى) فهو في مقابل الغواية، حيث أخرجه من الحَيرة أو من الخَيبة.

نعم، بقيت هناك كلمات في قصّة آدم ربما يستدلّ بها على عدم العصمة، وقد مضى الكلام فيها في سورتَي البقرة والأعراف، فلاحظ.

١٢٣. (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْض عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى):

اقتضت مشيئته سبحانه أن يهبط آدم وزوجه من الجنّة، فـ (قَالَ)مخاطباً لهما: (اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا)، ولفظ (جَميعاً) يستوي فيه المذكّر والمؤنّث والمثنى والجمع. وهل هذا الهبوط مكاني أو مقامي؟ ظاهر الآية هو الأوّل.

كما أنّ ظاهر قوله: (اهْبِطا) وإن كان خطاباً للزوجين، لكنّ الظاهر من قوله: (بَعْضُكُمْ لِبَعْض عَدُوٌّ)يدلّ على أنّه خطاب لهما ولذرّيتهما.

ثمّ إنّه سبحانه يشير إلى ضابطة كلية في من اتّبع هدى الله، بقوله: (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى).

قوله: (فَإِمَّا) ، مركب من إن وما، والثانية زائدة.

قوله: (يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى) أُريد به الهداية التي يُنعم بها سبحانه على البشر بإرسال الأنبياء.

قوله: (فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى): أي لا يضلّ في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة.

إلى هنا تمّ خطابه سبحانه لآدم وزوجه، ولذلك فصّلنا الآيات التالية في مجموعة جديدة، عمّا سبقها.

دروس وعبر
في قصّة آدم توجيهات وحقائق ساطعة وسنن إلهية، تُثري الفرد والمجتمع بالدروس والعبر، وتترك آثارها الإيجابية والكبيرة على

حياتهما إذا ارتأيا الانتفاع بها، والاستهداء بضوئها. وإليك جانباً منها:

١. إنّ الإنسان وليد التراب، فليس له أن يتكبّر أو يتعالى على غيره، وهو لا يملك حولاً ولا قوة إلاّ بعون الله، الّذي كرّمه وشرّفه بما وهبه من قوى واستعدادات، وبما فتح عليه من أبواب العلم، وما أسبغ عليه من النّعم، الّتي تستوجب الشكر والطاعة والانقياد، (فَاللهَ اللهَ فِي كِبْرِ الْحَمِيَّةِ وَفَخْرِ الْجَاهِلِيَّةِ! فَإِنَّهُ مَلاَقِحُ الشَّنَآنِ، وَمَنَافِخُ الشَّيْطَانِ). نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢ (وتسمّى القاصعة).

٢. إنّ الإنسان وإن خُلق من تراب إلاّ أنّه في ظل النهج الإلهي مكرّم محترم الجانب، قد أسجد له ملائكته على مكانتهم الرفيعة، وسخّر له مختلف القوى لاستثمارها في تنمية حياته وترقيتها. فأية كرامة أسمى من هذه الكرامة الّتي تمنحه الثقة بنفسه (بلا غرور)، وتفجّر فيه الطاقات، وتُنيط به حمل الأمانة؟! وأين منها نظريات التطوّريين أمثال «لامارك» و «دارون»، التي تكرّس عقدة الحقارة والامتهان في نفس الإنسان؟!

٣. إنّ الحوار الّذي جرى بينه سبحانه وبين الملائكة بشأن جعل خليفة في الأرض، ينطوي على عدة دروس، منها:

أ. إنّ الاستبداد بالرأي ومحاولة فرضه على الآخرين، وعدم الانفتاح على الآراء أو الاعتراضات، من الأُمور المرفوضة في منطق القرآن الكريم، فالله جلّ شأنه على عظمته وسعة قدرته وعلمه، قد أتاح للملائكة أن يحاوروا ويتساءلوا، ثمّ يقتنعوا بالفكرة عن دليل وبرهان.

ب. إنّ التساؤل عن غاية الخلق ومحاولة معرفة أسراره، أمر مرغوب فيه، إذ يوحي تساؤل الملائكة بأنّ التسبيح بحمد الله هو غاية الخلق وعلّته، ولم يدركوا ماوراء ذلك من أسرار.

ج. إنّ ترجيح المرجوح على الراجح أمر قبيح، وقد اعتمد عليه الملائكة في كلامهم، الّذي يُشعر أنّهم يرون أنّهم أفضل من الإنسان بِدَأبهم على التسبيح من دون شوب فساد خلافاً للخليفة، ففي خلقه لغاية التسبيح ترجيح للمرجوح على الراجح، ولكنّه سبحانه أعلمهم بأنّه يعلم ما لا يعلمون، وأنّ خلق آدم ليس ترجيحاً للمرجوح على الراجح.

٤. إنّ الله سبحانه قد وَسِع كلّ شيء علماً ولا يعزب عنه شيء، ومن كان عنده نصيب من العلم فهو من الله سبحانه ومن خزائن علمه سبحانه.

٥. إنّ الشيطان هو العدوّ اللّدود الّذي لا همّ له إلاّ إغواء الإنسان وإيقاعه في المعصية، فلنستعذ بالله من نزغاته ومكائده، وندعو: (اللّهم اخْسَأْهُ عنّا بعبادتك، واكْبِتْهُ بدؤوبنا في محبّتك، واجعل بيننا وبينه ستراً لا يهتكه... اللّهم وأيقِظنا عن سِنَة الغفلة بالركون إليه، وأحسِن بتوفيقك عوننا عليه). من دعاء الإمام زين العابدين علي بن الحسين(عليهما السلام) إذا ذكر الشيطان. الصحيفة السجادية.

٦. إنّ الكِبْر منشأ المعاصي ومبدأها، وأنّ الشيطان لم يتمرّد إلاّ عن الكبر الذي أحاط بوجوده.

٧. إنّه سبحانه قد خلق آدم ووهبه ما شاء من النّعم في الجنّة، غير أنّ طمعه في شيء جزئيّ أمام النّعم العظيمة، صار سبباً لزوال تلك النعم.

٨. اليأس والقنوط في الحياة لا ينتجان إلاّ الخسران، والإنسان الكامل هو الّذي لا ييأس بل يرى أبواب التوبة مفتّحة له إذا أناب إلى الله تعالى، ولم يصرّ على المعاصي.

الآيات: الرابعة والعشرون بعد المئة إلى السابعة والعشرين بعد المئة(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي.... أَشَدُّ وَأَبْقَى).

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى * وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى).

المفردات
مَعيشة: قال الراغب: العيش: الحياة المختصّة بالحيوان، وهو أخصّ من الحياة، لأنّ الحياة تقال في الحيوان وفي الباري تعالى وفي المَلَك، ويُشتقّ منه المعيشة لِما يُتعيَّش منه، قال تعالى: (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) الزخرف: ٣٢.. المفردات للراغب: ٣٥٣، مادة «عيش».ضَنْكاً: الضَّنْك: الضِّيق والشدّة.

التفسير
١٢٤. (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى):

الآية تصف مصير المُعرض عن ذكر الله بأمرين:

١. أنّ له معيشة ضيّقة.

٢. أنّه يُحشر يوم القيامة أعمى.

وما في الآية يقابل ما في الآية السابقة، أعني مصير من اتّبع هدى الله، حيث وُصف بأمرين أيضاً، كما قال: (فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى).

ثمّ إنّ الكلام فيما هو المراد من المعيشة الموصوفة بالضّنك، لأنّ ثَمّة سؤالاً يَرِد على ذلك، وهو: أنّ كثيراً من المعرضين عن ذكر الله من الملاحدة والطغاة والمجرمين يملكون الأموال الطائلة والقصور الفارهة، ويتلذّذون بأطيب المطاعم، ويستمتعون بمباهج الحياة؟

والجواب: إنّ ضنك المعيشة يطلق ويراد به أحد معنيين:

الأوّل: ما جاء في السؤال، فلا شكّ في أنّهم من هذه الناحية في معيشة واسعة.

الثاني: يطلق ويراد به اضطراب الفكر وتبلبل البال والتهالك على الازدياد بحيث لا يستقرّ فكره إلاّ وهو يُريد أن يزداد، في مقابل من يعيش في حالة الاستقرار وطمأنينة البال.

حال المعرض عن الله سبحانه

فالمُعرض عن الله سبحانه وشرائعه وميعاده لا يفكّر إلاّ في الحياة الدنيا، فيجعلها أكبر همّه، ولذلك لا يزداد إلاّ عطشاً في اكتساب المال والمقام، ولا تستقرّ نفسه في مكان وحال معيّنة، وعندئذ يستبدّ به الشعور بالقلق والتوتّر والاضطراب، وهذا هو الّذي عبّر عنه سبحانه بضنك العيش.

إذا كنتَ لا ترضى بشيء تنالُهُ *** وكنتَ، على ما فاتَ، جَمَّ التَّلهُّفِ

فلستَ من الهمِّ العريضِ بخارجٍ *** ولستَ من الغيظ الطويل بمُشتَفِ [١]

[١] ديوان أبي العتاهية: ٢٤٣.

وأمّا من آمن بالله واليوم الآخر إيماناً صادقاً وعلم أنّ الحياة الدنيا حياة غيرّ مستقرة مشوبة بالأكدار وأنّ وراءها حياة خالدة هانئة، فإنّ نفسه تقنع بما يجيء به سعيه في دنياه، ويغمره الشعور بالرضا، فلا يتكالب على ما فيها من مُتع ولذائذ، ولا يتناحر على المناصب.

وللسيد الطباطبائي هنا كلام نأتي به، قال: إنّ من نسي ربّه وانقطع عن ذكره، لم يبق له إلاّ أن يتعلق بالدنيا ويجعلها مطلوبه الوحيد الذي يسعى له ويهتمّ بإصلاح معيشته والتوسّع فيها والتمتّع منها، والمعيشة التي أوتيها لاتسعه سواء أكانت قليلة أم كثيرة، لأنّه كلما حصل منها واقتناها لم ترض نفسه بها ونزعت إلى تحصيل ما هو أزيد وأوسع من غير أن يقف منها على حدّ، فهو دائماً في ضيق صدر وحنق ممّا وجد، متعلّق القلب بما وراءه، مع ما يهجم عليه من الهمّ والغمّ والحزن والقلق والاضطراب والخوف بنزول النوازل، وعروض العوارض من موت ومرض وعاهة، وحسد حاسد، وكيد كائد، وخيبة سعي، وفراق حبيب.

ولو أنّه عرف مقام ربّه ذاكراً غير ناس أيقن أنّ له حياة عند ربه لا يخالطها موت، ومُلكاً لا يعتريه زوال، وعزّة لا تشوبها ذلّة، وفرحاً وسروراً، ورفعة وكرامة، لا تقدّر بقدر، ولا تنتهي إلى أمد، وأنّ الدنيا دار مجاز وما حياتها في الآخرة إلاّ متاع، فلو عرف ذلك قنعت نفسه بما قدّر له من الدنيا، ووسِعَه ما أُوتيه من المعيشة من غير ضيق وضنك. الميزان في تفسير القرآن: ١٤ / ٢٢٥.

هذا هو الأمر الأوّل، وأمّا الثاني فهو أنّ المُعرض عن ذكر الله يُحشر أعمى كما يقول:(وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)، وربّما يُسأل: كيف يُحشر أعمى مع أنّ بعض الآيات تدلّ على أنّه يشاهد أهوال القيامة، كقوله سبحانه: (اِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) الإسراء:١٤، وقوله سبحانه: (إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا) السجدة:١٢، وقد أُجيب عن ذلك بأجوبة مختلفة، أرجحها:

أنّ للإنسان يوم القيامة مواقف متعدّدة، فلا مانع من أن يكون بصيراً في بعضها وأعمى في أُخرى، كما أجيب به عن الآيات التي دلّت على السؤال، مثل قوله: (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) الصافات:٢٤.وما دلّ على عدمه، نظير قوله: (لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَانٌّ). الرحمن: ٣٩.

١٢٥. (قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا):

سؤال يطرحه المُعرض عن ذكر الله، وحُقّ له أن يسأل ويقول: (لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى) مع أنّي كنت في الحياة الدنيا (بَصِيرًا). فأجاب سبحانه بقوله:

١٢٦. (قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى):

الآية تتضمّن أمرين:

الأوّل: وجه حشره أعمى .

الثاني: وجه تسمية حرمان المُعرض عن الهدى من نعمه سبحانه في الآخرة، بالنسيان، كما قال: (وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى).

أمّا الأوّل، فلأنّ الظالم لمّا كان معرضاً عن ذكر الله فكأنّه أغلق بصره عن آيات الله فصار هو والأعمى على حدّ سواء، ولأجل ذلك يُحشر أعمى، فتتمثل حالته في الحياة الدنيا في الآخرة بحشره أعمى، وإليه يشير سبحانه بقوله: (كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا): أي تركتها وأهملت النّظر إليها، فصار حالك حال من لا يستطيع النظر، ولذلك تُحشر أعمى.

وأمّا الثاني، فإنّه سبحانه عبّر عن جزاء من اتّبع هداه بقوله: (فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى) وأمّا في المقام فعبّر عن جزاء المُعرض عن الهدى بقوله: (وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)، فكما أنّ الإنسان المنسيّ يُحرم من مكارم الأكابر وأفضالهم، فكذلك يُحرم مَن ورد ذكره في المقام من الألطاف الإلهية، وعبّر عن الحرمان، بالنسيان لوحدة النتيجة.

١٢٧. (وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى):

الظاهر أنّ قوله:(وَكَذَلِكَ) إشارة إلى المعيشة الضّنك، والمعنى (وَكَذَلِكَ) نجزي بالمعيشة الضنك (مَنْ أَسْرَفَ): أي جاوز الحدّ (وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ) التي عُرضت عليه. هذا جزاؤه في الدنيا، وأمّا في الآخرة فيقول: (وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ) من عذاب الدنيا (وَأَبْقَى) لكونه دائماً.

الآيتان: الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون بعد المئة(أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ... وَأَجَلٌ مُسَمًّى).

(أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى * وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى).

المفردات

القرون: جمع قَرن، وهم أهل العصر الواحد، فإذا هلك أكثرهم، قيل انقضى قرنهم.

النُّهى: جمع نُهية، وهي العقل الناهي عن القبائح.

لِزاماً: مصدر: لزم، يلزم، لزاماً، وأريد به هنا معنى الفاعل، أي الملازم.

التفسير

١٢٨. (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى):

الآية تطييب وتسلية للنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث كانوا يؤذونه ويضعون العراقيل أمام تبليغه وهدايته، فالله سبحانه يسلّيه بأنّ مصيرهم مصير من تقدّم قبلهم من الأُمم الماضية كعاد وثمود، فلباطلهم جولة، وللحق دولة.

وأمّا تفسير الآية حرفياً فنقول: الضمائر الثلاثة في قوله: (لَهُمْ)، (قَبْلَهُمْ)، (يَمْشُونَ) ترجع إلى مشركي مكّة، وأمّا الضمير في (مَسَاكِنِهِمْ) فيرجع إلى (القُرونِ) وأريد به الأُمم العائشة في عصر واحد.

ثمّ إنّ المراد من قوله: (أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ) أفلم يَصِرْ سبباً للاعتبار. أي كان على مشركي مكّة أن يعتبروا بحال الأُمم السابقة الهالكة.

إذا عرفت ذلك فنقول في معنى الآية: (أَفَلَمْ يَهْدِ): أي أفلم يُبيّن (لَهُمْ): أي لمشركي مكّة. وجه الاعتبار كثرةُ إهلاكنا مَن قبلهم من الأُمم الماضية؟ كما يقول: (كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ) كعاد وثمود؛ بل كان عليهم أن يعتبروا بأحوالهم حيث إنّهم (يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ)عند سفرهم إلى الشام ويرون علائم الإهلاك(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى): أي لأصحاب العقول الناهية عن المنكرات.

١٢٩. (وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى):

قوله: (كَلِمَةٌ) أريد به الكلام، أي لولا ما تعهّد به سبحانه من عدم التعجيل بإهلاك المجرمين المكذّبين برسالة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)بعذاب الاستئصال، لنزل بهم، كما فعل بأمثالهم من الأُمم السابقة، قال تعالى: (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ). الأنفال: ٣٣.

والآية نوع إجابة عن السؤال عن سبب تأخير العذاب عن هؤلاء المسرفين؟ وأنّ سبب التأخير أمران:

١. تعهّده سبحانه بالتأخير، كما في قوله:(وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ).

٢. (وَأَجَلٌ مُسَمًّى): أي لولا أجل مسمّى، كأن يعيش كل إنسان العمر الّذي كُتب له إلى نهايته. فلولا هذان الأمران لكان العذاب ملازماً لهؤلاء.

فتقدير الآية: ولولا كلمة سبقت من ربّك وأجل مسمّى، لكان العذاب لازماً وقطعياً.

الآيات: الثلاثون بعد المئة إلى الخامسة والثلاثين بعد المئة(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ.... وَمَنِ اهْتَدَى).

(فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى * وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى * وَقَالُوا لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى * وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى * قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى).

المفردات

آناء الليل: أي ساعاته. واحدها: إنْي وإنى، مثل: مِعى مفرد أمعاء.

لا تمدنّ عينيك: لا تطيلنّ النظر، شبّه ذلك بمدّ اليد لتناول شيء مشتهى.

أزواجاً: أصنافاً وأقراناً.

زهرة: واحدة الزهر، وهو نَور الشّجر والنبات. وهو مستعار للزينة المُعجِبة، لأنّ الزهرة تزيّن النبات فهكذا زينة الحياة.

اصطبر عليها: دُم عليها.

لولا: هلاّ.

بآية: بمعجزة تدلّ على صدقه.

بيّنة: البّينة: البيان والبرهان.

الصحف الأُولى: التوراة والإنجيل.

نذلّ: نُهان.

نَخزى: نفتضح.

متربّص: مُنتظِر.

السّويّ: المستقيم.

التفسير

١٣٠. (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى): يظهر من قوله تعالى:(أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ) أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يعاني من عناد المشركين وإنكارهم حتى كان ينتظر نزول عذاب الاستئصال بهم لولا اقتضاء حكمته سبحانه بتأخيره، كما قال آنفاً: (وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا)ولذلك أمره سبحانه في هذه الآية بالصبر على ما يبثّونه من التُّهم من أنّه ساحر، أو كاهن وقال: (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) فإنّه لا يضرّك وأقبِل على ما ينفعك فعلُه وهو ذكر الله، كما قال: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ): أي سبّح حامداً ربّك في فترات من الليل والنهار.

وأمّا ما هي هذه الفترات فيذكرها سبحانه:

١. (قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ) إشارة إلى نهاية وقت صلاة الفجر.

٢. (وَقَبْلَ غُرُوبِهَا) إشارة إلى نهاية وقت صلاتي الظهر والعصر لكونهما في النصف الثاني من النهار، كما كان الفجر في النصف الأوّل.

٣. (وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ) إشارة إلى العشاءين و(آنَاءِ اللَّيْلِ) ساعاته، و (مِنْ) للابتداء، وفيه تنبيه على أنّ ابتداء وقت العشاءين من أوّل الليل، وقدّم الظرف (آنَاءِ اللَّيْلِ) على الفعل (فَسَبِّحْ) للاهتمام بفعلها ليلاً لعدم شغل النفس حينئذ، بخلاف ما سبق حيث قدّم الفعل فيه على الزمان.

٤. (وَأَطْرَافَ النَّهَارِ) اختلف المفسرون في تفسيره. والظاهر أنّه كناية عن ذكر الله في كلّ آن وحال، كقوله تعالى:(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ) آل عمران:١٩١..

ويمكن أن يقال: إنّ المراد بأطراف النهار أوّله وآخره بالنظر إلى كونهما وقتين ذوَي سعة، لكلّ منهما أجزاء، كلّ جزء منها طرف بالنسبة إلى وسط النهار. الميزان في تفسير القرآن:١٤/٢٣٦.

وأتمّ سبحانه الآية بقوله: (لَعَلَّكَ تَرْضَى):أي ترضى بقضاء الله وقدَره، حيث أخّر عذاب المشركين.

١٣١. (وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى):

أُريد من الموصول في قوله: (مَا مَتَّعْنَا) الأموال والبنون، كما أنّ قوله: (أَزْوَاجًا) مفعول لقوله: (مَتَّعْنَا)، والضمير في (مِنْهُم) يرجع إلى المشركين.

وشبّه سبحانه ما مُتعوا به من الأموال والبنين بزهرة الحياة، فكما أنّ نَوْر الشجرة زينة لها، فهكذا الأموال والبنون يكونان زينتان للحياة الدنيوية.

إذا عرفت ذلك فلنرجع إلى تفسير الآية.

تمتيع المشركين بالأموال والأولاد

قال تعالى: (وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ): أي لا تطيلنّ نظرك (إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ): أي إلى الأموال والأولاد التي متّعنا بها (أَزْوَاجًا مِنْهُمْ): أي أصنافاً من المشركين، فهما (زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا): أي زينتها، وما متّعناهم إلاّ(لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ): أي نختبرهم به، وقد كشف سبحانه ـ في موضع آخر ـ عن الغاية من هذا التمتُّع وأنّه استدراج لهم، وقال: (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَال وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ). المؤمنون: ٥٥ و ٥٦ .

ولمّا نهى النبيَّ عن إطالة النظر إلى ما مُتّع به المشركون من الأموال و البنين أتمّه بقوله:(وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى): أي ما يسّر الله لك من الرزق في الدنيا والآخرة (خَيْرٌ) إذ هو مأمون العاقبة، فلم يُعطَ ابتلاءً وامتحاناً (وَأَبْقَى)في الآخرة.

قال الإمام علي(عليه السلام): «أَنَّهُ يَخْتَبِرُهُمْ بِالأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ لِيَتَبَيَّنَ السَّاخِطَ لِرِزْقِهِ، وَ الرَّاضِيَ بِقِسْمِهِ، وَإِنْ كَانَ سُبْحانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ». نهج البلاغة، الكلمات القصار، برقم ٩٣.

ولا يُتوهَّم أنّ الآية بصدد تحريم زينة الله، فإنّه سبحانه يقول: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) الأعراف:٣٢، بل الآية بصدد بيان أنّ الأصل في حياة المؤمن هو التمسّك بالقيم المعنوية، فلا يجعل زهرة الحياة الدنيا سبباً لنسيان القيَم وتركها.

روي عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا، قالوا: وما زهرة الدنيا يا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال: بركات الأرض». تفسير الدر المنثور:٤/٣١٣.

١٣٢. (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى):

بعد أن أمر سبحانه نبيّه بالتسبيح في أوقات خاصّة، أمره بأن يأمر أهله بالصلاة، وقال: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا): أي دُم عليها واصبر على اقامتها. وبما أنّ السورة مكّية فقد أُريد من الأهل، زوجة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)خديجة(عليها السلام) وعلي(عليه السلام) وبنات النبيّ ، حيث لم يكن للنبيّ زوجة في الفترة المكّيّة إلاّ خديجة.

ثمّ إنّ الأمر بإقامة الصلاة مع الأهل ليس بمعنى سؤال الرزق كسؤال الملوك والجبابرة الرزق من الرعايا، كما يقول: (لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا) لماذا؟ لأنّ الله هو الرزّاق كما يقول: (نَحْنُ نَرْزُقُكَ)فظهر أنّ الأمر بالعبادة لغاية وصول الإنسان للكمال المطلوب، كما يقول: (وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ* مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْق وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ). الذاريات:٥٦ـ٥٨.

قوله: (وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى): أي الخاتمة المحمودة لمن اتّقى معاصي الله ومحارمه في السرّ والعلانية، قال الإمام علي(عليه السلام): «لاَ شَرَفَ أَعْلَى مِنَ الإِسْلاَمِ، وَلاَ عِزَّ أَعَزُّ مِنَ التَّقْوَى، وَلاَ مَعْقِلَ أَحْسَنُ مِنَ الْوَرَعِ، وَلاَ شَفِيعَ أَنْجَحُ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلاَ كَنْزَ أَغْنَى مِنَ الْقَنَاعَةِ، وَلاَ مَالَ أَذْهَبُ لِلْفَاقَةِ مِنَ الرِّضَى بِالْقُوتِ. وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَى بُلْغَةِ الْكَفَافِ فَقَدِ انْتَظَمَ الرَّاحَةَ». نهج البلاغة، قسم الحكم

والمواعظ، برقم ٣٧١.

١٣٣. (وَقَالُوا لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُوْلَى):

طلب نزول آيات أُخرى

هذه الآية بصدد تعظيم القرآن وأنّه من أكبر المعاجز، وأنّ إعراض المشركين عن الإيمان به نابع من عنادهم، ولذا لا يطلبون من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) آية غير القرآن، كما يقول:(وَقَالُوا لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ) وكأنّ ربّ محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)غير ربّهم، والله سبحانه أجابهم بالفقرة التالية: (أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُوْلَى). اختلف المفسرون في تفسير الفقرة، فقال الطبرسي: البيّنة بمعنى البيان، ومعنى الفقرة: أو لم يأتهم في القرآن بيان ما في الكتب الأُولى من أنباء الأُمم التي أهلكناهم لمّا اقترحوا الآيات ثم كفروا، فماذا يؤمنهم إذا كان حالهم في سؤالهم الآية، كحال أُولئك. مجمع البيان:٧/٧٢.

ويُحتمل أن يراد من قوله: (أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ): أي أو لم يَكفِهم شاهد يشهد على ما في الصحف الأُولى من حقائق المعارف والشرائع ويبيّنها، وهو القرآن، وقد أتى به رجل لا عهد له بمعلِّم يعلّمه ولا ملقّن يلقّنه؟ الميزان في تفسير القرآن:١٤/٢٤٠.

وحاصله: إنّ القرآن الذي جاء به محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)مصدّقاً لما ورد في الصحف الأُولى من المعارف والقصص والأحكام وهو رجل أُمّي، أفضل دليل على أنّ القرآن منزَّل من لدن الله سبحانه، وبذلك تمّت الحجّة على الجميع.

١٣٤. (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى):

لعلّ الآية ناظرة إلى أنّ شرك المشركين بما أنّه على خلاف قضاء الفطرة وحكم العقل الحصيف، فهو يكفي في استحقاق العقاب، ومع ذلك نحن أخّرنا عذابهم إلى أن يأتيهم الرسول ويحتجّ عليهم بالآيات والبيّنات لئلاّ يتذرّعوا بأنّ عذاب الله سبحانه كان عذاباً بلا بيان، كما قال:(وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ): أي قبل نزول القرآن أو بعث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، لكان العذاب حقّاً؛ لكفاية قضاء الفطرة وحكم العقل الحصيف ببطلان الشرك، ولكن أخّرنا العذاب إلى أن يأتي الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) ويحتجّ عليهم، لماذا؟ لئلاّ يقولوا: (رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ): أي نُهان (وَنَخْزَى): أي نفتضح، فكان تأخير العذاب منّة منه وعطفاً عليهم.

١٣٥. (قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى):

لمّا اعترضوا على النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) بقولهم: (لَوْلاَ يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ) أجاب عنه بجوابين:

الأوّل: أنّهم ليسوا بصدد طلب الحق، وإلاّ لكفتهم بيّنة ما في الصحف الأُولى.

والثاني: أمرهم بالانتظار وقال: (قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ): أي منتظر لحدث يحدث من خير أو شرّ (فَتَرَبَّصُوا): أي انتظروا، فإنّ المستقبل الكشّاف سيرفع السِّتر والشكّ (فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى): أي تعلمون من هو في الطريق المعوجّ أي أصحاب الضّلال.

وقد حقّق سبحانه ذلك في غزوة بدر عند انتصار المسلمين، وميّز أصحاب الصراط المستقيم عن غيرهم.

***

تمّ تفسير سورة طه

بفضل الله تبارك وتعالى

حديث المنزلة

قد تقدّم في تفسير قوله تعالى:(وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي) طه:٢٩ـ ٣٢، أنّا سنذكر حديث المنزلة الذي روي بأسانيد كثيرة صحيحة، وعدّه ابن عبد البرّ القرطبي من أثبت الآثار وأصحّها، الاستيعاب: ٣ / ١٠٩٧، الترجمة ١٨٥٥ . وها نحن نفي بوعدنا.

أخرج البخاري عن إبراهيم بن سعد] بن أبي وقّاص[عن أبيه قال: قال النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لعليّ(عليه السلام):«أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى». صحيح البخاري:برقم ٣٧٠٦.

وأخرج أيضاً في باب غزوة تبوك عن مصعب بن سعد، عن أبيه أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) خرج إلى تبوك واستخلف علياً، فقال: أتخلّفني في الصبيان والنساء؟ قال: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي». صحيح البخاري: برقم ٤٤١٦.

وأخرج مسلم في صحيحه عن سعيد بن المسيب، عن عامر بن سعد ابن أبي وقّاص، عن أبيه، قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) لعليّ:«أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي». قال سعيد: فأحببت أن أُشافه بها سعداً، فلقيت سعداً فحدّثته بما حدثني عامر، فقال: أنا سمعته، فقلت: أنت سمعته؟ فوضع أصبعيه على أُذنيه، فقال: نعم، وإلاّ فاستكّتا. صحيح مسلم:١٢٠/٧، باب من وأخرج الحاكم النيسابوري عن ابن عبّاس، قال: خرج رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في غزوة تبوك وخرج الناس معه، فقال له عليّ: أخرج معك، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): لا، فبكى عليّ، فقال له رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه ليس بعدي نبي، إنّه لا ينبغي أن أذهب إلاّ وأنت خليفتي». المستدرك على الصحيحين: ٣ / ١٣٢ ـ ١٣٣، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه عليه الذهبي.

وأخرج الشيخ الطوسي عن حُبشي بن جنادة السلوليّ، قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)يقول لعلي (عليه السلام): «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي». الأمالي: ٢٥٣، المجلس (٩)، برقم ٤٥٢ .

هذا وقد أخرج الحديث جماعة من أعلام المحدّثين كما هو واضح لمن راجع مصادره.

وكلّ الّذين تعرّضوا لغزوة تبوك من المحدّثين وأهل السِّير والأخبار نقلوا هذا الحديث.

دلالة الحديث

ثمّ إنّ الحديث لمّا كان من الدلائل الساطعة على خلافة الإمام علي(عليه السلام) بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، حاول بعض المعلّقين على صحيح مسلم أن يشكّك في دلالته على الخلافة، وقال: والمستدلّ بهذا الحديث على أنّ الخلافة له بعد رسول الله، زائغ عن منهج الصواب، فإنّ الخلافة في الأهل في حياته لا تقتضي الخلافة في الأُمّة بعد مماته. هامش صحيح مسلم، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة.

وقد عزب عن المعلّق أنّه لو كان المراد خصوص الخلافة في الأهل لما احتاج إلى استثناء مقام النبوّة بقوله: «إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي» فإنّ الاستثناء دليل على ثبوت ما كان لهارون من مقامات ومناصب لعليّ إلاّ النبوّة، وقد جاء في الذكر الحكيم أنّه كان وزيراً لموسى(عليه السلام) والقائم مقامه في غيابه والمفترضة على أتباعه طاعتهُ، وفي الوقت نفسه نبيّاً مثله.

قال سبحانه: (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي) وقال سبحانه:(وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا) مريم:٥٣، إلى غير ذلك من الآيات التي تشير بوضوح إلى مناصب هارون العامّة في بني إسرائيل، فهذا الحديث المرويّ عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) والذي يُسمّى حديث المنزلة يثبت لعليّ كلّ ما كان لهارون من مناصب إلاّ النبوّة، فيكون الإمام خليفة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)ووزيره.

عليّ وهارون كالفرقدين

مَن تتبع سيرة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) يجده يصوّر علياً وهارون كالفرقدين في السماء والعينين في الوجه، لا يمتاز أحدهما في أُمّته عن الآخر بشيء ما، وإليك شيئاً من وجوه التشبيه.

أ. إنّ النبيّ سمّى أبناء علي كأسماء أبناء هارون، فسمّاهم حسناً وحسيناً ومحسناً، وقال: إنّما سمّيتهم بأسماء ولد هارون «شُبّر، وشُبير، ومُشبراً». المستدرك للحاكم:٣/١٦٥و ١٦٨.

ب. إنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) اتّخذ عليّاً أخاه، وآثره بذلك على مَن سواه، تحقيقاً لعموم الشبه بين منازل الهارونَين من أخويهما، وحرصاً على أن لا يكون ثَمّة فارق بينهما،وقد آخى بين أصحابه، فجاء علي(عليه السلام)وقال: آخيت بين أصحابك، ولم تؤاخ بيني وبين أحد؟ فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «أنت أخي في الدنيا والآخرة». سنن الترمذي: ٥/٦٣٥، برقم ٣٧٢٠؛ المستدرك للحاكم: ٣/١٤.

قال ابن عبدالبرّ: وروينا من وجوه عن عليّ رضي الله عنه أنّه كان يقول: أنا عبدالله، وأخو رسول الله، لا يقولها أحد غيري إلاّ كذّاب. الاستيعاب: ٣ / ١٠٩٩، الترجمة ١٨٥٥ .

ج. أمر بسدّ أبواب الصحابة من المسجد، تنزيهاً له من الجُنب والجنابة، لكن أبقى باب علي(عليه السلام)وأباح له ـ بأمر الله تعالى ـ أن يدخل المسجد جنباً، فدلّ ذلك على عموم المشابهة بين الهارونين(عليهما السلام) كما قال ابن عباس: «وسدّ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)أبواب المسجد غير باب علي، فكان يدخل المسجد جنباً، وهو طريقه ليس له طريق غيره». المستدرك للحاكم: ٣ / ١٣٤ .

وحديث سدّ الأبواب كلها إلاّ باب علي من الأحاديث المتضافرة المنقولة عن لفيف من الصحابة منهم: عبد الله عمر بن الخطاب، لاحظ : مسند أحمد:٢/٦٢، ومنهم أبوه: عمر بن الخطاب، لاحظ : المستدرك للحاكم:٣/١٢٥. ومن أراد البسط في أسانيده فعليه بمراجعة: الغدير:٣/٢٠٢، ٢١٥؛ وكتاب المراجعات، المراجعة رقم ٣٢.

الفهرست